أقوالنا وأفعالنا



محمد كرد علي


MOHAMED KHATAB

أقوالنا وأفعالنا

تأليف
محمد كرد علي



أقوالنا وأفعالنا

محمد كرد علي



الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: خالد المليجي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٠٩٦٥ ٤

صدر هذا الكتاب عام ١٩٤٦.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٤.

المحتويات

الإهداء

لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول صاحب المملكة المصرية أيده الله

لما حَظِيتُ في السَّنَةِ الفائتة بشرف المثول بين يدي مولاي المليك الحكيم، كان من جملة ما تَفَضَّلَ وتَحَدَّثَ به أخلاق بعض المصطنعين من الرجال، وإذ كنت حاولت في تأليفي الأخير «أقوالنا وأفعالنا» معالجة بعض مشاكلنا الاجتماعية، وعرضت لوصف طبقة من الناس عاصرتها، تجاسرت وقدمت إلى سدتك الملكية هذا الكتاب؛ عسى أن يكون من إلقاء نظرك الكريم عليه ما يعود منه فائدة على الجماعة.

وَفَّقَ الله جلالتك إلى إتمام ما تعمل له ليل نهار لإصلاح مُلكك العظيم، وسَدَّدَ خُطاك في خدمة الإسلام والعرب ومصر المحبوبة.

جسرين (غوطة دمشق)
يوم ٢٥ المحرم ١٣٦٤ / ٩ كانون الثاني ١٩٤٥
محمد كرد علي

القول في أقوالنا وأفعالنا

أَكُلَّما جنى جانٍ قلنا له: استغفر وتب، وأنت في حِلٍّ مما كسبت يداك، فإذا عاد لما نُهي عنه أملينا له ما أملى هو لنفسه في الباطل؟ وكيف لعمري يسامَح صاحب الكبيرة على كبيرته، وهو مُصِرٌّ عليها لا يحيد عنها، ويقال للظالم لنفسه أو لغيره: إن باب التوبة مفتوح أمامك، تدخل منه متى شئت، فتعود كيوم ولدتك أمك؟

إذا كان القاتل يَقتل ويقول تبتُ، والظالم يظلم ويقول رجعتُ، والفاجر يفجر ويقول أنبتُ، فلِمَ الشرائع نحتفظ بحدودها، وما الفائدة من القوانين، نُعنى بتطبيق مفاصلها؟

كان أحد المشايخ يسترضيني عن رجل أساء إليَّ على إحساني إليه، ويورد ما أُمرنا به من معاملة المسيء والعدو، فقلت له: إني خُلقت كما خُلق هؤلاء الذين تراهم من لحم ودم، وعصب وعظم، يُغضبني ما يغضبهم ويرضيني ما يرضيهم، وأرى السلامة في البعد عمن أساءوا، ولا رجاء منهم أن يحسنوا، ألوي وجهي عنهم، لا أنظر إليهم ما عشت.

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تَكَدْ إليه بوجه آخرَ الدهر تُقْبِلُ

أنا لا أُحاول الاشتغال بمداواة نفوس مريضة، ومرضها عُقام، ولا أغامر بمداناة الموبوء المتفسخ، ولا أرجو خيرًا من مأفون الرأي، ولا أُداري مَن هُم أشبه بالحيوان المفترس منهم بالإنسان المُدرِك، أتخير لصداقتي من يلائمني، ولا تتناكر روحي وروحه، وليس هناك ما يضطرني إلى مراعاة كل الأمزجة، ومسايرة جميع الأهواء. فقد خالقتُ قومًا بأخلاقي فما أفلحتُ، وأرادوني أن أخالقهم بأخلاقهم فما أفلحوا.

ما جريتُ ولن أجري على سياسة الترقيع ما إن وجدت إنسانًا أُكلمه، والصالح في العالم غير قليل، وما عقدت ولن أعقد مع المنحلين من كل عقد صلحًا على دَغَل، رجاء أن أستديم به عشرتهم، ولا أَرمُّ جرحًا نغَّارًا على فساد ظاهر يتبين منه تفريطي، ولن أُحاول نزع الحسد من قلب الحسود، وتعرية اللئيم من لؤمه، وزحزحة المبطل عن طبيعته. أحسنت الظن ببعض الأشرار، وعملت بما قيل: «الأصل براءة الذمة» فما حمدت غبَّ تساهلي معهم، وندمت على مغالطة النفس فيهم، وأعترف أني أخطأت الحزم، وما أصبت شاكلة الصواب.

ليقل علماء الدين ما يقولون، وليقرر علماء النفس ما يقررون، وليكرر علماء الأخلاق ما يكررون، فأنا أكره الشر ولا أقصد الآن إلى مداواة صاحبه، وأعشق العدل ولا أُغضي عمن يهدم عموده، وأرغب في النظم السليمة ولا أُغالط النفس في استصلاح الفاسد، فالأخلاق ليست ثوبًا تنزعه، وتستعيض عنه غيره في ساعة، ولا الفضائل ببضاعة تعرضها على أول مبتاع فيحسن الانتفاع بها في الحال، ومن يقلُّ للصالحات استعداده أنت لن تخلق فيه ما حَرَمَتْه الفطرة إياه، ولو جهدت كل جهدك.

نصحنا للمدمنين أن يُقلعوا عن عادتهم فضحكوا وأغربوا، وأردنا المقامرين أن يكفوا فقال قائلهم: إنا نعلم ما لا تعلمون فهزأوا وسخروا، وَذَكَرْنَا للبخلاء سوء أثر التقتير فما توسطوا ولا اعتدلوا، وكرَّرنا على مسامع المسرفين عاقبة إسرافهم الوبيل فما ارعوَوا ولا اتزنوا، وحذرنا الكذابين عواقب كذبهم فما انتصحوا ولا صدقوا، وصرخنا في الجاهلين صرخة كادت تُسمع الصم، فظنوا أنَّا نغالطهم فأصروا واستكبروا.

وطال الأمد على هذه الدعوة، والمدمن ما برح على إدمانه، والمقامر ما فتئ مثابرًا على قماره، وظل البخيل متمسكًا ببخله، والمسرف راضيًا عن سرفه، والكاذب مغتبطًا بكذبه، وانقضى العمر في أمل لم يتحقق منه بعض ما كان يُرْتَجَى وصُرفت في هذه السبيل جهود لم يسترد منها عُشرها، فهل من مطمع بعد هذا في أن نجعل من جذع يابس غصنًا نضيرًا، ومن جسم ميت كائنًا حيًّا؟

في الحديث الشريف: «إذا سمعتم بجبل زال عن مكانه فصدقوا، وإذا سمعتم برجل زال عن خلقه فلا تصدقوا، فإنه يصير إلى ما جُبِلَ عليه.»

كلما عَلَتْ بي السنُّ يتعاظمني ما أرى من سر بعض المشهورين وعلانيتهم، وما يتجلى من قلة الصدق في أكثر الطبقات، وما يُمنى به بنوها من غرور. ورأيت معظم من

كانوا، بحسب العرف، أُمناءَ الشرع هم أول الجانين عليه، ومن كانوا يتناغون بالفضائل هم في مقدمة من يعقُّها، ورأيت المتزمتين المتزهدين يأكلون بصلاتهم وصيامهم.

وعاصرت طوائف من الخلق تستحل ما أُخذ في سر وجلب مغنمًا، وشهدت بعض من أُطلق عليهم، أو أطلقوا هُمْ على أنفسهم اسم: «أرباب الشخصيات البارزة» أو: «طبقة الخواص» لصوصًا في مظهر حَمَل وديع، لا يتعففون عن بيع المروءة في أقل عرض تافه.

معشر أشبهوا القرود ولكن خالفوها في خفة الأرواح

وآلمني أن جُلَّ من وقفوا في الصفوف الأولى كانوا من الأثرة على ما استحلوا به أن يجعلوا غرضهم الشخصي فوق الأغراض كلها، فما ربحوا وما ربحت تجارتهم، وكُنَّا بهم أمام الأقربين والأبعدين من الخاسرين.

كان بعضهم ينتمي إلى فريقين، ويلعب في آنٍ واحد على حَبْلَين، وأنت لو أخذت عليه العهد بالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان، على أن يُخْلص القصد ويعمل بجِدٍّ ما صدق ولا بَرَّ.

ولو كانت الأمة تعرف عدوَّها من صديقها، لعاملت أصحاب هذه الأخلاق كما يعامَل الخائنون، وبئست الأرض أرضٌ لا يُجازَى فيها الخائن على خيانته، ولا السارق على سرقته، وتعسًا لأمة تنسى من يسيء إليها، وترقُّ على من يستحق القتل.

عشت في جيل كانت فيه السرقة والرشوة والتجسس مما لا يُستهجن، إذا أُنكرت على فاعلها فأضعف إنكار. وعهدت بعض أدعياء الفهم يَصِمُون بالبلاهة كل من لا يجمع المال بطريقتهم، ولا يتوصل إلى المعالي بأساليبهم. ورأيت المغتني إذا اغتنى، والمتصدر إذا تَصَدَّرَ، لا يسألهما أحد عن مالهما كيف جمعاه، ولا عن جاههما كيف وصلا إليه، ويعدُّون من يحاسِب على ذلك داخلًا فيما لا يعنيه.

أتى عليَّ زمن كنت أتمنى فيه ألا أعرف تراجم من عرفت، فإني بما لَقِفْت من أحوال الناس كاد يسوء ظني بالإنسانية، ويؤسفني أن أصرح أني شهدت الإفرنج أقرب إلى السلامة من المغرورين من الشرقيين. الإفرنجي يعمل لمقصد، ولا يُسفُّ حبَّ الإسفاف، ولا يؤذي طمعًا بالإيذاء، وقد يرجع إلى العقل، ويصدر عن تفكر، ويبتعد ما أمكن عن الفضول. والصالحون للمجتمعات من الإفرنج أكثر من الصالحين لها منَّا، ونسبة من

يعمل لغاية حسنة منهم أعلى من نسبة من حالُهُ كذلك من بني جلدتنا، والسر أنهم يتعلمون ويتهذبون، ونحن لا نتعلم ولا نتهذب، وهم مُولَعون بالتجدد ونحن جامدون.

نحن قوم ليس لنا إلا الدعاوى العريضة وكأننا أصبنا بعقولنا، وكانت إلى عهد قريب ثاقبة، وضعف على الأيام تفكيرنا، وكان سليمًا صحيحًا، نستحسن كل ما فينا، ونستهجن حتى الصالح مما عند غيرنا، نكفر وأسباب الهدى موفورة لدينا، والمكتوب عندنا غير المخطوب، والمكسوب غير الموهوب.

قال أحد ساسة الغرب لأحد أشراف مكة، وقد رأى في خزانته مصحفًا شريفًا، ما هذا الذي أراه؟ قال: هو القرآن الكريم، وأخذه وَقَبَّلَه. فقال له الغربيُّ: دعني أنا أيضًا أتشرف بالنظر إليه «إنا لَقَوْمٌ عَمِلْنا بتسعين بالمائة مما فيه، وأنتم أصحاب هذا الكتاب لم تعملوا بغير عشرة في المائة منه» أوليس ما قاله الغربي قريبًا من الصحة إذا أنصفنا؟

غبر العمر بين جاهل وحسود، ومن العناء رياضة البهيم، ومن أشق المكاره مداراة الحاسد الممازق، ومضت الأعوام في إصلاح أغلاط الجهلة، ومداواة أسقام العوام، واستهدفت طول العمر لسهام من أهمتني وقايتهم من المهلكات، ولشد ما غامرت لأجلب إليهم السعادة، وما عقدوا لي مِنَّة في أعناقهم، كأن ما أقوم به ليس من باب التفضل، بل هو دَيْن عليَّ واجب الأداء، وفرض لا بد معه من الاقتضاء. ولولا أن اليأس على العاقل حرام، لما قلت بعد الذي عانيت كلمة في إصلاح معوجٍّ وتقويم زائغ، ولكن الواجب على من يعرف أن يقول مهما أساء أبناء الزمان الفهم.

ولقد كنت كلما مَنَّيْت النفس بأن الخير سيكون في الجيل الذي يجيء بعد الذي أشكو منه، أرى الزمان هو الزمان والناس هم الناس، وإذا الأبناء ينشئون على غرار الآباء، وإذا اللؤْم والحسد والدناءة عسيرة العلاج.

كم أردنا ذاك الزمان بمدح　　فشُغلنا بذم هذا الزمان

وعلى قدر ما كنت أحسن لإنسان كان ينالني مكروهُهُ، أخجل من تصرفه معي، ولا يخجل من إساءته إليَّ، ومن التوفيق أن بعض من قابلوا خيري بشَرِّهم عُرفوا بسقوط الأخلاق فانصرفت الوجوه عنهم. باعوا أنفسهم لقاء تافهات توهموها مغنمًا فخسروا خسرانًا مبينًا.

ولكثرة ما رأيت من أصحاب هذه الأخلاق أنشأت أقول لأصحابي: بالله عليكم اقتصدوا حتى في عمل الخير؛ فالمرء كلما توسع في الإحسان يجيئه الضرر عظيمًا على

نسبة إحسانه، فالأَوْلى أن يسمح بما لا يأسف عليه إذا ضاع، ويَعُدُّهُ ساعةَ يسديه من المال المفقود، لا يرجو عليه مكافأةً ولا ثوابًا.

قومي أبدًا يحيلون على الأقدار، ويتوهمون أنهم صنف ممتاز من أجيال البشر، ولطالما نسبوا كل ما هم فيه من الأمراض إلى من يتولى أمرهم، يُعْفُون أنفسهم من كل لائمة وتقصير. إنهم في حاجة إلى أن ينصفوا غيرهم وينصفوا أنفسهم، وأن يخلعوا هذه الأثواب البالية عنهم، ويستجِدُّوا لهم كسوة جديدة، وأن يدركوا أنهم إذا لم يكونوا صالحين في أنفسهم فإنهم لا يخدعون بحسن حالهم أحدًا.

وسواء كان قانوننا دستوريًّا جمهوريًّا، أو ملكيًّا مقيدًا أو مطلقًا، أو استبداديًّا طاغيًا، أو كنا مستقلين محررين من كل قيد، لا تنفعنا حكومة إن لم نكن في أنفسنا شيئًا، وقد نؤلف الحكومات الشورية، ونجمع المجالس النيابية، ويكون لنا جيش وأسطول وطيارات ودبابات، فإذا أعوزنا الصدق، وما انتظمنا الجد، فأيقن أننا علة استعبادنا، وأَنَّا بيدنا نفتح أبواب دارنا لنُدخل إليها عدوَّنا.

القول في تمدننا

قالوا إن المتمدن من يعرف بعض أسرار القوى المحيطة به، والهمجي هو الذي لا يفهم شيئًا من أمور العالم. ومعرفة الأشياء تستلزم إمكان الانتفاع بها وتطبيقها على حاجاتنا. ونكون في عداد المدنين متى عرفنا أن الجدري ينشأ من جرثومة، وأن في إمكاننا وقاية أجسامنا إذ اتقينا تلك الجرثومة بجرثومة أخرى، والتمدن جزء من معرفة الأشياء. وهو بالمعنى الصحيح الذي يدل عليه مقدار عظيم من السعادة تحف حياتنا البشرية، ولا تقوم إلا بمعرفة الأشياء وباستعمالها المفيد. يضاف إليها ما له علاقة بالأخلاق كالتساند، والإخاء الإنساني، وحرمة الحق.

وعرَّفوا المدنية بأنها وحدة مركبة من الأفكار السائدة والعادات الراسخة التي يعيش في سلطانها كل إنسان مجتمعًا مع غيره، ويوصف بالمتمدن كل مكان جمع أناسًا كانت بينهم علائق مستقرة أو متزلزلة، وكان من هذه الصلات بعض قوة أو ضعف. والفرق بين الشعوب الهمجية والشعوب المدنية ما تمتعت به هذه من أوضاع سياسية وإدارية، وثروة عامة، وثقافة أدبية وفنية وعلمية، واستقلال نسبي، ورقيٍّ اقتصادي وعقلي وأدبي. والرجل المتمدن هو الذي يرمي ببصره إلى المستقبل، والمتوحش يعيش كل يوم بيومه؛ ويستهلك في الحال كل ما يستحصل، ويسرف في قوته تلذذًا بالإسراف واللعب فقط، وهو أبدًا ينظر إلى الماضي ويؤخذ بالحاضر ولا ينظر إلى المستقبل، وقال بعضهم: تعرف درجة الأمة المتمدنة من مقدار ما تصرفه من الصابون وطوابع البريد.

ولقد توفرت بعض الأقطار العربية وفي مقدمتها مصر على السير في طرائق المتمدنين من أهل الحضارة الحديثة، فبلغت بعد ثلاثة أجيال درجة عالية من التمدن، وظل الجمهور الأعظم من بنيها على صبغته القديمة، أي: أن مسافة التمدين ما زالت شاسعة بين ابن الريف وابن المدينة، وكذلك يقال في الشام فإن المدنية دخلت مدنها

وظلت البوادي ومعظم القرى على ما كانت عليه. وإنك لَتَرَى في هذين القطرين لعهدنا تمدنًا لا يقل عن تمدن الشعوب الأوربية، وإلى جانبه انحطاطًا لا نسبة بينه وبين الترقِّي الذي بلغه سكان الحواضر.

لا جرم أن مظاهر الحضارة في كل بلد من بلدان الشرق متفاوتة، فابن المدينة غير ابن القرية أبدًا، والتفاوت عظيم بين الحواضر والأرياف وبين القَرَوي والبلدي، وأكثر منه بين البدوي والحضري، والمتعلم والجاهل.

قضى العلم الحديث على كثير من الخرافات كان الناس في العصر السالف يعدونها حقائق ثابتة، فيعتقدون، مثلًا، أن القمر يُخسف بفِعْل حوت يهمُّ بأكله، وأنهم إذا ضربوا له بما يَهيجه يُفلت من أنياب الحوت، وأن الأرض واقفة على قرن ثور، وأنها ثابتة لا تدور. وأن الطواعين والأوبئة من فعل الجن، ولا يعتقدون بالعدوى ولا يعترفون بوجود الجراثيم، مع أن في السيرة النبوية أحاديثَ تحذر من مداناة المريض، وتقول بالنسمات المهلكة، أي: بالجراثيم. وكانوا يتطيرون ويتيمنون بالأيام والأناسي والحيوان والطير، ويتطببون بالأدعية والتعاويذ، ويحبون بالطلاسم والرُّقَى، ويؤمنون بالمغيَّبات والكرامات، ويأنسون بالخرافات والخزعبلات.

كان الناس، حاشا العلماء، يحسنون ظنهم بالطرق، فبطل هذا الاعتقاد في كثير من المدن والقرى، وإذا ذكرت الآن أمام أناس كانوا ممن أسعدهم الحظ بأن تعلموا التعليم الابتدائي، أو ممن عاشوا في بيئة راقية وسمعوا كلام المثقفين، ضحكوا وسخروا. وعلى هذا غدا الجمهور يستعمل عقله، وكان مدة قرون يسلم بكل ما سمع من كبير، أو ممن يعتقد فيه الفهم.

وكان يهون على السُّذَّج أن يقضوا أيامًا طويلة كل سنة لحضور الموالد وزيارة المشاهد، وكان الناس في الشام ومصر والعراق يعطِّلون أشغالهم كل سنة للاشتراك بمولد بعض الأولياء، وندبة أحد الشهداء، فقلَّ عدد المعتقدين بذلك، وأبطلت الحكومات هذه الاجتماعات الضارة فعُدَّ ذلك من علائم التمدن، وكم من اعتقاد كان راسخًا في الصدور بتسلسل الجهل من الأجداد إلى الأحفاد، فعاق المرءَ عن التعلُّم والأخذ بالأسباب، ونُزِع، بفعل الحضارة، من الصدور، ووقف المعتدلون من المتعلمين عند حد ما رسمته الشريعة من المعتقدات، ونبذوا ما زاد عليها، وهذا أيضًا من التمدن.

كان معظم الأمة يؤمن إيمانًا غريبًا بالسحر والتنجيم، واستخراج البخت والفأل، وتأثير العين ونفع الطِّلِّسْمات والرُّقَى، فغدا اليوم صغار فتيان المدارس ينكرون هذه

الأمور، ولا يسع آباءَهم وأمهاتهم إلا أن يقلدوهم في معتقدهم، وهذا اعتراف ضمني من الأميين، أو ممن كان في طبقتهم، بأن المتعلم أكثر تمدنًا ممن لم يتثقف. كانوا إلى عهد قريب يؤخذون بكلام كل من يقص عليهم غريبة فيعتقدون، للحال، صحتها ويعظمون أمر مَنْ رواها، فاضمحلَّ أكثرُ ذلك، وهذا أيضًا من المدنية، حل العقل محل الجهل.

وإذا جئنا نوازن بين حالنا اليوم وحالنا في أواخر القرن الماضي، من حيث الاجتماع والتنظيم والبعد ما أمكن عن التخريف والاعتقاد بالمجهولات، نشهد مغتبطين أنا خطونا خطوات واسعة في خمسين سنة في سبيل التمدن، وإنا لنرى ابن الثامنة عشرة ممن درس الدروس الثانوية أرقى بعقله ومعرفته من معظم من يروي التاريخ أخبارهم، ويشير إلى أنهم من العلماء والأدباء، وعلى هذا ترى أهل الطبقة الوسطى اليوم يعيشون عيشة تقرب من عيش أعظم قدماء الخلفاء، بما اقتبسوه من مقومات المدنية، وحمله العرب إليهم من قوانين وأنظمة وأوضاع ومصطلحات في البيوت والمجالس والموائد والمراسم والملاهي والملابس والآلات وغيرها، وكلما عمت هذه الأفكار والأوضاع، وتناولها الأميون كما تناولها المتعلمون، زادت سعادة البيوت وسعادة المجتمعات.

من علائم المدنية ما نشهده من مراعاة النساء في المجالس والطرق والسكك الحديدية والترام والمقاهي والمطاعم والفنادق، وكُنَّ منذ جيل موضع سخرية وامتهان، وهذا لا شك من آثار استمتاع النساء بحقوقهن في هذا العصر، وتبدُّل عظيم في نظر القوم إليهن. ومعنى هذا أن ما تنعم به المرأة من الحرمة والكرامة أكثر مما كانت عليه في الدهر السالف.

ذكر المقريزي في السلوك — في حوادث سنة ثمان وسبعمائة — أن والي قلعة القاهرة الملقب بالمجنون كان يتسلط على النساط فيخرج أيام المواسم إلى القرافة وينكل بهن، فامتنعن من الخروج في زمانه إلا لأمر مهم مثل الحمَّام وغيره. وذكر في حوادث سنة ٧٣٢ أن الملك محمد بن قلاوون أراد الاحتفال بعرس ابنه فجلس على باب القصر وتقدم الأمراء، على قدر مراتبهم، واحدًا بعد واحد ومعهم الشموع، فإذا قدم الواحد ما أحضره من الشمع قَبَّلَ الأرضَ وتأخر، وفي ليلة العرس جلس السلطان على باب القصر أيضًا وجلس ابنه تجاهه، وأقبل الأمراء جميعًا وكل أمير يحمل بنفسه شمعة وخلفه مماليكه تحمل الشمع فتقدموا، على قدر رتبهم، وقبلوا الأرض واحدًا بعد واحد طول ليلهم، حتى إذا كان آخر الليل نهض السلطان وعبر إلى حيث مجتمع النساء فقامت نساء الأمراء بأسرهن وقبلن الأرض واحدة بعد أخرى، وهي تقدم ما أحضرت من التحف الفاخرة

والنقوط حتى انقضت تقادمهن جميعًا، ورسم السلطان برقصهن عن آخرهن فرقصن أيضًا واحدة بعد واحدة، والمغاني تضربن بدفوفهن وأنواع المال من الذهب والفضة وشقق الحرير تلقى على المغنيات، وتقبيل الرجال والنساء الأرض، على مخالفته للدين، أكبرُ دليلٍ على عبوديةٍ يفرضها مماليكُ على الأحرار.

وذكر ابن الفرات في حوادث سنة ٧٩٣هـ أنه صدر مرسوم الأمير الكبير في القاهرة بأن لا تخرج امرأة من بيتها إلى التربة، وأن كل من وجد منهن في تربة من الترب وُسِّطَت هي والمكاري والحمار،[١] وألا يتفرج أحد في مركب في البحر، وأن من وُجد في مركب أُحرق هو والمركب والنوتي، فتحامى الناس ذلك في أيام العيد، ولم يجسر أحد أن يتفرج، ولم تجسر امرأة أن تطلع إلى القرافة ولا إلى الترب.

وذكر أيضًا في حوادث تلك السنة أن نائب الغيبة في القاهرة أرسل جماعة من الأُوجاقية السلطانية ومعهم جماعة من مماليكه، فداروا الأسواق والقياسر والطرقات بالقاهرة وظواهرها، فقطَّعوا أكمام النساء الواسعة بسكاكين كانت معهم، وحصل لبعض النساء رجة عظيمة؛ لأنهم كانوا يأتون المرأة على حين غفلة ويمسكونها حتى يقطعوا كمها، وبعض النساء وضعن حملهن من الرجة، وسقط بعضهن مغشيًّا عليه، وامتنع النساء من لبس القمصان بالأكمام الواسعة وتفصيلها. قال المؤرخ: ولو تم ذلك لكان خيرًا عظيمًا، لكن النساء أعدن ذلك بعد حضور السلطان من الشام. ا.هـ.

جرى هذا في القاهرة أعظم حواضر الإسلام مدنيةً في القرن الثامن كما شهد بذلك ابن خلدون المؤرخ العظيم.

وذكر ابن كثير في حوادث سنة اثنتين وستين وسبعمائة أنه نادى مناد في دمشق من جهة نائب السلطان أن النساء يمشين في تستر، ويلبسن أزرهن إلى أسفل من سائر ثيابهن، ولا يظهرن زينة ولا يدًا، وقال في حوادث السنة التالية وهو مما لا يشعر بضعف المدنية فقط بل يدل على تحكم بارد وتعصب جامد. نودي في البلد أن نساء أهل الذمة لا تدخل الحمامات مع المسلمات بل تدخل حمامات تُخَصُّ بهن، ومن دخل من أهل الذمة مع الرجال المسلمين يكون في رقابهم علامات يُعرفون بها من أجراس وخواتيمَ ونحو ذلك، وأمر نساء أهل الذمة بأن تلبس المرأة خُفَّيها متخالفين في اللون كأن يكون أحدهما أبيض والآخر أصفر أو نحو ذلك!

وقال في حوادث سنة إحدى وستين وستمائة: إنه ورد كتاب من السلطان بإلزام القلندرية بترك لحاهم وحواجبهم وشواربهم، وإلزامهم بزي المسلمين وترك زي الأعاجم

والمجوس، فلا يُمَكَّن أحد منهم من الدخول إلى بلاد السلطان حتى يترك هذا الزي المبتدع واللباس المستشنع، ومن لا يلتزم بذلك يُعَزَّرُ شرعًا ويُقلع من قراره قلعًا. قال ابن كثير بعد إيراد هذا: وكان اللائق أن يؤمروا بترك أكل الحشيشة الخسيسة، وإقامة الحد عليهم بأكلها وسكرها.

وما ندري ما الذي حدا السلطان جقمق ملك مصر والشام على أن يرسم سنة ٨٥٥ بحرق شخوص خيال الظل (القره كوز) جميعها وأبطالها كما روى ابن إياس. أبطل هذا الملهى المباح الذي لا يخلو من عبرة وتذكير، بينما كان الغربيون يرتقون في التمثيل الذي كان منه أنفع الأثر في نهضتهم ونهضة الرومان واليونان من قبلهم.

ولك أن تعِد في الممدَّنين كل من لا يؤذي جاره ولا مواكله ولا رفيقه ولا المارة مهما كانت درجاتهم، ولا يعبث بالقوانين والشرائع، وكل من يعرف أين تنتهي حريته الشخصية وتبدأ حرية غيره. فمن يلزم التؤدة والوقار في الجوامع والبيع ودور التمثيل والموسيقى والأندية والمتنزهات، ويظهر بمظهر المعتدل في شعوره وحركاته وسمته، ونظافة ثيابه وأطرافه، ويتحرج من إيذاء مُثافنه بصُنانه وبَخَره يُعَدُّ من الممدنين، وكذلك كل من لا يزين له حب فضول البحث في خصوصيات جيرانه ومواطنيه ومساكنيه، إلا إذا كان من وراء ذلك فائدةٌ عامة.

وكل من تجمل وتزين، رجلًا كان أو امرأة، على شرط عدم الإفراط في ذلك، يعد ممدنًا، ومن يهون عليه خرق النظام، فهو في أقصى درجات التوحش، وإذا وقف المرء عند حدود الآداب العامة، وصان لسانه عن استعمال ألفاظ الفحش والبذاءات، واقتصر في كلامه على ما إذا أورده أمام العذارى لا يخجلن منه، عُدَّ عمله عمل المتمدنين، وكلما أدرك المرء ألَّا سعادة له ولذويه إلا إذا اهتم للمصالح العامة اهتمامه بمصالحه الخاصة، وأن سعادة غيره سعادة له، وأن شقاء وطنه يزيد إن لم يشارك مشاركة فعلية في إنهاضه، وأنه إذا لم يأت هذا مختارًا عُدَّ لصًّا في أرضه، يستمتع بخيراتها ويُلقي على غارب غيره متاعبها.

مثال من تمدننا وتوحش أهل القرون الغابرة. ما أظن إنسانًا نظر قليلًا في كتب الأدب إلا ورأى بعض شعرائنا يصدِّعون الآذان بما قالوه في وصف الخلخال، وما تغزلوا به وأكبروا من جماله، وما أبدوا من عجبهم من حركته وسكونه، ومن لم يتصور ذاك القيد الثقيل في رِجْل المرأة لا يدرك مقدار العبودية التي فرضها الرجال على النساء في غابر الأزمان، ولا يعرف مدى قلة الذوق من عَدَّ مثل هذه الحديدة اللامعة من المغريات.

ما الخلخال في الواقع إلا صورة صادقة من عصور الهمجية الأولى، ومَنْ تأمله حق التأمل يدرك مضرته التي أعجب بها الشعراء، ويحكم على الذوق المتقهقر عندهم. إلى اليوم ترون صورة من الخلخال في أرجل بعض الفلاحات في ريف مصر وريف الشام، كما تجدون الفتيات الصينيات يحصرن أرجلهن في أحذية ضيقة من الحديد حتى إذا شببن بقيتْ أرجلهن صغيرةً؛ دليل الجمال!

كلما فكرت في هذا الخلخال أجد فيه البشاعة كلها والهمجية كلها، وكلما رأيت كيف بطل استعماله عند ساكنات المدن لا يخامرني شك في أننا قطعنا مراحل طويلة في طريق المدنية. وكذلك كلما رأيت الخزام الذي يخزمون به أنف الفتاة وقد أُبطل أيضًا في المدن، ولم يبطل عند البدويات وبعض القرويات، كما لم يبطل إلى اليوم ثقب أذني الفتاة ليعلق فيها القرطان، ولم يبطل الوشم في أكثر الأرجاء العربية، يسوِّدون بالزرقة الساعدين واليدين والرجلين والوجه وأماكن أخرى من الجسم، فتظل مشوهة طول حياتها، وتفقد كثيرًا من جمالها ويشاركها في هذا التشويه الرجال.

كلما تأملت هذه التشويهات يحمل بها، في الأكثر، القوي على الضعيف، حتى أصبحت على توالي الأحقاب من الأمور المتعارفة التي لا تنكر، أحمد الله على أَنْ خَلَقَنَا في هذا العصر، وخلق لنا عقولًا نميز بها الجميل والقبيح والنافع والضار. ومن الهمجية جرأة النساء في مصر والحجاز على قطع جزء من جسم الفتاة لأمور يتوهمنها منها إذا شبت وكبرت، يغيرن بذلك صنع الخالق مع مخلوقةٍ لا تملك أمر نفسها.

ومن يزر متحفًا من المتاحف أو دارًا من الدور القديمة في القرى النائية عن المدن يقع نظره على ما كان النساء يستعملنه من اللباس وأدوات الزينة، وما طاسات الفضة أو الحديد التي كانت توضع على رءوس العرائس وتلك الأحزمة والزنانير الغليظة التي يتمنطقن بها إلى الآن، وتلك العمائم الثقيلة التي تلاث على طربوش غليظ يتعمم بها النساء كالرجال في بعض بلاد الريف إلا صورة من تلك الهمجية، تُقَيَّدُ مع الخلخال والخزام والوشم في جريدة واحدة.

والأمة في القديم كما هي في العصر الحديث قد تخرج عن المعقول في عاداتها كما خرج المتمدنات لعهدنا في صبغ أظافرهن وإطالتها وصبغ شفاههن بالحمرة مثلًا.

ومن الغريب أن هؤلاء البائسات في تلك العصور كن يألفن هذه العادات ولا يرضين عنها بديلًا شأن بعض المحجبات اليوم يرضيهن حجابهن أكثر من السفور مع ما في هذا من الفرج والحرية لهن. روى الجزري أن نائب السلطنة بدمشق رسم في سنة ٦٩٠ أن

لا ترجع امرأة تلبس عمامة كبيرة ومن خالفت المرسوم غُلِّظت عقوبتها، فامتنع النساء من ذلك على كُرْهٍ منهن.

كانت أدوات الزينة عند النساء في حالة ابتدائية، فمن كان لها في القرون الوسطى مكحلة من بلور وميل من ذهب وأقراط تعلقها بأذنيها ومخانق وعقود تنيطها بعنقها تعد ممدنة، ومن يكون في جملة صداقها زوج أساور ذهب وثوب طريف (طرفنده) عليه أزرار فضة، تُعدُّ ممدنة.

ومظاهر التمدن تختلف باختلاف العصور فقد رأت مصر في عهد الملك الناصر من المماليك عهدَ رخاء. ذكر ابن تغري بردي أن النساء في زمانه استجدَّت الطرحة كل طرحة بعشرة آلاف دينار وما دون ذلك إلى خمسة آلاف دينار، والفرجيات بمثل ذلك، واستجدَّ النساء في زمانه الخلاخيل الذهب والأطواق المرصعة بالجواهر الثمينة والقباقيب الذهب المرصعة والأُزر الحرير وغير ذلك، والغالب أن هذا الترف كان خاصًّا بنساء الملوك والأمراء ومن وازاهم.

وماذا كان النساء يقلن لو عُدْن إلى الأرض وشاهدن هذه الأزياء الجديدة عند بنات جنسهن، وهذه الحلي وهذه الزينة، ورأين المزركش والمزمك والمقطع، وقِسْنَهُ بتلك الثياب التي ألفنها وما فيها ما ينم عن ذوق ولا عن رفاهية تذكر؟ لا جرم أنهن كنَّ يؤمنَّ بأنهنَّ كن على غاية من التوحش بالقياس إلى ما حدث بعدهنَّ من الرقيِّ الذي كان من انتشار العلم وما تبعه من مدنية.

هوامش

(١) أي قطعت قطعتين من وسطها.

القول في وطنيتنا

الوطن هو البلد الذي يولَد فيه الإنسان، أو موطن الإنسان ومحله. وقسَّموا الأوطان إلى ثلاثة أقسام: الوطن الأصلي وهو مولد الرجل في البلد، وقيل ما يكون بالتوطن والبلد، وموطن الإقامة، وهو: موضعٌ ينوي المرء أن يستقر فيه خمسة عشر يومًا أو أكثر من غير أن يتخذه مسكنًا، ووطن السكنى وهو الموضع الذي ينوي الإقامة فيه أقل من خمسة عشر يومًا.

والوطنية هي الحب الذي يشعر به من يساكن جماعة في أرض يعيش فيها جمهرة من الخلق مجتمعين، وهي تستلزم رغبة في المعاونة على جلب الخير للبلد، ليُكتب له السؤدد في الحاضر والمستقبل، وتكون هذه الرغبة نتيجة عواطفَ كثيرة منها: حب من عاش المرء معهم، وارتباط قلبه بالأماكن التي وُلِدَ فيها، وقضى جزءًا من حياته في ربوعها، يضاف إلى ذلك إخلاصٌ لجنسه ولغته ومنازعه وعاداته وقوانينه وأوضاعه، وللمجتمع الذي وُلِدَ فيه وانتسب إليه.

كانت كلمة الوطن ضيقة النطاق لا تَعْدو منزل المرء وبلده، فلما جاء الإسلام كان الوطن دار الإسلام عامة وما عداه دار حرب، وكان للدين الأثر الأول في الوطن العربي ثم للغة الواحدة، وقَلَّما كان الوطن — كما هو الشأن في الدولة الغربية الكبرى إلى اليوم — موحدًا في الجملة بأجناس سكانه ولغاتهم؛ لأن من قواعد الإسلام أن لا يُكره أحد على انتحاله إذا عمل بما يأمر به، فيبقى أهل كل دين على دينهم إن لم يحبوا برضاهم الدخول في الإسلام. وكانت هناك رابطتان: رابطة الجنس وهي طبيعية في الخَلْق، لا يستخدمها صاحبها في أغراض عامة، ورابطة الدين واللغة يدين بها المواطنون كافة.

نعم دعا الإسلام إلى جامعته فهي الوطن وهي القومية، وما دعا إلى الجنسية والقبلية، فقد كتب الرسول إلى عامله على اليمن أن يَنهى — إذا كان بين الناس هَيْج —

عن الدعاء إلى القبائل والعشائر، وليكن دعواهم إلى الله وحده لا شريك له، فمن لم يدع إلى الله ودعا إلى القبائل والعشائر فليُقْطَعُوا بالسيف حتى تكون دعواهم إلى الله. ثم عاد العرب يتفاخرون بالقبيلة والعشيرة لَمَّا قامت المنازعات على الملك.

وقصد رسول الله بألا يكون في جزيرة العرب دينان أن تتألف من العرب وحدة سياسية، فتعذر قيام هذه الوحدة؛ لأن سائر العناصر والأديان أطلقت لها حريتها، فشاركت في الوطنية إلى حد محدود، ولولا أن أكل الربا نصارى نجران ويهود خيبر وتيماء، وكان شرط عليهم في العهد الذي مُنحوه ألا يتعاملوا به ما أجلاهم عمر عن جزيرة العرب إلى العراق والشام، ومع هذا أوصى بهم وما اضطهدهم أحدٌ من عماله ولا رعاياه، كما لم يُضطهد النصارى ولا اليهود ولا المجوس ولا الصابئة لما انتحلوه من دين، إذا أَدَّوُا الجزية، ورَعَوْا حقوق الوطنية الإسلامية.

وكانت تختلف درجة امتزاج الأعاجم بالعرب في الوطن الجديد، بحسب بُعدهم وقربهم من الأرض العربية، واختلاطهم بالفاتحين وأبناء الفاتحين، وما كان يسمح — على ما يظهر — أن تنعزل الجاليات عن سكان البلاد الأصليين، كأن تَقتطع لها منطقةً خاصة لا تتعداها إلى غيرها، أو إقليمًا بعينه لا تخرج منه. وربما آثر بعض أهل الأديان أن يسكنوا في حي خاص ليكونوا على مقربة من معابدهم، ويأنسوا باجتماع بعضهم إلى بعض، ويجمع بين الأصيل والدخيل في كل ولاية. ومزج معاوية في الشام القبائل والأديان المختلفة في الساحل والداخل حتى لا يكون النصارى أكثرية، ولئلا تتخذ منهم دولةٌ بيزنطية آلاتٍ لأغراضها السياسية. أما في الأندلس وشمالي إفريقية فقد أُنزل من جُلبوا من القبائل العربية في مقاطعات خاصة، ثم اختلطوا كلهم عربهم وبربرهم مع السكان الأصليين، وبتمازج المواطنين تتألف منهم، على الأيام، كتلةٌ واحدة، وينسى الأعاجم أصولهم.

وما كان لغير العربي أن يتطالَّ لأن يكون للغته شأْنٌ مع اللغة العربية، وما حاول أحد أن يتحلل من هذه الرابطة التي أحكمها الإسلام؛ وقدس لغة كتابه تقديسًا؛ وكان من أثر ذلك تعريب كل قطر بسط الفاتحون سلطانهم عليه بسطًا محكمًا، فأصبحت العربية لغة الدين والسياسة والعلم. وقد حاول أحد شعراء الفرس — والدولة العباسية في إِبَّان مجدها — أن يتلو قصيدة له في حفل فأبى عليه أمير الولاية سماعها. ولما ضَعُفَ أمر العباسيين أصبحوا إذا جاءهم شاعر فارسيٌّ بقصيدة يتلونها في مجالسهم كما يتلون الشعر العربي.

ولم تَقْوَ الجامعة الوطنية — أي: جامعة أرض معينة الحدود والمعالم، جمعت بين أهلها المصلحة المشركة — بقدر ما قويت الجامعة الدينية. وما خرج خليفة ولا سلطان ولا أمير عن حكم هذه الجامعة، ثم امتزجت العناصر بعد الفتح بقليل، وما انتهى القرن الأول حتى أصبح أهل المملكة الأموية يتكلمون باللغة العربية على اختلاف عناصرهم، وأمسى كل مواطن يشعر بأن مصلحته ومصلحة مواطنيه متحدة.

شهدنا العباسيين يَهون عليهم التساهل بحقوق الجنسية، للسياسة التي اضطروا لانتهاجها مع أبناء خراسان الذين قام ملكهم على أيديهم، ولم يفادوا بذرة من حقوق الوطن الإسلامي؛ أي: أنه كان همهم حفظ حقوق الوطن الأكبر، ويغضون الطرف عن بعض العناصر كالفرس، وقد أخذوا في القرن الثالث يحيون لغتهم بظهور شعراء فيها، وما تعربت الجبال والقاصية من فارس قط، وظلَّت في الإسلام محتفظة بفارسيتها.

ومن الصعب حصر الوطنية في أقطار واسعة متنائية الأطراف على نحو ما يتيسر ذلك في بلد ضيق معروف الحدود متماسك الأجزاء. وفي أصقاع يتعذر حكمها على غير قاعدة الحكم الذاتي كالأقاليم الإسلامية، لا يسهل أن يُربط سكانها إلا برباط واحد، وهو رابطة الدين أولًا واللغة ثانيًا، وكيف يرتبط ابن فاس ومكناس، مثلًا، بابن مَسقط وعُمَان بغير هذا الرباط؟

بسط العثمانيون الأتراك سلطانهم على ديار العرب، وكانوا إلى آخر أيامهم يؤْثرون أبناء جنسهم بالمناصب الكبرى، ولا يشركون أبناء العرب في سياستهم، وما جاهر العرب بمباينتهم للفاتحين، بل رحبوا بهم لما سمعوا عن عدل ملوكهم الأولين وما نازعوهم في سلطانهم، جاءوا باسم الإسلام، والإسلام هو الجامعة الوطنية الكبرى، واستنام العرب وغيرهم للدولة العثمانية، فحَكَمَتْهم قرونًا باسم الوطنية الإسلامية، ولَمَّا قويتْ في العثمانيين الدعوة إلى القومية التركية، وحاول دعاتها بآخِرة أن ينزعوا العرب من قوميتهم أخفقت دعوتهم، وما استطاعت الدول العربية تحقيقه من تعريب الأعاجم تعذر على الترك إنفاذ مثله؛ لأن العرب دعاة دين ومدنية وقد نجحوا في الدعوتين، أما الدولة العثمانية فما خرجتْ عن كونها دولة فَتْحٍ وتَغَلُّب، ليس إلا.

لما قَتَل سليمان بن قَتَلْمُش التركيُّ مسلمَ بن قريش العربيَّ صاحِب الموصل وما إليها، انتقل ملك الشام (٤٧٨) من العرب إلى الترك، ولم يحكم الشام بعدها إلا أتراك أو جراكسة أو أكراد، فتأثرتْ بذلك القومية العربية، ولم يقع حيف على الوطنية الإسلامية؛ لأن ذاك التركي الغالب جاء يحمل أيضًا تعاليم الإسلام، يكلم القوم بالعربية، ويكاتبهم بالعربية، فمحال أن يخرج العرب عليه، وإن فَضَّلُوا حكم العربي.

ولقد رأينا المصريين في القرن الرابع يستدعون الفاطميين من شمالي إفريقية ليسلموا إليهم ملك مصر، غير آبهين لما بينهم وبين الفاطميين من اختلاف في المذهب، بل نظروا إليهم فقط أنهم أصحاب دولة عربية قوية. ومع أن مصر كانت دار تشيع، كما يقول ابن زولاق، منذ أيام محمد بن أبي بكر، وكانوا يكاتبون بمسائلهم جعفر الصادق ولا يعدلون عن فُتْيَاه، ومع أن الفاطميين نشروا مذهبهم الإسماعيلي فيها أكثر من قرنين ونصف قرن، لا نجد لمذهبهم أثرًا في مصر، ونجد ميلًا إليهم؛ لأنهم عرب مسلمون أنشئوا مدنية عربية بمظاهرها، والقوم إلى اليوم يذكرونهم بالخير كما يذكرون الأتراك والچراكسة أبناء مذهبهم.

كان أرباب الدولة إذا اقتضت الحال إجلاء فريق من السكان عن قُطْر أو عن إقليم، وإنزاله في قطر آخر أو إقليم آخر، لا يخطر للمهاجر ببال إن كان عربيًّا أو غير عربي أنه نزح عن أرضه، بل يعتقد أنه انتقل فيها من بقعة إلى بقعة، ويحتاج فقط إلى زمن قصير حتى يتعرف إلى من نزل عليهم، ويألف طبيعة الأرض التي حَلَّ فيها. كان هذا شأنهم منذ الفتح، أنزلوا قبائل عربية عظيمة في الشام والعراق ومصر وشمالي إفريقية والأندلس، فعربوا من نزلوا عليهم حتى بدأ نقص محسوس في سكان جزيرة العرب بعد القرن الثاني بهجرة مئات الألوف من أهلها ومنهم حملة الدين وقُوَّاد الجيوش، فكان شأنُ الجزيرة في إقفارها من الرجال شأنَ شبه جزيرة إسبانيا والبرتغال عقيب فتح أميركا، هاجر منها معظم أهل الذكاء والشجاعة من رهبان وجنود، فأثرت هجرتهم في أوطانهم الأولى وانتفعت بهم الأقطار التي نزلوها.

وقد يرى السلطان نقصًا في سكان البلدان التي دانت لحكمه فيدعو من القاصية كل من يختار السكنى في مملكته، ويهيئ لهم وسائل العيش فيها، كما فعل الملك العاقل المنصور قلاوون سنة ٦٨٧ فكتب إلى أكابر السند والهند واليمن والحجاز والعراق والعجم، أن يحضر من يحب التكسُّب أو السكنى إلى الديار المصرية والبلاد الشامية، وبيَّن لهم ما في مملكته من خيرات، وفي هذا دليلٌ على أن الوطن الإسلامي، وإن تعددت حكوماته، لا يحتاج المهاجِر إلى شهادة بجنسيته، ولا لجواز يمكِّنه من التنقل في الأرجاء.

بلى، كان العالم أو التاجر يتنقل في البلدان الإسلامية على ما يهوى، وهو يعد كل بلد ينزله بمثابة بلده، لا يجد فيه أدنى عائق يحول دون استمتاعه بحقوقه ورغائبه، حتى ليتزوج ليلة وصوله إلى البلد الجديد، ولا يُسأل إلا عن دينه، أما الجنسية فقَلَّما يعرض لها. وشهدنا الملوك والخلفاء يأتون برجال غرباء عن مملكتهم، بحسب عرفنا

اليوم، ويولونهم وزاراتهم، ويفوضون إليهم سياسة ملكهم، وعلى هذا النحو يفعلون في جيشهم، فقد يختارون لقيادته البعيدين عن مراكزهم وربما اختاروهم من غير أهل الإسلام.

أما القضاء والتدريس وغير ذلك من المراتب الدينية الكبرى فقد تُوَسَّدُ في ديار الشرق لمن نشئوا في الغرب، فيقضي العالم ويُفتي ويدرِّس ويَعِظ ويخطب، ويتناول من الأوقاف أو من بيت المال راتبًا مقررًا كأنه في مسقط رأسه، وبهذا تمازجت الشعوب الإسلامية تمازجًا غريبًا، وكيف لا تتمازج والمحورُ الذي تدور عليه الوطنيةُ هو الإسلام، الذي ساوى بين الأبيض والأسود، والعربيِّ والأعجميِّ، والسيد والمولى.

لما أخذ الفرس بمُخَنَّق الدولة العباسية لأول أمرها، وكاثروا العرب في الحكم، ثم تسلل الأتراك إلى مملكة العباسيين وقبضوا على زمام الأمر لم يُصَب الوطن الإسلاميُّ بما يخالف أصوله؛ لأن جميع هؤلاء المتغلبين كانوا من المسلمين، وسواء حكم العربي أو الفارسي أو التركي أو الديلمي أو البربري، فالإسلام كَمَّ الأفواهَ عن التفوُّه بمسائل الجنس، وأصبح الدينُ جامعتَهم والوطنُ وطنَهم، والقوم قَلَّما تعنيهم جنسيةُ مَنْ يحكمهم ولا نحلته إذا حكم بالعدل، ولما سأل هولاكو علماء بغداد: هل الحاكم المسلم الظالم أفضل أم الحاكم الكافر العادل؟ أجمعوا في فتواهم على أن الكافر العادل أفضل من الحاكم المسلم الظالم.

وما حدث من مسائل الشعوبية والتفاضل بين العرب والعجم، ما كان مما يقره الإسلام، وما خرج في الواقع عن حَدِّ مناقشاتٍ كان الداعي إليها منافساتٌ ومطامعُ شخصية طبيعية الحدوث في كل بلد كان أهله أخلاطًا وأمشاجًا، ومع هذا لم يطرأ على الوطن الأعظم أدنى خلل لمكان الدولة من القوة، والعقلاء من جميع العناصر ما كانوا راضين عن هذه المهاترات.

أما أبناء الذمة في الملك الإسلامي فكان شعورهم شعورَ وطنيٍّ يحب خير أمته؛ لأنهم هم أيضًا ينعمون فيه كالمسلم، وقد تساوَوْا في الحقوق والواجبات مع مواطنيهم المسلمين. وكان الصالح منهم يرى من عطف حكومته ومن عطف السواد الأعظم ما لا يكاد يرى مثله من ابن دينه، وما عقدتْ حكومةٌ إسلامية معاهدة مع دولة غير إسلامية إلا ذكرت فيها المعاهدين وحفظ حقوق الذميين. وكانوا إذا أُسِرَ النصراني أو اليهودي أو المجوسي أو الصابئ يفادونهم كما يفادون المسلمين، وإذا كانت لهم حقوق تجارية وراثية في دار الحرب تطالب لهم حكوماتهم بها كما تطالب بحقوقهم لو كانوا من

المسلمين، وإذا قتل مسلم ذميًّا يقتل به، أو يُودَى ديةً كدية المسلم إذا رضي أهل القتيل، وتكون الدية من أعظم أصناف الدية. وما كنت تشهد الحكومات الإسلاميةَ إلا حريصة على إعطاء أهل الذمة حقوقهم، والمبالغة بحمايتهم من السِّفْلة والغوغاء، حتى إن مسلمًا إذا قال لمواطنه: يا نصرانيُّ، وأراد بقوله تحقير مخاطبه يعاقبه السلطان على كلمته، فكان المسيحيون في ديار المسلمين أسعد من أبناء دينهم تحت حكم النصارى في الغرب.

يقول بارتولد في تاريخ الحضارة الإسلامية: إن الشعوب التي عاشت في حكم المسلمين استفادت من العلاقات التي اتسعت بقيام الدولة الإسلامية الممتدة على قسم كبير من العالم أكثر من المسلمين أنفسهم، كما أن انتشار النصرانية والمانوية في بلاد غاليا، واليهودية والنصرانية في القوقاز وشواطئ الفولجا يعود إلى العصر الإسلامي، أي: إلى عصر التسامح والحرية الدينية.

ولو نجا الملوك من ضغط المتعصبين من رجال الدين لأعفوا أبناء الذمة من الكسوة الخاصة التي كان الذميون، في بعض العصور، يُلزمون بالاكتساء بها؛ تمييزًا لهم عن المسلمين، ولأبطلوا أخذ الجزية منهم حتى لا يشعروا بشيء من الذل في أوطانهم، وعلى عهد العباسيين الأول امتنعوا من أدائها وأغضت الحكومة عنهم. قال القَرَافِيُّ: «إن من واجب المسلم للذميين الرفق بضعفائهم، وسَدَّ خَلَّة فقرائهم، وإطعام جائعهم، وإلباس عاريهم، ومخاطبتهم بلين القول، واحتمال أذى الجار منهم، مع القدرة على الدفع؛ رفقًا بهم لا خوفًا ولا تعظيمًا، وإخلاص النصح لهم في جميع أمورهم، ودفع مَنْ تعرض لإيذائهم، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يفعل معهم كل ما يَحْسُنُ بكريم الأخلاق أن يفعله.»

كان من مصلحة أهل الذمة أن يمتزجوا بأبناء وطنهم تحت سلطان الرابطة الوطنية، كما كانت مصلحتهم منذ الفتح أن يتعلموا العربية، فاستعرب السواد الأعظم منهم، ونسي السريان في الشام والأنباط في العراق والأقباط في مصر لسانهم الأصلي وتعرَّبوا بتوالي الأجيال، لكثرة اختلاطهم بالعرب، وتشابك مصالحهم بمصالحهم. وفي كل جيل كان الوطن العام وطنهم، وسماحة الإسلام سياجهم وموئلهم، ورأى معظم المجوس والصابئة أن يُسْلموا، فأسلموا، ومنهم من خدم الدولة الإسلامية خدمة صادقة قبل إسلامهم وبعده، وكانت الحكومات كثيرًا ما تعتمد عليهم وعلى النصارى واليهود في إدارة المُلْك، وربما كانت الثقة بهم أكثر من الثقة بالعريقين في الإسلام من العرب، وهذا من جملة ما حبب إلى غير المسلمين الدخول في الإسلام كما وقع للقبط في مصر، فكان

للذكي منهم، ولو ظل على قبطيته، صوتٌ مسموع في سياسة مصر وإدارتها، على ما يفوق فيه العربي المسلم والتركي المسلم في بعض العهود.

وصاحب الشأن ينظر إلى مصلحة دولته، ومصلحته في اصطفاء من يعتقد فيه الغناء في خدمتها، لا فيمن تقلُّ الصفات المطلوبة فيه، ويكون حبيبًا إلى قلبه كلُّ من يخلص في خدمة الوطن مهما كانت نحلته، والمُلْك مصلحةٌ لا عاطفة.

ذكر آدم ميتز في كتابه الحضارة الإسلامية في القرن الرابع: أن من الأمور التي تعجب لها كثرة عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الإسلامية، فكان النصارى هم الذين يحكمون المسلمين في ديار الإسلام، والشكوى من تحكُّم أهل الذمة في أبشار المسلمين وأموالهم شكوى قديمة … وقد قُلِّد ديوان جيش المسلمين رجلٌ نصراني مرتين خلال القرن الثالث فوُجِّه اللوم للوزير؛ لأنه «جعل أنصار الدين وحماة البيضة يُقَبِّلون يده ويمتثلون أمره.»

خَفَتَ صوت الوطنية والقومية أجيالًا طويلة على عهد الدول الأعجمية، وفي الأدوار التي استغرقت في الفتن والاضطرابات. وربما كان لانتباه الفكرة الوطنية والقومية في الغرب خلال القرن الماضي تأثيرٌ في عقول النابهين من العثمانيين ولا سيما العنصر الحاكم منهم — أي: الترك — ثم سَرَتْ هذه الفكرة إلى العرب باختلاط رجالهم برجال الغرب وبرجال الترك أنفسهم، وبدا انبعاث الدعوة الوطنية من مصر بغزو نابليون وادي النيل، وكانت حملته أول عهد باحتكاك الغربي بالشرقي في عهد ارتقاء الغربيين. ومع أن المصريين كانوا يومئذ قلائل بعددهم وعلمهم تألفوا برباط الوطنية الدينية يردون، ما استطاعوا، هجماتِ الفاتح، مستندين إلى قوتهم وتدبيرهم أكثر من استنادهم إلى العثمانيين وبقايا المماليك.

أخذت الرابطة القومية تنمو وتستحكم في مصر على نسبة انتشار المعارف، وزادت شدة في ثورة عرابي، وكانت ثورة أثارها المصريون الأقحاح على العناصر غير العربية لاستئثارهم بالأمر وحدهم، وكانت ثورتهم الحجر الأساسي في قيام الوطنية المصرية، وسبق المصريون سائر الشعوب العربية إلى إدراك معنى الوطنية والقومية؛ لسبقهم بالأخذ من علوم الغرب واختلاطهم بأهله.

وقال بعض العارفين[١] من المصريين: إن روح الوطنية المصرية عادت إلى الحياة منذ زمن غير طويل؛ إذ لا ترجع إلى أكثرَ من أربعةِ أو خمسة أجيال، وكان محمد

علي مؤسس البيت المالك أولَ مَنْ تصور عصر حياة وطنية بعد أن مضت عليها قرون طويلة في ضعف وانحطاط، وبعد ذلك العهد المجيد لم تَنْمُ الوطنية المصرية نموًّا كبيرًا إلى أن تيقَّظت مرة أخرى في القرن الحاضر وأخذت تَقْوَى وتثبت، ويرجع هذا التطور إلى أسباب كثيرة، من بينها: تأثير الشعوب الأخرى التي جاهدتْ جهادًا شاقًّا لاكتساب حريتها، فكانت قدوة لنا ومثالًا احتذيناه، وكان لإنشاء مبدأ استقلال الأُمم، في الخمسين سنة الأخيرة وزمن الحرب العظمى على الأخصِّ، أثرٌ عظيم في مصر شبيهٌ بأثره في البلاد الأخرى، وينضمُّ إلى هذه العوامل أن مصر كانت خاضعة للاحتلال الأجنبي فكان لمقاومته الأثرُ الفَعَّال في إنماء روح الاستقلال المصري، وهكذا نَمَتْ وطنيتنا وتكونت وحدتنا القومية في جَوٍّ المعركة والنضال.

كانت الدعوة إلى الوطنية والقومية تَقِلُّ وتكثر في الولايات العربية العثمانية بمقدار نَشْرِ العلم في أرجائها، وربما كانت في الديار الشامية أقوى منها في سائر الولايات، كالعراق والحجاز واليمن؛ لأن الشام تَعَلَّمَ قبل غيره، وهو أقرب إلى عاصمة المُلْك العثماني وإلى أوربا ومصر، وكانت تشتد نغمة ترك وعرب كلما كثر عدد طلابنا الذين يأخذون العلم من مدارس الترك العالمية، وهذا ما أراد حكام المملكة من الترك أن يقضوا عليه، فقتلوا في الحرب العامة فئةً من رجال الشام حاولوا نَزْعَ قُطْرهم من رِبْقَة الحكم التركي، أو إعطاءه حقوقه التي تحفظ عليه قوميته؛ لما كان يخشى من فناء العرب في غيرهم.

أتى الدور الحديث في الأقطار العربية على النظم القديمة، وأخذ الناس يسمعون نغمات جديدة ما كانت تُعْرَفُ، ويتغنَّوْن بالقومية ويتناغون بالوطنية، وأخذ كل عنصر من العناصر الإسلامية يُدِلُّ بعنصريته على ما هو الحال في شعوب أوربا، ولا يعلم إلا الله ما ينشأ في المستقبل من دعوات جديدة.

ورأينا بعض دهاة السياسة يستغلون الوطنية لمنافعهم الشخصية وللصعود إلى منصات الحكم، فيعبثون بعقول العامة ويُلْقُونهم في مزالقَ تضيع بها أوقاتُهم وعروضهم، وكثيرًا ما تُودِي بهم وبمصالح الوطن الحقيقية، فإلى هؤلاء المُتَّجِرين بأرواح غيرهم وأموالهم وراحتهم كتب أحد علماء الأخلاق من الإنكليز «سمول سميلز» صفحةً بديعة وجهها إلى من يغشون الناس بادعاء الوطنية قال: ما كثير مما يقال له: الوطنية إلا ضعفٌ في العقل، وخرق في الرأي وتطرُّف لا معنى له، وتهور على غير جدوى، ووطنيةٌ تظهر في التحامل والصلف والحقد، ووطنيةٌ لا تعرف العمل، ووطنيةٌ كلها تفاخُر وتظاهُر، لا ترى فيها غير «صخب ولَجَب، وضوضاء وجَلَبة، وهَيْعات مضطربة، وصياح وعويل،

واستغاثة يأس، ودعاء قنوط» وطنيةٌ كل ما فيها رَفْع أعلام ونشيد أغان وألحان، وطنيةٌ لا يألو أربابها جهدًا في تحريك آلام سكنتْ وهفوات أُصلحت، ألا إن من أشد مصائب الأُمم أن تُمْنَى بوطنيةٍ هذه حالُها. وإذا كانت هذه وطنية كاذبة فإن من الوطنية ما هو صادق، الوطنية التي تنشط الأمة من عقالها، وتدعو أبناءها إلى الرقي بالعمل الصالح، الوطنية التي تدعو الأمة إلى القيام بالواجب بشهامة وكرامة، الوطنية التي تنادي في أهلها بالإخلاص والرزانة والاستقامة وتدعوهم إلى الانتفاع بما يعرض لهم من ضروب الإصلاح، الوطنية التي تعلِّم أبناءها كيف يذكرون ما فعل العظماء من الماضين الذين اكتسبوا عظمةً لا تُمْحَى بما عانَوْا من الصعاب في سبيل الدين والحرية، وأكسبوا أُمَمَهم حياةً طيبة وحكومات صالحة كانت حقًّا وميراثًا.» ا.هـ.

وبعد، فليس الوطن حدودًا محددة وبرورًا وبحورًا ممددة، وجبالًا ونجودًا وسهولًا معددة، ليس هذه المدن والقرى ولا هذه البيوت والمصانع ولا هذه الحدائق والحقول والغابات، الوطن أرضٌ درجنا عليها ورُبِّينا في حجرها وغُذِّينا بخيراتها ولبانها وأَلِفْنا أهلها وأَلِفُونا، وتعاطفنا وتراحمنا، سواء في ذلك قاصينا ودانينا وحاضرنا وبادينا، والوطنية روح وعقيدة يُستسهل في سبيلها بذلُ كل عزيز وتُغذى بالحياة؛ لأن بها تحفظ الحياة شريفةً سعيدة.

هوامش

(١) سياسة النقد لمريت بطرس غالس.

القول في عاداتنا

من عاداتنا في اللقاء أن يباغت الرجل صاحبه في بيته، أو في محل شغله في الوقت الذي يناسب الزائر وقد لا يناسب المزور. ومن النادر أن يتلطف الطارق ويقرع الباب ويقف ريثما يسمح له بالدخول. وقد نُسِيَتْ عادة الاستئذان، وكانت مستحكمة عند أجدادنا، فعُدْنا نقتبسها اليوم من الإفرنج، ومن المؤسف ألا تكون لنا أوقات معينة للزيارات، ولقاء الإخوان والمعارف، وأن نركن إلى الفوضى في مثل هذه الأمور، وقد جعل بعض السيدات في المدن يومًا خاصًّا لاستقبال صويحباتهن وذوي قرباهن، فتَقَدَّمْنَ في هذه المأثرة رجالَهن. وفي الغالب أن يحضر هذه المجتمعات من الرجال والنساء مَنْ لم يسبق له أن عرف بعض من في المجلس، ولا يهتم صاحب الدار بالتعريف بزواره ومدعويه فيكون اجتماعهم اجتماع النَّوْكى، أي: الحمقى، كما يقول العرب.

كان الرجل إذا دخل مجلسًا يوسعون له فقط، فيسلم ويسلمون، على عادة العرب في الجزيرة إلى اليوم، وفي الحديث: «لا يقيم الرجل الرجل من مقعده ثم يجلس فيه ولكن تفسحوا وتوسعوا.» وكان يَنْدُرُ القيام للزائر إلا إذا كان لعظيمٍ، يقومون له مرة واحدة، وألفوا لعهدنا أن ينتصبوا قائمين، لمن كان ذا حرمة في ذاته، كلما دخل المجلس وخرج منه، يزعمون أنهم يكرمون صاحبهم بذلك، وقد يكون الرجل في بيته، وهم يحاولون إكرامه وإجلاسه في المكان الذي يتخيلون أنه رفيع، وما أرى وجهًا لإكرام الرجل في داره.

وإذا دخل المجلس صاحب شأن في الدولة، فالحفاوة به تزيد على الحفاوة بغيره، وكلما كان الداخل ربَّ جاهٍ وغنًى أو ممن يخشى شره، وإن كان لا يرجى خيره، يزيد الاحتفال به والإقبال عليه، فيهبُّ كل من في المجلس هبة رجل واحد، ويأخذون بيده، ليُجلسوه في المكان الممتاز، أو الذي يتوهمون هم أنه ممتاز، وقد تكون المقاعد كلها متشاكلة لا فرق بين ما كان منها عند الباب وما جُعل في صدر المجلس، فيقف الحضور

على الأقدام دقائق حتى تتم هذه العملية، وتسمع خلال ذلك الحلف بالمولى وبغيره، ويفعلون مثل ذلك كلما انتوَوُا الدخول إلى مجلس أو الخروج منه. فإذا اجتمعوا يتعب المجتمعون حتى يرضى الداخل أن يتخذ مقعده الذي يجري الاتفاق على أن يخصوا به زائرهم وجليسهم، ويقتنعون بأنهم قاموا بإجلال صاحبهم، وفي الغالب أنه لا يتم ذلك كله حتى يَشُدُّوا الداخل من يده، أو يدفعوه في صدره إذا أبى مطاوعتهم على ما يخصونه به من الإكرام.

ولطالما ابتعدتُ عن الوقوع في حكم هذه العادات القبيحة التي تؤذي القادم على المجلس، وتعطل وقته وأوقات من اجتمع فيه. وقد لا أنجو من هذا التكريم الذي لا معنى له إلا بعد إسماع من يحاول جذبي كلامًا قاسيًا أدفعه به عني، فأجلس حيث ينتهي بي المجلس، على ما أهوى لا على ما يهوون، لا أستجيز أخذ مقعد أحد يعده المسكين مكانًا مشرفًا له، ولا أختار موضعًا يأتي بعد لحظة شخص أكبر مني فأضطر إلى أن أتنازل له عنه.

وكانت لطبقة الأعيان في مجالسهم عادةٌ من أقبح ما يسجل من أنواع العادات، سَرَتْ إليهم من العثمانيين، وهي عملية أخرى تأتي بعد العملية المتقدمة التي كان فيها الدفع والجرُّ والحلف، لا تقلُّ عن صيغة إجلاس القادم غرابة، وهي أنهم إذا جلسوا يسودهم السكوتُ بضع ثوان، وناظورة المجلس، ومن كان في طبقته ومقامه يتغامزون، يرجو الواحد من صاحبه أن يبدأهم بالتحية. فيصرف المتشاكلون في السن أو المقام وقتًا حتى يتم السلام، وينال الكبير في نظرهم هذا التشريف، ويفض هذا الإشكال، وبعد ذلك يحق لأهل المجلس أن يسلموا على القادم الجديد، وقد بطلت هذه العادة، وهي من أسخف ما أُلِفَ.[١]

وتجيء بعد ذلك مشكلة أخرى، وهي: تقديم القهوة للحاضرين. فيأتي من يقدِّر الخادم أو الخادمة أنه كبيرهم ويخصه بالفنجان الأول فلا يرضى أخذه، فينشأ المناول ينتقل، بما يحمل، من ضيف إلى ضيف، ويأبى كل من يقدم إليه تناول فنجانه، ويشير هذا بأنه يخص بهذا الشرف من هو أكبر منه، وتبدأ الأيمان والرجاءات، وقد يقوم بعضهم من مكانه ويحمل فنجانًا إلى آخَرَ يراه لائقًا بالإكرام، وعندئذ يستقر الرأي على أن يتناول المقدَّمون أقداحهم ويتمتع الباقون بأخذها. وذلك بعد أن ينفد الصبر وتبرد القهوة أو الشاي وغيرها.

وفي الغرب يتناول المرء ما يُعرض عليه وقد يؤثرون السيدات بالتقديم، ثم يأخذ الرجال بدون تفريق بين كبير وصغير، ويرجع ذلك إلى تقدير الساقي. وقد اقتبسنا

عن شيوخنا عادة البدأة بالميامن، فيقدم الساقي آخذًا من اليمين، أي: يمينه، ولو كان المتناول الأول وليدًا أو وضيعًا بالقياس إلى من في صدر المكان، وهي عادة مستحسَنة توفر على الناس أوقاتهم وأيماناتهم.

ومن منكَر عاداتهم إذا اجتمعوا: أن يخلطوا في الأحاديث، وقد يهمس الجار مع جاره، ويخرجان عن أدب الاجتماع، هذا إذا لم يتكلموا كلهم معًا بحيث يضيع النظام، وفي الحديث: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يَحْزُنُه.» ومن أسخف العادات التي سَرَتْ إلينا حديثًا أن بعض الظاهرين، أو الذين يحاولون أن يظهروا بمظهر المُمَدَّنين من أهل الساحل خصوصًا يكلمونك بعربية فيها بعض ألفاظ لَقَّفُوها من الفرنسية، على حين ليس المتكلم بأَعْرَفَ بها من الملاحين ونُدُل الفنادق، فإذا اجتمعتَ إلى أمثاله أَزعجك برطانة ممزوجة بلغات شتى تشبه لغة مالطة، وربما اعتذر إليك هذا المحدث أنه لا يحسن إلا الفرنسية فلا يدور لسانه بلغة العرب على ما يحب.

وقد رأيت المصريين، على اختلاف طبقاتهم، ممن يحسنون إحدى لغات العلم أو أكثر من لغة، تعاشرهم أيامًا ولا تشعر أنهم يعرفون لغة غربية، يخاطبونك بألفاظ عربية فقط لا يخلطونها بمفردات أعجمية ولا يتفصحون أمامك بغير لغتهم. وهذا هو الفرق بين من تمدن حقيقة ومن يحاول أن يعد من المدنين. إن هذه الظاهرة في المصريين والشاميين تُشعر بما بين الثقافتين من فروق، وتوشك لهجة بعض أهل الساحل الشامي أن تكون كلهجة أهل الجزائر لا يفهمها العربي القُحُّ؛ لِمَا دخل فيها من لفظ أعجمي.

ومن أبشع ما أَلِفُوا من عاداتٍ عادةٌ لهم يطبقونها في الشارع، وذلك أن أحدهم إذا صادف أحد معارفه، وقد يكون هذا مع صاحب له أو مع سيدة ووقته يحفزه للإسراع، لا يتحرج من أن يستوقفه ويسأله أسئلة عرضت لخاطره في تلك الساعة، ورفاقه ينتظرون الفرج لحلِّ عقاله ليحلَّ عقالهم معه، وقد يكونون مثله ضيقًا وقتهم، ويحاولون الوصول إلى مكتبهم مسرعين، وربما كان إيقافه هذا لسؤاله عن الحوادث التي تنشرها الجرائد كل يوم، أو لأخذ رأيه في مسألة سياسية تشغل البال، ويحتاج الجواب عليها إلى بضع دقائق أو أكثر، أو للتوسط لمبطل، أو للسؤال عن عاطل إلى غير ذلك من التافهات.[٢]

ووقاك الله من سخافات القوم في دعواتهم، وفيها تتجلى درجتهم في المدنية، وتقرأ نفسياتهم الغريبة، فقد يدعو الرجل أحبابًا أو معارفَ له، لا رابطة تربطهم، ولا سبق لهم أن تعارفوا، ويتفق أن يكون في المدعوين بعض المتعادِين المتخاصمين، أو المتنافسين المتباغضين، فتحصل سكتة في الجلسة، ويَقْطِبُ بعضهم، وتهيج أعصاب آخرين، ولا

يهنئهم الطعام والشراب، ولا يطيب سمرهم وحديثهم، وقد يقذف بعضهم بعضًا بتعريض مؤلم، ويُسمعه ألفاظًا جارحة فيتألم المقذوف فيه أو المعرَّض به، وتنقبض صدور من لا غرض لهم في سماع أشياء هُمْ في غنًى عن سماعها في مثل تلك الساعة، وهي ساعة السرور والراحة، وصاحب البيت يحار في إرضاء ضيوفه، ويحاول التوفيق بين المتعادِين. ولهذا جريت على القاعدة الأمريكية بتعريف المدعوين شفاهًا أو خطًّا بمن دُعِيَ معهم وكثيرًا كان بعضهم يعتذر عن إجابة دعوتي بوجودِ مَنْ لا تروقه حشرته بينهم، وجرى على هذا أحد أصحابي فارتفع بعض الحرج في الدعوات.

وفي العادة أن يأتي المدعوُّون بعد الميعاد الذي ضربه لهم صاحب الدعوة، وكثيرًا ما يتخلف بعضهم ساعة عن الوقت المقرر، وصاحب المائدة لا تسمح نفسه أن يقدم طعامه لمن اجتمع، فيشتد بهم الجوع، ولا يدرك الداعي أنه بإكراه مَنْ حضر على انتظار مَنْ تخلف يحتقر مَنْ لَبَّى الطلب في الوقت المعين، ويضيع عليهم أوقاتهم، وقد تكون لهم مواعيدُ أخرى، ولا يأذن بإطعام مدعويه إلا إذا تم الحشد كله. وربما حدثتْه نفسه أن يرسل ولده أو خادمه يسأل عن المتخلف ويستحثه أو يهتف له بالهاتف، وفي الغالب أن المتخلف لا يعتذر شفاهًا ولا كتابة، وعلى هذا يستلزم تناوُلُ وجبةٍ من الطعام أن يَصرف المدعوون ساعات.

ومن المستحيل ضبط المواعيد في هذا الشرق القريب، فالقوم ما عرفوا التوقيت، وربما كان ضبط المواعيد مما يسغربونه ويَصعب على نفوسهم. ومسألة المواعيد مما شغل جانبًا من وقتي، وكنت آلَمُ من الإخلال بها وقد تغلبتُ عليها إجمالًا، وغرستُها في صدور بعض الناشئة، بصعوبات كثيرة، ولقَّنت من أحاطوا بي ورَأَسْتُهُمْ — وإن شق عليهم تحكمي بادئ بدء — أن يراعوا المواعيد أبدًا؛ لِمَا في فوضى الأوقات من الضرر لهم ولغيرهم، وبالإخلال بالمواعيد يُثبتون أنهم شعب منحطٌّ.

وتراهم إلى اليوم متى اجتمع المدعوون على الخِوَان يشد بعضهم بعضًا، فيُجلسون من يحاولون إجلاسه في مقام التكرمة، ثم يجلسون الأمثل فالأمثل بحسب نظرهم أو عرفِهم. وعاداتُهم في تناول الطعام قد دخلها تحسين كثير، فتراهم لعهدنا كالغربيين يجعلون أمامهم أطباقًا لكل شخص، ومعها كأسه ومنديله وسكينه وملعقته وأدوات أكله، يتناول كل إنسان المقدارَ الذي يبغيه، يضعه في طبقه من الصحن الكبير الذي يقدمه الخادم أو غيره، أو يكون على متن المائدة مع سائر الصحون والأطباق، وكان المدعوون كلهم قبل خمسين سنة يتناولون المرق والحساء وجميع السوائل من إناء واحد،

على نحو ما كانوا يتناولون المائعات ويشربون من إناء واحد، وكان والدي وأنا طفل يخص كل إنسان من أسرته أو ممن يدعوهم بإناء يجعل لنا فيه حصتنا من المرق والحساء، وبعض المدعوين يستغربون ذلك منه. وكانت سكاكينهم أصابعهم، وملاعقهم حفناتهم، والملاعق إذا وجدت تكون من الخشب غالبًا، ولا يزال لها أثر في بيوت الفلاحين المُعْدِمين، وإذا طعموا أو شربوا سمعت لهم قرقرة على صورة مستنكرة، تدل على جشع ونهم، ومن عاداتهم إذا تناول أحدهم كأس ماء أن يبادره الحضور كلهم بقولهم: «هنيئًا» فإذا شرب على المائدة ثلاث مرات وكان مواكلوه عشرة أشخاص فقد يضطر إلى أن يجيب كل واحد بمفرده: «الله يهنيك.»

ومن عادات الغرب الجديدة التي سَرَتْ إلينا: التَّأَنِّي في الطعام وإجادة المضغ والبلع، وقَلَّما يُسمع من أحدهم صوت ماضغَيه عند التهام اللقم، أو كرع الماء أو الشراب، أو تناوُل الحساء أو المرق. ومعيب أن ينفخ أحد على الشاي أو اللبن الساخن أو القهوة أو غيرها حتى تبرد، وعليه ألا ينتش أشياء من الطبق العام إلا بملعقة خاصة بالطبق نفسه، ويدَّخر ملعقته وشوكته لطبقه الخاص، فيأخذ ما يأخذ جرعةً جرعةً بدون أن يسمع صوت لما يكرع أو يَشْرُق، ولا يمد يده زيادة عن اللزوم، ولا يقف على قدميه لأخذ ما بَعُدَ عنه من الأطباق والأبازير والمشهيات والخبز والماء وغير ذلك مما يُجعل على الخِوَان عادة، وله أن يطلب ذلك بأدب وصوت خافت إلى مجاوره ومواكله القريب، وهذا يرى من واجبه أن يخدمه في ذلك، ولو كان كبير المنزلة، وإذا تعديت حدود مقعدك فمددت يدك إلى شيء بعيد عنك تعد حركتك احتقارًا لمن كان إلى جانبك.

ومن أبشع ما يأتيه بعضهم: التجشُّؤ بصوت عال، والتنخع بما يسمع صداه، وأن يعيد المتنخع طيَّ المنديل الذي ألقى فيه نخامته. أما البصاق على الأرض والتمخط باليد كيف اتفق، وإدخال الأنامل في الأنف لإخراج النخامات وإدخال اليد في الأذن لاستخراج أوساخها (أُفِّها) واستخراج وسخ الأظافر (نتنها) فمن أفظع العادات، ومن أبشعها أيضًا خروج بعضهم إلى السوق بمنامته (بيجامته)، فثوب النوم لا يجوز أن يظهر به في الشارع إنسانٌ يحترم نفسه.

ومما يُستنكر: أن يضع الجالس يده على المائدة ويضغط عليها بكُلِّيَّته، وأن يؤذي جاره برجليه ويديه. ويستنكرون تشديد الداعي على أحد مدعوِّيه ليطعموا من لون لا تميل إليه نفسه، والزيادة من لون تخطاه وما استطابه، أو إكراهه على أخذ قطعة من الحلوى يعتقد أن معدته لا تحتملها، وتضطره من الغد إلى مراجعة الطبيب. وكم تُحلف

أيماناتٌ في مثل هذه الأحوال حتى ينزل المدعوُّ على إرادة الراغب ويتناول بالإكراه ما يحب له صاحبُ المائدة.

ومن عادتهم في المآتم: أن يجرى العزاء ثلاث ليال على الميت في بعض البلدان، فيأتي إلى دار الفقيد أصحابُه ومعارفه، يستقبلهم أولاده وإخوته وأبناء عمه وأهله، ولا يجري حديثٌ سوى السلام ثم تناوُل القهوة واللفائف، على حين أن آل الفقيد أو الفقيدة هم في حاجة ماسة إلى من يسليهم، ويحوِّل مجاري أفكارهم، ويهون عليهم مصابهم، والرجال في هذا الباب كالنساء إلا أن النساء لا يتناوَلْنَ القهوة ولا الدخان في وسط الجمع. وهذا من أسخف ما يدون أيضًا، كأن المعزين يقولون بلسان الحال: ها قد جئناكم وعزيناكم، ولو جلسوا دقيقة واحدة، والغالب أنه لا يتجاوز مقدار الجلوس دقائق قليلة. وإذا كان المعزَّى به جليلَ القدر بين قومه، فالمعزُّون به يَكثرون، والمكان مهما اتسع لا يستوعب القادمين في ساعة واحدة، ولذلك يعمدون في مصر إلى الخيام ينصبونها في الحارات يقبلون فيها المهنئين في الأفراح والمعزين في الأتراح.

وعند بعض الطوائف الإسلامية في الشام تكون التعزية بالميت — ويسمونها الأجر — مصيبةً على آل الفقيد؛ لأن معارفهم يأتونهم من أماكن بعيدة فيضطرون إلى إطعامهم وإيوائهم.

هذا وصف قليل من عاداتنا، وهو موضوع جدير بأن تُكتب فيه الكتب والرسائل، وتوضع في بيانه الخطب والمحاضرات، ومن حسن الحظ أن عادات الإفرنج التي تعبوا أحقابًا في إصلاحها، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من الكمال في الجملة، أخذت تسري إلينا من حيث لا نشعر، وتدخل علينا من طرق مختلفة، من طرق الاختلاط بالغربيين، أو بالرحلة والسياحة والهجرة، أو من طريق التعلم في المدارس، ومن الاختلاف إلى الفنادق والمطاعم التي ينزلها الأجانب. وقد تَسَوَّغْنَا بعضها وتمثلنا بعضها؛ لما حَوَتْ من اليسر والنفع.

ومن العادات التي نشأت مع المدنية الحديثة: جلوس الرجال إلى المائدة الرسمية وملاحظة قربهم وبعدهم من الكبير صاحب الدعوة فإن المصطلح الذي جرى العمل به في مآدب الملوك والأمراء والوزراء والكبراء مما يصعب تطبيقه، وربما أدى بعض الخلل فيه إلى مشاكلَ وأَخْذ ورَدٍّ تُعد في نظر العقل من العبث، والغالب أن أمثال هذه الضيافات تنفضُّ عن حدوث شيء في بعض الصدور وقل أن يرضى أحد بحقه، ومعظم الناس لا يرون أن يتقدم أحدٌ عليهم لاعتدادهم بأنفسهم أو لأنهم هم شيء بالنسبة

إلى المجتمعين الذين لم تسوِّدهم غير رتبهم ومناصبهم، وهم يوم يتخلون عنها أناسٌ عاديون أو أقلَّ من ذلك، يُسمُّون هذه العملية: «البروتوكول» وإذا اشترك النساء في هذه الولائم الرسمية تتصدر المرأة، بحسب رتبة زوجها ومقامه الرسمي، وهناك مصطلحات في اللباس والأوسمة وغيرها مما يحتاج مُعانيه إلى درس خاص أو إلى مراجعته في كتبه كلما دُعي إلى دعوة.

في أمثال الإفرنج: «قل لي من تعاشر أقل لك من أنت.» ثم قاسوا عليه معنًى آخر، فقالوا: «قل لي ما تأكل أقل لك من أنت أو قل لي ما تطالب به أقل لك من أنت.» ونحن نقول: «أرني كيف تعاشر قومك أقل لك من أنت.» لا جرم أن لكل أمة نوعًا من الآداب الاجتماعية قد تختلف عن آداب أمة أخرى، وإن كانت المصطلحات المعقولة عامة للخَلْق، ولو تباعدت أقطارهم واختلفت أصولهم وعناصرهم. كانت للعرب عادات حسنة اقتبست بعضها الأُممُ الغربية، ولما جاءنا الغربيون بهذه الحضارة الحديثة وأصبح من اللازم اللازب أن نأخذ عنهم بعض ما ينفعنا من عاداتهم المستحبة، سنة طبيعية في الخليقة يأخذ المتأخر عن المتقدم والجاهل عن العالم.

يقول الإفرنج: إن للظهور في كل مكان بمظهر لائق لا مطعن عليه تجب معرفة العادات المتبعة في الأحوال العادية وغير العادية، إن السير والجلوس والقيام والسلام ودخول المجلس والاشتراك في حديث، كل ذلك، في ظاهره، من الحركات السهلة يقوم بها المرء في يسر ومعرفة، وعلى الإنسان ألا يخرج عن حد الحركات الطبيعية، وحالة المرء بين الجماعة لا تشبه حالته في بيته، فإن للجماعة أدبًا وللمجتمع مصطلحات، مَنْ لم يُراعِها عده العارفون أَخْرَقَ.

اصطلح الغربيون إذا التقى شخصان في الطريق وكان يعرف أحدهما الآخر ولا يريدان أن يقفا ليتكلما أن يسلم الأصغر سنًّا على المتقدم في السن، وأن يبدأ المرءوس رئيسه بالسلام، وأن يتقدم الرجل فيسلم على المرأة، وإذا وقع اجتماعهما فأحبا أن يتكلما فالكبير، أي: الأكبر سنًّا، أو المرأة يجب عليهما أن يصافحا جليسهما أولًا.

لا تقبَّل يد فتاة ولا يد سيدة في مقتبل عمرها، وتقبَّل يد النَّصَف من النساء احترامًا لها، وإذا التقى رجلان على سلم لا يحيِّي أحدهما الآخر إذا وقع الوجه على الوجه إلا إذا كان أحدهما شيخًا، وفي تلك الحال يجب على الشاب أن يبدأ بالسلام والاحترام. وإذا التقى رجل بامرأة في هذه الحالة وجب عليه أن يفسح لها الطريق ويسلم عليها، وعلى الصبية أن تفسح المجال للطاعن في السن حتى يجتاز السلم، وواجب الرجل إذا صاحب

امرأة أن يتقدمها في الصعود والنزول من السلم. ومن واجبه في دار ذات آلة مصعدة إذا لقي امرأة، وإن لم يكن يعرفها، أن يخرج آخر الراكبين في المصعدة؛ ليعيد أدوات الصعود والنزول إلى حالها السابق.

ويُفرض على أهل الصناعة الواحدة، ومن تكون لهم، بحسب حرفتهم، علائقُ مؤقتةٌ كالقضاة والأطباء والموظفين ورجال الدين وغيرهم، أن يرعى بعضهم بعضًا، وأن يعامل كل واحد صاحبه بأعظم ما يكون من الأدب، وعلى النازلين في دار عظيمة ذات مساكن كثيرة أن يتحاشَوْا كل ما يضايق الجيران ويضجرهم بدون ضرورة، فلا يُحدثون جلبة وضوضاء في ساعة متأخرة من الليل، ولا يأتون بحركة تُسمع على غير ميعاد، ولا يمتاحون الماء من بئر ويستقون من منهل في وقت يضر الجار.

وعلى الرجل المهذب أن يحترم عادات المؤمنين في بيوت العبادة ويجاريهم على القيام بها. وأن يلزم الصمت وإن كان ممن لا يشارك أهلَها في عقيدتهم، ويحافظ على الشعائر الظاهرة مِنْ مِثْلِ رفع القبعات عن الرءوس عند النصارى، والاحتفاظ بها عند الإسرائيليين، ونزع الأحذية من الأرجل عند المسلمين.

التزاور أنواع: فمنه زيارة المرء للشكر على هدية، أو لمعروف أسداه إنسان لآخر، أو لتهنئة بمنصب بَلَغَهُ الصاحب، أو لحدث سعيد وقع في الأُسرة من مثل ولادة ولد وزواج أحد. وعلى الجملة فإن الصاحب يزار للاعتراف بالواجبات التي تربط الزائر بالمزور بروابط الحب، وعندهم نوع من الزيارة يدعونها زيارة الهضم، وهي زيارة تجري بعد حضور مأدبة ببضعة أيام. والدعوة إذا لم يَستجب لها المدعوُّ كان عليه أن يزور الداعين معتذرًا. وتجري عندهم زيارات التعزية بين أقرباء المتوفَّى خلال ستة أسابيع تمضي على دفن الميت. وإذا كانت الصلات وشيجة مع أُسرة المتوفَّى، فمن العادة أن يزور المرء بيته عندما يبلغه نَعِيُّه، ومن كانت علاقاتهم كثيرة يضعون عند البواب سجلًّا يسجلون فيه أسماء من يود أن يظهر بمظهر لطف وأدب.

وفي زيارة العروسين يقدم كل منهما زوجه إلى جميع أهله وأصحابه، وكانت هذه الزيارات إجبارية فأصبحت اليوم اختيارية، وتقتصر على الأدنَيْن من ذوي القربى، أو مَنْ يراد عقد صلات معهم من المعارف. والزيارات الرسمية يقوم بها الموظفون، فيزورون أرباب الدولة من رجال الإدارة والقضاء والجيش زيارة مرءوسين لرؤسائهم، يزورونهم جماعات أو فرادى، خصوصًا عند نصب الموظف الجديد أو مغادرته منصبه، وكذلك يزار في أول يوم من السنة. وقد بطلت زيارات العام الجديد فلا يزار إلا الشيخ من

الأقرباء في رأس السنة. ويمكن أن تتم هذه الزيارات خلال شهر كانون الثاني بأجمعه، وقد يُستعاض عن هذه الزيارة بإرسال بطاقة.

وإذا كان المرء متغيبًا عن داره، أو لا يحب أن يستقبل زواره يدفع الزائرُ بطاقته إلى الخادم الذي يفتح له الباب، بعد أن يثني منها الجهة اليمنى أو يثني إحدى زواياها الأربع، وله أن يكتب عليها كلمة تأسُّف على عدم الاجتماع. وإذا لم يكن الزائر ممن يعرف صاحبة الدار وكانت زيارته لها أول مرة، يخبر عن نفسه بواسطة الخادم، أو يعرِّف بنفسه عند تسليمه عليها، وعلى الزائر أن يطرح في مدخل الدار معطفه وقبعته ويأخذ بيده قُفَّازيه، وعلى صاحبة الدار في تلك الحال أن تعرِّف ضيوفها بعضهم إلى بعض، تبدأ من الصغير فتقدمه للكبير، ومن الفتى فتعرِّفه إلى الشيخ، وتقدم الرجل للمرأة، وعلى الداخل أن يجلس على المقعد جلسة أدب لا كبرياء فيها، وأن يشارك في الحديث، ولا يحاول لفت الأنظار إليه فقط، وعليه ألا يتوخى إطالة الزيارات بدون ضرورة، فالزيارات الرسمية قصيرة بطبيعة الحال، وإذا كان الحشد كثيرًا يَستأذن من يحب الانصرافَ صاحبةَ الدار مكتفيًا بالسلام على الحاضرين.

وعلى المتكلم أن يبين في كلامه، ويتخير العبارات التي يلقيها على المسامع، ويبتعد عن التعابير العامية الساقطة، وألا يعمد إلى الثرثرة والتفخيم، فإن في حسن الاستماع وحسن السكوت في الوقت المناسب جِماعَ فن التحدث إلى الجلاس، والأدب يحظر على المخاطب كلامه بدون ضرورة، وإذا ارتكب المرء ذلك فالواجب أن يعتذر.

إذا جرى على لسان المتكلم ذكر امرأته أطلق عليها «امرأتي» أو «السيدة فلانة» وهذا في حالة كلامه رجلًا أقل منه منزلة، وتطلق المرأة على زوجها كلمة «زوجي» أو «السيد فلان» وإذا جرى بين رجل وآخر حديث امرأته أو ذكرت المرأة رجلها فيقال: «سيدتي فلانة» أو «سيدي فلان» ولا يقال: «سيدتك» و«سيدك» ولا ينادى الأشخاص بأسماء أسرهم خلال الحديث بل يقال: «سيدي» «عقيلتي» «آنستي» فقط.

تُرسل الدعوات إلى المدعوِّين قبل المأدبة بشهر على الأكثر، وبثمانية أيام على الأقل من الأجل المضروب لها. وتقضي العادة أن يسارع المدعوُّ إلى الإجابة بالقبول أو الرفض ليعرف الداعي عدد المدعوين بالضبط فإذا عرض ما يمنع المدعو من إجابة الدعوة بعد قبولها فمن الواجب إرسال كتاب بالاعتذار. ويُعد التخلف عن القول المقطوع بدون أسباب جوهرية خروجًا على قواعد الأدب والتهذيب.

وإذا اضطر الداعي أن يعدل عن إقامة مأدبته أو يغير تاريخها لمرض عرض أو حزن وقع، أو لغير ذلك من الأمور التي ما كانت في الحسبان، فعليه أن ينذر جميع

المدعوين بما أمكن من السرعة ببرقية أو رسالة هاتفية مبينًا لهم أسفه العظيم لما جرى. وأول واجب على صاحب الدار وعلى من دعوا إلى دعوة رسمية أو دعوة أصحاب خاصة أن يدققوا في المواعيد، فإذا طال تخلف أحدهم أو جُلُّهم فمن اللائق بمن حضروا ألا ينتظروا من تخلفوا عن الحضور أكثر من ربع ساعة، وإذا تقدم المدعوون للجلوس إلى المائدة وجب على صاحب الدار أن يأخذ بيمين أكبر الحضور سنًّا أو أعظمهم مقامًا، وتتقدم صاحبة الدار آخر الداخلين، وقد تأبطت ذراع أكبر الحاضرين سنًّا ومنزلة. ولا يجلس أحد إلى الخوان قبل جلوس صاحبة البيت، وتكون مقاعد التكرمة المشرفة على يمين أصحاب الدار ثم على يسارهم ما أمكن، وتُجعل امرأة إلى جانب رجل، ورجل إلى جانب امرأة، وفي المآدب المكلفة والدعوات الرسمية، وفي البيوت التي يجرى فيها استقبال الموظفين وأرباب الألقاب والمراتب، يكون حق التصدر والتقدم من المسائل المعقدة. ويخص أرباب البيوت الذين يدعون لحضور مائدتهم بعض رجال الدين بمقعد تكريم إن لم يكن المدعو من أبناء الأُسرة أو صديقًا حميمًا لها. فيتصدر الشيوخ والأهل في المقاعد الأولى بعد النابهين، وذلك في الدعوات الكبرى، أما في الدعوات الخاصة الأهلية فلهم مقاعد التكرمة حتمًا، ويجلس ذوو القربى حسب أعمارهم لا بحسب درجات القرابة ويشغل أولاد الدار بالطبع الكراسي الأخيرة.

وتزين سفرة الطعام بأشياء لا تُرْبِكُ من يجلس إليها بحيث يترك المجال للجالسين أن يرى بعضهم بعضًا وأن يتحدثوا بدون عائق. وقد بطلت الزينات المعقدة من المائدة، ويُكتفى اليوم بزنبيل أو زنابيل من الفاكهة، وبجامات تضم زهورًا وورِدًا طبيعيًّا، وقد يُستعاض عن الأزهار بسلات أو جامات من الفاكهة.

وفي الموائد العادية يُبسط غطاء على الخوان وتُتخير الأواني من الملونة الألوان الجذابة لتورث تلك الدعوات الأهلية سرورًا وبهجة. ويرجع تنويع ذلك إلى ذوق ربة الدار. ولا يجب أن يُشغل وسط المائدة ولا تُلقى على متنها أشياء تزينها زينة خفيفة، ولا يكون عليها من الأدوات إلا ما لا بد منه، ويجب أن تكون الأواني والفضيات والجامات ناصعة برَّاقة تلمع وتضيء، وأن يجعل المدى بين مقاعد المتآكلين من ٦٠ إلى ٧٠ سنتيمترًا، ويجعل تحت السماط أو غطاء المائدة ما يمسك به، وتجعل الشوكة إلى يسار الصحن والملعقة على اليمين، ويدار حد السكين إلى جهة الصحن، وتُصفُّ الكاسات بحسب حجمها، وتوضع صراحيات الماء على المائدة وحقة الملح والفلفل. ومن المتعذر تعداد جميع الأدوات الصغيرة التي اخترعت لإكمال فن الأكل.

أما الجلوس إلى المائدة فإن الشخص المهذب لا يجلس ملتصقًا كثيرًا بها ولا بعيدًا عنها، ويكون منها على بعد مناسب ليتأتى له أن يتحرك في سهولة، وتكون حركاته موزونة رصينة، فيتوقى الآكلُ، بمراعاة ذلك، ما قد يحدث له من أمور يَضحك منها الحضور، كأن يقلب الشراب على غطاء المائدة، ويلقي الطعام أو الأواني ويلوث الثياب. وحُسْن جلسة المرء إلى المائدة صفة حسنة يمتاز بها أرباب الذوق السليم.

وليس للجالس إلى المائدة أن يستند إلى مؤخرة الكرسي ولا أن يتكئ على المائدة، وإذا تكلم كان عليه أن يخفض صوته، ولا يسأل ضيفًا جالسًا في الناحية الأخرى من المائدة شيئًا، ويمسك الفوطة مطوية نصف طية على ركبتيه ولا يبسطها على صدره، وعلى الآكل ألا يسرع ولا يبطئ في القضم، وألا يخرج صوت لسانه أو ماضغيه ولا يحدث حركة في الأواني التي أمامه ولا يتكلم ولا يشرب إذا كان فمه ملآنًا، ولا يمسك العظام بأنامله ولا يغمس خبزته في الطبق، ولا يقطع الخبز بأصابعه، ويتناول الملعقة بيده اليمنى ويجعلها بين الإبهام والسبابة تدعمهما الأصابع الوسطى، ولا تملأ الملعقة بحذافيرها لتحمل إلى الفم، وإذا انتهى المدعوون من تناول الحساء توضع الملعقة بلطف في الصحن، وتدار إلى تحت الوجه المسنَّم منها، ويقبض على الشوكة باليد اليمنى ليتناول الطعام الذي لا يحتاج إلى قطع كاللحم الرخص والسمك والخضراوات والبيض. أما اللحم الصلب والفاكهة اللحيمة والجبن القاسي والحلويات السميكة فإنها تستلزم استعمال السكين وهذه تقبض عليها في تلك الحال باليد اليمنى، وباليسرى يعين الآكل بالشوكة القطعة التي يراد قطعها. ويتناول الآكل كل لقمة عندما يقطعها حاملًا لها إلى فمه باليسرى، ويجب ألا تقطع كل القطعة دفعة واحدة ثم يشرع بأكلها.

يُبدأ في الموائد الرسمية بالسيدات الجالسات على يمين صاحب الدار، وتُقدم الأطباق من يسار الشخص الجالس ويُجعل الصحن، أو يقدم، من اليسار، وفي المآدب العارية عن الرسميات التي جرت العادة أن يقطع فيها صاحب الدار اللحوم ويقدمها لمواكليه، يرسل الصحون والأطباق الملوءة مبتدئًا بالشخص الجالس على يمينه.

هذا بعض ما على الرجل والمرأة أن يتحليا به من أدب المعاشرة، اقتبستُه عن أشهر من يعانون هذه المسائل في الغرب، ورجائي أن يتعلمه بنو قومي فإنه لا غنية عنه لامرئ يعيش في هذا الجيل مع أُمم الشرق والغرب.

هوامش

(١) يكاد يُجمع أرباب الرحلات من العرب على أن عادات الدمشقيين في السلام والقيام والاحترام غريبة في بابها، تخرج عن حد المجاملات وتدخل في باب المصانعات. ومن حسن الحظ أن ضعفت هذه المصطلحات بانتشار المدنية الحديثة، ولا يزال الأثر ضئيلًا فيها بين الشيوخ من الطبقات التي كان يُنظر إليها في الجيل الماضي. وقد تأصلتْ هذه العادات في سكان الحواضر على الأكثر، ورأيت منها في عاصمة القطر المصري ما لا يقل عما يُرَى في عاصمة الشام، ومصرُ حكمت الشامَ والشامُ حكمت مصرَ والروح واحد في القطرين، والعادات متشاكلة إلا قليلًا.

(٢) كثيرًا ما كان يستوقفني بعضهم فأمتنع عن الوقوف، وهم يقسمون على أن أجيبهم إلى سؤالهم دقيقة واحدة فلا أجيب ولا أقف، وجوابي وأنا مسرع الخطى: إن الكلام في الموضوع لا يتأتى في الشارع، وإن مثل هذه المسائل يبحث فيها على خلوة وفي وقت فراغ. كنت في وزراتي الأولى خارجًا من داري صباحًا قاصدًا مكتبي على قدمي، وكان الشارع مكتظًّا بالخَلْق والطريق يجرى تعبيده، والمعبدة ذاهبة جائية، وقضبان الحديد الطويلة محمولة على العجلات، وعربات النقل تحمل الأحجار والأسمنت والجص، والفلاحون آتون بحاصلاتهم إلى الأسواق على بهائمهم، ومركبات الترام واقفة لا تستطيع أن تتقدم ولا أن تتأخر. وفي هذه الحال من الازدحام الخَطِر اقترب مني أحد معارفي من متقاعدي ضباط الجيش، وسألني حَلَّ قضية لأحد أقاربه، فقلت له: تعال إلى مكتبي نبحث في المسألة. فقال: أود أن تعطيني رأيك الأخير، وتعاهدني على أن تسير بما يلتئم مع مصلحة نسيبي، فأجبته أن المسألة تحتاج إلى أن أرجع إلى إضبارة القضية، وأظنني قلت: ومراجعة القانون، فقال: أنا أطلب منك ذلك لأَمَلي فيك، فقلت: الآن يتعذر ذلك، فأنت ترى أننا في خطر من هذا الزحام، والفكر مصروفٌ إلى التَّوَقِّي من الصدمات. فتأفف من كلامي، وعندها قلت له، متألمًا من قلة ذوقه: أنت تخرجت من مدرسة نظامية، وتوليت أمورًا إدارية في الجيش، فيما أحسب، وتعرف أكثر من غيرك معنى الرجوع إلى المعاملة الجارية، فما هذا التحكم؟

وكأن مثل هذا المعجز يلتمسون مني في الطريق أن أقضي لهم أشغالهم، كما قد يطلبون إلى الطبيب أن يعطيهم تذكرة يصفها لمداواتهم وهو سائر في الشارع، ويقرظونني ويقولون: إن مسألتهم مهما كانت صعبة فبيدي حلها، أو ما أشبه ذلك من عبارات الإغراء، كأن الوزير جاء ليعمل لأرباب المصالح بدون التقيد بالقوانين، وليُرضي

كل إنسان بما يحب، بالحق والباطل، ولذلك اضطررت في الوزارة الثانية إلى استصحاب شرطي وبخاصة إذا كنت وحدي سائرًا على قدمي؛ والعوامُّ قد يرهبون الشرطي أكثر مما يخشون الوزير؛ لأن الشرطي يدفع عن مخدومه من يقع في نفسه دَفْعُهُ، ينحيه عنه باللطف أو بالعنف، وإذا اقتضى الحال يكتب فيه محضرًا أو ضبطًا. أما الوزير المسكين فلا يستطيع عمل شيء من هذا، وغاية ما يتطلب من حلم المراجعين أن يشخصوا إليه في مكتبه، ومكتبه مُفْتَحُ الباب لهم ساعاتٍ من النهار، وهو وديوانه مستعدان لحل المشاكل، وقد تُقدم لهم القهوة والشاي والمرطبات ولفائف التبغ ويلاطَفون ويؤانَسون.

القول في نظامنا

إذا وقعتْ أعينكم على شخص يتخطى في المسجد صفوف المصلين ليقف في الصف الأول، وإذا شهدتم رجلًا في بِيعَة يتنقل من مقعد إلى مقعد ليفوز بالجلوس على الدكة التي يتخيلها لائقة به، وإذا سمعتم أن إنسانًا يشوش على الناس اجتماعاتهم ولا يرعاهم ولو كانوا في أقدس قرباتهم وأجمل ساعاتهم، وإذا رأيتم تلاميذ مدرسة يعلو أبدًا ضجيجهم حتى يقلق أهل الجوار، لا يُحسن معلِّمهم أو مديرهم ضَبْطَهم في الفرقة أو النزهة.

وإذا زرتم ثكنة عسكرية أو مخيمًا كشفيًّا ولحظتم أبناءها يقعدون على هواهم يَلغطون إذا تكلموا، ويتدافعون إذا اجتمعوا، ولا يسيرون على تساوق واطراد إذا مشوا ووقفوا، وإذا طَعموا أو ناموا، وإذا عملوا واستراحوا، وإذ بَصُرتم بسائرٍ في الطريق يحاول أن يسبق المارة يدفعهم في ظهورهم أو في وجوههم، أو يضغط على أيمانهم أو على شمائلهم، وآخر يسارع إلى اختراق مواضع المجتمعين على باب متجر أو مشغل أو مصرف أو ديوان أو ملعب أو ملهًى، ولا يراعي في طلوعه إلى الترام أو القطار ونزوله منه النظام المتبع، وإذا شهدتم جماعة يجيئون في غير وقت لا يحفلون مراعاة موعد الاجتماع، وإذا وضح عندكم أن امرأ مرتبكًا في عمله، مخلطًا في حساباته، رسائله مشوشة غير مصنفة، وبضائعه مركومة كيفما اتفق، لا يعرف دخله من خرجه ولا ربحه من خسارته.

وإذا قيل لكم إن مرءوسًا لا يخضع لرئيسه فلا يحضر في الساعة التي يعينها له للحضور والانصراف، وإذا نظرتم فردًا تحدثه نفسه أن يفتح دكانه أو مخزنه أو مكتبه أو معمله في يوم عطلة أجمع السواد الأعظم من أهل بلده على تقديسه، ودخل الاعتقاد بذلك في جملة مقدساتهم، وإذا حدثوكم عن إنسان لا يخضع في عمله ولا في أكله ولا في منامه ولا في نزهته لقانون، ولا يدرك فوائد التوقيت يعمل يومًا ويتبطَّل أيامًا، يفكر في

أمر وقبل أن يبرمه يشرع في آخر، وإذا نُقل إليكم أن ربة بيت تلقي متاعها كيف اتفق، ولا تهتم لوضع الملبوس والمأكول والمشروب في مواضعها. إذا رأيتم كل هذا فاحكموا على من ابتُلوا بذلك أنهم أعداء النظام وعشاق الفوضى.

عرَّفوا النظام بأنه مجموع قواعد مقررة أو أنظمة مكتوبة من شأنها حفظ الترتيب في جماعة أو مجلس، والنظام ضُروبٌ يتناول شئونًا كثيرة، والأمة التي لا يخضع أبناؤها للنظام كالجيش غير المنظم محكومٌ عليه بالهلاك. قالوا إن النظام مراعاةُ أمور ما برح البشر يراعيها منذ العصور الواغلة في القدم، أي: من العصر الحجري، أيام كان الناس يعيشون قبائل رَحَّالة إلى زمن المدنيات الحديثة، والنظام هو الأساس الذي تقوم عليه المجتمعات وهو من الضروري لبقائها.

ولقد بالغت القوانينُ في حماية الفرد حتى لم يعد يستطيع إدراك حسنات هذه الحماية، ولا يتمثل لناظره إلا ما فيها من قيود. وأبان شوبنهور عن رأيه في مصير العالم إذا لم يكرهوا على حرمة القوانين، فقال: ألقت الدولة بحقوق الفرد إلى سلطة تعلو كثيرًا عن سلطته، وأكرهتْه على احترام حق الغير، وبذلك بطل حكم الأثرة التي تفشو كثيرًا في نفوس الجماعة، وامتنعت الشقاوة، وقضي على الوحشية، فالزجر يفيد الخلائق، ومنه تنبعث فيهم ظاهرة تسوقهم وتجذبهم، وإذا أصاب السلطة الحلمية للدولة شيء من الوهن — كما يحدث أحيانًا — لا تلبث أن تبدو للأعين شهوات الناس التي لا تشبع، ويتجلى تزويرهم وخُبثهم وغدرهم.

يقول لبون: إن النظام يحدث ضربًا من التوازن بين الدوافع الطبيعية في الخُلُق الإنساني وبين الضروريات الاجتماعية، وتظهر مكانة النظام متى عُرف أن الشعوب لا تصل إلى الحضارة إلا به، إذا فقدتْه تعود سيرتها الأولى من التوحش. ولقد كان من فقد النظام بين الوطنيين في أثينة أن صاروا إلى العبودية. وعندما بطل احترام النظام في رومية دقت ساعة انحطاطها. ولَمَّا لم يبق إرادة غير إرادة الإنبراطرة الموقتين، ينتخبهم الجند ويخلعهم، كُتبت الغلبة للغزاة من البربر على الرومان، وما هلكت غالبًا الممالك المستقلة على نحو ما اضمحلت أثينة ورومية إلا بقلة من يراعون النظام فيها: فسد القضاء، واختلَّت الجباية وسرى الخَلَلُ إلى كل ما فيه ترتيب اجتماعي ففتحت لقيصر طرق الفتح.

قال لبون: وقد زاد عدد العاصين على النظام في العهد الأخير، وضعُفت كثيرًا سلطة الأب والمعلم والسيد في الأُسرة والمعمل، وبطلت الطاعة والخضوع، وكل يوم يظهر ضعف

الرؤساء عن فرض إرادتهم، وتبدو النفرة من الزواجر والنواهي، ويعادَى كل ما هو سامٍ في ذاته، ويُبغض مَنْ سما بماله ومن سما بذكائه، وفُقد التضامن بين مختلف الطبقات فتناحرتْ وتدابرت، واستهين بالأهداف السامية القديمة، ولا تكبح جماح هذه الريح العاتية من الفوضى التي توشك أن تقلب المدنيات رأسًا على عقب إلا طبقة الأعلياء، وهؤلاء لن يوفقوا في مهمتهم إلا إذا ارتقت أخلاقهم إلى مستوى ذكائهم.

وبعدُ، فمن المحال أن يسعد شعب ويرتاح ويهنأ إلا بالنظام ولن ينتظم أمر، لجماعة تعيث الفوضى في حياتها الخاصة والعامة. وقد يتجلى العمل بالنظام فيمن رُبُّوا تربية جندية فيحافظون على الأوقات، ويسيرون سير من يحب وضع الشيء في محله، ومنهم من يخلع ربقة النظام بعد انتهاء خدمته، لا يعبأ بما كان أَلِفَ، كأن ما جرى عليه شطرًا من عمره كان صباغًا فَنَصَل فتاقت نفسه إلى الظهور بلونه الأصلي. ومن تخرجوا من مدرسة نظامية من الطلاب هم أقرب إلى النظام من أولادٍ ما لُقِّنُوا هذا المعنى منذ طفولتهم. النظام ابن المدنية والمدنية ابنة النظام وكلما رجحت كفة النظام في ميزان أمة عظمت حضارتها. وإذ كان ابن الغرب أَقْعَدَ في هذه المعاني من ابن الشرق جاء الغربيُّ، بالطبيعة، أكثر غناء وهناء.

رأينا الفلاحين وأرباب الحرف عندنا دائبين على نظام فطري من الصباح إلى المساء كأن هناك دافعًا يدفعهم وعاملًا يُحصي عليهم الدقائق والساعات. فهم يبدءون أعمالهم في ساعة معينة ويأكلون في وقت يختارونه لا يعدونه، ويحددون أوقات راحتهم، ولا يعملون أيام العطلة، ولا يتركون عملًا قبل إتمامه، بل رأينا راعي الغنم أو الماعز ينبهه الكُرَّاز بُكْرَةً فيسرح بماشيته فإذا كانت الظهيرة كفتْ عن الرعي وتطلَّبت الماء ثم تقيل وصاحبها منتح ناحية، وهكذا دواليك لا تُخِلُّ بذلك يومًا واحدًا، وهذا أعظم نظام.

وإذا شُوهد اثنان يتشاكلان بذكائهما ورأيتم أحدهما تخطى رفيقه إلى الغنى، وحظي بالقبول عند الناس، فاحكموا بأنه ما أفلح إلا لأنه كان على شيء من مراعاة النظام أكثر من صاحبه، ولولا التشديد في المحافظة على النظام ما استطاع أبو بكر أن يقضي على أهل الردة لَمَّا أزمعوا الخروج على الجماعة، طالبين أن يُعاملوا معاملة شاذة. ولولا صلابة عمر في الاحتفاظ بالنظام ما فتح ما فتح من الأقطار ولا نظم ما نظم بسياسته وإدارته، وجيوش العرب يوم اليرموك والقادسية وأثرها البالغ في الفتح ما كان إلا نتيجة من نتائج النظام الدقيق. كانت جيوشهم يوم اليرموك ويوم القادسية بضعًا وثلاثين ألفًا في كل معسكر، وكانت الروم والفرس أربعة أو خمسة أضعافهم،

ولكن كان في جيوش العرب النظام وفي جيوش أعدائهم الفوضى. نعم ما كانت الغلبة لجيوش العرب في كل مكان اتجهت إليه هِمَمُهُمْ إلا لأنها كانت قوية بنظامها. ولكم أن تحكموا على كل دولة بالقوة ما شهدتم أهلها يتفانَوْن في حفظ نظامهم. لا جرم أن كل من تقرءون سيرتهم من العظماء الذين قدموا وأخروا في مقدرات أمتهم، كمعاوية وعبد الملك بن مروان وسليمان بن عبد الملك وزياد والحجاج وموسى بن نصير وطارق بن زياد والمنصور بن أبي عامر ومحمود بن سبكتكين وعشرات أمثالهم، كانوا على الغاية من مراعاة النظام يُجرون أحكامه على أنفسهم ثم على تابعيهم، فعملوا بالقليل المنظم ما لم يعمل مثله من كان عنده الكثير المُخْتَلُّ.

رأينا الرجال، على اختلاف العهود، يحرصون على نظام لهم تواطئُوا على استحسانه. كتب طاهر بن الحسين لابنه عبد الله بن طاهر من كبار قُوَّاد بني العباس: «وافرغ من عمل يومك ولا تؤخرْه لغدك، وأكثرْ مباشرته بنفسك، فإن لغد أمورًا وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذي أَخَّرْتَ، واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه وإذا أخرت عمله اجتمع عليك أمر يومين، فيشغلك ذلك حين تعرض له فإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت نفسك، وبذلك أحكمت أمور سلطانك.»

وفي الرسائل الصادرة عن عقلاء الملوك إلى عمالهم أشياء من هذا القبيل، أَتَوْا بها في معرض النصح وما هي إلا قوانين فرضوها وأوامر دعوا إلى الأخذ بها. وفي كل أولئكم تحبيب التوقيت ووضع خطط النظام. ولو لم يكن أكثر علماء الأمة على حظ جزيل من النظام ما خلف بعضهم مئات المجلدات، ومنهم من لو قسمت تآليفهم على أيام عاشوها أصاب كل يوم كراس أو كراسان، ومنهم من جمعوا بين السياسة والعلم، فأعطوا، بالنظام الذي اتبعوه، لكل عملٍ قِسْطَه من العناية، وخصوا كل ساعة بعمل فنجحوا في الخطتين، ولقد عجب المسعودي المؤرخ من معاوية بن أبي سفيان كيف كان يقسم أوقاته في المطالعة وسياسة الملك.

ولما فَتَرَ حُبُّ النظام في نفوس من ينتسبون للعلم تراجعت العلوم، وأصبح من يسمونهم بالعلماء كرهبان دير تورين يقضون حياتهم فيما يحبون ويختارون، يأكلون ويشربون متى شاءوا، ويعملون وينامون عندما يبدو لهم، لا يوقظهم أحد ولا يحاول إنسان أن يرغمهم على تناول طعامهم، أو على القيام بواجب، خلافًا لمعظم أهل الأديار التي كانت حياتها بالنظام في الحقيقة، وبه وُفِّقت للقيام بما تقوم به من أعمال البر وإغاثة الملهوف وإطعام الجائع وتمريض العليل.

يقول موروا في كتابه فن الحياة: الواجب أن يكون للعلم نظام، ولقد رأينا الكثيرين يشكون من قِصَرِ الأعمار وليت شعري ألا يعيشون كل يوم ثماني ساعات إن ما يعمله المرء كل صباح وهو جالس إلى منضدته أو مكتبه يأتي بالعجائب. مَثِّلْ لعينيك كاتبًا يكتب كل يوم صفحتين، أَلَا يكون له مما يخطُّ بعد حياة طويلة ما يوازي ما كتبه بلزاك وهوغو، بسعته لا بنفاسته؟ لا يكفي جلوس المرء إلى مكتبه بل الواجب عليه أن يتقي ما يصيبه من أذى قاصديه، وهذا ظاهر بالنظر للكاتب واحتياجه إلى وقت يعمل فيه حتى ينسى العالم الخارجي ولا يستمع لغير ما يجول في نفسه من أفكار، وفي العمل المُقَطَّع أثر الوناء والفتور أبدًا.

وعلى العامل أن يتجهم لمن لا خلاق لهم من أَكَلَة وقته؛ فإنه إذا لم يصمد لمقاومتهم يسلبون منه آخر دقيقة من ساعاته. قال: وكان شاعر الألمان جيته معلمًا صالحًا في هذا الباب، وهو القائل: إن الواجب أن يُقْلِعَ الناس عن اختلاف بعضهم إلى بعض بدون سابق إنذار، طالبين إلى المَزُور أن يُعْنَى بمسائلهم، وأن هذه الزيارات لتأتي بأفكار غريبة ليس من يزار في حاجة إلى سماعها، ولديه من أفكاره ما يكفيه. وكان جيته إذا طرق بابه طارق على الرغم منه لا يرى إلا إعراضًا وتجهمًا فيضع يده وراءه وهو ساكت لا يتكلم، وإذا كان من يغشاه صاحب مكانة يبدأ جيته بالسعال والتأوُّه، ولا يلبث أن يقطع حديثه معه، وكان يقول: آهٍ منكم أيها الشباب، إنكم لا تعرفون قيمة الوقت. وقد ذهب بعضهم إلى أن في عمل جيته شيئًا من عدم الإنسانية، ومخالفة الإنسانية — كما قال موروا — هي التي مكَّنت جيته من أن يكتب قصة فاوست وويلهلم ميستر. لا جرم أن من يستسلم للناس في هذا الباب يُبتلع ويموت ولا يتم شغله، والمغرم بعمله يتباعد عن الأحاديث التافهة، ويحيد عن حضور مجالس يسمع فيها ثرثرات وترهات.

ولقد كان ابن الجوزي — وهو من المؤلفين المكثرين من التأليف — يدافِع لقاء الناس جهدَه، فإذا غلبوه وهاجموه أوجز في كلامه ليحملهم على الانصراف، وهو أبدًا يُعِدُّ أعمالًا تمنع من إطالة المحاورة فيخص ساعة الاجتماع بقطع الكاغد وبري الأقلام وحزم الدفاتر.

طلب أحد رجال السياسة في العهد الأخير مقابلة أمير من أمراء العرب فأجابه إلى طلبه وبعث يقول له على سبيل النكتة: تنزل علينا على الرحب والسعة ولا نشترط عليك إلا شرطًا واحدًا وهو أن تضع ساعتك على الجسر الفلاني في الحدود. يريد أن يقول له: إننا هنا نعيش في الفوضى اللذيذة.

وفي هذا المعنى قال شاعر المتأخرين حافظ إبراهيم — عليه الرحمة — في التأفُّف من النظام؛ لما شهد تَشَدُّدَ الغرب فيه:

أفرط القوم في النظام وعندي أَنَّ فَرْط النظام أَسْر ونير
ولذيذ الحياة ما كان فوضى ليس فيها مسيطِرٌ أو أمير
فإذا ما سألتني قلتُ عنهم أمة حرة وفرد أسير
ذاك رأيي، وهل أشارك فيه؟ إنه قول شاعر لا يضير

القول في عاميتنا

قد يكون المرء في مقام المعظَّم في النفوس، ويكون ممن رفعتْه الدولة، ويكون وجيهًا مُمَوَّلًا، معروفًا بين أهل جيله بحَلِّ المعضلات والبصر بأسرار الحياة، أو إخصائيًّا في علم يتوقف التبريز فيه على دراسة ومرانة، كأن يكون عالمًا دينيًّا، أو فقيهًا مدنيًّا، أو طبيبًا، أو مهندسًا، أو مؤلفًا، خطيبًا، كاتبًا، شاعرًا، مصورًا، موسيقارًا، أو إداريًّا سياسيًّا ماليًّا اقتصاديًّا. قد يكون المرء ممن يُعْنَى ببعض هذه المعارف، وله الحظوة عند أرباب السلطة وفي الملأ، ويَلْقَى الجِلَّة والنبلاء، وهو ينطوي على أفكار عامية، وأدنى إلى أن يسلك في طبقة العوام.

ما العلم إلا صناعة يتقنها أو يتقن بعض شُعَبها من يمارسها زمنًا، أما تمثل العلم حتى يدخل شغاف القلب ويختلط باللحم والدم، وتصفو به نفس صاحبه فتُخرجه من سقيم الأفكار ولوثات الجهالة، فهذا هو الأمر الذي يخطئه الأكثرون؛ وإنك لتشهد الرجل يعجبك سمتُه، فإذا جئت تحدثه فكأنما تحدث جلفًا جافيًا لم يورثه التعليم تبدلًا كبيرًا في عقليته وخُلُقه، فلا تبرح تحس من مجموع حالاته أنه بعض الباعة أو الفَعَلة ولكن بكسوةٍ غير كسوتهم.

كنت مع أحد أصدقائي ذات يوم في حفلة تكريم وكان إلى جانبنا رجل نعرفه ويعرفنا لم يتبين شَخْصَيْنَا لمكان الضعف في بصره، فقال لي صاحبي أنصت، بالله عليك، لنستمع إلى حواره مع أصحابه، فألقيت سمعي، فإذا كلامه لا يتعدى البحث في الأكل والشرب، كلام العامة حذو القُذَّة بالقذة، وكان هذا الرجل تَوَلَّى أعظم عمل ديني، وله في الفقه باع، وقاوم أكبر رجال الإصلاح لهذه العصور الأخيرة. فقلت لصاحبي: عجيب إنه لم يزل على ما كان يوم أرسله أهله من مزرعته لتلقي العلم في الأزهر، لم تَنزع منه

المقامات التي وصل إليها ما ورث عن آبائه من خلق، وما أثر فيه ما رأى في الحضر من آداب، وأزيد الآن أن تآليفه أيضًا كانت مشبعة بروح العامية، ومجادلاته مع خصومه تَرْشَحُ من العامية، ليس لها من جلال العلم كبير أمر.

قال لي شيخٌ تولي كبريات المناصب الدينية متمجدًا: إن أباه كان من أولياء الله تعالى وإنه كان صاحب كرامات، ومن كراماته أنه كان يطعم من طعام إنسانٍ واحدٍ خمسين ألف إنسان، وهذا أيضًا، على علمه الذي سلم له به أمثاله، كان مفرطًا في عاميته، ما أدرك، على ذكاء فيه، أن مثل هذه الدعوى من رجل على شاكلته في هذا العصر وفي مصر لا تصدر إلا عن رقيع لا يعرف الدين ولا الدنيا.

وسمعت شيخًا من هذا العيار الثقيل يتناغى في مجلس ضم بعض النبهاء بفوائد الطرق الصوفية، وما عادت به على المسلمين والإسلام من الخير؛ ويثبت لأربابها من المزايا ما لا يعتقده فيهم من لم يقرأ حياته كتابًا ولا نظر صحيفة، وعجبت لصدور مثل هذا الكلام من رجل كان يعد صدرًا في الشريعة، وما كان في الأمور الأخرى التي تميز الرجال إلا رجلًا تعلم العلم وما نَجَتْ نفسه من تخريفات، انتقلت إليه من بيته وبيئته، وعاش في سلطانها حتى ضم قبرُه رفاتِه.

وعرفت شيخًا جلدًا ألف في الدين وأجاد فيما تمحض له، وحاول أن يدخل في أمور لا يحسنها، فظهر عواره. كان من طبعه أن يسارع إلى الطعن في كل من يخالف رأيه، وربما كذب عليه ليزيد في إسقاطه، ولا يفتأ يحدثك بما نال من أعدائه وما نالوا منه، ويذكر لك عظيم خدمته للدين وللسياسة، حتى لتمل منه مهما كنت صبورًا، وتتمثل فيه غلظة بعض القرويين، على كثرة من لقي في أمدن مدن الشرق من أعيان العصر الذين تمثلوا المدنية حقًّا، وبلغوا من التهذيب مبلغًا عظيمًا، وقد دون في بعض ما دون سيرة أمه الجاهلة، وصورها بصورة أكبر العالمات. ومما قاله: إنها كانت تعتقد فيه أنه نبي لكثرة صَلَاته، أما أخوه فكان يعتقد فيه الولاية، وكان هذا الرجل مغرمًا بتلقيب نفسه بالألقاب الضخمة يعزوها لأناس مجهولين ممن يراسلونه، ولا يستنكف من أن يسلب أعظم الأحياء والأموات من علماء الملة ألقابهم، لا يعترف لأحد بشيء منها، وقل أن ظهر رجل مغرم بمدح نفسه مثله، اللهم إلا أن يكون ذاك الذي قال عن شخصه: إن أدبه من صنع الله وإن ثقة الجمهور بأدبه من فضل الله، وإنه لن يرتاب بأنه أول كاتب وأول مؤلف وأول شاعر في هذا العصر.

وعاصرت شيخًا آخر ألف مجلدات كبيرة في موضوعات زعم أنها من الدين، وكان على شيء من البيان والفقه، بقي على جمود العامة، ومن في حكمهم، إلى آخر أيامه، وما

كنت تظنه إذا اقتربت منه أكثر من خطيب في قرية، وكنت لو خرجت معه عن موضوعه قليلًا تتجسم لك عاميته الهزيلة، وكان يرى الجمود تدينًا، والتقرب من قلوب العامة بما يرضيهم سياسة، والكذب على المخالف قُرْبَى، والحَطَّ من أقدار العلماء حُظوة.

ورأيت شيخين اتفق أن ضُمَّا إلى لَجنة عُهِدَ إليها وضع برنامج لمدرسة دينية، فأصرا كل الإصرار على طرح درس التاريخ من المنهاج بدعوى أن التاريخ من لغو الحديث، وأنه يهيئ من نظر فيه إلى الكفر والإلحاد، وجادلا في ذلك طويلًا حتى نفد صبر المتناقشين العارفين، وما أثبتا في ثبت الدروس بعد اللُّتيا والتي إلا درس تراجم الصحابة فقط. وقد وصل أحدهما إلى رتبة كبار المفتين، وكان في فقهه كالببغاء ينقل ما سمع بأمانة، والثاني شارك في بعض علوم القدماء وخلط فيما زاول من علوم الروح، وما لمع في كل ما عانى من فنون، وكنت إذا اجتمعت إليه يتراءى لك أنك تخاطب مجذوبًا أَبْلَهَ، وما تعلم، في الحقيقة، هو وصاحبه علمًا خليقًا أن ينشلهما من زمرة جهال العلماء، وهلكا ولم يخلفا كتابًا ولا رسالة، ونُسي اسمهما بعد قليل.

نقل لي ثقةٌ أن أحد رؤساء المحاكم كان في جملة من أغواهم بعضُ الدجاجلة ليحيل له النحاسَ ذهبًا، وأنه غرم في ذلك مائتي دينار ذهبًا، واستغرب صاحبي انخداع رجل مثله على هذه الصورة المخزية فأجبته: إن درس القانون — أو ما تعلمه بطول الزمن منه، فوصل إلى ما وصل إليه من الرتبة — لا ينجيه من العامية، وحفظ مسائل وضعها أرباب العقول لا ترزق من يستظهرها عقلًا إن لم يكن ذا عقل. وهذا المغرور بمخرقات صاحب الذهب كان عاميًّا في أحكامه أيضًا، عهدته يحكم في قضية عامل سرق مال الدولة حُكْمَ أَحَطِّ العوامِّ، برَّأه وإدانتُه ظاهرة كالشمس، ولما آخذتُه على فعلته اعتذر بأن إخوانه في المحكمة رأوا هذا وأنه ما قرأ أوراق القضية. والحقيقة أن إحدى الجمعيات السياسية التي جعلت شعارها: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» أرادتْه على بيع ضميره فباعه بيع المغبون، وكثيرًا ما باعه.

وجَنَتْ على أحد العارفين بالقانون عاميتُه فزعم أنه قرأ بالجفر أن الدولة العثمانية ستعود إلى الديار الشامية، وعيَّن الشهر واليوم، مدعيًا أن الذي سيقوم بكبر هذه الدولة سليم بن عبد الحميد. وكنت كثيرًا ما أقول له: إن التصديق بالجفر من الاعتقادات الباطلة، وعلم الجفر كعلم الملاحم من الشعوذات التي ما صحت يومًا من الأيام. وراهن جماعةً على مائة دينار يدفعها إليهم إن لم يَصْدق جفره، ليكون له من هذا الغرم درس نافع كما قال، ويتوب بعدها عن الاعتقاد بالجفر، فلما حان الميعاد الذي ضربه وخسر الرهن توارى عن الأنظار.

وما خلا القضاء الشرعي والقضاء المدني من أُناس غرقوا في العامية، وكانوا في أنفسهم أعدى أعداء الحق، يأتمرون بأحكام رؤسائهم، ويعطون الحق للمبطل وينزعونه من صاحبه. وأعظم ما تكون العامية مثولًا فيمن لم يتذوقوا، ولو قليلًا، من علوم الطبيعة والرياضة والتاريخ والاجتماع، ولا تأدبوا بأدب العصر، ولا تثقفوا بثقافة أهله، ولا شغلوا أذهانهم في غير دائرة ضيقة، ولا حضروا مجالس المنورين العارفين. وربما كان من يعتقد هذه الترهات وينخدع بالظواهر أناسًا درسوا الدروس النظامية، كما جرى في فرنسا مرة فقام أحد المحتالين وادعى أن له مَصْرفًا يوظف فيه الأموال بشروط مغرية، فانهالت عليه طلبات الاشتراك وجمع خمسين مليون فرنك ذهبًا، وكان معظم من خدعهم ممن يحسنون الأمور المالية من مثل موظفي الجمارك والمصارف ودواوين الجبايات والضرائب فوضعوا ثقتهم بمزور لا يحمل رخصة بإنشاء مصرفه.

ويتراءى للأنظار مِنْ حال مَنْ مَلَكَتْهم عاميتهم أن أدمغتهم من الصنف المتحجر، وضعوا في طبقة خاصة ما تعلموه بحكم حرفتهم، وبقيت سائر الطبقات خالية لم تتأثر بشيء مما حوت الطبقة المجاورة. ولا يُحْمَل ما نسمعه عن بعض المشهورين من علماء الغرب لعهدنا إلا على هذا المعنى، فإن منهم من صعدوا قمم المجد العلمي ولم يتحرروا من القول بألوهية البشر، ومنهم من بلغ رتبة الإمامة في فنه وهو يعتقد باستحضار الأرواح والتنويم المغناطيسي وعجائب الورد، وغير ذلك من السخافات.

استمات رجلان من المتعلمين بحب شيخ أُمِّيٍّ وقع في نفسهما أنه من أرباب الكشف والكرامات، استهواهما وهما من فئة يُظَنُّ أن أربابها يسلمون من التخريف (طبيب ومحام)، فغلب بذكائه على ذكائهما، وقوي بجهله على معرفتهما، وما كان للقانون والطب مدخلٌ في معتقدهما، ولا سلطان على وجدانهما. استتبعهما العامي وأعادهما إلى جهالة الأهل والجدود، وما أفادهما درسٌ، ولا أغنتْ عنهما الشهاداتُ والإجازات التي يحملانها، ومن الغريب أن أحد ذينك العاميين يعتقد بالمندل ويحتفل له ويجلس فيه، يقصد بذلك أن يرزق القبول من زوجته!

إن علمًا لا يعود بخير ظاهر على حامله وعلى من حوله كالدينار البَهْرَج ظاهره براق تأخذه العين، وما هو عند الصرف إلا زيف مصنوع، وإِنَّ فقه القانون وفقه الطب إذًا لم يفعلا في توسيع المدارك. وقال بعض من يحسبون من المدركين: «لو اعتقد أحدكم على حجر لنفعه، فيالخيبة الآمال في المتعلمين، ويا بعد ما بيننا وبين الوصول إلى معارج الحكمة.»

خطب أحد نبهاء العلماء في مضارِّ الربا مرة، فحمد الله على أن السلطنة العثمانية خالية من الربا، فقلت له: إن الربا يُحكم به في المحاكم رسميًّا، واستشهدت على قولي بعالم من أصحابي وأصحابه كان معنا. فقال: إنكم تبغضون الدولة وتدأبون على إظهار عيوبها، وأصر على رأيه بأن الربا لا أثر له في الأرض العثمانية. وتصدى مرة للرد علي في محاضرة ألقيْتها عَرَضت فيها لفضل المستعربين من علماء المشرقيات على اللغة العربية فقام وأسقطهم كلهم. ولما قيل له: إن المقصود الثناء على من أحيَوا كتب أسلافنا. قال: نعم ولكنهم أعداؤنا وأعداء لغتنا وديننا. وما هذا من الوطنية ولا من الدين في شيء، بل هو من العامية ممزوجةً بالمكابرة في المحسوس. ولا عجب ففي الفقهاء عوامٌّ وفي الأدباء عوام وفي الوزراء عوام وفي الزعماء عوام وفي الصحافيين عوام، وفي كل الفئات عوام.

ولقد رأينا بعض أرباب الدول يحمي الأهل والأصحاب ويعبث بقدسية الحكم الذي قُيِّض لهم القبضُ على زمامه، يستوي في هذا الظلم المبين عالمهم وجاهلهم، والعالم في الغالب يأتي بمبرر — ولو ضعيف — لِما أتى، والجاهل لا يبالي المعترضين والمنكرين، ويجهر بأن مصلحته تقتضيه ذلك، ومصلحته فوق القانون وإرادته حكم، ليس له إلا أن يأمر فيطاع ولا يحق لأحد أن يناقشه. وهذا من العامية، ولك أن تصفها بأنها أَشْأَمُ عامية تزعزع بناء الدول، وتحل جامعة الشعوب.

وسمعت بعض من خدموا الإفرنج بكل ما يحبون يعطون الحق لمن سرقوا أموال الحكومة إذا أفادوا في بعض الأعمال التي وُسِّدت إليهم، زاعمًا أنهم نفعوا المصلحة العامة ونفعوا أنفسهم، أي: يشيرون، من طرف خفي أو جلي، إلى أن السرقة لا شيء فيها، وما رأينا دينًا سماويًّا ولا قانونًا أرضيًّا يجوِّز السرقة. وعاميٌّ أيضًا كل صاحب شأن ينفق مالًا ائتُمن عليه جزافًا في أغراض له يتوهم تحقيقها على من يزعم أنهم يستميلون له العوام، ويضنُّ ببعض ذلك على العلم وعلى بيوت العلم.

وعظيم من عظماء الحكم إذا حاول أن يقرن اسمه إلى اسم من ائتمنه على سلطانه ويحاول أن يهتفوا له كما يهتفون لمولاه فاحكم بأنه ما نجا من عاميته. ومن حاول وهو في منصب يُفرض فيمن تولاه أن يعدل ليعدل له من يرأسهم فيرقي من يرضى عنهم من ذوي قرابته وأنصار سياسته درجات كثيرة في سنين قليلة بدون مسوغ من قانون أو عقل، لا مناص من وصفه بالعامية.

اشتهر أحد كبار الصحفيين بأنه من دعاة التجدد، وكانت جريدته مسرح أفكار المنورين، فوقع في نفسه مرة أن يزيد في ثروته فضارب فخسر ما يملك وانتهى به الحال

أن تقلد مشيخة إحدى الطرق وأخذ يجلس على مصلاه ويمنح لمريديه ألقابًا دينية يشير إلى أنها إلهام من السماء. وكان في عمله إشارة إلى أنه ما تجرد عن عاميته على طول ما عالج من مسائل الإصلاح، ونشر من أفكار سليمة، وعاشر من عظماء ونبهاء.

ومن هذا البحر والقافية ما ادعاه أحدهم في خطاب ألقاه في حفل عظيم من أن فلانًا الملك لم تُخرج جزيرة العرب مثله منذ قيام محمد بن عبد الله. ومن ذلك قول أحدهم عند نعي عظيم من المعاصرين: إن الإسلام لم يُصب بأعظم من هذه الرزية منذ وفاة رسول الله. وقالت جريدة مُتَهَوِّسة بالوطنية يوم وقع الخلاف بين الدولة العثمانية وبين الحكومة المصرية على الحدود: إن الدولة حشدت على تخوم مصر ثمانمائة ألف جندي كاملة العدة، فلما أراد بعضهم ردها إلى الصواب، وقال: إن هذا الجيش العظيم يستحيل أن تحشده الدولة في بقعة بعينها في أقل من سنتين أصرت الجريدة على قولها. ولو جمع العثمانيون يومئذ على الحدود ثمانمائة جندي مُزاحي العلة لكان شيئًا عظيمًا. وهذا أيضًا من العامية الممزوجة بدعوى الوطنية، ولك أن تطلق عليها اسم: الوطنية الجوفاء.

واحكمْ بالعامية المطلقة على من يطلب إلى قارئ قرآن في محطة لا سلكية في عاصمة كبيرة من عواصم الإسلام أن يأتيه بصورة مما سيتلو من الآيات حتى إذا كان فيها ما لا يروق سياسته حَذَفَهُ. وعاميٌّ أيضًا ذاك الذي وضع جريدة بأسماء مائة كتاب تثقِّف العقل وتسلي القارئ، وذكر القرآن من جملتها، لكنه أوصى بمختصَر منه. والجرأة على القول بمختصر القرآن كالجرأة على حذف آيات الجهاد منه في مذهب جديد اخترعوه حتى لا يثور من يقرءونها. ومن طووا ما لم يرقهم من كتب قدماء العرب، وأوردوا الآيات والأحاديث بأنها من قول بعضهم هم أيضًا من العامة. ومن أنكروا القسط العظيم الذي دخل في مدنية فرنسا من المدنية العربية بدعوى أن وطنيتهم تتطلب منهم كتمان ذلك هم أيضًا من العامة. ومن طعنوا في الرسول العربي وهم لم يعرفوه كدانتي الطلياني وهوغو الأفرنسي هم أيضًا من العامة، وإن كان لهما في أدب أُمتهما المقام الذي لا يتطاول كثير إليه.

وهذه السخافاتُ لا تصدر في الغالب عمن رُبُّوا تربية عالية في بيئة عالية. ولذلك كان بعض الحكومات الإسلامية والحكومات الحديثة يؤْثِر بالمناصب الرفيعة أبناء السابقة والشرف؛ لأنهم أقربُ إلى الخواص في منازعهم ممن نشئوا من بيئة منحطَّة ألفت العسلطات[١] منذ طفولتها. ولقد حاولتْ بعض الحكومات خلق طبقة ممتازة من أنصارها فكانت تغدق عليهم فيضًا من عطفها وبرها معتقدة أنها بمعاونتها على بسط

نفوذهم وإغنائهم بمشاهراتها وهباتها تخلق منهم طبقة من العلية يكون لها السلطان النافذ على السفلة. وفاتها أن المال الكثير والمراكب الفارهة والحشم والخدم لا تربِّي نفوسًا ولا تعمر بيوتًا، المال شيء ولكنه ليس كل شيء، والجاهُ الموهومُ غير الحرمة الحقيقية.

ومن اشتاقت نفسه لأن يرسم صورة ناتئة لهذه الطائفة العامية فليَسْتَفْتِ أحاديثهم الخاصة يتعرَّف للحال إلى نفسيتهم، فهم إذا نقلوا كلامًا زخرفوه بما توحي إليهم مخيلتهم يلهوجون الآراء لا يعرفون الممكن من الممتنع، ويغالون في تقدير الثروات ويخلطون في إحصاء الأرقام حتى ليخرجوا على قواعد الطبيعة. وقد يؤكدون بالأيمان المغلظة ما يهتمون بنقله من الأخبار، لا حد لحبهم ولا لبغضهم، وحميتهم حمية الجاهلية، إذا ناقشتَهم تثور ثائرتهم لأنهم يحاولون، بغرورهم، أن يفرضوا عليك معتقداتهم. وهم أقرب ناس إلى تبديل منازعهم، يستخدمون الدين دريئة لأغراضهم، ويستخذون أبدًا أمام من يعتقدونهم من الكبراء، ويشمخون بأنوفهم على العاجزين والضعفاء، ولا يحترمون غير صاحب المال والسلطان، وعقولهم بعيونهم أبدًا.

هوامش

(١) كلام معسلط: مخلط.

القول في اتكالنا

كان عرب الجاهلية المثل الأعلى في الاعتماد على النفس، اشتهروا بمغامراتهم ورحلاتهم لغرض التجارة، وكانوا إذا شَحَّتْ عليهم سماؤهم وأقحطت أرضهم تنبهت فيهم غريزة حفظ النوع، فلا يرون غير الاعتداء على جيرانهم، يستلبون منهم ما يسد جوعتهم.

ولما جاء الإسلام وبطل الغزو والتعادي أصبحوا يتكلمون على خالقهم كما كانوا يتكلمون على أنفسهم، وعُوِّضوا عن الغصوب بما أتاهم به الحدث الجديد من المغانم، وكانوا إذا فتحوا بلدًا هبوا لاستعمار غَوْره ونجده، فشادوا المدن وأحيوا الموات، وفجروا الأنهار، وأقاموا السدود، وعمروا الرياض والغياض، وبفرض العطاء — أي: الرواتب — لأشرافهم ومن تبعهم، وبتحريم الربا والبيوع الفاسدة، وزعت الثروة فزادوا توسعًا في معايشهم أكثر من يوم كانوا فيه ولا قوة تحميهم في السفر والحضر.

شَرْعُ العرب موجز وسريع التنفيذ، وتدابيرهم معقولة مقبولة حتى في الجاهلية، وكانوا إذا صح عزمهم على أمر فيه صلاح معادهم أو معاشرهم تجلى حزمهم وجدهم، وهذه الصفات تَقْوى وتضعف فيهم بحسب العصور والأمصار. ومنذ فجر الإسلام أنشئوا يبنون جوامعهم ومساجدهم بأنفسهم، وينصبون لها الخطباء والأئمة، ويقومون بشئونها لا يرزءون بيت المال شيئًا، كانوا يعرفون عالِمهم وتَقِيَّهم وداهيتهم كما عرفوا في جاهليتهم شاعرهم وخطيبهم وكاهنهم، وما كان العارف فيهم — وعلى كل واحد زاجر من نفسه — يتصدى لما ليس له بأهل، فلا يقضي ولا يُفتي ولا يعظ ويخطب إلا إذا شهد له الثقاتُ بالفضل حتى لا يَضل به المهتدي ويَزل المسترشد.

ولما نزع العرب في العصور التالية لإقامة رباطاتهم ومدارسهم ودور مرضاهم وضيافتهم وسائر مصانعهم، حبسوا عليها من الأحباس ما يقوم بها على الأيام، طيبةً نفوسُهم بما بذلوا، وإلى هذا كانوا يعاونون حكوماتهم فيما يقيم المرابطين من مؤنة

وخيل وسلاح؛ لعلمهم بأن عزهم مناط عزة حكومتهم، وسلامة أعراضهم وعروضهم في دفع أذى أعدائهم عن ديارهم، وكان يندر فيهم من يحيد عن سَنن الفضيلة، يرون الأمانة أمرًا طبيعيًّا، والصدق فرض عين، والبعد عن المأثم نبلًا ومروءة، ولذلك خلا بعض أمصارهم في القرن الأول من السجون؛ لندرة الجناة والمجرمين.

وقلَّت ثروة العرب، وضعُفت مقومات حياتهم، وغدا وُعَّاظهم وحكماؤهم من الفريق الذي عَزَّ عليه تحصيل رزقه من أبواب المعاش المعروفة، فلجأ إلى دعوى خدمة الدين ببيع بضاعته من الراعي والرعية، وأصبح قضاتهم يصانعون في قضائهم، ويصادَرون كما يصادر لصوص العمال، فزال جلال القضاء لعدم الثقة بالأُمناء عليه، وما وَصْف الإمام أبو يوسف في رسالته إلى الرشيد قضاة عصره إلا وَصْف عارف بما هنالك إذ قال: «وما أظن كثيرًا من القضاة — والله أعلم — يبالي بما صنع وكيفما عمل، ولا يبالي أكثر من معهم أن يُفقروا اليتيم ويهلكوا الوارث.» ثم أخذ القضاة يبتاعون مناصبهم ممن كانوا يُدْعَون ملوكًا فيجمعون أموال السحت وناهيك بها من سُبَّة.

ومع أن الفردية تغلب على العربي أكثر من الجماعية، كان من العرب من يشتركون في مسائل تجارية كبرى، ويقسمون الأرباح بينهم، ويرضى كل واحد بما قسم له، وقل أن يرجعوا في اختلاف يَنْشُبُ بينهم إلى صاحب السلطان، يَفُضُّون خلافاتهم بمعرفة أهل الرأي والتجربة منهم. وإلى اليوم نرى في نجد مع بُعدها عن العمران شركات تجارية جمعت رءوس أموالها من الأغنياء والفقراء واشترك فيها الأقوياء والضعفاء، على مثال شركات الغربيين، وفيها الأمانة ماثلة كثيرًا.

كانت أعمال الأفراد في معظم العصور أكثر تضامنًا وأوفر عائدة مما تتولاه الدول؛ ذلك لأن عمل الفرد تظهر فيه المسئولية فيحتاج إلى التدقيق، وفي عمل الدولة تختفي التَّبِعات، ويزيد الإسراف في النفقات، ويتهاون بالجزئيات وأحيانًا بالكليات، ولذا رأينا السكك الحديدية والمعامل والمدارس وكل ما تديره الحكومات في الغرب والشرق من المشاريع أقل ريعًا وأكثر نفقة مما يديره الأهلون.

ومتى ضعفت ثقة الناس بعضهم ببعض، تفتح للحكومات منافذ التدخل في أمور الرعية، فتستتبع بعض طبقاتهم على ما تهوى، ويقوى بذلك سلطانها، وتتشعب فروع أعمالها، وتتضاءل سلطة الفرد، ويفنى في المجموع. وإذا قل اعتماد الناس بعضهم على بعض يَكِلُون إلى ولاتهم أمورهم، ويطلبون إليها العناية بما ليس من واجبها معاناته، ويطالبونها أن تتولى منهم ما يتولاه الوصيُّ من أمر اليتامى جُعلوا تحت وصايته.

كلما عَوَّلَ الناس على أنفسهم وتركوا الحكومات وشأنها اغتنَوا وسعدوا، وقد يكون غير المسلمين من سكان هذا الشرق القريب أهنأ عيشًا من الكثرة الغامرة، ومنهم من لم يَتَّكِلُوا على الدولة في كل شيء، يرحلون ويغامرون ويغتنون ويَنْعَمُون، وشهدنا من مارسوا حِرَفَهم من المحامين والأطباء والمهندسين، مستقلين عن الحكومات، أوفر غنًى وهناءً ممن تقلدوا القضاء ومسائل الصحة والعمائر، واتكلوا على الدولة مكتفين بالرواتب المحددة. نعم كلما عظمت سلطة الدولة ينشأُ في أبنائها الاتكال ويخفى الاستقلال، وتوشك أن تظهر عليها أعراض الانحلال، وإن كثر سكانها واتسعت رقعة بلدانها.

القوة للرعية في الشعوب الأنكلوسكسونية وللدولة في الشعوب اللاتينية، وأثر التربيتين الاستقلالية والاتكالية محسوس في أرض الفريقين وفي الأقطار التي استعمروها. قال أحد وزراء الإنجليز: أنا لا أقول إن الحكومات أبدًا شؤم على الشعوب، بل أقول: ويل لأمة تترك المجال للحكومة تنظم لها اليوم بعد اليوم من الطفولة إلى الشيخوخة حركةَ أفكارها وما ينهض بها إلى العلاء. وقالت إحدى المجلات الإنكليزية: مما خصت به أرضنا من الميزات ميزة تعد في مفاخرنا، وهي أننا ندير أمورنا بأنفسنا بدون تدخل الدولة. ومن أعظم البراهين على ما يعمل الاستقلال في الفكر والإرادة، وما ينجم عن الاتكال من انحلال وضعف، ما حدث في تأسيس الولايات المتحدة الأميركية وكندا وأوستراليا، فإن جماعات من الإنكليز غضبتْ عليهم ديارُهُم، لشقاوتهم، فنَفَتْهم، أو غضبوا هم على الدولة، لاضطهادهم في مذهبهم، أو تعذر العيش عليهم في مساقط رءوسهم فنزلوا تلك الأقطار البعيدة، وما عتموا أن أسسوا — معتمدين على أنفسهم — ممالك عظيمة جاءت في بعض مظاهرها أرقى من مواطنهم الأصلية.

وهذه طائفة المورمون في الولايات المتحدة، وهي تقول بتعدد الزوجات إلى ما لا حد له، قد حاربتها حكومة تلك الديار في أول ظهورها حرب إبادة فجلا بقية السيوف من أبنائها إلى صُقْعٍ قاحل، فما هي إلا أعوام قليلة حتى عمروه فأصبح كسائر الولايات المتحدة بمدنيته وصناعاته ورخائه، ولو كان المورمون شعبًا لاتينيًّا أو ساميًّا لانقرضوا لِمَا لقوا من شدة، أو لعاشوا عيش تَنَبُّت في انتظار نجدة من دولة، أو منحة من جمعية، أو نفحة من غنيٍّ جَوَاد.

ستون ألف جندي وثلاثة آلاف موظف إنكليزي أَخْضَعُوا — بفضل أخلاقهم — لسلطان بريطانيا العظمى نحوَ أربعمائة مليون من الهنود يساوونهم بذكائهم، واستولى الإسبان على الولايات اللاتينية التي صارت بَعْدُ جمهوريات أميركا الجنوبية وما عُهد

فيها إلا الفوضى، والسبب في ذلك أخلاق الفاتحين. وحكمت إسبانيا جزيرة كوبا ثلاثمائة سنة فما كان إلا الشقاء والظلم فلما آل حكمها إلى الولايات المتحدة أصبحت في ثلاثين سنة من أسعد الممالك.

يطلب الشرقي كل شيء من حكومته؛ ولذلك يقل إبداعه، ولا يَطَّرِدُ سَيْرُ حياته، ولا تنمو ثروته، ولا تدوم نعمته. الشرقي عبء ثقيل على أبيه وأمه، وعلى أخيه وأخته، وعلى مورثه وأسرته، وعلى من يعتقد فيهم القدرة من أهل حيه وبلده ودولته، وعلى من يحبه ويعطف عليه، وفيه شيء من النقص لا تجد مثله في صاحب التربية المستقلة، وهذا لا ينتظر إرث أبيه ولا أمه ولا مورثه أيًّا كان، ولا البائنة التي تأتيه بها زوجته، ولا نصيبها من إرث أبيها، يجمع ثروتَه بكَدِّه وجده، ولا يتوقع مجيئها عفوًا صفوًا.

روى أصحاب الأخبار أن أحد أبناء رؤساء جمهورية الولايات المتحدة شُوهد غداة انتخاب والده للرياسة مبكرًا إلى معمله على عادته، فقيل له: كان عليك أن تجعل من هذا اليوم عيدًا لك، وتنقطع عن العمل، وقد غدا أبوك رئيس الأمة، فقال: الرئيس أبي وأنا هنا عامل أشتغل لمستقبلي.

وهذه مصر، ولا نمثِّل بغيرها، هل تم لها الاستقلال في التربية مقدمة الاستقلال السياسي أم هو الاتكال لا شيء غيره؟ الحق أن التربية الاتكالية بادية في مصر والاستقلال الشخصي كهلال الشك لا يكاد يُرى. كأن التربية اللاتينية التي لقفتها مصر لأول نهضتها قد أمرضتها فلم تسلم إلى اليوم من تأثيراتها على ما عُولجت به من طرق حديثة في التربية، ولو كان هناك خُلُق استقلالي ما شهدنا القوم يتهافتون على التوظُّف في الحكومة هذا التهافت المُبكي.

إن أمة يتهالك المتعلمون من بنيها ليجعلوا منهم آلات تتحرك بحركات غيرهم، ويعيشون كالحلمة الطفيلية بامتصاص خزانة الدولة، والأعمال الحرة الرابحة كثيرة أمامهم يتركونها للنازل عليهم، هي أمة محكومٌ عليها بأسوأ ما يُحكم به على مصاب بمرض عضال، وأي مرض أفتك في النفوس من الاتكال الذي يقضي على فضائل جمة في الإنسان، ومنها عزة النفس والإقدام.

يقول الدكتور حافظ عفيفي باشا في كتابه على هامش السياسة: أما هذا التعليم الذي يحوِّل جميع شبان البلاد إلى موظفين، يعملون دائمًا ساعات محددة في النهار تحت إشراف رؤسائهم، ويتناولون أجرًا محدودًا يزيد في فترات معينة بقدر معلوم، ويُمضون حياتهم على هذا النظام الميكانيكي الذي لا أثر فيه للمجهود الشخصي، ولا يفتح بابًا

للمجازفة والمغامرة أو تحمُّل التبعات، فهو تعليمٌ محدود الغرض لا يفيد إلا في تخريج العدد اللازم من الشبان لملء وظائف الحكومة، ولكنه مُضِرٌّ من جهات أخرى؛ لأنه يفسد الغرائز الطبيعية في جميع الشبان الذين يزيدون على هذه الحاجة.

وأنا أعتقد أن هذا التعليم يُفسد غرائز المستخدمين وغير المستخدمين من الشبان، ويقتل فيهم روح الاستقلال، فيصبح الاتكال فيهم طبيعة ثابتة، وقد شاهدت أذكياء أتموا دراساتهم الثانوية أو العالية ورجعتُ عليهم بعد سنين وقد أَخْمَلَهم الاستخدامُ فصاروا إلى خنوع ومسكنة، واستولى عليهم القنوط والتشاؤم، وأمسَوا لا يفكرون إلا في تخطِّي الدرجات والحصول على العلاوات.

قال لي صديق: إنه كان في بعض العشايا في مقهى سان إستيفانو بالإسكندرية، فجاءه الغلام الرومي يقول له: يا سيدي الدكتور اجلسْ هنا فإنه مكان أَرْوَحُ لنفسك، وأشار إلى مكان آخر لا تَضْرِبُهُ الشمس، فتعجب صاحبي من مناداة غلام المقهى له مناداةَ مَنْ يعرفه، فسأله: وهل عرفتني من قبل؟ فقال له: وكيف لا أعرفك وأنت الذي خدمت مصر بما أملتْه عليك وطنيتُك وكنت كيت وذيت. ثم إذا أنا لم أعرفك فمَنِ الواجب أن يعرفك؟ أنا يا سيدي خريج مدرسة التجارة العليا في أثينة، وتسألني: لِمَ أمتهن هذه المهنة؟ فأجيبك: لأني أربح منها وأنا في أول العمر أكثر مما أربح من غيرها. ولما روى لي محدِّثي هذا — وهو يعجب من حال الخادم — قلت له: لا تعجب يا أخي فإن القوم من أَقْدَرِ الأُمم على الكسب ولو أحرز أحد مواطنيك شهادة من مدرسة التجارة العليا ما كان هدفه إلا أن يتقلد وظيفة صغيرة في المدرسة التي تخرج بأساتذتها، أو أن يُعيَّن في إحدى دواوين الحكومة، أو يقنع بشيء يُتْقنه أكثر منه من لا يحمل مثل شهادته، أو يبقى متعطلًا خاملًا حتى يُهَيَّأ له رزقٌ هين من عمل يعتقد هو أنه شريف، وهذا هو الفرق بين تعليمنا وتعليمهم وتربيتنا وتربيتهم، فلا عجب، والأمر على ما ذكر، أن يترك الواحد منكم عشرات الألوف من الدنانير لأولاده فينفقونها في أسرع ما يمكن، ويموت الروميُّ موسرًا وكان في بدء أمره فقيرًا معسرًا.

كثيرًا ما كنت أسأل بعض الآباء عن أولادهم وما اختاروا لهم أو ما اختاروا هم لأنفسهم من مسالكَ لتحصيل رزقهم، فكان معظمهم في جانب الاتِّكاليين لا الاستقلاليين، أي: أنهم يؤثرون الأعمال الهينة المضمونة، ولا ترتفع بهم هِمَمُهم إلى بذل النشاط اللازم أول دخولهم معترك العالم. ولو أنك قرأت باب الوفيات في صحيفة يومية مصرية تذكر اسم المتوفى كما تبلِّغها أُسرة الفقيد مشفوعًا بأسماء أنسبائه وأولاده ووظائفهم، لَخُيِّل

إليك أن كل متعلم في هذا القطر موظفٌ، وكل مشهور ليس في ذوي قرباه إلا خَدَمة حكومة، غالبًا، وقد يرزق الرجل بضعة بنين فلا يكون فيهم إلا عاملٌ في الحكومة أو أخٌ له يستعدُّ في المدارس ليقفز إلى الدواوين. وأخذ البنات في العهد الأخير يقتدين في هذا الشأن بالبنين. ولا يَسَعُ مَنْ يشهد هذا إلا أن يأسف للذكاء يُثلم حَدُّه فيما تقلُّ فائدته، وللمواهب تضيع على غير طائل، في قطر حوى جميع أسباب الراحة، ولا ينعم فيه على الأكثر إلا المستخدَمون أو من خلَّف لهم أهلهم الأطيان والعقارات والأموال المجموعة في المصارف، وفيه كل شروط الغنى ولا يغتني فيه إلا الغريبُ أو مَنْ يتصل بالحكومات بسبب.

ما عهدت أمة كالأمة المصرية؛ تنفق نصف جبايتها على تَرْفِيهِ موظَّفيها، وهم فائضون عن حاجتها يكفيها نصفهم لو تدبرت، ولو لم يكن الغرام بالتوظف مما عم الطبقات المستنيرة لَوَجَّهَتِ الدولة شعبها وجهة أخرى على حين نرى أكثر ما تنصرف إليه همة من يأتون إلى الحكم تعيين أعظم عدد ممكن في الإدارة من حزبهم، تخلق لهم أعمالًا ترضيهم بها، ولو كانوا غير صالحين للأشغال، ويختلف نُوَّابُ الأمة إلى أبواب الوزارات يشفعون في توظيف أبناء أقاليمهم وإدخال السرور على ذويهم بالعمل على ترقيتهم وترفيههم، وهل بعد هذا برهان على انتشار الاتِّكال في مصر أصدق من هذا المثال؟ ولو كان للتربية الاستقلاليةِ السلطانُ الأكبر على نفوس المصريين لرأينا مَنْ تضيق بهم أسباب العيش يهاجرون إلى بلد سحيق؛ لِكَسْبِ رزقهم كالشاميين والحضارمة، تحلو لهم الهجرة ولو إلى القطب الشمالي وخط الاستواء.

تمركزتْ كل قوة في وادي النيل بالحكومة، فربطت رعاياها برباط أضعف فيهم حرية التفكير الشخصي والعمل المستقل، وأصبح المصري على الأيام غريبًا في أخلاقه، لا يرى الشرفَ إلا ما جاء من طريق الحكومة، ولا يسعد — في رأيه — إلا من أسعدته الحكومة، وعهدنا بالمدارس المصرية تخرج الألوف من الطلاب، وما عهدنا أنه انصرف منهم إلى الأعمال الحرة إلا من لم تكفِ شهاداتهم للاستخدام بمرتبات مقبولة، والباقون وهم الصفوة توسد إليهم أعمال أُصيبت بالإشباع والتضخم؛ لكثرة ما ينهال عليها من الطالبين، فكأن المدارس في القطر المصري أنشئت لتخريج مستخدمين، والراسب في فحوصها أو من لم يتمكن من إتمام دراسته لسبب من الأسباب تسوقه الحال إلى انتحال مذهب من مذاهب المعاش، يعمل فيه مُتَكَارِهًا ويكون وسطًا أو دون الوسط، ولو نزع القائمون بالأمر في مصر أيديهم من معاونة رعاياهم في كل شيء وتركوا الوطنيَّ

والغريبَ يتنافسان برأسيهما في ميدان الأعمال، لشهدت الدخيل يلقي بالأصيل جانبًا فيتجلى للبصير آنئذ الفرق محسوسًا بين تربية وتربية.

وليس بعجيب بعد هذا أن يصبح معظمُ ما تم من المشاريع المجيدة في مصر من صنع الحكومة قام بأيدي رجالها، وكُلِّفَ أضعاف ما يساوي؛ لأنه عمل حكومي. ولو قُدِّرَ أن تخلتْ حكومة مصر عن معاونة بعض الشركات الوطنية، لأصابها فتورٌ في حركتها؛ ذلك لأن السكان ما اعتادوا أن يمشوا بدون دليل، ولا غنية لهم عمن يُهَيْمِنُ عليهم من قريب أو من بعيد.

وأصدق شاهد على هذا أن تتخلى للحكومة الجمعيتان اللتان قامتا أحسن قيام بإنشاء الجامعة القديمة وتأسيس مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية، فأثبتتا عجزهما واتكالهما بعد أن أثبت المؤسسون الأُوَلُ كفاءة عظيمة وفرح كل عاقل باستقلالهم المحمود.

وما أصدق ما قاله الأستاذ أحمد فتحي زغلول باشا في مقدمة كتاب سر تقدم الإنكليز السكسونيين:

> ضعُفنا حتى أصبحنا نرجو كل شيء من الحكومة فهي التي نطالبها بحفظ حياتنا، وخصب أرضنا، وترويج تجارتنا، وتحسين صناعتنا، هي التي نطلب منها أن تربي الأبناء، وتطعم الفقراء وترزق العجزة، وتنفي أسباب البطالة وتحفظ الأخلاق، وتلمُّ شعث العائلات، وتجمع أشتات القلوب، هي التي نطالبها بتعويض ما نقص من إرادتنا، وتقويم ما اعوجَّ من سيرنا وسيرتنا، ورد هجمات المزاحمين عنا، والسهر على مصالح كل واحد منا، فإذا تأخرنا في عمل من تلك الأعمال، بإهمالنا، رميناها بسوء الإدارة واتهمناها بحب الأثرة، وألقينا عليها تبعة خمولنا كلها.
>
> لا ريب إننا بهذا الزعم قد ضللنا السبيل؛ فإنما الحكومة وازع لا يكلف إلا ما اقتضتْه طبيعته، وشأنُ الحكومات في الأُمم تأبيدُ النظام، وحفظ الأمن وإقامة العدل وتسهيل سبل الزراعة ومعاهدة بعضهم بعضًا على ما يضمن حرية التجارة، ويشجع أهل الصناعات والحرف، كما تقتضيه المصالح المشتركة؛ وعلى قدر ما تسمح به الممكنات. وبالجملة فالحكومة وازع عام لا واجب عليه إلا الأمر العام، مما يدخل تحته جميع الناس، ولا ينفرد بالاستفادة منه واحدٌ بخصوصه، وعلى الأمة بعد ذلك أن تستفيد من هذا النظام، وتنتهز فرصة

> الأمن والطمأنينة لتسعى وراء منافعها، وتطلب الكمال في زراعتها وصناعتها وتجارتها، وفي نشر المعارف وإحياء العلوم، وفي أداء الواجب والمحافظة على الحقوق.

وبعد، فقد نَزَعَ داءُ التوظف من كيان المصري صفات صالحة كان يشارك بها أرقى الأُمم في حضارتها لو قيض له من يعالجه، وما دام أصحاب الخدمة هنا من أكثر عمال الأُمم رزقًا ورفاهية وأقلهم تعبًا وتَبِعَةً، فالمتعلمون من أذكياء المصريين لن يكون لهم مأرب في غير الاستخدام، ولو في نطاق ضيق لا يعود عليهم بكبير فائدة. ذكر الأستاذ محمد علي علوبة باشا في كتابه «مبادئ في السياسة المصرية» أنه إذا بحثتَ أمر كل وزارة ومصلحة هالك، لأول نظرة، ما عليه الإدارة من كثرة الموظفين كثرةً هائلة حتى إنك لتجد بعضهم يعترف لك اعترافًا صريحًا بأن كثرة هؤلاء الموظفين عديمةُ الجدوى، وأنها في أحايين كثيرة تعرقل العمل عرقلة مزرية، ولطالما لُوحِظَ من بعض الموظفين أنهم لا يأتون إلا عملًا تافهًا، ويقتلون أوقات عملهم في قراءة الصحف وفي الحديث مع زملائهم أو مع زائريهم مع استمرار الشكوى من عدم ترقيتهم أو رفع علاواتهم.

وبعد أن وصف المؤلف ذلك الجيش العاطل من الفرَّاشين والسعاة والجنود على أبواب الدواوين وأقلامها وفي طرقاتها ومنافذها، ممن لا عمل لهم إلا تقديم القهوة والمرطبات وحمل بعض الأوراق من حجرة إلى أخرى قال: ولقد عَمَّت الفوضى وساد التواكل والتكاسل من هذا النظام الذي يجب أن يزول إذ هو أثرٌ من آثار الماضي يجب أن نتحرر من مساوئه، ولا يمكن أن نصف مصر في وقتنا الحاضر إلا بأنها بلد الموظفين وملجأ التوظف. ا.هـ.

القول في أميتنا

الأُميُّ هو الذي يكون على جِبِلَّته لا يكتب، والذي لا يكتب لا يقرأ، والذي لا يقرأ ولا يكتب أعمًى جاهلٌ. ما اطردت الأمية في العرب على قانون واحد، جاء الإسلام وليس في الحجاز غير سبعة عشر رجلًا تعلموا الكتابة من الحيرة، وليس في اليمن من يقرأ ويكتب، فكان الرسول إذا أَسَرَ من قريش مَنْ يُحسن الكتابة يعهد إليه تعليم عشرة من أبناء المسلمين فيكون ذلك فداءه. ففَشَت الكتابة في العرب وشاعت في كل مِصْرٍ فتحوه. ولم يمض قرنٌ واحد حتى كان عدد من يقرءون ويكتبون في الأقطار التي رفرف عليها علم الإسلام أكثر من عدد الأميين حتى قيل: إن الرجال والنساء من أهل الأندلس كانوا يكتبون ويقرءون.

ومن نظر في حال القرى في الديار الشامية قديمًا يشهد غرائب ممن نبغوا فيها وتعلموا وتَفَقَّهوا وقَرَضُوا الشعر ونظروا في الآداب. فعبد الرحيم البيساني (القاضي الفاضل) لم يكن الرجلَ الوحيد الذي خرج من بيسان، ولا الشافعي وحده هو ابن غزة هاشم، ولا الصلاح الصفدي هو الذي أخرجته صفد، ولا جاسم في حوران مسقط رأس أبي تمام وحده، ولا منبج مسقط رأس البحتري، ولا المعرة مسقط رأس المعري، وكان من القرى ما هو عامر بالعلم كبعض قرى غوطة دمشق، وكان من كفرطاب — جارة المعرة في الشمال وهي اليوم قرية داثرة — عشراتٌ من أهل الأدب ورجال الشعر والفقه والحديث، وهكذا قُلْ في كثير من القرى الشامية.

ذكر ابن أبي أصيبعة صاحب طبقات الأطباء قصة وقعت لعالمَيْن من علماء الشام مع فيلسوف من فلاسفة الإسلام في القرن السابع قال: حدثني نجم الدين حمزة بن عابد الصرخدي أن نجم الدين القمراوي وشرف الدين المتاني، وقمرا ومتان قريتان من

قرى صرخد، (يقال اليوم لقمرا قميرة وهي قرية حقيرة، ومتان ما زالت عامرة) قال: كانا قد اشتغلا بالعلوم الشرعية والحكمية وتميَّزَا واشتهر فضلهما، وكانا قد سافرا إلى البلاد في طلب العلم، ولما جاءا إلى الموصل قصدا الشيخ كمال الدين بن يونس وهو في المدرسة يلقي الدرس، فسلَّما وقعدا مع الفقهاء، ولما جرت مسائل فقهية تكلما في ذلك وبحثا في الأصول، وبان فضلهما على أكثر الجماعة فأكرمهما الشيخ وأدناهما، ولما كان آخر النهار سألاه أن يريهما كتابًا له كان قد ألفه في الحكمة وفيه لغز فامتنع وقال: هذا كتاب لم أجد أحدًا يقدر على حله وأنا ضَنِينٌ به. فقالا له: نحن قوم غرباء وقد قصدناك ليحصل لنا الفوز بنظرك، والوقوف على هذا الكتاب، ونحن بائتون عندك في المدرسة، وما نريد نطالعه سوى هذه الليلة، وبالغداة يأخذه مولانا. وتَلَطَّفَا له حتى أنعم لهما وأخرج الكتاب، فقعدا في بيت من بيوت المدرسة، ولم يناما أصلًا في تلك الليلة، بل كل واحد منهما يملي على الآخر وهو يكتب، حتى فرغا من كتابته، وقَابَلَاهُ، ثم كرَّرا النظر فيه مرات ولم يتبين لهما حله إلى آخر وقت، وقد طلع النهار فظهر لهما حل شيء منه من آخره واتضح أولًا فأولًا حتى انحل لهما اللغز وعرفاه، فحملا الكتاب إلى الشيخ وهو في الدرس فجلسا وقالا: يا مولانا ما طلبنا إلا كتابك الكبير الذي فيه اللغز الذي يَعْسُرُ حله، وأما هذا الكتاب فنحن نعرف معانيه من زمان، واللغز الذي فيه علمه عندنا قديم، وإن شئت أوردناه، فقال: قولا حتى أسمع. فتقدم النجم القمراوي وتبعه الآخر وأوردا جميع معانيه من أول الكتاب إلى آخره، وذكرا حل اللغز بعبارة حسنة فصيحة فعجب منهما، وقال من أين تكونان؟ قالا: من الشام. قال: من أي موضع منه؟ قالا من حوران، فقال: لا شك أن أحدكما النجم القمراوي والآخر الشرف المتاني. قالا: نعم، فقام لهما الشيخ، وأضافهما عنده، وأكرمهما غاية الإكرام، واشتغلا عليه مدة ثم سافرا.

تدل هذه القصة على أشياء: منها انتشار العلم حتى في القرى الواقعة في أقصى العمران، وما نخال اليوم عدد من يقرءون ويكتبون من أهل قميرة ومتان يتجاوز العشرات فضلًا عن أن يكون فيهما مثل النجم القمراوي والشرف المتاني، واستدللنا أيضًا على كثرة غرام العلماء بالعلم قديمًا، وشدة التنقل في الأرجاء لطلبه، وأن ابن الموصل العظيم لم يكن على جهل بمن نبغ من الرجال في أرض نائية عن أرضه، وأن قميرة ومتان لا تخرجان رجلين من ذاك العيار في العلماء حتى يكون فيهما عشرات من المحدثين والفقهاء والأدباء والنتفة المشاركين.

كان أجدادنا يكافحون الأمية من طرق كثيرة. كانوا يكافحونها في الجوامع والمساجد، وفي مدارس الفقه والحديث ودُور القرآن والرباطات، وفي الكتاتيب، حتى لا يكاد يُبنى

جامع إلا ويُشاد على بابه كُتَّاب لتعليم اليتامى وغيرهم من أطفال الأمة، وكانت معسكرات الجند المجتمعة في منازلها والمرابطة في الثغور والعواصم أشبه بمدارس لتعليم الأميين، ومن نظر في تراجم المحدِّثين يَسقط على أسماء كثيرة من المحدِّثات مما يستدل به على عدد المتعلمات والمتعلمين، وكان يُعد تعلم البسائط من الكتابة والقراءة من الضرورات في العبادات لتصح الصلاة، والأُميُّ لا يحسن تلاوة القرآن على وجه صحيح.

نعم، لا تستوي حضارة في بلد لا يتعلم سكان القرى والمدن من أهله ما يلزمهم من المعارف العامة، ولو تعلم أهل المدن دون أهل القرى ضروب التعليم وانتفت الأمية من بينهم لَمَا استقام لهم وحدهم أمرٌ، ولا تذوَّقوا السعادة، فابن هذا القرن المتمدن لا يعيش إلى جنب فلاح أو بدوي، لكم أن تقولوا إنه لم يتبدل فيه شيء من أقدم عصور التاريخ. ولا أمل بتبديله بغير التعليم الأوليِّ أو الابتدائي.

قضى نظام الكون أن تكون الطبقات الثلاث: العليا والوسطى والسفلى متداخلةً متكافلة لا تنحطُّ واحدةٌ منها إلا كان في ذلك الضعف على المجموع، فالتعليم الأوليُّ مفروض على كل الطبقات، ويكتفي الزُّراع والعَمَلة والصناع به، وحاجة الطبقة الوسطى إلى التعليم الثانوي، وأهل الطبقات العليا يتمتعون بأنواع التعليم على اختلاف درجاته.

الأُميةُ علة انحطاط أمتنا، والداء الذي يجب على كل عاقل أن يسعى إلى مداواة أهله وقَبِيلِهِ منه، والتعليمُ الابتدائي أساس النهضة، ولا بناء بدون أساس. وأشد ما يعوز الأقطار العربية أن يفكر العارفون في غير العارفين، وأن يدرك كبيرُنا وصغيرنا أن الواجب علينا أن نخرج الناس من الظلمات إلى النور وكما نُلَقِّنُهُم العقائد الدينية يجب أن نلقنهم أن التعليم هو اللقاح ولا مناص من الأخذ بقدرٍ عظيم منه حتى نبرأ من أمراضنا. والجاهل في ذمة العالم، ومن لا يفهم حصة من يفهم، ومحال أن يعرف الأمي الأعمى ما يَصْلُحه، فواجب جاره البصير أن يأخذ بيده ويدله على الطريق السوي.

وبعد، فماذا كان من أثر النهضة في الممالك العربية وكان يرجى بعقبها بعد جهود سنين أن تزول الأمية من العرب؟ كانت النتائج ضئيلة بالقياس إلى المقدمات. كان أن جملة المُلِمِّين بالقراءة والكتابة من المصريين لا تتجاوز مليونًا ونصف مليون منهم نحو ستمائة ألف أنثى ويتجاوز عدد الأميين اثني عشر مليونًا مناصفة بين الجنسين عدا الأطفال الذين ما يزالون دون الخامسة، والحقيقة أن عدد الأميين أكثر مما جاء في الإحصاء؛ لأن سكان مصر عشرون مليونًا منهم مليونان ونصف من العرب الساكنين.

وأيًّا كان فهذا الإحصاء مؤلم؛ لأن مصر ما برحت منذ قرن ونصف قرن تسعى إلى التعلُّم بمختلف الطرق، وبعد هذا الزمن الطويل بقي فيها التعليم الابتدائي الذي هو بمثابة الخبز من الغذاء على حالة غير مرضية. مصر التي أقبلت على التعلُّم قبل غيرها وهي اليوم تنفق على جميع مراتب التعليم نحو عشرة ملايين جنيه في السنة عدا ما ينفقه الأفراد والجمعيات الخيرية والطائفية والتبشيرية ما فتئ فيها معدل الأميين عظيمًا بالقياس إلى أَحَطِّ أمة من أُمم الغرب. مصر وهي في طليعة العرب بعلمها وغناها وعِظَمها وعظمتها، والتعليم فيها ما ترون أفلا نقيم الأعذار للأقطار الأخرى على قصورها خصوصًا الولايات التي كانت في حوزة الدولة العثمانية كالعراق والشام وبين النهرين وجزيرة العرب وطرابلس وبرقة؟ وما كان تعليم الرعايا فيها مما ترضى عنه تلك الدولة، وما كان الناس يومئذ على بينة من هذا التقصير ولا في سعة تمكنهم من مداواة مرض الجهل ورفع هذا العار. ولا يتجاوز عمر نهضتهم الأخيرة خمسًا وثلاثين سنة.

ما أدرى أن كانت مصر لم تهتد إلى طريقة حقيقية للقضاء على الأمية أو أنها تتعمد غَضَّ النظر عن إنهاض التعليم الأَوَّلِيِّ ليبقى التعليم أرستقراطيًّا مقصورًا على الموسرين، ويظل الفلاح فلاحًا لا يستهويه نزول المدن إذا هو ذاق من العلم ما يخرجه عن الأمية، ومصر، على ما يظهر من القديم، كانت ولم تبرح ينعم أفرادٌ بخيراتها، يتعلمون ويترفهون، والكثرة الغامرة لا تستطيع أن تنعم ولا أن تتعلم. مشكلة صعبة الحل نتركها لنظر مَنْ هم أَعْرَفُ بها منا من المصريين؛ ذلك أن مسألة التعليم عندهم معقَّدة ما دام أرباب القوة لا يروقهم إلا إبقاء الشعب على أُمِّيَّتِهِ، وأرباب الإصلاح يتذرعون بإخراجه من جهالته مهما كان الأمر.

والأميةُ شائعة في ريف الشام والعراق وبوادي الحجاز شيوعًا مستغربًا. وقد أخذت تخف في المدن، وعدد من يقرءون ويكتبون في هذه الممالك يختلف فيما اتصل بنا من عشرة إلى خمسة عشر في المائة. وما برحت الأمية في البيئات الإسلامية أكثر ذيوعًا منها في سائر البيئات. وبعبارة أوضح إن التعليم الابتدائي لم ينتشر الانتشار المطلوب بين الإسماعيليين والعلويين والدروز والشيعة والإباضية والزيدية وأهل السنة كما انتشر بين طوائف النصرانية. وتعليل هذا أن طوائف المسلمين اعتمدت على دولتها فكانت هذه إن لم تحل دون تعليمهم لا تنشطه، أما سائر المواطنين فأخذوا عن كل من حمل إليهم قبسًا من نور بأية لغة وأي مذهب، وكان من أثر ذلك أن كثر فيمن تلقفوه التجار والصناع

وتكاثر في الفريق الآخر الموظفون. كانت السعة في الأولين لاستقلالهم في معاشهم والضيق في الاتكاليين من أهل الفريق الآخر.

وليست الأمية في شمالي إفريقية بأقل انتشارًا من غيرها من الأقطار العربية، وحالُ تونس أحسن من حال سائر تلك الأصقاع في هذا المعنى، ويليها ريف مراكش فإن عدد المتعلمين فيه التعليم الأولي والابتدائي لا بأس به، وهو يَزيد كلما ازدادت العناية بتعليم أبناء ذاك القطر التعليم الثانوي والعالي، أما سائر بلاد مراكش فالأميون بها لا يقلون عن تسعين في المائة مثل الجزائر. والتعليم في الجزائر إفرنسي محض والكتاتيب التي يسمونها القرآنية قليلة، ولا يعلم إلا الله متى يخرج سكان الجزائر من الأمية، وحال طرابلس وبرقة في هذا الشأن أدهى وأمر. وليس في الشعوب العربية شعب واحد تجاوز عدد المتعلمين فيه أكثر من عشرين في المائة من حيث المجموع، ما عدا نجدًا واليمن.

ولعل الطريقة العملية المعجلة للقضاء على الأمية أن تعمد الأقطار كلها إلى الطريقة التي عمدت إليها مصر والشام في مكافحة الأمية، فإن الشاب أو الكهل بفضل الأساليب الجديدة يَخرج من الأمية في أربعة أو خمسة أشهر، يتعلم خلالها القراءة والكتابة وأعمال الحساب الأربعة، وما ينبغي لممارسة أركان الإسلام، ويقتبس بعض معلومات خفيفة.

وجرت اليمن ونجد على طريقة سهلة في إخراج القوم من الأمية، وذلك بتعليم الأطفال الكتابة في اللوح مع القراءة، فيقرأ الولد آية من الكتاب العزيز ثم يكتبها فترسخ في ذهنه ويتعلم رسم حروفها، أي: يتعلم الإملاء، ويقف عند هذا الحد لا يتعداه، ولو نظِّمت هذه الطريقة بنظام العصر لأتت بفوائد أثيرة.

ومعدل من يقرءون ويكتبون في ذينك القطرين كثير بالنسبة لمصر، ولكن العبرة بالطراز الجيد لا بالعدد الكثير، وقد جرت مصر في العهد الأخير على طريقة وست الإنكليزية في تعليم الأميين والأميات، وذلك بأن ترسم لهم الحروف الأبجدية على اللوح (السبورة) ثم يطلب منهم رسمها بالطين. ويعلمونهم دروسًا في اللغة العربية وفي الحساب والصحة والدين.

على الحكومات أن تبذل جهودًا أكثر مما بذلت لمقاتلة الأمية، وعلى الجمعيات الخيرية أن لا تَنِيَ أيضًا فيما تمحضت له من تعليم العامة، ولا ينجي الدول من التبعة أن يزعم لها الزاعموي أنها قامت بواجبها ونشرت التعليم بقدر ما ساعدتها موازناتها كما لا يَخْلُصُ الأهلون من المسئولية إذا لم يعاونوا، معاونة فعلية، في نَشْلِ الجاهلين من جهالتهم.

وإن لنا في سيرة الشعوب الأوربية الصغرى التي استقلت في القرن الماضي كرومانيا وبلغاريا وصربيا واليونان أعظمَ عبرة؛ فقد حاربت الأميةَ قبل أن تنشئ المدارس العالية، وبذلت من الجهد ما كان منه أَنْ تقدم البلقانيون أكثر من الشعوب العربية تقدمًا بينًا، هذا مع عراقة العرب في الثقافة ورسوخهم في المعارف والعلوم قرونًا كثيرة. أما الشعوب الأوربية التي حاولتْ أن تنشئ مجدها من طريق المدرسة كالشعب البولاندي والفنلاندي والمجري وغيرهم، فإن ما عملته لنشر التعليم في بيئتها مما يفاخر به كل عاقل.

لما جرى تقسيم مملكة بولونيا بين ألمانيا والنمسا وروسيا أواخر القرن الثامن عشر حكم القسم الروسي حكمًا من شأنه أن يُنْسِيَ أهله لسانهم؛ لأن روسيا القيصرية حظرت على البولونيين أن يتكلموا بلغتهم فضلًا عن أن يتعلموها. أتعرفون ماذا بعد ذلك؟ كان من النساء البولونيات أن كن يأخذن أولادهن إلى الغابات يُلَقِّنَّهم لغة آبائهم، ودام ذلك سنين حتى ظنت الحكومة أنها حققت ما تريد. ولما تحرر البولونيون في القسم الروسي أوائل القرن العشرين هَبُّوا لتأسيس مدارس فأنشأوا في شهر واحد أربعة آلاف مدرسة تامة بمعلميها ومعلماتها. وهذا درس يجب أن نتعلمه في حب القومية الصحيحة. يتوقع الشرقي كل شيء من حكومته ولا تحدثه نفسه أن يكون هو شيئًا وأن يقوم بواجبه على ما يجب عليه، والحكومات في الحقيقة لا تقدر كل شيء حقه، وهناك واجباتٌ كثيرة هي من شأن الأمة.

حزَّت أمية الشعوب العربية في قلبي فحاربتُها بالقلم واللسان خمسين عامًا، ونوعتُ الأساليب للدعوة للتعليم الابتدائي، وكنت في وزارة المعارف أحاول أن أَخُصَّه بقسط عظيم من موازنتها، ولو كان لي من الأمر شيء لقضيت على كل بلد أن يكون التجنيد فيه إجباريًّا لأُعلِّم الأُميين من المجندين، وإلى ذلك أحكم على كل من يحمل شهادة ثانوية أو عالية أن يخدم سنتين في المدن أو القرى براتب خفيف يُجبى من الأهلين أو يعلم مائة تلميذ وتلميذة ولا أتركه يمارس مهنته إلا إذا خدم أُمته هذه الخدمة. وهناك رأيٌ متطرف لمكافحة الأمية وهو أن تُوقف دروسُ الجامعات والتجهيزيات وتُصرف العناية بدور المعلمين والمعلمات عشر سنين يتمحَّض خلالها الأساتذة والتلامذة لتعليم الأميين والأميات ويومئذ يأخذ الفقرات والأغنياء وسكان القرى وسكان المدن حقهم من التعليم وتُصبح الأمة ذات تربية «مثالية» كما يقولون، وتدخل الأقطار في طور مدنية حقيقية.

القول في تبدل أوضاعنا

كان من أنواع الانقلابات السياسية والاجتماعية والصناعية في القرن التاسع عشر أثرٌ كبيرٌ في تبدُّل حالة أهله قد لا يتأتى وقوع مثله في عصور طويلة. تبدلت الأنظمةُ وقوانين الحكم، وتبدلت بتبدلها عقلية الشعوب ومطالب حياتهم، واستمتعوا بحرياتهم ومنها حرية القول وحرية الاجتماع، فجسر الصغار على الكبار، وارتفع الوهم وزال الوقار الذي كان ينتظم الطبقات العالية، وطالبتْ الطبقات النازلة بحقوقها ولطالما خضعت للحكومات وأرباب القوة خضوعًا أعمًى. وكان تناوُل أعمال الكبير بالنقد والتجريح مما ينافي الأدب، ويُحسب خروجًا على الطاعة وقانون الجماعة، فسُلب هذا الكبير بعض ما كان له من امتياز، وغَدَا في الجملة لا اعتبارَ له إلا بقدر ما يملك ولا قيمة له إلا ما يُحسن.

نشأ معظم ما حدث من التبدل في الأوضاع والطباع من انتشار المعارف وسهولة التعلم، فتهيأتْ للفقراء أسباب التثقيف، وكان ذلك، مِنْ قَبْلُ، خاصًّا بالمياسير والأعيان فشارك الوضيعُ الرفيعَ والفقيرُ الغنيَّ في نعمة الانتفاع بالأفكار، وبَطَلَ احتكارُ العلم وكان في الدهر السالف وقفًا على طبقة خاصة، وكُشفت المضنونات، فعرف ابنُ الكوخ الحقير ما يعرفه ابنُ صاحب القصر الكبير، وتَبَدَّلَتْ أحاديثُ الناس في مجالسهم، وكانوا إلى عهد قريب لا حديث لهم إلا الكلام في الأطعمة والأشربة والشهوات، والمستنير منهم يشغل جانبًا من وقته في اقتناص المنامات والخيالات، ويَعُدُّ من كمال الإيمان أن يفكر في الآخرة أكثر مما يفكر في الدنيا. أما اليوم فإن الطبقات النازلة قد تبحث في المسائل العامة، وتُقَلِّبُ أحيانًا وجوه الرأي في حكومتها وحالتها، وقد تخوض في السياسة وتعرض للاقتصاديات، ولكل ما كان لها به اتصال مباشرةً.

كان الناس في القرن الماضي أقرب إلى سلامة الفطرة وسلامة الطويَّة، وإلى هدي الدين وتعاليم الحكمة. وبهجوم المدنية فجأة تَحْمِلُ من الشهوات ما يفتن ويغري،

ومن المعارف ما وسعت العقول، تزعزعت المعتقدات وتطورت العادات، واشتدت شكيمة الأثرة، وكان الناس أقرب إلى الإيثار، ويرون من واجبهم أن يعطفوا على المَعُوز والمحروم، ويجاملوا الجار والعشير، وكانت روابطهم مستحكمة، ومن يبذل للمحتاج يَعُدُّ بذله فرضًا عليه.

كثرت الثروة بما أبدع الغرب من ضروب الصناعات، وفتح البخار والكهرباء منافذ الطرق لرواجها، فزادت علائق ابن الشرق بابن الغرب وابن الجنوب بابن الشمال، وامتزجت الأُمم امتزاجًا ما كان لها عهد ببعضه، ونَعِمَ ابن الشرق بمصنوعات ابن الغرب، وتوسع ابنُ الغرب بحاصلات ابن الشرق، وقام كل شيء على أساس المادة وتبادل المنافع.

كان الفرد يشتغل لنفسه، وينجح بحيلته ومهارته، ويحتمل وحده تَبِعَةَ جهاده، فشعر بالحاجة إلى التعاون مع غيره، لتشعب الأعمال وتشابكها، وعَجْز الأفراد عن الوفاء ببعضها، فتألفت الشركات التجارية والصناعية والزراعية تُفني الفرد في المجموع، وتجعل الكلمة العليا للجماعة، فنشأت من ذلك المذاهب الاشتراكية والشيوعية.

كانت النفقات محدودة معينة، يظن كل من يُطْعَمُ طعامًا عاديًّا، ويلبس لباسًا خشنًا، ويملك كوخًا ضيقًا أنه حاز السعادة، فلما أقبلت المدنية الجديدة كثرت المطالب، فاستلزمت الحياةُ الجديدةُ بالضرورة كدحًا متواصلًا وجهدًا مضنيًا. وكان التاجر إذا عمل ساعات قليلة يربح ما يكفيه أيامًا، فصار يصل الليل بالنهار ليكسب عيشه، وغدا أقل إهمال منه في عمله يطرحه إلى الحضيض جانبًا فيفلس ولا يجد من يرحمه.

اقتضت الحياة العصرية نفقات باهظة على الطعام والشراب، ونفقات على البيوت وفرشها، وعلى الكسوة والأزياء والمظاهر الخارجية، ونفقات على الرفاهية والراحة كالنزهات والرحلات والاصطياف. كانت المرأة تعيش بثوب واحد طول السنة، وملائتها وإزارها وجواربها وحذاؤها رخيصة بسيطة متينة تلبسها سنين، فأَمْسَتْ تحتاج إلى عدة أثوب وإلى ألوان من الأزياء، وقد تنفق في حذائها وجواربها من المال ما كان يكفي أُمَّها أو جدتها للباسها صيفًا وشتاء، وكان الرجل يلبس قَباء وعليه معطف، أو عباءة، أو فروة أو جبة أو برنس تجزئه السنين فلَزِمَتْه شُعَب من الثياب تشبه ما تشعب عند المرأة من أدوات الزينة كالمساحيق والأصباغ والتطرية والحَفِّ والنتف والكي واللَّيِّ مما شارك فيه النساءَ كثيرٌ من الشبان، وكان الفتيان يطلقون لحاهم في مَيْعَة الفُتُوَّة ويعدون حلق الجُمَّة واللحية من المثلة.

وما كان غيرُ الموسرين من أهل القرية أو الحي يتمتعون بلبس الجوخ والحرير، وقد يستعير الفقراء الجبة من الغنى فيهم ليلبسوها العروس يوم زواجه، كما يستعير

النساء البذلة الطريفة من السيدة الغنية لتُكسى بها الفتاة ليل زفافها. يجمِّلون العروسين بطرائف غيرهما ساعة، ويعلق على الفقيرات في عرسهن من حلي الغنيات ومجوهراتهن، وما كان حلي المتوسطات والفقيرات يتجاوز الفضة والنحاس والخرز والودع.

ويطول بنا نفس القول إذا أردنا تعداد ما زاد من الأصناف للظهور والزينة والبذخ داخل البيوت وخارجها، حتى ارتفعت النفقات الكمالية، وأَرْبَتْ على النفقات الضرورية. ولقد تقتطع المرأة والرجل من طعامهما وطعام أولادهما جانبًا، ويتغذون بما اتفق، ولا يحول الأبوان عن الظهور بالمظهر الذي يعتقدان أنه يليق بهما أمام أهلهما وجيرانهما ومعارفهما. والفقير يحاول، في كل حال، أن يسير بخُطًى لا تتفق وقوته المادية، والمتوسط أبدًا على تقليد الغنيِّ، وكل طبقة تمشي على أثر طبقة أعلى منها من حيث تريد ولا تريد، يَتَشَبَّهُون في أمورٍ ما كان للأجداد مثلها، وما كانت مما يعرفونه.

وبديهي أن أفانين الحياة كانت موجزة، والبساطة الأصل في العيش، وكان من البساطة اقتصاد، ومن الاقتصاد ادخارٌ وغِنًى، فتضاعفت الأكلاف، والموارد على نسبتها إن لم تنقص لم تزد، ودعت حالة العصر إلى الإنفاق على أشياء ما كانت تخطر لأجدادنا ببال.

أُولع الناس بالسرعة في كل شيء، فبعد أن كان الحاج يصرف أكثر من سنة في ذهابه وإيابه برًّا من الغرب الأقصى إلى الأرض المباركة، أصبح يصرف شهرين، وهو لا يرضيه ما اقتصر له من الأبعاد، يود لو يحج بالطيارة في ساعات. وكان الرجل يقطع المسافة من بغداد إلى القاهرة في نحو شهرين، ويغتبط إذا حملتْه خيل البريد، فتيسر له اختصار ثلثي المسافة التي تلزم القوافل، والآن يقطع السائح المسافة نفسها في الطيارة في ست ساعات، وربما استطال هذا الوقتَ القصيرَ أيضًا ووَدَّ لو يكون ثلاث ساعات فقط.

وكأن الناس في أيامنا نسوا، وهم يجتازون البحر المتوسط من شرقه إلى غربه في بضعة أيام على السفن البخارية، أن أجدادهم كانوا يقطعون هذا الحوض في أشهر على السفن الشراعية، ثم إن سفنهم ما كانت تبحر إلا في موسم الصيف. أما قطع الصحاري فنعوذ ابن هذا القرن من تصورها، فضلًا عن المغامرة في اجتيازها، وكان أقل ما يلزم لاجتيازها الشهران والثلاثة، وصحراء إفريقية الكبرى وصحارى بلاد العرب والجزيرة وخراسان والجبال، متعِبة معطِشة مهلِكة، ولطالما أتعبت الإنسان والحيوان، وقد هلك فيها من أجناس الخلق مئات الألوف، واليوم تجتاز الصحراوات من طرف إلى آخر في يوم أو بعض يوم على متون السيارات والدراجات.

كان الفلاح يوافي الحواضر على بغله أو حماره أو فرسه أو جَمَله، فغدا اليوم لا تطيب نفسه إلا إذا تصدر في السيارة، وقطع المسافة بين مزرعته والمدينة في نصف ساعة

أو ساعة، وكان يجتازها في يوم أو بعض يوم والفلاح لا يدري أن ما يخرج من جيبه لا يحتمله دخله، وأن مجموع ما يبذل في هذه السيارات لا يصدره هذا الشرق القريب، وأرضه لا تخرج بنزينًا ولا زيتًا ولا مطاطًا ولا حديدًا، ولا يحسن بنوه صنع سيارة ولا دراجة. وحكوماته لا تقدر إلا أن تسير باقتصاديات ممالكها إذ تفتح أبوابها لكل وارد من ديار الغرب.

ولقد خسرت الديار الشامية منذ الحرب العامة (١٩١٤–١٩١٨) في السيارات نحو أربعين مليون جنيه ذهبًا وما نفع الإسراف في هذا المال إلا المعامل التي تصنعها، فكم كانت يا ترى خسارة القطر المصري من هذا الصنف فقط؟ والناس مع كل ما أحسوا به من خسارة لا يرون إلا تقليد غيرهم في حب السرعة، ولو كلفهم استخدام السيارات في المساوف البعيدة والقريبة ما يذهب بثرواتهم، وهذا من بلايا عدم البصيرة في حساب الدخل والخرج.

والظاهر أن المدنية وحدة لا تتجزأ تدخل على الشعوب طوعًا أو كرهًا، ولا مناص لمن يقبلها إلا أن يرضى بما فيها من ربح وخسارة ومن محاسن ومقابح، ومَنْ سَرَتْ إليهم عدواها من الشعوب؛ وأخذها بحذافيرها على غير استعداد لها، خرج بما لقف منها عن نظامه القديم فجأة. ولما جاءت المدنية الغربية الأقطار العربية حملت إليها مساويها ومحاسنها، ومن البلاء أن أخذ الناس أكثر المساوئ وقليلًا من المحاسن.

جاءت المدنية تحمل في مطاويها المخدرات والمسكرات، وتأتي بالموبقات والمخزيات، وتنشر القمار وما يتصرف على القمار، وتسهِّل المضاربات والمغامرات، فافتقر بعض البيوت، وتجلى الفرق بين الابن وأبيه، والفتاة وأُمها في تكاليف الحياة، وزاد بؤس من أخذوا بالمذاهب الجديدة في عيشهم ولَمَّا يستعدوا الاستعداد الكافي، واسودت الدنيا في وجوه وبسمت لآخرين.

لا نقول: إن الشرق كان خاليًا مثلًا من المسكرات في القرن الماضي، بل نقول: إنه كان ولا يزال مبتلًى بموادَّ مضعفة للصحة والعقل، ومضارها أكثر من مضار المسكرات، عَنينا بها المخدرات الشرقية. فأهل اليمن تقتلهم حشيشة القات المخدرة، وأهل مصر يئنُّون من الحشيش؛ وأهل فارس يقرضهم الأفيون، والشرق، مع هذا، قلد الغرب حتى في أسباب سروره، فاختار من المسكرات ما قد يلائم طبيعة الغرب ولا يلائمه، اختار الويسكي والكونياك مثلًا، وهما شرابان كان في المسكرات القديمة من صنع هذه الديار ما يسد مسدهما، وربما كان أقل منهما ضررًا، واختار من المخدرات المُضرة الكوكايين

والهيرويين، ونظرة خفيفة على كشوف الجمارك المصرية تكفي لنتصور كم تنفق مصر اليوم على المعسكرات والتدخين من الأموال مما لو صَحَّت النية على إنفاقه على التعليم والصحة لقلَّ الأُميون في وادي النيل، وندر المصابون بالبلهارسيا والأنكلستوما والملاريا من الأمراض الفتاكة. ومثل ذلك يقال في سائر الأشياء التي كان الناس في غنية عنها وتُعد اليوم الجزء الأساسي من حياتهم.

وبعد، فقد كان الناس إلى الرضا والقناعة والطمأنينة والتؤدة في عامة أحوالهم، فأمسَوْا لا يعرفون للرضا معنًى ولا للقناعة طعمًا، ويتعجَّلون كل شيء قبل إبانه، يريدون أن تواتيهم الأقدار في كل ما يحبون لا يتريَّثون فيما تطمح إليه نفوسهم، يحاول الرجل أن يغتني في أشهُر معدودة، فإذا لم يحقق الزمنُ أمنيته، ولم يقلب له المولى نظام الكون، حنق لإخفاقه فيما كان يحاول الوصول إليه، واكتأب فعاد يندب سوء بخته، والسويداء تبرح به، لا يدخل المرح والهناء قرارة قلبه؛ ذلك لأن نفسه لا ترتاح إلا إذا حصل على المعقول وغير المعقول من رغائبه.

نعم كثُر المتشائمون، وقلَّت القناعة المعقولة، ووقع التكالُب على العيش، وعمَّ الجشع والنهم على صورة بشعة منكرة واستحل الناس الخروج في إرضاء شهواتهم على قوانين الأرض وقوانين السماء. وركب طلاب الغنى مركبًا خشنًا خلا أكثره من الشرف فاستحلوا أكل أموال غيرهم بالباطل، واستجازوا ارتكاب الغش والتزوير، وبعُدوا، بعدًا باعدًا، عن الصدق والأمانة، وارتفعت الثقة بين أهل البلد الواحد، بل البيت الواحد. وزورة قصيرة لإحدى المحاكم تنبئكم قضاياها الغريبة بذهنية الخلق في هذا الدهر.

وبالحرية، التي لم يفهم أكثر الناس حقيقتها، زاد الفحش، وبالانحلال من الدين كثر القتل والسلب والسعايات، واستحل المستحلون كل كبيرة إذا أدت إلى اكتساب مال، وإحراز جاه، والقضاء على عدو أو منافس، وبطل ما كان يتمتع به أسلافنا من التآلف والتراحم، وما أثر عنهم من الوفاء والمروءة وصدق الولاء وجميل العطف.

غدا في المدنية الحديثة كل فرد لا يهتم إلا لِذَاتِهِ، ولا يحرص إلا على لَذَّاتِهِ، وضعفت الشفقة من الصدور حتى على الأهل والولد، وخف عطف البنين على والديهم، وخرج الأبناء عن طاعة الآباء ورضاهم، وقَسَتِ القلوب وتحجرت الضمائر وكأن لسان حال كل

إنسان: «إذا مُتُّ ظمآنًا فلا نزل القطر.» وكانوا ينشدون قول الشاعر:

فلا نزلت عليَّ ولا بأرضي سحائبُ ليس تنتظم البلادا

يقول الباحثون من علماء الأخلاق والاجتماع في الغرب: إن الأخلاق على الإطلاق سقط مستواها، بعد الحرب العامة، سقوطًا مريعًا، وحار بعضهم في تحليل هذا الانحلال الفجائي، ونحن نحلل السبب فيه، بحسب ما ظهر لنا من حال مجتمعنا ومجتمعهم، بأن الناس أصابهم في الحرب اضطرابٌ في الأعصاب والعقول لكثرة ما رأوا في ساحات الوغى من أهوال. شاهدوا أجسامًا شوهت، وحواسَّ عُطلت، ورأوا في بقايا السيوف المُقعد والأجذم والأقطع والأهتم والأعور والأعمى والمشلول والمفئود والمصدور والمجنون، وهالهم ما قُتل من أنفُس، ويتِّم من أطفال، وتَأَيَّمَ من نساء (والحرب مأيمة ميتمة). رأوا منظرًا من أفظع المناظر التي شهدها الإنسان.

بهذا تبدل نظر العالم في الحياة، فأقدموا على تَغَنُّم مباهجها ومناعمها، وبالغوا في الإسراف وتعجُّل اللذائذ، وغلوا في سبيل الفسوق والشهوات، وأوغلوا في تطلُّب الكماليات، وكانوا يرون بعض ما هم فيه من قبل منافيًا لقواعد الأدب، فيراعون فيما ابتلوا به اعتبارات الخلق، فلا يستهترون كفعل جماعة العري في بعض أصقاع أوربا تجردوا مما يستر عوراتهم حتى في صميم الشتاء، وزعموا أن عملهم للصحة والرجوع بالإنسان إلى الطبيعة.

جرءُوا، إلا من عصم الله، على ما كانوا يتخوفون منه، وكان المبتلى بالمنكرات يتوخى، إذا أتى أمرًا ينبو عن مصطلحات الجماعة، أن يكون ذلك منه في سر ليخفى على الأهل والجار. وبتأثير التمدن الجديد اليوم يرى بعضهم أن ما يأتيه هو من الأمور الطبيعية فلا يستمع إلى من ينكر عليه، ولا يخشى عذل عاذل، ولا يعبأ بنصح ناصح.

نعم فُتحت أبواب المنكرات والشهوات، وكثُر السرف في كل شيء على ما لا تتحمله حالة كل الطبقات، ودخلت الكبرياء والتعاظم في طبقة المتعلمين والممدنين، وعلى نسبة الترقي في العلم والمعارف كان التدلي في الأخلاق، إلا من رحم ربك. زاد التبجح والتنفج وإذا ببعض الشبان يزهدون في الزواج، ولا سيما في المدن فرارًا من تأسيس بيوت، يحاولون أن يكون الكمال آخذًا بكل ما فيها، وإذا هم يتخوفون من أن يولد لهم أولاد تضيق الصدور بتربيتهم، يَتَحَيَّلون للنجاة مما ينبغي للحياة الزوجية من كُلَف موجعة،

فأحجموا عن الإحصان فاختلت، بالضرورة، نواميس التصوُّن والتعفف، وكسدت البنات وزاد العوانس، فزاد الفجور، وضُربت الفضائل في ديار الإسلام وديار الإفرنج في الصميم.

واختل بعد الحرب نظام الحجاب فجأة في أرضنا، فكان في السفور الذي لم تُعَدَّ له أدواته من تربية وتأديب مضارٌّ غير قليلة، فأشبهت المرأة في مصر والشام إنسانًا طال عهده بالأكل فأتاه الفرج بأن جيء له بأطيب الألوان فأكل وأسرف في الأكل بعد صيامه وحرمانه، فتأثرتْ بما فعل صحته.

ونشأ عن غدو النساء ورواحهن، بدون محارمهن، في السيارات والقطارات والبواخر، ونزولهن في المصايف والمشاتي، وفي الفنادق والمنازل والمقاهي، والحمامات والملاعب والملاهي أمورٌ ما كان يجري مثلها إلا على الندرة، وفي شيء من التكتم.

ثم إن تجمير الجيوش — أي: إبقاء المجندين طويلًا في ساحات الحرب — أَبْعَدَ الرجال عن النساء فكان لبعضهم حُجَّةٌ للتحلل من القيود القديمة. وزاد في الفساد ارتفاعُ أثمان الحاجيات، وانسداد أبواب الرزق في بعض الأصقاع فتطلب النساء الرجال، وأصبحت حظوة الخلوة بين الجنسين زمان الحرب أقرب من التقاط الحصا من أرض محصبة، أو النبات المنثور في حقول مخصبة. ونشأ من ذلك جرأة على أنظمةٍ عاش البشر يراعيها ألوفًا من السنين، وتبع ذلك فسادُ الأسر والنسل بخروج بعض النساء والرجال عن أحكام الروابط الزوجية، وضعف الوازع وارتفع الحياء، وكثرت القِحَة والسلاطة وسوء الأدب، وما بقي لأحد أن يطالب غيره بحقه.

ومن العوامل التي زادت في هذا الاستهتار أن اغتنى كثيرون فجأة في الحرب، فنعموا بشقاء غيرهم، وسلبوا حصة الجائع والعريان، وملئوا جيوبهم بما جمعوا من أرباح، وإذ لم يتعبوا بما كسبوا أسرفوا في إنفاقه، فقلدتْهم الطبقات الأخرى في سفاهتهم، وكان القانون في جمع الثروات أن تجمع في المُدَد المتطاولة، وأن تُصرف بالحسنى، فصار الفرد المتخلف وراء صفوف المتحاربين إذا كان على شيء من الذكاء، وفُتح له باب من أبواب الكسب يُثرى بسرعة على ما لم يقدر له في جيل أو جيلين.

وقد سمعنا من جنون أغنياء الحرب العالمية ما لم يخطر للمفكِّر في خاطر. رأينا منهم من كان يُشعل لفافة التدخين بورقة مالية من ذات الخمسين دينارًا، ومن يُعطي في ليلة يقضيها في موبقاته بِضْعَ أوراق من ذات المائة دينار. وبَلَغَنا عن بعضهم أنه كان يجلس إلى منضدة اللعب فيخسر الألوف وهو باسمٌ، ومنهم من كان يغسل رجليه بعدة زجاجات من الشمبانيا، وكان ثمن الزجاجة الواحدة، من هذا الشراب العزيز، الدينارين والثلاثة. كانوا يأتون هذا السفه والخَلْقُ يموتون جوعًا ومرضًا.

يقول أناتول فرانس: إن الجراثيم الضارة تربى في أرضنا على غاية من السهولة، وكانت بذور الجراثيم في الزمن الغابر تنمو في بعض النفوس الخاملة على خفاء، أما الآن فتنمو وتلوث جميع الرءوس التي أَلِفَت الرذيلة، ففساد السياسيين، وفضائح المضاربين، ومفاخرات السارقين، وجرائم المجرمين، كل أولئك يطير ويسير ويفسد النفوس بسرعة الصاعقة، أريد أن أقول بسرعة البرق، أي: على معدل ثلثمائة ألف كيلو متر في الثانية، قال: والصحافة أبدًا تسعى لإسقاط كل صاحب مكانة لتُضحك قراءها، وتعلِّمهم ثَلْم الأعراض، وكشف كل ستر، والقحة أول ما يتجلى في المجتمع الحديث، ثم احتقرت الثقافة الحق، واستعيض عنها بطلاء سطحي مستعار. وكان الخلق قبل هذه المخترعات الكبرى يتفاوضون قليلًا ويوجزون، فيقتصرون في تناجيهم على إيراد الأمور الجوهرية، والعالم طبقتان: علماء وجهلاء، أما الآن فقد قربت الأبعاد، وتَعَبَّدَ كل صعب، وسَهُلَ كل أمر، وأخذ كل واحد يتحف صاحبه بما عنده من التافهات والبلاهات، يتكلمان في كل شيء، ولا يحفلان شيئًا من الأشياء. قال ونحن مقبلون في كتيبة من الجهل والغرور على مستقبل فيه قِحَةٌ، وفيه بلبلة وفيه سفاهة، ولعله لا يخلو من بلاهة وغباوة.

أوردنا بعض العوامل المهمة التي نشأت منها هذه الظاهرة في تبدُّل الأوضاع والطباع، وقد رأينا الأخلاق انحطَّتْ انحطاطًا اضطرب له نظام الجماعات، وانحل كل عقد، أَوْ كاد، وعم البلاء وقَلَّ الخير، وندر من يبالي بمداواة هذه العلل بالتماس المخارج منها. وربما كان في ضعاف العقول من يهزأ بهذه الأفكار ويعدها من القديم البالي لا تَمُتُّ إلى المدنية بسبب. وكأنا بهذا الفريق يظن أن المتمدن لا حرج عليه فيما يأتي، وأن مسائل الأعراض والشرف من شأن المنحطين في المدنية أن يهتموا لها، والمتمدن يلتمس لها المخارج، وعندهم أنه لا حرج على من يحاول الهناء أن يرتكب كل كبيرة للوصول إلى شهواته، وأن كلمة الحلال والحرام يجب أن تحذف من المعاجم؛ لأنها من مواضعات عصور الظلمات، ولا يليق بابن هذا القرن أن يذهب مذاهب في الحياة هي مما أكل الدهر عليه وشرب. كلا إن البحث في منشأ هذه المخازي، والتوسل إلى مداواتها، من واجب العلماء المفكرين والوعاظ المرشدين، ومعالجتها من أقدس أعمال الصحافيين في صحفهم، والمؤلفين في مؤلفاتهم، والخطباء في مساجدهم ومعابدهم.

بقيتْ كلمة تلحق بتعليل هذا التبدل الطارئ على الطباع وهي: هل كان في الإمكان اتقاء هذا التبدُّل الذي ينافي عادات الشرق ومصطلحه، وهل كان الأَوْلى أن يمتنع عن قبول كل ما أتاه من الغرب، ويسد دونه أبواب أرضه ومنافذها؟ فالجواب على هذا غير

عسير، إذا أدركنا أن المدنية كالسيل الجارف يكتسح كل من وقف أمامه، ومن المتعذر اقتباس الجميل كله، واتقاء القبيح كله.

دخلت مدنية الغرب كل صقع، ونفذت إلى البوادي والصحاري نفوذها إلى الحواضر والمدن، وقد قال المؤرخ الإنكليزي موير في كتابه «الوطنية والدولية» إنهم حاولوا قبيل الحرب العامة أن يجدوا في العالم أرضًا لم تطأها المدنية الغربية فلم يعثروا على غير ألف ميل مربع فقط. أي: أن القارات الخمس، بسهولها وجبالها وأوديتها وبحيراتها وأنهارها، سَرَى إليها روح الغرب طوعًا أو كرهًا. وأن الأُمم والشعوب كلها أخذت بحظ، ولو قليل، مما أَتت به هذه المدنية الحديثة، وأن أعلام دولها، وإن لم تخفق مباشرة على بعض الأصقاع، فقد جعلت تحت سيطرتها ونفوذها وانتدابها وحمايتها ووصايتها.

إن من ينكر حسنات هذه الحضارة كمن ينكر نور الشمس، وما حسناتها في الواقع إلا نعمة من النعم التي لم يصب البشر مثلها في أدوار تاريخه. ولكن هذه الحضارة نُسجت في القرون الطويلة حتى استقامت لأهلها، ونحن على تباين ما بيننا وبين من قامت على أيديهم من أُمم الإفرنج، حاولنا اقتباسها في أعوام قليلة، وفرقٌ بين ما يؤخذ بالتدريج فيرسخ على الزمن، وما يحاول استصفاءه بسرعة قد يضل بها المقتبس طريق الاحتذاء.

لو كانت البلاد الشرقية على شيء من الاستعداد منذ عصر النهضة في إيطاليا لتمثلت تلك الحضارة جرعةً جرعة مع من كان يتمثلها من الشعوب والأُمم العربية، وكان الخطب سهلًا في هذا التبدُّل لولا ما هنالك من فوارق عنصرية ودينية وإقليمية تُباعدنا قليلًا من أصحاب تلك الحضارة. ونحن على ضعفنا نجتهد أن نحتفظ بجميع هذه الميزات والمشخصات فينا دون أن نَمَسَّ أصلًا من أُصولنا.

قطَّعت الدول البائدة في الشرق أوصال أقطاره، حتى غدا ابن النيل لا يعرف ما عند ابن الفرات، ولا ابن الغرب الأقصى والأدنى يشارك أخاه في جزيرة العرب بشيء يعتد به، فكان ذلك في العصور الحديثة من العوامل التي هيأت للدول العظمى أن تؤدب من استولت عليهم الأدب الذي تريد لا الأدب الذي تتطلبه طبيعتهم، ولم تؤلف من مجموع هذا الجسم العظيم مجموعة صالحة في الجملة تصبر على المحن والشدائد، وتصدر في توحيد جهودها عن قوة وسلطان، وصار هَمُّ أهل كل بلد أن يعيشوا كيف اتفق، والحياة في مجموعها ليست أكلًا وشربًا وتناسلًا، بل فيها من ضروب المعنويات ما لا سبيل إلى لذاذة العيش بدونه.

القول في ماضينا القريب

كانت أدوار الحركة في الأمة العربية أقل من أدوار الفتور، وكانت الأدوار الأولى مما يرفع الرءوس ويوجب المباهاة، وما جاء بعدها مما يخجِل ويؤسف. والسبب في استمرار الفتور سخفاء الملوك وأشباه الفقهاء. الملوك أفسدوا الحكم والإدارة، والفقهاء عبثوا بالدين والقضاء. ومتى تحكَّمت الأهواء في حكم الناس اضمحلَّ أمرهم، ومتى فسد شرع أمة فسد فيها كل شيء. وبذلك أصيبت العقول بالضعف، والقرائح بالركود، والحضارة بالتراجع، والشرائع إذا لم تنفذ لا تنفع، والعقول إذا لم تتجدد بالابتكار يضيق نطاقها ويتحيفها الوهن، ووهن العقل مُؤَدٍّ حتمًا إلى هلاك الإنسان وخراب العمران.

كان ماضي الأمة يقوم على دعائم من الدين والمدنية، ولما انحطت هذه ضعف الدين نفسه، ومناط الدين النفوذُ إلى لبابه لا الاكتفاء بقشوره، وجوهره يتجلى في المعاملات أكثر من تَجَلِّيه في العبادات، والمعاملاتُ تتعدَّى فائدتها إلى المجموع، والعبادات مقصورةٌ منافعها على الفرد، وما لا يقوى يضعف، وما لا يزيد ينقص، وليس للارتقاء حدٌّ وكذلك القول في الانحطاط.

أوهم الجامدون هذه الأمة أنها أرقى شعوب الخافقين، وأنها ما دامت متمسكة بدينها لا يضرها التأخر في دنياها.

أوهموهم، وهم في القرن الثامن والتاسع والعاشر من الهجرة، أنهم كما كانوا في القرون الأول والثاني والثالث، تهابهم الأُمم وتقتبس منهم فنها وعلمها وصناعتها، وأنهم القدوة الصالحة والمثال المُحتذى، واتسعتْ هذه الدعوى مع الزمن حتى جاءت القرون الأخيرة وجمهور الأمة لا يهتم لأكثر من قُوتِ يومه؛ لأن رب الغد متكفلٌ به، وفي تلك العصور كان الغرب يعلو بحضارته إلى فوق، والشرق ينزل بحضارته إلى تحت … كان

الغرب بدأ بإتحاف العالم باختراعاته واكتشافاته وإصلاح أدبه، ونبغ فيه كبار الشعراء والكتاب، والشرق ينحط حتى في بيانه وتبيانه.

كانوا إذا قام امرؤٌ، أنار الله بصره وبصيرته، وحاول أن يَدُلَّهم على مواطن النقص فيهم ليدفعهم إلى سبيل الكمال، عَدُّوهُ عدوًّا لأُمته، خارجًا على شريعتها، ووصموه بالابتداع والضلالة، وكفَّروه وقوَّلوه ما لم يقل، وعَزَوْا إليه ما لم يخطر له في خاطر. وكم من مجدد قام في الأرض العثمانية — وكانت الأقطار العربية كلها من جملة ولاياتها إلا مُرَّاكُش — فكان نصيبه الهزءَ به وتزييفَ آرائه، وليس أهونَ عليهم، إذا خافوا سراية دعوة مصلح، من أنْ يشردوه أو يسجنوه أو يتهموه بالجنون، ويشتدون في إيذائه حتى يكاد يختل عقله بالفعل، أو يقتلونه من أول يوم يريحونه ويستريحون منه.

وتضاءل عمران هذه الملة تضاؤلًا أصبحت معه وليس غير جوامعها ومساجدها وزواياها مفخرة لها، وليس أكثرها في طراز بنائه مما ينم عن ذوق وحسن هندسة، وإذا وقع لملك أن كان على شيء من البصيرة كقلاوون وبرقوق وبيبرس وتنكز، من دولة المماليك في مصر والشام، وأحب أن يعمر بلاده وينتفع بقرائح من فيها من المهندسين والمعماريين لا تتعدى أعماله بناء جسر أو ترميم سور أو إنشاء إصطبل أو إصلاح شراريف قلعة، وإذا أفلح وأثبت تفوقه على غيره فببناء قصر له، وقصور لأبنائه وبناته. أما معظم سلاطين العثمانيين فلم تتعد أعمالهم المساجد والتكايا، ومن بنى سورًا أو قلعة فلأسباب حربية قاهرة، وإذا أُنشئت مدرسة فلا يُعَلَّم فيها إلا ما أقره جماعة الدين فقط، حتى لا تخرج عقلًا أرقى من عقولهم، ولا نفوسًا أقرب إلى الخير من نفوسهم. والبلية في هؤلاء أنهم لم يُجْمِعوا، حتى في فِقْهِهِمْ، على رأي معين، يتناقضون ويتخالفون، فيتشاكلون ويتقاتلون، وما وَجَدَ التوحيد سبيلًا إلى قلوب زعماء ملة التوحيد.

لجأ كل فريق، في إثبات ما اعتقد، إلى الاستعانة بقوة السلطان والاستنصار بالعامة. وكان من الاختلاف بين الشيعة وأهل السنة ما أتى على مدن برمتها، وقتلت خلائق بالألوف، وأدت هذه المماحكات الضارة إلى تباغض أهل القبلة على نحو ما أدى النزاع على الخلافة في القرن الأول إلى قتل سبعين ألف مسلم في وقعتي الجمل وصفين، ثم نشأ الخلاف بين الحنابلة وغيرهم من أرباب المذاهب فخرب جزء من مدينة بغداد، وشغل الناس زمنًا بهذه الاختلافات، واختفت علوم الحكمة في ظلمات الرجعية، ونال القوي من الضعيف فأُكره هذا على اتباع طريقة القوي، فكانت النتيجة ويلًا للغالب والمغلوب، والله أعلم لمن الجنة يوم يقوم الحساب.

باعد الاختلاف في المذهب بين أهل البلد الواحد في أمور الدنيا، وتعلق أهل كل دين بدينهم وتركوا دنياهم، فكان من الشعوب العربية أن غَفَلَت عما يصلحها غفلة مخزية، وبَرَدَ بفعل عصور الجهالة ما كان من الحماسة عاملًا أقوى في الفتوح وما كان من قوة الإرادة في تنظيم المُلك، وضعف حب الجنس والقومية، وفتر الإخلاص الحقيقي للدين. وخلا الجو للديانين فماحكوا في أبسط الأشياء، وضعف العلم الديني ضعفًا مرمضًا. وبقيت أشياء من علوم الدين والدنيا مكتوبةٌ في الكتب لا يفهمها إلا النبهاء، ولم يبق من الصناعات إلا بقايا لا تستغني عنها الشعوب الابتدائية، بل لقد انتهى الحال ببعض الأصقاع أن جهلت الضروري فيها وأصبحت تحتاج للخيط والإبرة والدبوس والمسمار، وأمست معظم الأقطار إذا شاء جيرانها كَسَوْها وإن شاءوا أَعْرَوْها، وإن أحبوا عَمَرُوها وإن راقهم خربوها.

لنتصور مدينة من مدن الانحطاط يُعد سكانها بعشرات الألوف ليس فيهم من له صلة بالفكر غير أشباه الفقهاء وعملهم أن يؤموا بالجماعة ويخطبوا في الجُمَع، ويعظوا مواعظ يدور معظمها على التزهيد في الدنيا، وهم ما تأبوا أن يكرعوا منها بالكبير والصغير، ويتولون من أمور القوم ما لا غنية لهم عن ممارسته كمسائل الزواج والطلاق والوصايا والمواريث والأوقاف. وما كانت المنازعات بين الأفراد والبيوت تنقطع؛ لأن أرباب الشأن عجزة عن تنفيذ الأحكام، أو لهم مآرب في دوام الخصومات بين الخلق يضيعون لهم أوقاتهم بإطالة النظر في الدعاوى ويشغلونهم بإذكاء نار البغضاء بينهم، وغدا القوم يعتقدون أن الإنسان لا يثري وينعم إلا إذا أحسن سرقة جاره وقريبه، وتغلب عليه بالحق والباطل.

ثم لنتصور بعدُ كيف يعيش أهل تلك القصبة عيشًا رتيبًا لا هناء فيه ولا صفاء، يتحكم في الحي صاحب الوجاهة فيه، وليس لأحد من الحرية إلا بقدر ما يفضل به عليه سيد حارته وشيخ منزلته، ولا من الثروة إلا ما تتغاضى له عنه حكومته، والكبير والصغير يشرب كأس الذل حتى الدُّرْدِيِّ، وليس لأحد أن يعلو عن جيرانه في أمر، والبلاهة شرطٌ أعظمُ في هذه البيئة التي ما وصل فيها أحد إلى معرفة شيء من المعارف البشرية، ولا بلغ غير أفراد قلائل جدًّا ما تم في العالم من الارتقاء، وليس أمامهم إلا ما يُزَيِّن لهم الرضا بما هم فيه.

هناك لا أمن على الأرواح ولا على الأعراض، يتكدس السكان في بقعة ضيقة لا ترى الشمس والهواء، لينجوا بتجمعهم من اعتداء الحامية حماة الأمن ومن سطو أرباب

الشقاوة فتحصدهم الأمراض الوافدة والأوبئة والطواعين. والسكان درجات في التظالم، الوالي يظلم المتسلم ليأخذ منه أكثر ما يقدر عليه من الجباية والضرائب. ويرسله إلى العاصمة ليثبت مركزه أسابيع أو أشهرًا، والمتسلم يظلم من تحت يده ليبيض وجهه أمام الحاكم، ولا يقطع عنه رزقه، وهو يحتال أبدًا ليجلب له المنافع فَيَسْلُب ما يَنْعَم به، ويؤدي منه بعض مطالب المتسلم، والرعايا يتظالمون لا يتناصفون، والحاكم الأكبر هو الظالم الأكبر، والعدل لا يعرف في غير الكتب المقدسة، وقد غدا الناس بما تسرَّب إلى نفوسهم من الفساد لا يرهبون العادل والعالم بقدر ما يرهبون الظالم والجاهل.

تصوروا هذه المدينة التي خلت من طبيب يطب المرضى، ويخفف آلام المتألمين، والخلق يهلكون في المدن — دع القرى — لأقل عارض يطرأ على صحتهم، ومن جسر فقال إن التطبيب مشروع، وإن الآجال تزيد وتنقص على ما هو رأي كبار علماء الأمة كَفَّروه وبَدَّعوه، ويا ويل من يُرمى بمثل هذه التهم. وليس في المدينة غير دجاجلة سلمت إليهم أرواح الخلق وأجسامهم.

أدركتُ مدينة دمشق وليس فيها طبيب قانوني ولا صيدلي قانوني ولا حقوقي قانوني ممن درسوا هذه الفروع على الأصول، وعرفوا صناعتهم معرفة ثاقبة لعهدي بها وليس فيها حيسوب؛ لأن الأمة عاشت وتريد أن تعيش بدون حساب، أما العلوم الرياضية التي كان يدرسها أجدادهم مع علوم القرآن والحديث فقد غدت عندهم أسماء لا مسميات لها، أو من المعارف التي يُستغنى عنها ذلك لأن الأمة لا تحبُّ التقييد، ولا ترغب في التدوين، وهي سائرة على البركة في كل ما يصلحها. حدثني من أثق به أن والده أراد، أواخر القرن الماضي، أن يفتح كُتَّابًا في دمشق فرأى أنه لا يعرف من الحساب إلا الجمع والطرح والضرب فقصد عارفًا بالقسمة وعرض عليه أن يعلِّمه إياها مقابل ألفي قرش وبعد يومين صرح المعلم لتلميذه الجديد أن في تعليمه القسمة قَطْعَ رزقه؛ ذلك لأنه إذا كثر سواد العارفين بها في المدينة انصرفت الوجوه عنه!

أما العلوم الطبيعية فما وقف على بعض حقائقها واحد في العشرة آلاف، ويتلقف أكثر الجمهور من ذلك تخريفات من أفواه العجائز والزنجيات، وما كان العقلاء يجرءون أن يلفظوا اسم الطبيعة وعلوم الطبيعة؛ لأن البحث فيها مَدْرَجَة إلى الكفر عند أشباه الفقهاء، فإذا أراد أحد أرباب النباهة ذكرها أطلق عليها اسم «خواص الأجسام» أو غير ذلك من الأسماء التي لا تكاد تنطبق على حقيقتها ليبعدوا من ذكر اسم الطبيعة؛ لأن من قال بالطبيعة وتعلم علوم الطبيعة أضاع دينه حتمًا.

وحل محل علم النجوم والأفلاك ما عرفوه بالتنجيم والسيمياء، واستخراج الفأل وأَخْذ الطالع وضرب الرمل والمندل، وخَلَفَ علومَ الكيمياء النافعة علمُ الكيمياء المزورة، ولطالما أنفق الطماعون أموالًا ليحول لهم المحتالون مادة الحديد والفضة إلى ذهب إبريز. وأتت القرون بعد القرون وهذه الدعوى يروجها أدعياء هذه الصناعة الموهونة ويَقْبَلُها المغفلون على نحو ما يعتقدون بعلم الجفر وعلم الملاحم وما صح شيء منها قط.

مضت أجيال وأكثر القوم يبنون أعمالهم على المنامات ويهتدون في سير حياتهم بالأحلام، ويعتقدون بالخوارق والكرامات، وهم أبدًا في غمرة من التفاؤل والتشاؤم، وما أفادهم الدين شيئًا في هذه السبيل، والدين يحظر القول بمثل هذه الأباطيل، ولا يقدس إلا العقل، حتى قال جماعة من العارفين: إذا تعارض العقل والنقل يُئَوَّل النقل ليطابق العقل. ولكن المتأخرين تواقحوا حتى أوهموا العوامَّ أنهم عرفوا من الدين ما لم يعرفه أهل الصدر الأول، وجهلوا سر النقل، وأضاعوا فضل العقل، فادعوا ما لم ينزل به سلطان، ولا تستقيم به دولة، ولا تحيا عليه أُمة. وإلى القرن الماضي كان الجيش لا يتحرك إلا إذا كان الطالع حسنًا، ولذلك غلب جيش محمد علي الكبير جيش العثمانيين؛ لأن القائد العثماني لم ير الهجوم على عدوه لانحراف الطالع بزعمه، وهجم من لم يبن أموره على مثل هذه المخرقات فظفر بعدوِّه.

ثم إنهم قالوا بصوفية نختزل في وصفها؛ لما حملت من سُخْف، وأقل ما ترتب عنها إنشاء طرق كثيرة (في مصر منها اليوم سبعٌ وعشرون طريقةً معترف بها) سرى في الداخلين فيها داء الاتكال والزهد في العمل الشريف، وبلغتْ القِحَة بهم أن قالوا إن الأعمال اليدوية غير شريفة، وكان أعاظم الأمة في القرون الأولى لا يستنكفون عن العمل بعض ساعات النهار في صناعة من الصناعات، يتَلَهَّوْن بذلك أيام السعادة فإذا احتاجوا إليها أيام الشقاء مارسوها فأغنتهم عن الاستجداء.

وما فتئت المعتقدات الضارة إلى اليوم متجلية في بعض الكفور والقرى البعيدة عن مواطن العلم، ومَرَدُّ كل هذا إلى فُشُوِّ الأُمِّية، وما كان عدد من يقرءون ويكتبون منذ مائة سنة يتجاوز الواحد أو الاثنين في المائة. وكان حتى بعض من يُعدون من الفقهاء لا يكتبون وقراءتهم قراءة عامية، وغاية ما تعلموا أن حفظوا سور الصلاة وبعض الأحاديث الضعيفة في فضائل الأيام والشهور، والبلدان، والأطعمة، والأناسي، وشيئًا من الرقائق والأشعار، ومارسوا من أمور العبادات ما شاركهم الأطفال في معرفته، ورَوَوْا عجائب آخر الزمان وأحاديث الدجال والمهدي والعفاريت مما لم يثبت من طريق مأمون، ولا رُوِيَ في كتاب معتمد صنفه ذو مسكة من العقل.

وكيف لا تنحطُّ الأُمة في دينها ومَلِكُ مصر، منذ أوائل القرن الثامن، يكتب لنائبه في دمشق أن كل من يقرأ كتب شيخ الإسلام ابن تيمية حَلَّ دمه وماله مع أن كتبه ما خرجت عن الدين الصحيح في شيء إلا أنها حاربت البدع والمبتدعين، وكانت المملكة، على ما يظهر، بأيدي الشافعية وابن تيمية حنبلي وتَعادِي أرباب المذاهب معروف موصوف. ومن سخف الأقدار أن يقوم عالم، فيه بلاهة عصره، يُحَرِّم تعلم المنطق؛ لأن من تمنطق تزندق، بزعمه، وكل ما يقوي العقل محظور الخوض فيه ومصلحة المسيطرين والديانين في أن يكون القوم مقلدين رجعيين ليسهل حكمهم وتؤمَن غائلتهم. ومن المضحكات أيضًا أن يحرموا درس التاريخ وكان يدرس في الجوامع في القرون الخالية، وذلك لأن التاريخ يلقح فكرًا جديدًا، وهذه بدعة لا يريدونها، ونسوا قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ وقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾. وتناسَوا أن جزءًا من الكتاب العزيز عرضٌ لتاريخ الأُمم وعِبَر الحوادث.

ولقد عم الظلم في عصور الظلمات كُلَّ نظام؛ لأن الفوضى أصل عندهم، ومن ذلك ظلم الرجال للنساء. حظروا تعليمهن إلا الغَزْلَ وسورة النور! وأغلظوا حجابهن، وقصروا عملهن على التزين والتجمل وجعلوا منهن أداة سرور الرجل وآلة لولادة الأولاد فقط وغمطوهن حقوقهن التي خولها الشرع لهن وآض المجتمع الإسلامي لا رواء له ولا بهجة وحيث نفقد بشاشة النساء تسود الكآبة.

وكما كان الكبار يدوسون الصغار من دون ما رحمة ولا شفقة، وإذا أبقوا عليهم فلأنهم أداة يتوسلون بخدماتها الشاقة إلى الغنى والجاه كذلك كانوا في معاملة النساء، فقد تَأَوَّلُوا آيات القرآن الكريم في تعدد الزوجات وأغفلوا القيود التي قيده بها ليزيدوا في استمتاعهم بأكثر من زوجة، فرخصوا لأنفسهم الجمع بينهن في بيت واحد، وما بالوا بالتبعة التي تلحق من يفعل ذلك من الرجال، وما ينال المرأة من هذا التعدد، ويصيب البيوت من هذا التمزيق.

ولما أقفرت العقول، وانحطَّت الأخلاق، واختل الوازع، ارتضى الناس من العيش بالدون. وظهرت عوارض المسكنة، وعدمت الرفاهية، وغدت المزرعة الكبيرة لا تساوي أكثر من بضعة آلاف قرش، والقصر المنيف يشرى بألف قرش، وصداق الآنسة الجليلة لا يتجاوز أكثر من خمسين أو سبعين درهمًا، واختفى النقد الذهبي والفضي من التداول في الأسواق؛ خبأه مالكوه في مخابئ أخفوا أمرها عن أعزِّ ذوي قرباهم، خوف المصادرات،

فكان القوم يظنون إذا عثروا على مال مدفون في الجدران والأرض أنه كنز من الكنوز المرصودة، ورجع أهل المدن والقرى إلى قانون المقايضة في البيع والشراء على ما كانت الحال في العصور المتقهقرة.

أما السياسة فتولاها، على الغالب، زعنفة من القتلة السفاكين، ممن لا يحللون ولا يحرمون، ولا تهمهم إلا مظاهرهم ومنافعهم، من الصنف الذي يعتقد أن الغنى لا يتم إلا بسلب الضعفاء والمجد لا يقوم إلا على الجماجم. وكانت القاصية والدانية، للضعف المستحوذ على الناس، عرضة كل حين للفتن الأهلية، وكل من آنس من نفسه قوة يَسْتَجْيش له أنصارًا من الغوغاء ويقطع السابلة، ويسلب الآمنين ويروع المساكين، فإذا ازدادت قوته عدا فشق عصا الطاعة على صاحب السلطان الأكبر أو على الأمير الذي في جواره، ولا تَسَلْ عن حال الرعايا، إذ ذاك، كيف تضيع أرواحهم وأموالهم بين العاصي ومن عُصِيَ عليه؟

وما كان للسلام والاستقرار — وهُمَا من أهم الأسباب في سعادة الشعوب — من أثر محسوس في بلد ولا جيل ولا قرن، والناس أبدًا عبيد صاحب القوة يعطونه ما يشاء ويدهنون له كما يهوى؛ ليأمنوا شره، وإذا حدث لثائر أن وُفِّقَ إلى بسط سلطانه على أرض واسعة، وعلق بعض الأغمار آمالهم على تغير في صورة الحكم الجديد وعلى راحة نسبية تحتاجها الأمة لتضميد جراحاتها وترميم ما خرب من مرافقها، يجيء الخلف أنحس من السلف، وهكذا دواليك؛ لأن الحكم لا يصل إليه يومئذ إلا من كان على جانب من القسوة والجبروت ومن كان يحمل بين جنبيه روحًا سُداه الخبث ولُحْمَتُه الشرُّ، أما الإصلاح فمن الكلمات التي لا معنى لها، ولا يَفهم مدلولها إلا قلائلُ من أرباب الأذهان المفكرة، وهم فئة قليلة تقصيهم أخلاقهم عن الوصول إلى الحكم.

وبضعف السياسة الإقليمية ضعُفت السياسة العامة فكان من مجموع الأقطار العربية كتلةٌ تمثل الانحلال أقبح تمثيل. ومع هذا استبد كل طاغٍ بجزء من الأرض وسمى نفسه خليفة أو ملكًا أو أميرًا يعسف مَنْ تحت يده ليستخرج ما يصرفه في أُبَّهَتُهُ من المال. ومن أجل هذا كان الخلق يتظاهرون بالصعلكة لا يأكلون إلا ما يسد الرمق، ولا يلبسون إلا ما يستر العورة، وبتوالي عهود الخصاصة والمسكنة ضعف الذوق والشعور بالواجب، وليس لأحد هدف أسمى تتطلب الأُمم في العادة تحقيقه على أيدي المصطفين الأخيار من أبنائها. وقوة الأُمم — كما قال ليون — بقوة طبقتها المختارة لا بعدد نفوسها، والمدنيات من صنع الطبقة العالية، بهم تنهض، فإذا ما فقدتهم تسقط

البلاد للحال في البؤس والفوضى. وهذا ما كان محسوسًا في البلاد العربية في قرونها الأخيرة.

انقلب الزمن، والزمن قُلَّبٌ حُوَّل، فأخذت الأمة تشعر بما لم يكن يشعر به سلفها، وتنظر إلى الحياة غير نظرهم إليها؛ ذلك لأن الحوادث التي مرت بها تدعو الغبيَّ، فضلًا عن الذكي، إلى البدار بالاعتبار، وكان القوم، إلى عهد قريب، راضين، طوعًا أو كرهًا، عن حالتهم، تخدَّرت أعصابهم تخديرًا أتى على كثير من صفاتهم الحسنة، وطال عهد هذا التدلِّي حتى قام أفراد أذكياء وقع في روعهم أن يكسوا الأمة كسوة جديدة يستعيضون بها عن ذاك الثوب الرث البالي، فقاومهم سخفاء الزعماء وأغبياء الفقهاء، وكان هذان الفريقان يذهبان إلى أن كل نهضة تذهب بسلطانهما، وتقضي على نفوذ جماعتهم. وسلطانُهم إنما يقوم بجهل الرعية، ونفوذُهم متوقف على خضوعها الخضوع الأعمى.

فاضت المدنية الغربية على العالم، وبحكم الطبيعة أصاب الأقطار العربية من منافعها قسط غير قليل، وما رأى معظم الأصقاع مندوحة عن الأخذ منها، وكانت عصت عليها زمنًا، كما عصت بعضُ قريش على الإسلام يوم ظهوره، فلم يبادروا إلى الاستجابة له، ثم قبلوه واشتركوا في خدمته مع السابقين الأولين. وطفق العربي يتلمس الطريق إلى تَرَقِّيه، واستعادة شيء من باهر ماضيه. وكلما حَلَّ عروة من العرى التي طوق بها حَمَلَةُ التعصب عنقَه اقترب من ورود حياض المدنية.

كان الفقهاء يمنعون أصحاب الحكم من كل جديد، فحظروا في عاصمة السلطنة العثمانية طَبْعَ القرآن والكتب، وحرموا، على غير هدًى، أشياءَ كثيرة من المباحات كالقهوة والدخان، فقُتل بتعصبهم ألوف من الأبرياء. حنبلية مرهقة أسفرت بعد جيل عن إباحية مطلقة. ومما لم يفتوا به تنظيم الجيش بنظام الغرب، وإدخال العلوم إلى الأرض العثمانية. وجسروا على قتل أحد ملوك العثمانيين؛ لأنه قال بالإصلاح الجديد، فجاء من خلفه فتغلب عليهم، ويومئذ أخذت دولتُهم تضعف، وكلمتهم تتمزق.

وكلما زاد انتباه العرب ظهرت مزايا عنصرهم واستعدادهم للأمور النافعة، وساعد على هذا الانبعاث ما لَقُوه من ضغط القريب والبعيد، وكثرة الضغط تُحدث انفجارًا، وقد تظهر الشدة مزايا الأُمم أكثر مما يظهرها الرخاء، ويُورَى زنادها بأدنى احتكاك بحرارة. وطفق العربي يضم إلى قديمه ما جَدَّ، ويوجه مدنيته وجهة لم يكن موليها، أي شرع يدرك ضعفه ونقصه ويتلمس قوته وسيادته. وكلما رفع كابوس الاستعباد عن

قطر لا يعتم أبناؤه أن ينهضوا نهضة ما كان يتأتى تحقيق مثلها في الزمن الطويل؛ ذلك لأن المتأخر في العادة يتناول في يسر ما تعب المتقدم في إيجاده دهرًا، وما لم يصل إليه إلا بكثير من العناء والمفاداة.

سبقت مصر إلى اقتباس مدنية الغرب؛ لأنها تقدمت غيرها إلى التحرر من ربقة الحكم العثماني، وهي في موقع مُواتٍ بين جزيرة العرب في آسيا وإفريقية، وبفتح ترعة السويس زاد اختلاط الغربيين بالشرقيين، وكانت مصر تحتفظ بجزء عظيم من تراث العرب بعد ذهاب دولتهم، وأخذت تتمتع بشيء من الاستقرار منذ القرن الماضي إذ تولاها أمراء تابعون للدولة وفي حقيقتهم يعملون عمل الملوك المستقلين.

وبينما كانت تسري الدعوة في مصر للأخذ من العلوم التي امتازت أوربا بها بمعرفة الحكومة المصرية نفسها قام أناس من أرباب البصائر، بمحض إرادتهم وبدافع من غيرتهم، يتمحضون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على أُسلوب جديد، ويجاهرون بالترحيب بكل علم لا يعرفه قومهم، ويحملون على الجمود حملة شعواء، يدفعهم صوت الحق الذي كان يدوي في أعماق نفوسهم.

بدأ الإصلاح في المظهرين الديني والدنيوي، وسار كل منهما في طريقه الطبيعي، يتعارضان ثم يتفقان، ويختلفان ثم يجتمعان، وكان السيد جمال الدين الأفغاني من أول من نادَوْا بالإصلاح في هذا الشرق القريب. قام بدعوته والناس شبه نيام في مصر وفي غير مصر، لا يخرجون في العلم عما ورد في الكتب، ولا يعتبرون قولًا إلا لرجل مات وشهد بحسن حاله بعض الحشويين المخبولين بالرُّؤَى المبشرة بأنه صار إلى الجنة وغُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ لأنه أتى الحسنة الفلانية يوم كذا. قام جمال الدين بإصلاحه وأكثر شيوخ الأزهر يومئذ يحرمون ما لم يعرفوه من المعارف، ويقولون بتكفير من يقول بكروية الأرض، وكان أجدادهم قالوا بهذا الرأي منذ ألف ومائتي سنة، ويُبَدِّعون مَنْ لا يقول بأن الأرض واقفة على قرن ثور إلى غير ذلك من تخريفهم، نادى بإصلاحه أيام كان العالم من الطبقة الأولى من الأزهريين لا يعرف شيئًا من الجغرافيا والتاريخ والرياضيات. وكان السيد ومَنْ تابعه على مثل اليقين من أن الشرق إذا لم يبادر إلى اللحاق بالغرب في اقتباس العلوم يهلك ولا يرحمه تعصبه، ولا تجبر عثرته دعواه وتبجحه.

استجاب الشباب للدعوة الأفغانية ودعوته سياسية اجتماعية، وفي مقدمة المستجيبين له الشيخ محمد عبده، خرج بإرشاد شيخه الجديد من طور طالب علم على الطريقة

القديمة غلب عليه التصوف والجمود، إلى طور عالم عصري يستعمل عقله ويدرك ما حدث في العالم من تجدد ويدعو إليه. وبث الأفغاني في العقول حب قدماء العلماء، ودعا إلى الاقتصار على كتبهم وإطراح كتب المحدثين لما تحمل من زوائد، كما دعا إلى الرجوع بالإنشاء العربي إلى عدم التكلُّف فبرز من حلقته كُتَّاب أَبْيِنَاء، وحبب اللغة العربية إلى العرب، ولطالما قال: إن العرب ما نجحوا بفتوحاتهم بشكل الدين الظاهري فقط بل بفهمهم أحكامه والعمل بآدابه، وذلك ما تم ولا يتم إلا باللسان أي: بالعربية. فكانت إرشاداته كالماء الشديد الحرارة غسل وَضَر العقول، وأتى على ما علق فيها من فضلات وفضول.

وحاول السيد الأفغاني أن يقوم بمثل هذه الدعوة في إيران، والظاهر أن أرضها يومئذ لم تكن صالحة لإلقاء بذوره، لما كان فيها من إدغال الحكم المطلق، وتبين أن مصر كانت أوسع صدرًا لقبول الأفكار الحرة، ولما انتهت به خاتمة المطاف إلى الأستانة وَفَّقَ دعوته مع البيئة التركية ولم يخرج عن تعاليمه ودعوته، وأحسن ظنه بدولة الترك وسلطانها. وكان كسائر العقلاء في ذاك العهد يحرص على بقاء الدولة العثمانية على ما عشش فيها من ضعف وسوء إدارة.

وبينما كان السيد جمال الدين الأفغاني يعاني مع تلميذه الشيخ محمد عبده ما يعاني من معالجة الإصلاح في مصر كان الشيخ طاهر الجزائري في الشام يسير على طريقة له هو اخترعها شارعًا من الأساس، والأساس عنده المدرسة، فينشئ المدارس الابتدائية والوسطى بمعاضدة الحكومة، ويوهمها أنه لا يقصد من مدارسه إلا نشر العلم البسيط ليكون ممن يتخرجون فيها خدامًا للدولة في المستقبل! ويحبب إلى الناس الرجوع إلى كتب الأسلاف وإتقان اللغة العربية، ويحث على الأخذ من كتب ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، وفيها بحوث ضافية في البدع التي أُلصقت بالإسلام وما هي منه بسبيل، ويحض الناشئة على تعلم العلوم الرياضية والطبيعية والسياسية والتاريخية، ويؤلف لهم أسفارًا في مباديها، يزين إلى من حَذَقُوا لغات العلم أن ينقلوا منها ما أمكن إلى لغتهم ليستفيد منها العرب عامة، وينشر الجيد الصحيح من كتب الأقدمين، ويحمل كل من يأنس منه استعدادًا على معاناة الطبع والنشر، وعلى شغل ذهنه بما يفيده، وكان يقول: إن السياسة تأتي بعد إعداد المعدات لها من علم وصناعة، وكان غرامه أن يتعلم كل طالب صناعة ما، وهو عملي في علمه وسيره، ولطالما قال: إن الاشتغال بالعلم مضمون النتائج يأمن العاملون في ظله عتو العاتين، وما كان يخلو من استعمال شيء من التقية

مخافة الإخفاق في دعوته إذا عُرفت حقيقة مقاصده، وهواهُ، أبدًا، التوفيق بين أرباب المذاهب المختلفة في الإسلام، والتقريب بين أرباب الأديان السماوية المتفقة على القول بالمعاد وخلود الروح.

ورأي الشيخ طاهر الجزائري كرأي السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده بأنه: قام بين القرن الثالث والرابع أقوامٌ ظهروا بمظهر الدين، أبدعوا فيه البدع وخلطوا بأصوله ما ليس منها، فانتشرت قواعد الجبر وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن الأعمال، وأن الزنادقة والسفسطائية أضروا بالدين ضررًا بالغًا لم يَقِلَّ عن ضرر من وضعوا أحاديث نسبوها إلى صاحب الشرع وأثبتوها في الكتب، وفيها السم القاتل لروح الغيرة والإقدام.

يقول الراغب الأصفهاني من أهل القرن الرابع: «ولما تركت مراعاة المتصدين للحكمة والوعظ تَرَشَّحَ قومٌ للزعامة بالعلم من غير استحقاق منهم لها، فأحدثوا، بجهلهم، بدعًا استغوَوا بها العامة، واستجلبوا بها منفعة ورياسة، فوجدوا من العامة مساعدة لمشاكلتهم لهم وقرب جوهرهم منهم.

فكل قرين إلى شكله كأُنْس الخنافس بالعقرب

وفتحوا بذلك طرقًا مُنسدَّة ورفعوا بها ستورًا مسبلة، وطلبوا منزلة الخاصة فوصلوا إليها بالوقاحة وبما فيهم من الشَّرَه، فبدَّعوا العلماء وكفروهم اغتصابًا لسلطانهم ومنازعة لمكانهم، وأغرَوا بهم أتباعهم، حتى وطئوهم بأخفافهم وأظلافهم، فتولد من ذلك البوار والجوار العام.»

والظاهر من دعوة الشيخ الأفغاني أنه كان يحرص على إخراج فئة مستنيرة من الخاصة تكون منها نواةٌ صالحة للنهضة. والمفهوم من دعوة الشيخ الجزائري أنه كان يحرص على تعليم أطفال الأمة أولًا لينشأ منهم جنود يجاهدون وهم ينتخبون قوادهم في المستقبل. الطريقة الأولى سريعة صعبة، والثانية بطيئة أكيدة. وكانت دعوة الشيخ محمد عبده وسطًا، يعلِّم ويفقِّه ويصلح الأزهر وينشئ الجمعية الخيرية الإسلامية لتعليم أبناء الفقراء، ويصلح الكتابة العربية والمحاكم الشرعية، ويبث أفكاره في الطبقة المختارة من أرباب العقول، ويبعث هممهم على العمل، ويستفيد من كل قوة تُعينه على بث دعوته.

وغريبٌ ألا تكون مُباءة الدعوة الأفغانية ديار الأفغانيين، ولا دعوة الشيخ الجزائري أرض الجزائريين، وكلتاهما في أشد الحاجة إلى الإصلاح، وألا يكون لدعوتهما صدًى يسمعه مَنْ كان في آذانهم وقر، وأن يكون الحظ الأوفى لبلاد الشرق القريب يخدمانه بقلبيهما وروحيهما. فنفع الرجلان في غير بلدهما، والشجرة إذا نُقلت من أرضها قد تنمو نموًّا لا تصيب بعضَه في منبتها الأول، وزامر الحي لا تُطرب مَزامرُه.

ويرجع الفضل في توجيه بعض نبهاء خريجي المدارس الحديثة في مصر والشام لهؤلاء الشيوخ المستأنين في بث دعوتهم وإلى مَنْ حذا حذوهم، فربى وهذب سائرًا على آثارهم. والمدرسة تعطي من العلم ما تعطي ليأخذ منها التلميذ حسب ذكائه واستعداده ومهارة معلِّميه في تلقينه، والكتاب محصور الفائدة في المسائل، والعمدة في التثقيف على العمل الذي عاناه المصلحون. واستعانوا بالصحف على بث أفكارهم وبهم تخرَّج صحافيون ومؤلفون، بَثُّوا في العقول معلوماتٍ استفاد منها مَنْ أحب الاستفادة، والمبتدئ، أبدًا، متطلعٌ إلى تلقين وتدريب تَطَلُّعَهُ إلى الدرس والتهذيب، ورب طالب أفاد من مجلس عالم في ساعة ما تضن عليه به الكتب بدرس ساعات. العالم يشرح ما فهم وتمثل واستنبط، ومن أضاف علمه إلى علم غيره وما ضن على طلابه بتجاربه وتجارب غيره، كان المعلم المرشد حقًّا.

ولم يخلُ قطر من الأقطار العربية، ولو كان مما تغلب البداوة عليه، من أفراد أدركوا قصور أُمتهم فراحوا يتمثَّلون بعض الأفكار الحرة وينفثونها في قومهم. ومِن رجال الدين مَنْ صعب عليهم، بادئ بدء، أن يتابعوا اليقظة التي أتت من طريق المجددين، فحملوا عليها معتقدين أن في إنكارها إرضاءَ العامةِ وإرضاء الحاكمين. والواقع أن الجامدين ما انقطعوا عن النيل من المجددين إلا لَمَّا قنطوا من المقاومة وأدركوا أَنْ لا نجاة لهم بغير مجاراة العصر وإصلاح ما يمكنهم إصلاحه من أساليبهم. والوقوف في وجه الحق ضربٌ من السخف لا يجدي فتيلًا.

ومما ساعد في هذا الإصلاح: أن غدا الدين يدرس على أساليب جديدة وأُبطلت طريقة الأزهر القديمة في التعليم، وقامت معاهد التخصص تنشئ ناشئة منورة، واعترف المشايخ بفساد طريقة المتأخرين من العلماء حتى قال العلامة المراغي شيخ الأزهر في بعض تقاريره: «ولكن العلماء في القرون الأخيرة استكانوا إلى الراحة وظنوا أَنْ لا مطمع لهم في الاجتهاد، فأقفلوا أبوابه ورضوا بالتقليد، وعكفوا على كتب لا يوجد فيها روح العلم، وابتعدوا عن الناس فجهلوا الحياة وجهلهم الناس، وجهلوا طرق التفكير الحديثة

وطرق البحث الجديد، وجهلوا ما جَدَّ في الحياة من عِلْم، وما جد فيها من مذاهبَ وآراء، فأعرض الناس عنهم ونقموا هم على الناس فلم يؤدوا الواجب الديني الذي خصصوا أنفسهم له، وأصبح الإسلام بلا حَمَلَة ولا دعاة بالمعنى الذي يتطلبه الدين.» ا.هـ.

وكان من أولئك المُصلحين أن تسلحوا، من جملة ما تسلحوا به من الأدوات للقيام بإصلاحهم، إتقان بعض اللغات الغربية، وقد تعلموها هم بالفعل لاعتقادهم أن العربية وحدها لا تكفي طالب العلم والمدنية. وكان المأخوذ عن الأُمم اللاتينية أولًا أكثر من القدر الذي جاء من طريق الشعوب الأنكلوسكسونية، ثم توازنت الكفتان بمَنْ تَخَرَّجَ في مصر والعراق وفي أمريكا من أبناء العرب باللغة الإنكليزية على مثال من تخرج في الشام وشمالي إفريقية بالفرنسية والإيطالية والإسبانية. فالمدارس والهجرة إلى القاصية والاختلاط بالأُمم الغربية، كل أُولئك كَوَّنَ للعرب عقلية أتتهم جديدة، شذبها لهم مصلحوهم الدينيون ومصلحوهم المدنيون.

ومن أهم ما ساعد على تدعيم هذه النهضة مسارعة لبنان إلى الأخذ بمذاهب التعليم، فأنشأ الوطنيون والأجانب في ربوعه مدارسَ تدرس بالعربية، وفي حجرها ظهرت عبقرية أفرادٍ كان كل واحد منهم داعيةً عظيمًا للغة العربية حَبَّبَهَا إلى الدارسين، وتخرج بهم وبتلاميذهم مئاتٌ من الرجال انتشروا في الشام ومصر، وكان منهم المؤلف والصحافي والكاتب والشاعر، وبصنعهم استعادت العربية بعض رونقها القديم، وبهم عمت المعارف بعض الطبقات. وكانت خدمة هذا الرعيل يومئذ، والبلاد تئن من جهلها، بلسمًا نافعًا في مداواة العقول. وكان عملهم مع عمل مصر العظيم في هذا المعنى مما جعل للغة كيانًا علميًّا وسياسيًّا، والرجاء أن لا ينقضي عقدان أو ثلاثة من السنين حتى يعم العلم قاصينا ودانينا.

القول في دور انتقالنا

يتولَّد من كل دين نوعٌ من الحضارة تكاد تختلف في بعض مناحيها عن حضارة الدين الآخر، وحيث تتعدد المذاهب تتبلبل الحضارة في مجموعها، ويُلحظ التفكك في أنحاء من جهازها. وهناك أديانٌ سماوية قديمة، ونِحَلٌ أرضية حديثة، منها ما يُعبد فيه الله، ومنها ما يُعبد الشيطان، ومنها ما يؤلِّه البشر، ومنها ما يكتفى بتقديسهم، ومنها ما لا يتجاوز منتحلوه المئات، ومنها ما يُعد المعتقدون به بألوف الألوف.

ولا أمل في إيجاد حضارة متوحدة إلا إذا عَمَّ العلمُ أرباب الأديان كافة، وصُبغ المواطنون في مصبغة واحدة، وليس أفعل من التربية المشتركة في نزع الفوارق بين أبناء الوطن الواحد. وهذا لم يتم حتى اليوم لقطر من الأقطار العربية، والتخالف في العقلية والزي والعشيرة والتعامل ماثل كل المثول في أرجائها لتخالف التربية بكثرة الأديان وتعدد ضروب الثقافات.

من أصعب الأدوار التي تمر بالأُمم دور الانتقال من حضارة إلى حضارة، وهو في صعوبته كالانتقال من دين إلى دين، أو من نظام حكم قديم إلى نظام حكم جديد، فإن عادات رسخت، ومنازع أُلِفَتْ، وعقيدة تأصلت، في الدهر الطويل، لا يسهل إحلال غيرها محلها، فليس بدعًا أن يبطئ علينا هذا الدور الطبيعي في تعرجه وتَلَوِّيه، ولا ندري إن كنا قطعنا نصف المرحلة الواجب اجتيازها أو أكثر أو أقل.

تطورنا في تفكيرنا وبلغنا من ذلك درجة لا بأس بها، وكنا إذا حاولنا شغل عقولنا نكتفي بقليل من علوم المعاد وذَرْو من الأدب، وأدبنا شعر يكثر مديحه وغزله وفخره وهجره، وفيه شيء من الميوعة، وإلى عهد قريب كانوا يقولون: أعذبُ الشعرِ أكذبُه، فأصبحنا نتطلب منه الخوض فيما يجدي علينا، وأمسينا نفضل استثمار ذكائنا فيما فيه عون لنا على الغنى والرفاهة. وتجلى الزهد في القديم فضعفت ممارسة الشعائر عن

ذي قبل، وما نعلم هل أخذنا من دنيانا ما يوازي ما أضعناه من ديننا، سؤال يختلف الجواب عليه باختلاف الأقطار، وقد تتعذر الإجابة عنه، وأهل القطر الواحد ليسوا سواء في هذا الباب.

خرجت الأمة عن بعض مألوفات العصور الماضية، ونال الأغنياء ومن يليهم قسط عظيم من هذا التجدد. وفي العادة أن تضيء شعلة الحضارة من قصور العظماء، ثم تسري في جمهرة القوم طبقة بعد طبقة. وأدرك أرباب السعة أن سعادتهم بالمعارف وكانوا أعرضوا عنها زمنًا فهبوا بأخرة لتعليم أولادهم، ينافسون من سبقوهم إلى الدرس من أولاد الفقراء. وغدا أبناء الأعيان اليوم يتولَون في مصر إنشاء الصحف والمجلات وكانوا من قبل يتعالون عن الصحافة، والصناعة والتجارة، ويعتقدون أنه لا يليق بهم الاشتغال بغير الحكم وما يتصل بالحكم.

تبدلت حالة المدن في تنظيمها وتنظيفها واتساع شوارعها وساحاتها، ورُوعيت قواعد الصحة في معابدها ومجالسها ومدارسها ومصانعها، وتوفرت في القصبات والقرى البيوت ذات الطبقات، وكثرت المخازن والمكاتب والمعامل على الطراز الغربي. وتطورت المقاهي والمطاعم والفنادق والحمامات بنيقتها وترتيبها، ومعاملة من يختلفون إليها، ودخل التطور في معظم المرافق، نتيجةً لازمة للإقبال على التعليم، وهجوم المدنية الحديثة علينا من كل أُفق.

اقتبسنا أزياء الغرب وما زلنا مقلدين فيها، وأتى التخالف في الألبسة من الغرام بالاحتفاظ بالقديم منها، وربما كان أهل القرن الماضي أقرب إلى وَحدة الزي من أهل جيلنا هذا. ومن يشهد ضروب الألبسة العجيبة في المدن يظن الأهلين في ليالي المرافع، اكتسوا ما يلفت الأنظار، وما لا يسع من يراه إلا أن يسخر منه. أما أزياء النساء المُطَرِّسات على آثار الغربيات فالتحوُّل آخذ بناصيتها، وبعضها مما لا يورث المرأة جمالًا، وينم عن سرف وترف، ومنها ما لا يناسب الإقليم ولا المواسم ولا أعمار المكتسيات به ولا طبقتهن، لا هو شرقي فيه شيء من الحشمة، ولا هو غربي يجمع إلى الأناقة الذوق السليم. فالنساء متصنعات في أزيائهن بعض الشيء، ولا يخلو الرجال من خُرق في لباسهم أحيانًا، وفي مجالسنا النيابية نموذج من هذا الاضطراب، فمن المتصدرين على مقاعدها من اكتسوا على آخر زي عصري، ويتكلمون كلام ابن العصر، وإلى جانبهم زملاؤهم يلبسون ثيابًا زِيُّها من عهد نوح، وإذا تكلموا كان كلامهم كلام أهل العصر الماضي، والغالب أن هذه المجالس تحتاج إلى زمان طويل حتى يشترك فيها المتماثلون في الزي والتربية والتفكير.

يعد في باب ترقي الذوق عدول أكثر المدخنين عما كانوا يستعملونه من الأدوات كالقصبة والغليون والنارجيلة أو الشيشة. استعاضوا عن تلك الأدوات الغليظة بهذه اللفائف الخفيفة، وبدأ يقل عدد من يدخنون التنباك في النارجيلة، كما يقل عدد من يتعاطون المخدرات والمسكرات. ولما كان التدخين من المكيفات كان من مُصْطَلَحِهِمْ ألا يدخن الصغير أمام الكبير، إلا إذا سمح له بذلك، وكان الولد، إلى عهد قريب، لا يجلس أمام والده ولو أصبح صاحب زوجة وأولاد، وما كانت المرأة تواكل زوجها، وتنتصب أمامه قائمة على رجليها تحمل له كأس ماء وهو يتناول طعامه. وكل هذا بطل اليوم وانقلبتْ العلائقُ بين أهل البيت الواحد إلى ما هو أقرب إلى العقل.

كان الناس يجتمعون في بيوت أعيانهم في المدن والقرى، أو في المقاصف والمتنزهات، وينظرون فيما يهمهم النظر فيه من مسائلهم، ويتحدثون ويتسامرون. ولما أنشئت النوادي والمقاهي أقفرت البيوت من الضيوف، ثم نشأت النقابات والجمعيات، فأخذ القوم يتعلمون كيف يجتمعون، ويتناقشون، وهم ينزلون على إرادة الممتاز منهم، يضعون على بساط البحث ما يهتمون له من أمورهم ملتجئين في إقرار ما يقرون ورَدِّ ما يَرُدُّون إلى التصويت، ويُكثرون من ترداد لفظ الأكثرية والأقلية.

وإلى عهد قريب كانوا يرون من المروءة أن يُطعم المرء من يعرف ومن لا يعرف، ومن العار أن يهرب من وجه الضيف مهما كان المضيف فقيرًا معدمًا، وما كان للكرم عندهم حد ينتهون إليه، وكلما ظهرت على بعضهم أماراته رددوا آيات الثناء عليه، وإذا أعوز لووا وجوههم عنه. فعلَّم الزمن أولئك المسرفين أن هذا الكرم الذي طالما أودى بالبيوت فدَكَّهَا دكًّا، لا يوجبه شرعٌ ولا عقل، فعاد القوم يعتدلون في سخائهم ويقتصدون في مآدبهم. وكأن عادة إطعام الطعام هي من بقايا أخلاق البادية لم تنزعها منهم سكنى الحواضر والدساكر.

وما زلنا في العلم عند حد النظريات، نفتخر إذا أجدنا النقل، أي: أن قرائحنا لا تعرف الابتكار، وما انبعثتْ عبقريتنا إلى الحد الذي بلغتْه أيام كان أجدادنا يبحثون وينتجون، وما زال علمنا علم الصناع بالنسبة لعلم المهندسين، أي: علمًا وسطًا فيه جمود، لم يسفر إلى اليوم عن اختراع جديد يصح عَدُّه مع ألوف من المخترعات قام بها الغرب وحده، ولا يتأتى أن يأتي المتوسط بكبير أمر، والمقلِّد لن يشبه المقلَّد.

كان الأدب أول ماتعا ورناه بالقلب والإبدال، فأخذنا نستعمل فيه أمورًا لا عهد له بمثلها، ونكيِّفه بروح الزمن، وننهج فيه على أساليب الإفرنج، وأدخلنا في تضاعيفه فن

القصة، وأحيينا جانبًا من أدبنا القديم، وما بَرَّزنا إلى الآن التبريز المطلوب في الأدبين، أي: لم ينشأ لنا قصصيون وشعراء وكتاب على مثال ما عند الغربيين منهم، وإذا ظهر التجدُّد في النثر خَفَّ التكلُّف في الإنشاء، وظهرت عليه الرشاقة والجزالة والإيجاز، فقد ظل الشعر محتفظًا بما كان يقلِّبه من المعاني القديمة، وما استطاع أعظم شعرائنا، صبري وشوقي وحافظ، أن يتحللوا من المديح تزلفًا وانتجاعًا، ودرجوا على النحو الذي درج عليه أئمةُ هذا الشأن أمثال أبي تمام والبحتري والمتنبي ومَنْ قبلهم ومن بعدهم، وامتاز شعرنا الحديث بأن كثُرت فيه الموضوعات السياسية والاجتماعية والقصصية والفكاهية.

وما كاد التمثيل يتأصل فينا حتى جاء السينما ينازعه فَأَنْشَأْنا نَضَع الروايات السينمائية كما نضع الروايات التمثيلية، وأخذنا نقلد في موسيقانا الموسيقى الغربية، قلدناها بأنغامها وتلحينها، وما اهتدينا إلى الآن لمحاكاتها في تأثيراتها، وكما تحتاج الموسيقى إلى من يبرع بها تحتاج إلى من يحسن سماعها، أي: يشارك مشاركة جيدة في فهمها، ويقدِّر المُتقَن وغير المُتقَن من معزوفاتها. وارتقت الخطابة في مصر والشام والعراق، ونشأتْ لنا طبقةٌ صالحة من خطباء المعابد والمساجد والمدارس، وأخرى من رجال القضاء والسياسة، وأصبح من الخطباء مَنْ يرتجلون ويجوِّدون، ومن المحاضرين من يحاضرون على الأصول الحديثة، وكان التطور في الصحافة عظيمًا والتطور في الكتب ضئيلًا. وانتشر حب الصور في صغارنا وكبارنا، وفي رجالنا ونسائنا، وظهر نوابغُ من المصورين والمَثَّالِين، وبدأنا نُقيم التماثيل لرجالنا الذين اشتهروا بالسياسة أو بالأدب على النحو الذي سار عليه الإفرنج في إعظام رجالهم النابغين، وكنا نحرِّم ذلك في الدهر الغابر، وما عُهد في مدنيتنا قيام مَثَّال.

قلَّدنا الغربيين في معظم المظاهر تقليد المبتدئ للمنتهي، اقتدينا بهم وأَحْسَنَّا في آداب المعاشرة والاجتماع والسلام والقيام والطعام، ومشينا على آثارهم في السياحة والتنقل والاصطياف، وفي حب الاستطلاع والاستقراء، وبقيت أُمور لم يكتب لنا اقتباسها، أَو هي موجودةٌ لدينا وما تغيرت التغير المطلوب، فالرقص مثلًا لم يرتق عندنا واقتصرنا فيه على تعلُّم الرقص الغربي، وأَهْمَلْنا رَقْصنا القديم ومنه رقص السماح. والظاهر أن في المدنية العربية أشياء يصعب على العربي هضمها الآن، وهذا من أسباب طول أمد انتقالنا، وأُمة ذات مدنية قديمة تقضي زمنًا طويلًا لإحيائها أكثر من أمة جديدة لا تاريخ

لها ولا تقاليد. الأُولى تتوقف على حذف وإثبات، والحذف لا يسهل كل حين، والإثبات أقرب تناولًا. والولد الصغير يسهل تأديبه بما لا يسهل معه تثقيف الشاب.

يتجلى التبدُّل عندنا في معظم مظاهر الحياة، ويبدو معه شيء من ضعف أو نقص، ويشع تخلُّفنا هذا حين ننشد مثلًا الكيماوي الكبير، والمالي الكبير والسياسي الكبير، والسبب في هذا أَنا قطعنا الصلة بيننا وبين العلم والنظر قرونًا، فلما جئنا نربط السلسلة المقطوعة اقتضى لنا صرف جهود طويلة لنصل إلى جبر ما أضعناه من أعمارنا في الجهل، وإذا اقتضى جيل أو جيلان لحضانة العلم فنُضجه، ولا جرم، يستلزم أجيالًا.

ومن التبدُّل أن أمسى القوم يُفْرِطون في التبرم بما يُتبرم به وما لا يُتبرم، ويُكثرون من الاعتراض على ما عرفوا وعلى ما لم يعرفوا. وبديهي أن عدم رضا الناس بما صاروا إليه، وتطلعهم إلى عيش أهنأ وسعادة أكمل هو من جملة دواعي النهوض، والهممُ إذا وَنَتْ يَقِلُّ الاعتمال للثروة، ومن قل ماله جَمَد وذَلَّ، والنفوس إذا اكتفت بما حصل تضعف المدنية، وحب الذات مما يحفز النفوس إلى طلب الكمال، وقلَّ أن عُهد شعب رضي كل الرضا عن أعمال حكومته مهما كانت صالحة، كما ندر أن اقتنع طلاب مدرسة بأن ضغط معلمهم عليهم إنما هو لخيرهم.

لطُف ذوق ابن هذا العصر، وتَفَوَّقَ على ذوق سلفه، في الجملة، وكان هذا مغرمًا بخيال الظل ويعده أجمل الملاهي، على ما فيه من بذاءة، فأُولع بالسينما، وكان جده يحب الصيد والقنص والرماية وركوب الخيل، فأصبح ابنه مغرمًا بالألعاب الرياضية وامتطاء الدراجات والسيارات والتجديف في قوارب البحر والنهر. نشأ الابن أرقى من أبيه وجده، والبنت ظهرت أرقى من أُمها وجدتها، وأخذت المرأة تجاري الرجل في إنشاء جمعيات التعليم والإحسان، وتنجح في انتشال بنات جنسها من انحطاطهن، على ما نجحت في تمريض المرضى وترفيه البائسين، يتطوع لذلك الغنيات والشريفات على مثال بنات الغرب، وكلما زاد خروج المرأة عن عزلتها زادت الفوائد الناجمة عن هذه الأعمال المشكورة.

ظهر التطوُّر في استمتاع المرأة بحريتها، وأصبح بيدها زواجها وطلاقها، وكان ذلك لأبويها وذويها، وأمسى من النادر أن يجمع الرجل في المدن بين زوجتين فأكثر، ولا سيما في الطبقتين العالية والوسطى. وبطل الضرب والتعذيب في المدارس والثكنات منذ أُلغي الرقيق، وبإلغائه بطلتْ عادة التَّسَرِّي بالزنجيات والشركسيات والكرجيات، وما عاد الزنوج يُمتهنون في الخدمات الشاقة، ومحظورٌ اليوم على رب البيت أو رَبَّتِهِ أن

يضرب خادمته أو خادمه، فالقانون يعاقِب الضاربَ، وعلى هذا لم يبق من حاجة للعصا والسوط وسائر أدوات التعذيب.

وتطور الإحسان فصارت النفوس تثلج بالإفضال على الجمعيات المنظمة أكثر من التصدق على من يُلْحِفون في طلب الصدقة في الشوارع، وربما كانوا من الصنف الذي لا يستحقها، وراح الناس يفهمون معاني المؤاساة ويدركون سر الاجتماع لخدمة المصلحة العامة، ويتعلمون تأليف الأحزاب والنقابات وانصرفت القلوب عن الفردية وشمل الوعي القومي معظم الطبقات.

ولا نقصد بهذا أننا بَلَغْنَا في المدنية درجة استجمعْنا لها صفات الظرف عامة، فهذا أمرٌ بعيدٌ عنا الآن، وما وصلنا في الواقع إلا إلى ارتقاء نسبي بالقياس إلى تخلفنا في الماضي، وقد صار حكمنا على الأشياء أقرب إلى الصواب، وزدنا حرصًا على الأخذ بأسباب التجدد ومجاراة من تَخَطَّوْنَا إلى الرقيِّ، وهذه درجةٌ محمودةٌ تُؤْذن بأنا سائرون إلى الأمام بخطًى متزنةٍ، وما دام الغرب ماضيًا قدمًا في حضارته ونحن نقتفي أثره فحضارتنا مضمون لها أن تصبح في مستوى أرقى الحضارات الحديثة.

كان للحربين الأخيرتين، وانتشار السينما وشيوع المذياع، أثر بليغ في تعجيل نهضتنا الصناعية والاقتصادية والأدبية، فعَلَّمَتْنا الحرب صناعات كنا فيها عالة على الغرب، اضطررنا إليها لما وُضعت الحواجز بين الممالك، وخلقت لنا السينما والراديو ذهنية جديدة قَرَّبَتنا من ذهنية الأُمم الرشيدة، وعلمتنا، بما نرى ونسمع، أمورًا ما كان يصل سوادُنا الأعظم إلى معرفتها إلا بالزمن الطويل.

فيما مضى نقلت الطباعة والصحافة البَشَرَ من طور إلى طور، وتنقل السينما والمذياع الآن حضارة العالم من دور إلى دور، ونحن آخذون بحظ ظاهر من كل أولئك.

القول في انحطاطنا

لغط اللاغطون بهذا الانحطاط الملموس في بعض البيئات الإسلامية، وذهبت بهم الظنون كل مذهب في تعليله، فزعم بعضهم أن الدين هو السبب فيه، وأن الإسلام دين تواكُل لا تورِث تعاليمُه غيرَ الخمول. وقال آخرون: إن عقيدة القضاء والقدر، وما تحمل من تسليم واستسلام، نزعتْ من النفوس مضاءها، وجردت القوم من الصفات التي لا تعيش الأُمم الصالحة للبقاء إلا بها.

والحقيقة أن هذا الانحطاط نشأ من مخالفة الدين في بعض ما أمر به، ولو كان انحطاط المسلمين آتيًا من طبيعة دينهم ما كان المسلمون الأولون من العرب، ومن دخل فيه من أجناس البشر مثالًا صالحًا من بُعد الهمم، وصِدْق العزائم، وثقوب الأذهان. ولو كان الدين يُضعف النفوس ما فتح أهلُه هذه الفتوحَ في الشرق والغرب، ولو كان إيمانهم بالقضاء والقدر على ما مَوَّهَ به المموهون، ما باعوا نفوسهم في سبيل الله فجمعوا في دعوتهم بين السعادتين: الدنيوية والأخروية. كانت هذه العقيدة من عوامل إقدامهم على العظائم أيام قوتهم، فلما ضعفوا عزا إليها الماحكون من التأثير ما خالف حقيقتها.

كان المسلمون عجبًا في تسامحهم مع المخالفين، ومياسرتهم في قبول ما عند غيرهم من علوم أخذوها راضين مغتبطين، وما قالوا — وهم في القرنين الأول والثاني، وللدين سلطان شديد على النفوس: إن هذا لم يجئ به نص عن الشارع، ولا قال به أحد من أهل الصدر الأول، وعرفوا أن ما ينفع في الدنيا يكون قوة للدين أيضًا. ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾.

هذه الفتوحات التي بَهَرَت الأُمم، وهذه النهضة العلمية التي كان لعلوم القدماء حظٌّ جزيل منها لا تصدر، في الواقع، عن منحطٍّ واهن القوى، ولا عن خامل متماوت

يفكر في الآخرة أكثر مما يفكر في الدنيا. المسلمون قرنوا العلم بالعمل ففاقوا خلال أربعة قرون جميع الأُمم المعاصرة لهم، وكان لهم من سيرة صاحب شرعهم وأصحابه مِنْ بعده أعظم مرشد يهديهم الصراط المستقيم. وقد طفح كتابهم بالآيات الحاثَّة على العمل، وفي سيرة الصحابة وصاحبهم أعظم قدوة في هذا الشأن.

ولقد أنشأ المسلمون حضارة باهرة كانت أساس الحضارة الغربية الحاضرة، والبرزخَ بين حضارة الرومان وحضارة العصور الحديثة، وأمة تنشئ حضارة كهذه لا بد أن تكون من شعوب لم يَعُقْها دينها عن النظر في العلوم المعروفة لعهدها. إذًا فالانحطاط الأخير كان بعوارض أخرى ليس الدين سببًا فيه، ودينٌ نهض بالعرب من تلك الجاهلية الجهلاء التي كانوا فيها، وأَوْرَثَهم هذه الأخلاق التي أُثرت عنهم، بريءٌ مما حملوه عليه ونسبوه إليه.

تعددت العوامل التي أدت إلى انتشار الجراثيم المضنية في جسم هذه الأمة المختلفة الأجواء والبيئات، وكانت سرايتها، بادئ بدء، ضئيلة، تغلغلت في العيال والبيت، ثم عَمَّتْ معظم فروع الحياة. ولعله كان من فرض الخليفة الثاني العطاء للمسلمين أول خطوة خطتها الأمة نحو الكسل، وبالعطاء خرجت التجارة من أيدي العرب على ما كان تنبأ بذلك أحد كبار الصحابة وأغنيائهم حكيم بن حزام. وكانت قريش أشرف قبيلة في العرب تعيش بتجارتها حرة، فصارت يأتيها رزقها هينًا لينًا. وفي الإسلام كان أهل كل بلد وجنس يقلدون العرب في سيرتهم الخاصة والعامة، فسَرَى حب الاتكال إلى الأمصار مع طول الأيام.

اتكلت الطبقة الذكية على بيت المال يُرزق منه كل من كان ذا شرف وسابقة ومن كان يعمل للدولة خارج المدينة وداخلها، ومعنى الرزق من بيت المال الانقطاع عن العمل الشخصي المثمر، وانتظار آخر الشهر على الغالب لقبض الراتب. وكان كل من يمت بصلة القرابة إلى آل علي أو إلى آل العباس مثلًا يجب على الدولة أن تَحْبُوه وذريته كل ما تطمح نفسه إليه، وكذلك كل من أبلى بلاء حسنًا في السياسة العربية الجديدة. وكان ذلك من جملة الأعباء الثقيلة التي تنوء بها الحكومات، وتضعف بها نفوس أصحاب العطاء.

بدت طلائع الترف بما جاء به الفتح من الأموال في عهد الخليفة الثاني والثالث، وأخذ يزيد بتوالي الزمن، حتى إذا كان العهد العباسي الأول، أصبح أبناء الدعوة وغيرهم يستأثرون بجزء من الجباية والخراج يتناولونه عفوًا صفوًا. ونما أولاد العباس نموًّا هائلًا حتى بلغوا في مطلع القرن الثالث ثلاثة وثلاثين ألف إنسان يعيشون من بيت

المال، ومن ضُمن له عيشه على هذه الصورة، لا يحتاج لأن يعمل بيده ولا بعقله، ويجد من وقته فراغًا يصرفه في شهواته ولَذَّاته، والنساء من أجمل ما يلهو به ويعبث، وكان في مكنة الموسع عليه أن يقتني من الجواري ما يطيب له، وأن يجمع بين أربع زوجات مهيرات، ينسلون أولادًا يدفعون بهم إلى الخادمات يربينهم، وإلى مختلفات الدم والجنس يرضعنهم، وبديهي أن يكون من تلك البيوت المركبة تركيبًا غير طبيعي بؤرة تحاسد وكيد، لحرص كل زوجة على أن يكون لأولادها لا لأولاد ضرتها الشأن الأول في البيت.

نعم عاشت الطبقة العالية المجمع على مكانتها هذا العيش الخُضال، لم يَفُتْها شيء من مباهج الحياة إلا مُتِّعَت به، سواء أَحَلَّهُ الدين أم لم يحله، هذا وهي ترزق من مال لم تتعب في جَنْيه، وهو في ذاته مُرصد لمصالح المسلمين فقط. وربما اعتقد بعض أهل هذه الدولة في سره أن المملكة مزرعته، وأهلها عبيده، وعلى المولى أن يستحصل ويَجِدَّ، وعلى سيده أن يستهلك وينعم، ولقد خَصَّتْ بعض الفرق الإسلامية الزكاة بآل بيت الرسول مع أن الزكاة حرمت عليهم منذ بدء الدعوة فكان ظاهر عملها تكرمة وحرمة، وحقيقته إعانة على تكثير سواد الخاملين في الملة.

تَأَصَّلَ خُلُق الاستجداء في هذا الفريق من ورثة الحسب والنسب حتى وهم الواهمون أن هذا العطاء غير معيب، وأن العمل حِطَة وَضَعَة، ومن النادر أن تجد بينهم من كان على شيء من فقه وعلم، ومن يعيشون بالصدقات ويرون أخذها حقًّا من حقوقهم، وأنهم من طبقة أرقى من سائر الطبقات، لا يحبون أن يتعبوا أنفسهم بالعمل، والعلمُ عندهم، على ما بدا من حالهم، يزق فيهم زقًّا، كالرزق يجب على الرعية أن تقدمه إليهم، وَلِمَ يتعلمون وهم ورثوا الشرف في دمائهم، وصَفَتْ فطرتهم فغدا العلم في متناولهم، وطبيعيَّ التنقل في بيوتهم؟ ومنهم من يعتقد المعتقدون فيهم أنهم معصومون من كل ما يجوز على الخلائق من خطأ وخطيئة، وأنهم وإن ارتكبوا الكبائر فارتكابهم لها معفوٌّ عنه. وغالى أشياعهم فيهم حتى جَوَّزُوا أن يلي أمور المسلمين طفلٌ، فقلْ في دولة يحكمها طفل، وفي رعية هذا مبلغ عقولها من الرضا بحكم طفل.

الزوايا والتكايا والخوانق، وما قام بعد القرن الرابع في بلاد الإسلام من أضرحة ومزارات تُشَدُّ إليها الرحال للتبرك هي عش المعطَّلين والكسالى، إذا استدل بها الغربي على انحطاط المسلمين كان على شبه حق في استدلاله، ومتى رأيت كثرة هذه المصانع في إقليم فاحكم ولا تُبَالِ بأن أهله من أكثر الشعوب انحطاطًا. ومن فضل الله أن معظمها دثر وخرب،

لولا أَنْ دَبَّ النشاط في العهد الأخير ببعض الطرق في شمالي إفريقية وفي الهند والسودان. دع ما هنالك من طرقٍ ومنازع دينية جديدة تنادي كلها بأنها مطية السياسة ووليدة الجهل.

والأوقاف وتفنُّن القوم في أصنافها للإبقاء على ثرواتهم من المصادرات، ووقاية لهم ولذرياتهم من الفقر، كانت أيضًا من أعظم ما أدى إلى ضعف النفوس. فعاش المرتزقة منها عيشًا رخيًّا كما عاش أولئك الأشراف، قرونًا، عالةً على بيت المال، كانوا أقرب إلى التواني لما جعلوا من رَيْع ما حَبَسَ الواقف، وأراد به أن يضمن لهم اليسر على الدهر، علة معاشهم فانقطعوا عن السعي وألفوا الانكماش.

زاد الفساد بكثرة المصادرات في الدولة العباسية على ما لم يُعهد بعضه في دولة بني أُمية في المغرب والمشرق. ومَنْ تأمل حال العباسيين في عهود تدليهم، وما اختطوه من خطط في سياستهم المالية، وما كانت تجر إليه من تعذيب وترويع وقتل، وتدبير مؤامرات ودس ودسائس، لا يراهم يخرجون عن حد الإسراف في الأخذ والإسراف في العطاء. يعبث العمال بحقوق الرعية، فيستحلون ابتزاز مالهم، والوزير يستصفي نعمة عماله، والخليفة يصادر وزيره، وهكذا كان مُلْكهم سلسلة من السلب والترف، تؤخذ الجباية بطرق فيها شيء من الظلم، وتصرف في وجوه لا يُجَوِّز العقل ولا الشرع إنفاقها فيها، وكانوا يرون من الطبيعي أن يسرق كل من تولى أُمور العالم وأن يسرقه عماله، والماهر من يفلت من العقوبات، فلا تجري عليه الأحكام التي تجري على قطاع السابلة. ويمكن إيجاز هذه السياسة في جملة واحدة: مَلِك مسرف، ووزير سَلَّاب، وعُمَّال لصوص، وأمة مظلومة.

بدأت مَلَكات الأمة تضعف بضعف الساسة وفساد العامة، وإذا لم يستقم أمر الساسة في أمة لا تقوم لها صناعة، ولا تجتمع لأبنائها ثروة، ولا يخلد لها شيء من المصانع، وفساد العامة بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء، فلولا القضاة السوء والعلماء السوء لقَلَّ فساد الملوك، كما قال الغزالي. وأخذ هؤلاء العلماء على عاتقهم محاربة أئمة العقل من المعتزلة تقربًا من الأمراء السوء، موهمين أنهم يخدمون بذلك الخلافة العباسية؛ لأن المعتزلة ما كانوا يرون حصر الخلافة في قريش، ومن رأيهم أن تفوض لمن هو أصلح لها. وهذه نغمة لا تروق المنحطين من خلفاء العباسيين، على حين كان المعتزلة من أوثق الرجال في قصور النابهين الأولين من بني العباس. حاربوا المعتزلة تحت كل كوكب، ولما لم يستطيعوا إسقاط حججهم بالبرهان؛ عمدوا إلى الاستعانة عليهم

بقوة السلطان، حتى إذا قضوا عليهم ظهر الجمود الذي أعقبه سَدُّ باب الاجتهاد في الدين، وبسده ضعفت علوم السنة والقرآن.

حارب العلماء السوء الفلاسفة كما حاربوا علماء الكلام، فبادت علوم الفلسفة وهي تُقَوِّي العقل وتدفع إلى الاجتهاد، فخلفها علم آخر ظهر في القرن الثاني، وكان ضرره كثيرًا، ونعني به: علم التصوف. كان في أصله فلسفة أخلاق كما كان علم الكلام فلسفة الشريعة، فآض لما ادعاه العوامُّ في القرون التالية فلسفة أوهام أدت إلى تعطيل وتضليل، وشُغل به طوائفُ كثيرة من الأمة، كما شغل فريق عظيم بالحديث، وصرفوا فيه أوقاتًا لو صرف بعضها في العلوم لظلَّ المسلمون أرقى الأُمم.

كان التصوف مضيعة للوقت، وتزهيدًا في العمل، وإشغال القلب بمكاشفات وخيالات ما أنزل الله بها من سلطان، وما أضر بهذه الأمة علم، إذا صح أن نسميه علمًا، أكثر مما أضرَّ بها علم التصوف، خصوصًا في عهد أُنشئت باسمه تلك الطرق التي اتخذت منها بعض الدول أدوات لأغراضها، وأقل ما في هذه الطرق فناء المريد في الشيخ، أي: تعطيل إرادته، ومنها ما كان مشايخه يَدَّعُون التصرف في الكون، ومعنى ذلك التصرف عندهم اغتيال من يعاندهم، وقد فعلوا غير مرة، فكانوا أشبه بالفرق التي قامت تفتك بالنفوس، وتدعو لبعض آل البيت بغية قيام دولة جديدة. وربما كان خوف المتفقهة من المتصوفة هو الذي دعاهم إلى التساهل معهم فيما يلحظ أنه ينافي الشرع، ثم إن في إغضاب المتصوفة إغضابَ العوامِّ، والفقهاء يهتمون لرضا هؤلاء أكثر من اهتمامهم برضا الخاصة، والعامة كثرة والخواص قلة، والكثير أجدى من القليل.

كان شياطين الإنس في كل زمن يحسنون استغلال سذاجة السذَّج، وينشرون بينهم ما يَهْوَوْن من مذاهب غريبة، يستحيل أن يعتقد بها إنسان يميز بين المعقول وغير المعقول. مذاهب على ما كان فيها من سخف ظاهر يتجلى بالبداهة لم تعدم أغبياء، وأحيانًا أذكياء، يعتقدونها، ويستميتون في الذَّب عنها، والدعوة إلى الأخذ بها. والبشر الآن بين نقيضين إما إلى إفراط وإما إلى تفريط، وكلما تقدم نحو المدنية كثر الملحدون حتى لَيَسُوغ أن يقال: إن العالم قد انقسم إلى معسكرين معسكر المؤمنين بكل شيء، ومعسكر المنكرين لكل شيء.

وآخر سيئات القضاة السوء أنهم أفتَوا في الدولة العثمانية بأن يرث ابن العالم وظائف أبيه ولو كان طفلًا رضيعًا، أي: أن العلم الإسلامي أمسى يورَّث كما تورث الماشية والعقار، وهذه القاعدة أضاعت حتى الفقه الذي طالما حاربوا من أجله، وكانوا

منذ عهد الغزالي في القرن الخامس يحرصون على الفتاوى والأقضية؛ لأنها تقربهم من السلاطين، ولا يُعْنَون بتعلُّم الطب، مثلًا، مع شدة الحاجة إليه؛ لأن «الطب لا يتيسر الوصول به إلى تولي الأوقاف والوصايا وحيازة مال الأيتام، وتقلُّد القضاء والحكومة، والتقدم به على الأقران، والتسلط على الأعداء.»

وبعد، فإن الداعي إلى أكثر هذا الانحطاط أصلان عظيمان تَرَتَّبَتْ عليهما أمور وتَفَرَّعَتْ مسائلُ، وهما: الزهد في المعقولات، والغلوُّ في التعلق بالخيالات. ولقد أوقد العلماء السوء نيران الفتن بين فرق الإسلام، وما كفوا عن مكافحة العلوم العقلية، يَكْشِرون عن أنيابهم لكل من عاناها، ويسلطون عليه العامة والسلاطين، وبعملهم هلك عدد كبير من أهل العقول المستنيرة في كل عصر، فانحط مستوى الذكاء واختل ميزان الفهم، وعلى نسبة ذلك ضعف كل ما له علاقة بالأمور الذهنية، وبهذا الهول والإرهاب انقطعت الرغبة في علوم قد يكون تعلُّمُها من أعظم الأسباب في قتل من ينتحلها، وعلوم الدين، مهما قيل فيها، لا تخرج عما يُقصد منها وهو إعداد النفوس للتزوُّد للمعاد. أما علوم المعاش فأصبحت بغيضة محرمة لا يجرؤ على الاشتغال بها، ولو في سرٍّ، إلا من تساوى في نظره الموت والحياة. وبينا كانت هذه العلوم تزيد على الأيام انتشارًا عند الغربيين كان تراجعها يزيد عند المسلمين، حتى أصبح الإسلام دين آخرةٍ فقط، وكان في أيامه الأولى دين دنيا وآخرة، وغدت النصرانية، وهي في أصلها دين آخرة، دينَ دنيا وأخرى.

سُدَّتْ طرق العقل وحرَّم المتفقهون وحللوا ما شاءوا، فانحط العلم في ديار الإسلام، وكان يُرغب في تحصيله للانتفاع بفوائده فغدا تُدرس بعضُ فروعه للظهور والكسب فقط، وبعد أن كانت خُطب المساجد ودروسها تجمع ضروبًا من التربية الروحية والمدنية، أصبحت كلامًا فارغًا في فضائل الشهور وبركات الأيام، تفيض فيها الموضوعات والإسرائيليات وكل ما فيه توهينُ العزائم، والتزهيد في العالم، والرضا بالفقر، والصبر على البلاء. غدا الخطباء يبثون جهلًا وسخفًا، ولطالما بَثَّ من سبقوهم علمًا وتثقيفًا، على نحو ما كان من القُصَّاص في القرن الأول، كان يقص الناسَ فضلاءُ الأُمة فلما تبدلت الدنيا أصبح يقصهم جُهَلاءُها، وبعد أن كان المؤدبون من طبقة الإمام أبي يوسف والحجاج وعبد الحميد الكاتب وأبي زيد البلخي وضربائهم من العظماء، أصبحوا يؤخذون غالبًا من أي طبقة كانت، فسَرَى الضعف إلى الطبقات العالية وكان محصورًا في الطبقات الدنيا، وأمسى المسلمون في واد والإسلام في واد آخر.

ومن أعظم ما دعا إلى هذا الانحطاط غرام المسلمين في عصور التدلي بصبغ معظم أمور الحياة بصبغة دينية، فأدخلوا الدين في الشئون الدنيوية، وكانوا في عصور الترقِّي إذا اشتغلوا بالدنيا يحصرون جهدهم فيها خاصة ويجعلون الدين بمعزل، يصفُّون بأدبه نفوسهم، ويأتون رُخَصَه كما يأتون عزائمه. حدث هذا في الإسلام كما حدث في النصرانية في الغرب، وقد دام هناك مزج كل شيء بالدين أكثر من ألف سنة ثم تحرر منه في عصر النهضة، أما المسلمون فظلوا على ذلك إلى عهد قريب. وكان الدين في أوربا — كما قال المؤرخ كستل دي كولانج — حاكمًا مطلقًا في الحياة الخاصة والعامة، فالدولة طائفةٌ دينية، والمَلِك حَبْر ديني، والقاضي كاهن متبتل، والقانون شريعة مقدسة، والوطنية تقوى وورع.

نعم كان من خلط الدين بالدنيا حَيْفٌ كبير على كليهما، فقد رأينا المسلمين، لما اشتدت حاجتهم إلى مجاراة أُمم كانت أكثر منهم مدنية، وأوسع ملكًا، وأوفر غنًى، وأشد حيلة، كيف اضطروا إلى التحرر مما تقضي حالةُ العصر العملَ على خلافه، وكيف أن الشعوب الإسلامية التي ظلت توجَّس خيفةً على دينها، متوهمة أن الاشتغال بعلوم العقل يأتي عليه، رجعت القهقرى وتجلَّت فيها أعراض الانحطاط، والشعوب التي فرَّقت بين مطالب المعاش والعقبى وسارت فيها بالعقل، وأعطت كلا منهما حكمه، ضاهت الغربيين في نهوضها، وما جسر أحدٌ أن يتهمها بالخمول.

ومن أقوى أسباب الانحطاط إغفالُ أمر المرأة، وكان الإسلام منحها من الحقوق ما سلبها الجهلُ إياه، وجعل لها مقامًا لم يجعل لها مِثْلَهُ دينٌ سماوي، فحاول المسلم المنحط أن يجردها من حقها الشرعي، فاضطهدها وامتهنها متغافلًا عما كان لها من الكرامة في العصور الإسلامية الأولى. وكان من مغالاة الرجل بإبقائها في الجهل المطبق أن يأتي أولادُها مراض الأجسام والعقول لا خير فيهم لأنفسهم ولا لمن حولهم؛ ذلك لأن أمهم طبعتْهم بطابعها الذي لا تملك غيره، ومن معمل مختل لا يخرج إلا المعتلُّ المختلُّ.

ربما يبدو لبعضهم أن يدعي أن النصارى في بلاد الإسلام — مثلًا — لا يصدق عليهم ما يصدق على المسلمين. قولٌ فيه وجهٌ من الحق ولكن لا على إطلاقه. فالفلاح اللبناني في الديار الشامية، مثلًا، أرقى من الحوراني؛ لأن الأول أقربُ من البحر ومن العمران، وأوربا مَدَّنَتْهُ لغرض سياسي وديني لها. والفلاح الحوراني أُهمل كل الإهمال منذ مئات من السنين، حتى عاد أو كاد إلى حالته في الجاهلية، ومع هذا لو كُتب له من يأخذ بيده إلى سبيل التمدن ما تخلف عن اللبناني إلا بما لا بد منه من الفرق بين طبيعة

الإقليمين. وليس القبطيُّ في مصر أرقى من أخيه المسلم وهما يتشابهان كل التشابه. وكان من إنشاء الأميركان في أسيوط لنشر مذهبهم بين الأقباط ما رَفَعَ من شأنهم كما كان الشأنُ في بيروت مع الجامعة الأميركية.

ومن أسباب التباين الظاهر اليوم في بعض القرى المختلطة من النصارى والمسلمين أن هؤلاء شَقُوا قرونًا بالحكومة البائدة، لكثرة ما أهلكت من أولادهم في حروبها وأرهقتهم به من فادح مغارمها ومظالمها، مما كان أهل الذمة في الجملة في حل منه، وكان تقلقل حال المرأة المسلمة وضعف أملها في البقاء وحدها سيدة في بيتها على ما هو الحال عند المسيحيين من العوامل في ضعف البيوت، وبضعفها ضعف مجموع الأمة.

وما خلت الرئاسة الدينية عند النصارى من محاسن، وللرئيس الديني عندهم سلطان على أرواح رعيته ليس للشيخ المسلم بعضُهُ، يدربها، وينظم شئونها، ويؤلف بين قلوبها.

هذا وقد أقبل النصارى على ارتشاف العلم مبكرين قبل المسلمين، ولما جاراهم جيرانهم شاركوهم بما كانوا استأثروا به من الصناعات، واحتكروه من التجارات، وبرَّزوا تبريزهم في معاناة المسائل الحيوية، وخرجوا بالتربية الحديثة عن تزمتهم، فراحوا يقتبسون أمورًا كانوا يعدونها محرمة أو غير شريفة فمارسوها راضين مختارين. أما سقوط الأخلاق، فالطوائفُ كلها متشابهة فيه. لا فرق بين مسلم ونصراني ويهودي وغيرهم من أبناء الطوائف الأخرى، والشأن الأول في الانحطاط ونقيضه للتربية العملية والروابط الاجتماعية. ومن عادة الطوائف الصغيرة في الطوائف الكبيرة أن تتماسك وتتآزر وأن تهمل الكثرة أمرها فتدب فيه الفوضى يعقبها انحطاط.

نعم إن المسلمين، بعد أن تعلموا قليلًا، ما قصروا في أمور الدنيا عن جيرانهم في شيء، وهذه جمعياتهم في الديار الشامية هل تقل عن غيرها من الجمعيات النصرانية نظامًا وحسن عائدة؟ وها هي بيوتهم التجارية ومعاملهم وصناعاتهم هل هي دون مشاريع غيرهم نجاحًا وانتظامًا؟ وفي مصر من الأعمال العظيمة التي قامت بأيدي المسلمين ومثال مما هنالك من نهوض. إذن فالمسألة مسألة تعليم وتربية ومن سبق إليهما فاز ومن تخلف فتح المجال لأعدائه حتى يرموه بكل نقيصة.

أمة عاشت قرونًا في حكم الاستبداد لا ترى رواجًا فيه لغير الاحتيال والاستسلام، يَعُدُّ ولاتها الجهل قوة، والتفرقة بين الأخ وأخيه سياسة، لا يتأتى أن ينشأ جميع أبنائها نشأة

صالحة، ودولة يطول عمرها وهي تكذب على شعبها، وشعبها يكذب عليها، مغتبطة بكمِّ الألسن، وشغل الناس بالتافهات، لا يكون رعاياها إلا خانعين جاهلين، والخنوع انحطاطٌ والجهل موت. هذه الأمة التي طال في الخمول سباتها، لطول ما نام عنها رُعاتها، ولكثرة ما عمل على جهلها دعاتها وهداتها، وغفل عن مداواتها أُساتها، أقبلت لعهدنا تنفض عن عاتقها غبار الخمول، وتثب إلى العالم وثبة شجاع يقظ ينشد ضالته، ويضرب من حالوا دون تقدمه، ويقبض بيده على زمام تَرَقِّيه، فكان له ما أراد من منزلة بين المتمدنين يوم اطرح الدعوى، وأقر بما فيه من جهل، يلتمس أسباب الوصول إلى سعادته. وأخذت ربة البيت ترقى رقيًّا محمودًا في الجملة، إذا قيس حاضرها بغابرها، وها هي تنسل أولادًا صالحين حتى ليتعذر على المتعنت أن يصمهم بالنقص الذي كانوا عليه. كل بلد خَيَّمَ الجهل فيه قام الانحطاط في ربوعه على ساق وقدم، وكل أرض توفر أهلها على التغلب على انحطاطهم ينتظرها مستقبلٌ زاهر يبشرها بالهناء والسعادة.

القول في نهضتنا الأخيرة

يقول بارتولد في تاريخ الحضارة الإسلامية: إن القول بأن العالم الإسلامي كان في سبات عميق قبل أن ينهض بتأثير أوربا في القرن التاسع عشر مبالغ فيه كثيرًا. أي: أن المسلمين لم يكونوا في انحطاطهم كما صورهم بعض من تعمدوا الكذب عليهم لغرض من الأغراض. ولا مُشَاحَّة في أن العلم كان حتى في الممالك المعدودة من الأقطار الراقية في حالة نزع مؤلمة. ونقصد بالعلم هنا: العلم الديني؛ لأن علوم القدماء كانت قد انقرضت فيها منذ قرون. ودخل على الدين بجهل المسيطرين عليه ما ليس منه فأفسد جوهره الصافي، وتخرج بهم فاسدون وجهلاء لا يصلحون للدين ولا للدنيا.

بدأ ضعف العلم في أرض المسلمين بعد أن سبق الضعفُ سياستَها حقبةً طويلةً، فأخذت العلوم الدينية تميل بعد القرن الخامس إلى الفتور، وهبطت العلوم المادية هبوطًا عظيمًا في السادس والسابع، وتراجعت علوم الحضارة فلم يبق مَنْ يَشد أَزرها سوى أفراد نزرٍ علمُهم، منحلةٍ رابطتُهم، أما العلوم المدنية الأُخرى فظلَّت مدونة في الكتب لا تتقدم بشيء جديد، ولا يُنتفع بحقائقها حق الانتفاع. ولاذت علوم الحكمة بأهداب التقية، وحُجبت عن أنظار المستفيدين بحجاب كثيف من التعصب الذميم، وسقطت الأمة بسقوط الهمم والعزائم، وفساد الأخلاق والتربية، وضعف الوازع والسلطان. ضعفت العلوم ومن ضعفها الحَظْر على المشتغلين بها النظر في أصولها من الكتاب والسنة، وتعطلت العقول، واشتغلت الأذهان بالفضول، وتَفِهَتْ علوم اللسان فانحط الشعر والنثر والخطابة انحطاطًا محسوسًا حتى تكاد لا تجد منذ القرن التاسع منازلًا شاعرًا أو ناثرًا يعجبك بيانه، ولا تكاد تسقط على المعنى البارع والفكر السليم، ولو نظرت إلى كلام أهل هذه العصور بالمجهار. وأحسنُ التآليف ما أجاد أصحابها الاقتباس من الكتب

القديمة مع حذف الأسانيد وتعمية المصادر، فحق لعصورهم أن تُدْعَى: عصور الجَمَّاعين والمنتحلين.

وأتى القرن الثالث عشر وقد نَفِدَ من العالم العربي أكثر ما تقوم به حياة الأُمم من المعارف، وأصبحت الأفكار في رقود وأُهمل كل ما يرقى بها، وأمست الأقاليم تسير على غير هدًى، لا منهاج تعمل به ولا دليل يقتادها. وآلت السياسة إلى أيدي الأعاجم لا يسمحون لرعاياهم أن يتعلموا على حساب أنفسهم ولا على حساب غيرهم لاعتقادهم مضرة النور على العقول وإن كان هناك تعليم فهو ناقص الجهاز من معظم نواحيه.

دام هذا إلى أن قامت مصر بإنشاء دولة عربية، فسرت منها شعلة ضئيلة من العلوم الحديثة إلى الأقطار المجاورة بفضل ما أنشأه محمد علي من مدارس ومعامل وما أرسله من بعثات لتخريج الأذكياء بالعلوم، وفي هذه الحقبة كان باي تونس يسير على منهاج والى مصر في التمدين. وبعد سنين توارد دعاة التبشير إلى الساحل الشامي فأنشئوا فيه مدارس، ونشروا مع مذاهبهم مدنياتهم. فصاحب الفضل الأول في نهضة العرب هو محمد علي الكبير، ولو كتب له أن يضم إلى مصر ديار الشام والأقطار المجاورة كجزيرة العرب وبلاد الرافدين لكانت خدمته للمدنية العربية أوسع نطاقًا وأوفر عائدة.

لا جرم أنه كان لمصر — حتى على عهد قوة العثمانيين — شيء من الحكم أَشْبَهُ باستقلال داخلي، وكان أهلها يختلطون كالشاميين بشعوب البحر المتوسط، وبدءوا يحسون منذ أول القرن الماضي أنهم دون شعوب جنوبي أوربا في كثير من مقومات الحضارة. وإلى ذلك كان الأزهر في مصر، وفيه حفظت ثمالة علوم اللسان والدين، أرقى من جامعي الزيتونة والقرويين، ومن بعض مدارس دمشق وحلب والقدس والموصل وبغداد والنجف والحرمين وصنعاء وصعدة. ومن الأزهر خرج أناس جسروا على الأخذ عن بعض العلماء الذين رافقوا نابليون يوم وافى مصر فاتحًا، ومن الأزهريين نشأ بعض دعاة التجدد وأركان النهضة المصرية الحديثة، خرج الأذكياء منهم بنور سرى إليهم بعضه من تلك البيئة الضعيفة فأحسنوا استخدامه ونشره في الجملة. والأزهر، في أكثر عصوره، كان يخرج أئمة للجوامع ووعاظًا للقرى، أما النوابغ الممتازون فالقرن الواحد قل أن يجود برجلين أو ثلاثة. وغاية علم العالم يومئذ أن يُجيد حفظ ما روي عن القدماء لا يزيد عليه ولا ينقص.

وبعد أن دثرت المدرستات النظامية والمستنصرية في بغداد، ومدارس الري ونيسابور وأصفهان وشيراز وغيرها من فارس، وتعطلت دروس الحكمة والفلسفة ضعف التفكير

الإسلامي، وكان هذا الانحطاط مما لا يؤبه له في العصور الوسطى، أيام كان الغرب في غفلة، فلما أفاق من كبوته تبين الفرق بين ابن الشرق وابن الغرب، وبين العالم الديني عندهم وصنوه عندنا، والعالم المدني في بلاهم ومثله في جماعتنا.

ولولا أن قضت القدرة الإلهية ألا يخلو أكثر الأقطار من أفذاذ يقومون بالدعوة إلى الإصلاح في العصر بعد العصر بقدر ما تساعدهم وسائطهم، لرأيت معظم الأقطار العربية كبوادي جزيرة العرب اليوم لا علم ولا عمل. وكثيرًا ما كان المصلحون يستهدفون لغضب الحكومات بتأثير الزعانف من رجال الدين، وكأن هؤلاء أقسموا أن يقاوموا المجددين بضروب من المقاومة، ويخالفوهم حتى في المُجمع عليه من الأفكار الصحيحة، وثبت أرباب الإصلاح مستعذبين ما لقوا من العذاب في سبيل دعوتهم، واحتالوا على حكوماتهم بنَفَذ ما يمكن إنفاذه من تعاليم، وأنشئوا المدارس والجمعيات، وعلموا الصغار كيف يستعدون للجهاد في معترك الحياة، يبثون العلم النافع في أقطار أظلمت بالجهل أحقابًا طوالًا. وكلما أخذ المتأخر عن المتقدم زادت النهضة العربية الحديثة انتشارًا.

وفي الحق إنا مدينون بكثير من أسباب نهضتنا للغرب، وما زلنا عالة عليه نقتبس منه ونتمثل ولما يتم دور الأخذ والاحتذاء. أخذنا ما أخذنا منه وأدمجناه في أوضاعنا فصارت فيها كأنها أصيلة غير دخيلة. وكلما قويت الرغبات في قطر على الاقتباس من غيره، برزت فيه المدنية في حلة أجمل مما هي في الأقطار الجامدة. فمدنية مصر أرقى من مدنية الشام، ومدنية الشام أرقى من مدنية العراق، ومدنية العراق أرقى من مدنية الحجاز واليمن وما إليهما، ومدنية تونس أرقى من مدنية طرابلس وبرقة، ومدنية الجزائر ومَرَّاكُش أرقى من مدنية بلاد السودان.

ويدعونا الإنصاف إلى الاعتراف بأن أكثر ما تم في الممالك العربية السائرة نحو الرقي إنما يرجع إلى الحكومات القابضة على زمام الحكم. ونهضة كل بلد موقوفةٌ في الغالب على ما خُصَّ به رجال سياسته من حسن نية، وبُعد هِمم وثقوب أذهان، وبديهي أن رجال الإصلاح مهما بلغ من علمهم ومضائهم لا تتحقق آمالهم إذا لم يعاضدهم ولاة الأمر، لِمَا جُبل عليه الشرق من توقُّع الخير أبدًا من الحاكمين، خُلُق رسخ في النفوس لطول ما أتى على العرب من حكومات قل فيها الإخلاص وفُقد منها النظر في مقومات الملك. وكان المُلك في كل زمان أشبه بإقطاع يتصرف المتغلب بمقدراته على هواه، والرعية تستفيد من الاستقرار، والاستقرار على كل حال أجدى من الفوضى.

تعلمت مصر من بين سائر الأقطار العربية بنفسها، وبما قام فيها من مدارس يقصد منها التبشير أولًا وبالذات، وكان للأجانب سلطان عظيم على التعليم في بعض

الأصقاع، فأخذ بعض أبنائها من مبادئ العلم الحديث ما نفعهم. وغلَّ الدينيون أيدي رجال الدنيا عن العمل يوم كان لهم شيء من السلطان على الحكومات، وجوَّزوا لأنفسهم أن يكونوا أبواقًا تنادي بنصرة الحكام كيف كان لونهم، وكانوا إذا اتُّهموا بأنهم خرجوا عن مقام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قالوا: إنا نعاضد هذه الدولة لأنها مسلمة وتقوم بدعوى الخلافة، وكانوا لَمَّا عَمَّ الضعف، حتى في العلوم التي يدعيها العلماء الرسميون، إذا رأوا ما حَلَّ بالناشئة من الانحلال ترتروا وبربروا، وبلغ بهم العجز أن كانوا لا يملكون لردِّ عادية المدارس الجديدة غير الدعاء على من كانوا السبب في إنشائها، والقذف فيمن يقول بقولها ويأخذ عنها، ومنهم من كان يتذرَّع بذرائع الانتقام ممن عَدُّوه خارجًا على الشريعة، ولكن هذه الطرق الملتوية لم تأت أصحابها بخير؛ لأن سلاح الخصم ماض وسلاحهم مثلوم، سلاحه منطِق ومعرفة، وسلاحهم ثرثرة وهراء. ومن عدم السلاح المرهَفَ الحد لا يكافح ولا ينافح.

ولقد ظهرت بالاختبار صعوبة التوفيق بين أرباب المنازع المختلفة في التربية. ورأينا خريجي المدارس الرسمية ما صهرتهم حرارة القومية للقيام بما يناسب ماضيهم وينفع أُمتهم في الحاضر والمستقبل. وكان غرام بعض من تخرجوا من مدارس الغرب الاستهانة ببعض ما هو وطني، واحتقروا في الأكثر لغة آبائهم وعَدُّوها ثقيلة وصعبة. وشعب لا يتشبع بحب لغته يُفلت من يده مفتاح سعادته. والتربية الأجنبية على ما فيها من نواقص بالنظر إلى العرب كانت أرقى من مدنية الدولة الحاكمة يومئذ، وهي لا يتخرج بها إلا شخوص تتحرك بحسب الوجهة التي توجهها إليه السياسة. ومن تعلموا في مدارس الغربيين في الشام ومصر كان لهم إلمام — ولو قَلَّ — بلغتهم، أما من تعلموا ليكونوا ضباطًا وعمالًا فلم يحسنوا اللغة التي تعلموها ونسوا لغتهم. وأيًّا كان فقد تأتَّى من مجموع هذه التربيات أساس نهضة خرج بها السكان من تيه القرون الغابرة إلى بحبوحة المدنية الجديدة، وأثرت هذه الثقافة الأولية تأثيرًا تناول معظم مظاهر الحياة. ومن رأى الأقطار العربية في أواخر القرن الماضي ورآها اليوم يدرك الفرق بين ذاك التدني وهذا الترقي، وبين هذا النور الساري وذاك الظلام الدامس.

أصبح الناس بفضل معاهد العلم يدركون قصورهم، وقد عمل في نفوسهم كل ما شاهدوه من آيات الحضارة الجديدة. واقتبسوا بأنفسهم، أو مما وصفه لهم العارفون، بعض حسنات المدنيات الراقية وانتفعوا بما قرءوه وسمعوا به من تأثيرات مدنية القرنين الأخيرين في الغرب، ولا ينقصهم الآن إلا أن يربطوا برباط واحد، وإلا إلى من يوجههم إلى

غاية واحدة، وهذا يتوقف على جهود يشترك فيها الراعي والرعية اشتراكًا فعليًّا اختياريًّا لا صوريًّا إجباريًّا.

وبعد فإن هذه النهضة باكورة ثمرة غرست شجرتها متأخرة فاقتضت حالة الطبيعة في خلق الأشياء أن تأتي عليها أعوام أخرى حتى تتفرع فروعها، وتستوفي كمال نموها، ليجتني أصحابها الطيِّب من ثمرتها، وبضعة عقود أُخرى تجعل من هذه الشجرة دوحة أزلية، ويصبح عرب العراق والشام ومصر والغرب الأدنى والأقصى في مصاف الغربيين من أكثر الوجوه، وربما كان لهم من حضارتهم أُمور جوهرية قد تعوز الحضارة الغربية الحديثة، والمعول الأول في هذا الشأن على تأليف حكومات يقصد القائمون بها نفع الجماعة قبل نفع الأشخاص ويكون همها نشر التعليم بين جميع الطبقات توجهه وجهة عملية اقتصادية، فإن النظريات التي يتقنها اليوم صاحب الشهادة العالية في أزيد من اثنتي عشرة سنة لا تؤهله لكسب قوته من طرق حرة، وغاية التعليم إذا لم تنصرف إلى ما يستطيع معه المتعلم أن يعلمه توشك أن تجعل من صاحبه عضوًا مئوفًا.

وجدير بالفرد أن يتذوق الحياة، ويسعى لها سعيها، ويعمل لراحته وهنائه. والعلم بثمرته، وطيب العيش ثمرة من ثمراته. وهناك شئون ما برحت ناقصة عندنا، وأهمها إشراب النفوس مَلَكة التجويد في الأعمال، وتقدير المسئوليات على أنواعها، ومراعاة القوانين وتطبيق المصطلحات المدنية في البيوت وخارجها، وأن يعمل العارفون على أن تسري بين الرَّحَّال وابن القرار، ويشارك فيها المدنيُّ القرويُّ مشاركة لا يفضل فيها الشريك شريكه في شيء.

وما برح الفلاح — وهو أكثر من ثلاثة أرباع السكان — يؤلمه ما يلقاه من معاملة بعض أبناء المدن وأرباب الدولة، لأخذهم من كلمة «الفلاح» معنًى من معاني الجهل والفظاظة. وما الذنب على القروي فيما آلت إليه حاله، بل الذنب كل الذنب على من أهملوا أمره. سألني رجلٌ من الفلاحين عن سبب احتقار ابنِ المدينة ابنَ القرية، فقلت: هذا جهل كانت تُنَمِّيه الحكومات لاعتقادها أن الوطنيين إذا تآلفوا يتألبون عليها ولا ينفِّذون رغائبها على العمياء، فكان شأنها شأن قائد يرى بوادر الثورة في عمله، ويريد أن يقضي عليها قبل أن تتوسع، فأول ما يأتيه قطع الصلات بين الثائرين عليه، والحكومات هي التي ألقت التنافر بين الأُسرة الواحدة فصعب بعدها جمع جماعة على مقصد واحد. قد

يكون بيننا أفراد على استعداد للعمل الجماعي، فإذا دعوتهم اختلفوا وضعف مستوى تفكيرهم، هم فرادى كبعض أفراد الأُمم النابهة، فإذا تألَّفوا جماعة كانوا كأحط الناس.

وكان من التربية الناقصة أن خرج منا بعض الشبان بالثرثرة وعريض الدعوى وكان عليهم تجويد العمل وحُسن الاستماع. فالشبان يعوزهم من يتخرجون بهم بعد إتقان دروسهم، والكتاب وحده لا يكفيهم، وهم في حاجة إلى من يهذب من حواشيهم. وأن بعض ما يطلب من المتعلمين استظهاره في الثانوي والعالي قد لا يجديهم كبير أمر في مستقبلهم، وحفظ أشياء لا تبقى في الذهن إلا ريثما يؤدَّى الامتحان، إذا لم يشفعها ما يؤهل صاحبها للبعد به عن أن يكون عالة على غيره لا ترفع من خمول، ولا تنشل من انحطاط، والاعتماد على الحافظة كل حين يمرضها فلا تقوى إذا حُمِّلت فوق طاقتها على حفظ ما يفيد الدارس بعد حين، ثم إنا لسنا على ثبات في إقدامنا وإحجامنا، ولم نعين أوضاعنا تعيينًا دقيقًا، وما انصرفنا، كل الانصراف، إلى ما يستدعي عنايتنا قبل غيره من الشئون. أخذنا ما اتفق وتركنا أمورًا كانت ضرورتنا إليها أمسَّ، أخذنا البسائط السهلة وأغفلنا ما رأينا في تمثُّله صعوبة، وفي تحصيله بعض العناء والمشقة.

قال لي مطلع: إن إيران انتدبت، قبل هذه الحرب، بضع مئات من شبانها للإخصاء في جامعات الغرب، وكلهم يدرسون العلوم المادية الصرفة، ويكاد لا يوجد أثر في دراساتهم للعلوم الأدبية، فقلت إن فارس عقلت الآن وسيكون لدولتها شأن ربما تستعيد به ما كان لها من مكانة على عهد الأكاسرة وفي القرون الأولى للإسلام، ونحن في وسعنا أن نوجه شباننا توجيهًا جديدًا وأن نحسن شئوننا المعاشية أكثر مما أحسناها على رغم معاكسات المعاكسين ومنافسات المنافسين.

لا تشكو بلادنا جدبًا في تربتها، ولا ضعفًا في ذكاء أبنائها، وإنما تشكو خللًا في التربية، وقلة إتقان في الأعمال، ونقصًا في استخدام القوى الضائعة، وأن يتعلم أبناؤنا الصدق في القول والعمل، وألا يحتقروا ما يبدو لأعينهم حقيرًا لأول وهلة، ولا يتكلموا قبل أن يتفكروا، وألا يغتروا بما تعلموا ودرسوا. ونحن إذ نطلب هذا لا نطلب المحال، ولا نتكلم من عالم الخيال. فقد رأينا كيف نهضت الديار الشامية مثلًا في إبانها، وأخذت المقام الأول بعد مصر دون سائر الأقطار العربية، لما توفرت على إحياء قديم لا بأس به، واعتمدت على سواعد أبنائها أكثر من اعتمادها على الغريب، وما استطاع المهيمنون أن يزحزحوها عن حياض العلم لما صحت نية أبنائها على المضي فيه، وما وفق المسيطرون بعد أن اختاروا طبقة من المتعلمين للإخصاء في الجامعات ليكونوا دعاة لهم، ورجع أكثر

من ذهبوا متشبعين بحب قوميتهم لا يتخذون عن خدمة أُمتهم بديلًا، ولا يفكرون في أن يهجروا أرضهم إلى غيرها حتى قال أحد علمائهم: ما أدري كيف تم ذلك، فنشأ من تخرجوا في جامعاتنا نشأة لا تتفق مع مصلحتنا، وعادوا من أكثر الوجوه بأفكار كنا نود أن يحملوا غيرها مما ينفعنا، ولعلنا أخطأنا في تركنا المجال حرًّا لهم فاختاروا الأصلح لأنفسهم لا لسياستنا.

وفي جيل واحد بدأ سنة ١٩٠٨ بنشر الدستور العثماني وقوي بعد سنة ١٩١٨، وقد غادر الترك الشام، وُضعت أُسس التعليم الابتدائي والثانوي والعالي والصناعي والتجاري، وأُنشئت دور الآثار والكتب في الحواضر وخزائن الأسفار في المعاهد العلمية، وتخرج مئات من الأطباء والحقوقيين والمهندسين والماليين والزراعيين والمعلمين والمتأدبين، ومنهم من أتموا علمهم العالي في جامعات الغرب، وأتقنوا بعض لغات العلم وأحكموا النقل عنها، وأتوا قومهم بما لم يعهدوه من معارف غيرت في كيانهم.

ودخل النظام الحديث على البيوت المالية التجارية والصناعية وعرف أهل المدن فائدة الشركات فألفوا من أصنافها ما ساعدتهم حالتهم عليه. وكان يندر في القرويين من يُحسن قيد حساباته، فغدا بعضهم يمسكون دفاتر بدخلهم وخرجهم، ويَرْكنون حوالة الأسواق وتصريف حاصلاتهم، وأصبحوا يستكثرون من غرس الأشجار يستجيدون لها أصنافًا لا عهد لأرضهم بها، ويختارون بذورًا وأسمدة وطرق حرث وكرث كلها جديدة، وبذلك كثرت الثروة كما كثر عدد السكان بانتشار المعارف ومراعاة مبادئ الصحة، وظهرت أمارات الغنى على بعض أهل القرى، فَاسْتَجَدُّوا البيوت وتأنقوا في فرشها على نحو ما فعل أهل الحواضر، وانقلبوا يتجمَّلون بالثياب النظيفة، وجَارَوْا أهل المدن بأزيائهم وهندامهم.

ومن أعظم مظاهر هذه النهضة ارتقاء أحاديث العامة، ودخول تحسين كثير على لهجاتهم، وكلامُهُم اليوم أرقى من كلام بعض الخواص في القرن الماضي، وكتابتهم أرقى من كتابتهم، وقد شاعت الكتابة بالعربية، وكان لا يحسنها غير أفراد قلائل في المدن، كما شاعت معرفة كثير من اللغات العربية، تعلموها في أسفارهم وأخذوها من المدارس، وما صدر بالعربية من التآليف خلال ربع قرن في الفنون المختلفة بُرْهَانٌ جليٌّ على أن الذكاء الذي كان مدفونًا انكشف لَمَّا صَقَلَتْهُ التربية الحديثة، ومن ذلك رغبة جميع الطبقات حتى البوادي في تعليم أبنائهم وبناتهم، وكانوا إلى عهد قريب يبعدون بهم عن التعلم لاعتقادهم بأنه يضر بمعتقداتهم ويعبث بآدابهم، وكان بعضهم في القرن الماضي

يحتالون حتى لا يعلموا أبناءهم وغدوا في هذا القرن يلجئون إلى أنواع الحيل ليعلموا أولادهم على ما يُحبون وتقتضيه حالةُ العصر.

ألف الناس المطالعة بل اشتد غرام المتعلمين بها، وكثر اختلاف القوم إلى الأندية العامة لسماع المحاضرات والخطب مع ما يستمعون إليه كل يوم من أحاديث الإذاعات العربية المنوعة الموضوعات، وأُولعوا بشهود روايات السينما وسماع الموسيقى، وأُنشئت الجمعيات والشركات المختلفة المقاصد تعلم الفقير واليتيم، وأثبت الشامي كفاءة في أكثر الحِرَف والصناعات، وكلما صحت نيته على الجمع بين القديم والحديث تستقيم له أداة تمدُّن لا تنزع منه مشخصاته، وتقربه من كل ما في مدنية الغرب من حسنات.

مشت الشام على أثر مصر وأخذت العراق بأَخَرَة تحذو حذوهما في تلمُّس أسباب الترقِّي، وتخلفت الأقطار العربية الأخرى، حاشا تونس، عن اللحاق بالأقطار الناهضة، والرجاء مع هذا ألا تمضي أعوام قليلة حتى يشترك كل قطر عربي في الأخذ بمذاهب هذا التمدن، ويلحق اللاحق بما سبقه إليه السابق فيظهر النبوغ في أكمل مظاهره على ما كان في القرون الأولى للإسلام.

استفاد العالم العربي من كل قوة جاءتْه من الغرب؛ لأنه كان، وما برح، كالصلة والعائد بين المعروف من قارات الأرض القديمة، وأَثَّرَ ذلك في عمران هذه الأقطار تأثيرًا حسنًا. وكان على نسبة أخذ القطر الواحد بحظٍّ من هذه المقدمات تتبدل طرق حياته ومناهج تفكير بنيه. وما نراه من تنظيم طرق الري وطرق الحديد ورقيِّ الزراعة والقضاء في مصر، وما يظهر من جميل هندسة البناء وتجويد بعض الصناعات والأعمال الزراعية في الشام وتونس، كله من آثار العلم الذي لقفناه وتمثلناه.

إن زراعتنا اليوم غيرها بالأمس، وتجارتنا اليوم غير تجارتنا البارحة، وهكذا قُلْ في صناعتنا وأعمالنا الحرة والاتكاليَّة، ونحن ما زلنا نبحث للوصول إلى الكمال، لنستر مواطن النقص، والشعور بالنقص أول مراتب الكمال، والجهر بالقول أقرب مرحلة إلى بلوغ الأمل من العمل، وخير النهضات كخير الثروات ما قام بأيدي أصحابه، وسار بسير القانون الطبيعي، وكل ثورة اجتماعية أو فكرية هي محصول الكتاب والكتَّاب، والعقل العربي الذي شاد في القديم قصر غمدان وسد مأرب، وعمر في الإسلام أُمويَّ دمشق وأقصى البيت المقدس وقصور سَامَرَّا والفسطاط، وقصر الحمراء وجامع قرطبة وسدود بَلَنسية لا يستحيل عليه، يوم يتمثل المدنية الحديثة حق التمثُّل، أن يعمل أكثر مما عمل إن شاء الله.

القول في تهافت طباعنا

سأل سائلٌ: لماذا تُحبُّ فلانًا وفلانًا ولا يبدو منك ميل إلى فلان وفلان، وأربعتهم في الظاهر أبناء حرفة واحدة ونبعة واحدة، وأحوالهم متشابهة، فكان الجواب: أن ميزة الأولين عفة النفس والتفكير في خير الأمة، أما تِرْباهما الآخران فيعتقدان أن الأعمال العامة لا يقصد من توليها إلا ملء الجيوب من الطيب والخبيث، والحياة عندهما لا تتطلب من صاحبها إلا أن ينظر لنفسه فقط.

ولقد كنت، وما زلت، أعلل ما يبدو من أخلاق بعضهم بقانون الرجعة أو مماثلة الجدود، والرجعة ميل الأحياء الحية للرجوع إلى صورة الأجداد البعداء، وبتأثير هذا القانون يعود الإنسان على صورة أجداده الأولين. ومن شأن هذه الرجعة أن تُحَلِّيَ الأخلاق بالصفات التي تجلَّت في الأسلاف، صفات تنتقل أو تنمو بتأثير البيئة والعادة، والولد الذي يشبه جده ولا يشبه أباه أهونُ مثال في هذا الباب.

لا جرم أن قانون الرجعة ظاهر الظهور كله في الخلق، وكثيرًا ما رأينا التربية الصحيحة تتغلب على بعض الناشئة فيخرجون أحسن سيرة من أهلهم، ولو زادت العناية بالأبناء لجاء منهم رجالٌ أرقى من آبائهم، فارتقى العالَم بتكثير سواد النافعين فيه، وإن كان من الصعب أن يأتي من القاتل تَقِيٌّ، ومن اللص أَمِينٌ، ومن الفاجر بَرٌّ، إلا بمرور عدة أجيال، وتوالي بطون كثيرة، ولا عبرة بالشواذ. وما كان التعليم وحده ليَجْبُرَ هذا الوهن في الخلق، وما كان لدمٍ ملوَّث أن يطهر إلا بمعالجات طويلة.

عرفتُ اثنين من أُسرة غنية تعلما تعليمًا عاليًا، وظهر الذكاء على مخائلهما منذ أول نشأتهما ودارت الأيام فرُقِّيَ كلاهما إلى منصبٍ سامٍ كان يظن فيهما أن يجوِّدا عملهما، فإذا التعليم العالي لم يُفِدْهما إلا جرأتهما على الباطل، وإذا بقانون الرجعة

يتجلى فيهما رغم الألقاب والشهادات، وإذا النفس هي نفس أولئك الأجداد الذين جمعوا أموالهم بالنهب وسفك الدماء. ونشأ هذان المتعلمان يستحلان كل ما يتوهمان فيه نفعًا معجَّلًا لهما، لا فرق بينهما وبين اللصوص إلا أنهما لصان اكتسبا الكسوة المدنية، وركبا السيارات، وجلسا إلى موائد حديثة، ونزلا الدور المنجدة.

تأمت تربية هذين الشخصين وتدبَّرتُ ما صدر عنهما، ومنه ما يَخجل منه أَسْقَطُ الناس مروءة، فما شهدتهما يخرجان عن تربية أجدادهما، وربما كان هؤلاء أقرب إلى السذاجة، وما خَلَوْا من صفات طيبة. وزاد المتعلمان من أبنائهم لُؤْمًا جديدًا إلى لؤم قديم، وجسرا على العبث بالقوانين، وما وصلت قريحتهما إلى أبعد من أغراضهما المادية.

وعهدت أديبًا نشر كثيرًا من الشعر والنثر ودعا إلى الفضائل، ينهب في شبابه كبير رؤساء دينه، ويسرق في كهولته أوراقًا لأحد كبار السياسيين وكان نزيله، أخرجت الورقة المسروقة من فمه وكان يريد أن يبتلعها، والله أعلم كم سرق مدة خدمته في الحكم، وقد خلف وَلَدَيْن سارا بالطبع سيرة أبيهما، يغتصبان كل ما طالتْ أيديهما إليه، وقد سقطا مرة في أيدي القضاء باتهامهما بسرقات وسُجِنَا مدة ثم تخلصا. وعرفت رجلًا من رجال الإدارة كان فساده على نسبة ذكائه كان كله ضررًا على الناس خلف أولادًا أورثهم ذكاءه وفساده، وأبناء اللصوص لصوص ولا تلد الحية إلا حية، وفي قُطَّاع الطريق من هم أَعَفُّ نفسًا من كثير من المصلين الصائمين، لأن من السَّلَبَة مَنْ يدعوهم فقرهم إلى ارتكاب ما يرتكبون بعارض نفسي خبيث، قد يعرض مثله لمن كان في أرقى من طبقتهم، ولا يطلبون من عَرَض الدنيا أكثر مما يسد حاجتهم.

قصَّ عليَّ أحدُ قدماء الأشقياء قصة استغربتُها، قال ما فحواه: كنت في عنفوان الشباب، وأنا مغموس من فرقي إلى قدمي بالشقاوة، وبرح بي العَوَز ذات يوم، فانفتح لي باب رزق هدتني إليه الفاقة، وذلك أني علمت أن فلانًا — من كبار المزارعين — قد باع شيئًا من حاصلات مزرعته، وأن كيس الدراهم الكبير قد جعله في عربته تحت مقعد الحوذيِّ، فعرضت له في الطريق وهو آيب مساء إلى داره، وكان معي بعض رفاقي انتحوا ناحية عني، فلما مرت العربة أشرت إلى السائق بالوقوف فوقف، وأشرت إليه أن يبتعد عن مقعد السائق فابتعد، وفتحت الكيس وأخذت منه أربعة ريالات لِي، ومثلها لكل من رفاقي، فقال السيد: زد يا فلان، فقلت له يا سيدي هذا ما نحتاجه، فقال لي: تعال غدًا إليَّ فإن لي شيئًا معك، فجئته وأعطاني وأعطى كل واحد من رفاقي جُوالق حنطة، وقال لنا إذا احتجتم إلى شيء أخبروني لأُعطيكم ما تحتاجون إليه. أليس هذا الشقي أشرف من أولئك السادة المتعلمين؟ ومعاملة المزارع الكبير له ولرفاقه ما خلت من مروءة ومرونة.

قام في العهد الأخير شاب متعلم فوقع في مهاوي الشقاوة، على صورة لم يتبين الدافع لها، وأخذ يقطع الطريق، ويعتدي على الأغنياء ويُفْضِل على الفقراء، وقصوا من أحاديثه الصحيحة ما يعجب، قص عليَّ أحد الأدباء أنه كان في جملة قافلة السيارات يوم اعترضهم ذاك الشاب مع بعض أعوانه في بعض الأودية فسأله عن حاله، فلما علم أنه من بيت أدب أعفاه من أخذ شيء من ماله، وقال له: إن العلماء والمشايخ والقسس يجب ألا يضايقوا، بل ينبغي أن يُعطوا ولا يؤخذ منهم شيء؛ لأنهم وقفوا أنفسهم على خدمة الخلق، وكان من جملة المخدَّرات المسافرات في هذا الركب إحدى ذوي قرباي، فأخذ منها بواسطة زوجها أساورها فقط. ذكروا من جملة حكايات ذاك الشارد أنه اجتاز به شاب مع عروسه، فسألهما عن المكان الذي يقصدان إليه، فقالا: إنهما ينويان قضاء شهر العسل في القرية الفلانية، فسألهما عن المبلغ الذي أَعَدَّاه لذلك، فذكراه له، فطلب منهما أن يرياه ما في حقيبتهما من دراهم، ولما أيقن أن المبلغ ضئيل قال لهما: هذا لا يكفيكما، وأخرج من جيبه مبلغًا لا يستهان به وقال لهما: خذا هذا تستعينان به على نفقة الشهر على ما يجب، ودعا لهما بالهناء والرفاء. أليس هذا الشاب الذي وصفوه بالشقي، وما هو به في فطرته، أشرفُ من بعض من يتصدرون في المجالس ويتبجحون بالصيانة والدين وهم طبقة ما نديت أكفها بكرم، ولا هزت نفوسها أَريحة؟

حدثني العلامة طه الراوي العراقي قال: أخبرني شيخ قبيلة المناع من المنتفق أن شيخًا من شيوخهم يقال له: حُمُود غزا قبيلة من قبائل العرب فاستولى على أموالهم ومواشيهم، وانهزم رجال القبيلة ونساؤها من أمامه، واحتل الغازي بيت الشيخ، وبينا هو جالس إذ أقبل هَوْدج على جمل ولم يزل يقرب حتى أُنيخ الجمل أمام بيت الشيخ، فسأل الشيخ عمن في الهودج فإذا صوت امرأة تقول إنها جاءت لتلحق بخول الشيخ؛ لأنها لا تستطيع أن تعيش بين نساء قبيلتها، والسبب في ذلك أنها عروس بُنِيَ بها بالأمس، ووقعت النكبة على قبيلتها صباح اليوم التالي أي: غداة، ليلة البناء، فأصبح النساء يتشاءمن بها فلم تجد بدًّا من الالتحاق بالشيخ حمود ليجعلها ضمن السبايا، ففكر الشيخ قليلًا ثم نادى في أعوانه أن ارتحلوا في الحال، ولا يأخذ أحدكم شيئًا من أموال القبيلة وأنه وهب جميع هذه الغنائم لهذه العروس، فعليها أن تطمئن مع زوجها فلا يتشاءم بها نساء القبيلة، ورحل تاركًا وراءه الغنائم كلها، والعروس لا تزال في هودجها، لم يهتك لها ستر.

ومن الأشقياء من كانوا يعفُّون عن ركوب الخنا، وتبدو منهم أخلاقٌ قد لا ينطوي على مثلها بعض أولئك الذين ندعوهم بالراقين، ورأينا كثيرين من الأشقياء تسمح

نفوسهم للفقراء مما كانوا يسلبونه من الأغنياء، ومنهم رجل اشتهر في إحدى الولايات التركية كان مثال الأخلاق الفاضلة والسماحة العجيبة، وما كان هدفه غير الأغنياء، ثم هو ينصفهم إذ يسلبهم، وما تعدى على عِرض قط، ولا أراق دمًا بدون حق؛ ولذلك أعجز القبض عليه حكومة تلك الأيام، وكان الأهالي يعجبون بأخلاق ذاك الشارد ويخبئونه في بيوتهم.

وعرفت شابًّا سار على طريق نهب السابلة مدة، فاعترض في بعض غزواته راهبات كن يقصدن ديرهن، وكانت بينهن راهبة جميلة الطلعة، فأحب أحد رجال العصابة أن يعتدي على عفافها، فصرخ فيه صرخة دوى لها الجبل والوادي وقال له: يا فلان إنا نريد ما عليهن من الذهب فقط، فلما جيء به إلى المحكمة مع الراهبات سئلت الراهبة الجميلة عما إذا كان رئيس العصابة هذا الشاب هو الذي استلب منهن صلبانهن ودراهمهن، فتأملته باسمة وقالت: لا، ليس هذا، فبرأته المحكمة. فلما رأى ذاك الشارد من مروءة الراهبة ما قدم هو مثله معها يوم قطع طريقها، ذهب من الغد إلى المكان الذي كان دفن فيه الصلبان والذهب وردها برمتها إلى الراهبات المحترمات.

ولهذا الرجل قصة وقعت لي معه، ذلك أني كنت في جريدتي أكتب حوادث اعتداءاته على بعض أبناء السبيل، وأحث الحكومة على القبض عليه، وكان هو ممن يقرأ الجرائد، ويعرف ما يقال فيه، وساقتْه الأقدار إلى أن يختبئ في دار أحد أصدقائي في قريتي، ورآني أكثر من مرة وأنا ممتط فرسي وهو مختبئ في طريقي، وسط السياج في بعض الحقول البعيدة عن المزرعة، وبيده بندقية، وما أحب أن يطلق عليَّ عيارًا ناريًّا منها وقال إن هذا الرجل وإن كان يؤذيني في جريدته إلا أن القوم يحبونه وينتفعون بما يكتب. وهو من أُسرة ما كانت الشقاوة إلا عارضة في ابنهم هذا، وتاب بأَخَرَة وحسنت سيرته.

وإذا جئنا نحلل روح أولئك الذين يزعمون لك أنهم من أبناء بيوت نابهة، وقسناهم ببعض أُولئك الذين غلا الناس في الضرب على أيديهم، نجد فروقًا جوهرية بين الفئتين، فإن بين من كتب لهم ظهور ونجَوا من طائلة العقوبات، وهم يستحقونها، وبين من يعدون في العرف من الطبقات النازلة بونًا في الأحايين، وفي هؤلاء قد ترى مسحة من فضيلة عَرِيَتْ منها نفوس بعض أولئك العيون. إن المجتمع قد يُعلي من لا يستحق إلا الخفض، أو من هو حريٌّ بالصفع، وقد يُسقط من هو أهل أن يقام له بعض العذر فيما صار إليه.

لقانون الرجعة سلطان مبين على الرجال والنساء، لا تخفِّف وطأته إلا التربية الصالحة، ولا بد مع ذلك من توالي بطون حتى يسلم الدم، وتصفوَ الأمشاج، وتلطف

الأخلاط. ذكروا أنه وقع لكافور الإخشيدي ملك مصر، وكان عبدًا زنجيًّا، ما أنكره منه خاصته وأنكره هو من نفسه، فتداركه بجربزته ودهائه، ذلك أنه عزفت الموسيقى يوم الحفل مرة فأخذ يهز كتفه كما يهز العبيد أكتافهم إذا طربوا وتواجدوا، فنظر إليه وزيره نظرة المستنكر، فأدرك كافور غلطه، وأن حركته لا يليق صدورها من ملك، فما كان منه إلا أن دام على هذه الهزة عند سماع الأنغام وعند انقطاعها، حتى اعتقدت رعيته أن الهزة في كتف ملكهم طبيعية لم يأتها يوم أتاها أول مرة من خفة تلحق بالعبيد.

قَلَّ أن تخلفت قاعدة الوراثة حتى بعد قرون طويلة. في إحدى قرى غوطة دمشق أُسرة تعرف ببيت السفياني نسبة لأبي سفيان بن حرب جدِّ بني أُمية، وكان جدهم السفياني قام بعد ذهاب مُلك أهله في القرن الثاني يدعو لدولتهم، ويجاذب العباسيين حبل السلطة. ولا تزال هذه الأُسرة تحافظ على آدابها العربية القديمة، ما عُهدت لهم أذية، وقَلَّما يجرؤُ أحد على إيذائهم، ولهم نمط خاص في خَلقهم وخُلقهم لا يشبهون فيه جيرانهم، ويبدو النُّبل في شمائلهم، فهم لا يشتمون ولا يسبون ولا يجدِّفون ولا يحلفون بالطلاق، ولا بالأَيمانات المغلظة عند كل حديث، هم مثال ظاهر من الوراثة والرجعة ومصداق المثل الإفرنجي «الدم الطاهر لا يكذب.»

ومن تأثيرات الرجعة أن تجد النساء على اختلاف طبقاتهن وأعمارهن وعصورهن مولعات بالزينة إلى حد الجنون، وقد تأصل حب الزينة فيهن منذ كانت الدنيا إلى أن يأذن الله بفنائها.

قانون الرجعة ماثل في الإنسان والحيوان في الخَلق والخُلق، وصحيح ما قالوه قديمًا إن العرق نَزَّاع، والعاقل لا ينظر من الناس إلى صورهم فقط، بل يتدبرهم في كل ما طرأ عليهم، ويُطيل النظر في أمورهم ويقيس حاضرهم بغابرهم، ولا عبرة بالثوب الظاهري فقد قيل في الأمثال الفرنسية: ليس الراهب بثوب يلبسه، ولا الحَساء الجيد بما كتب عنه من إعلان.

القول في ثوراتنا

الثورة عصيان على ماض رجعي، لتحقيق حاضر فيه تجديد، ونضال بين وضع تَقَادَمَ، فانقطع الرجاء من غنائه، للاستعاضة عنه بآخر يُرجى الخير من إيجاده. تنشب لإبدال حكم حر مطلق بحكم فرد مستبد أو للقضاء على عقيدة بَلِيَت، أو مذهب سياسي يطمع في نشره أو لغير ذلك من المقاصد.

ومن أنواع الثورات ما دعاه غوستاف لبون بالثورة العلمية، قال: إنها من أهم ضروب الثورات، وتحمل نتائج ذات شأن أكثر من الثورات السياسية، وهي أجدر أن تدعى نشوءًا، بالنظر لبطئها، منها أن تدعى بالثورة، وذلك مثل نظريات دروين التي قلبت علم الحياة واكتشافات باستور التي غيرت علم الطب، ونظرية فناء المادة وكان الاعتقاد السائد أن الذرة جزء لا يتجزأ.

ما جرت العادة أن تقلب الثورة أعيان الأشياء، بل تُعَدِّلُها وتُدخل فيها روحًا جديدًا ما كان لها. والثورات أبدًا وليدة الشدة والعنف، لا هوادة فيها ولا لطف، شوكها أكثر من وردها، وجَنْيها على الجملة أقل من بذرها.

ليس في الأرض شر محض ولا خير محض. فقد نعتقد في أمر شرًّا فيسفر عن شيء من الخير، ورُبَّ أمر اعتقدنا صلاحه، وإذا هو ينطوي على شرور، وأمور العالم لا تتصرف كل حين على قواعد المنطق، ولا تُحَدُّ بحدود العقل والبصيرة.

رب ثورة كان لعبها أكثر من جدها، فأنتجت ما لم يكن ينتظر منها، وكم من مغامرة ظُن صاحبها يهذي فإذا هو يؤسس بحنكته دولة، ويشيد لأمةٍ مجدًا، وكم من دولة تداعى بنيانها بغلطة ارتكبها حُماتها، فذهب في ساعة ما تعب المؤسسون في إنشائه أعوامًا.

تتقد نار الثورة من غضبة سرعان ما يسري لهيبها إلى البعيد والقريب، وتتناول الوادع الآمن كما تتناول الغاضب الحانق. وقد يدخل فيها الثائر مرغمًا أحيانًا وراضيًا أحيانًا، وموقنًا بالفوز أحيانًا وقانطًا من كل نصر أحيانًا. ويستبسل فيها من يستبسل ويرى الموت عيانًا، ولا يجوِّز لنفسه عار الهزيمة. وقد يهلك فيها الأبرياء وينجو الثائرون. ورصاصة الثورة طائشة عمياء ليس لها دليل يُبَصِّرها مواقعَ الرمية.

الثورة قرينة الفتوة، والثوار فتية أغمار على الأغلب، يقل فيهم الكهول ويندر الشيوخ. وفي كل ما عرف من ثورات العالم كان حظ الشباب أجزل من حظ غيرهم. وهذه ثورة الإسلام أَمَا كان الشأن الأعظم فيها للفتيان، نصروه بأنفسهم وأموالهم، وهانت عليهم أصعب المكاره في نشر دعوتهم؟ ولما حدت المطامع شبانهم على الاستئثار بالمظاهر والمغانم، كما استأثر بها الشيوخ بزعمهم، فشلت ثورتهم، وبخاصة لأنها كانت للدنيا، والدين يلوح به تلويحًا. كانوا في ثورتهم الدينية جِدَّ مخلصين، وما كانوا كذلك في ثورتهم الدنيوية.

وفي العادة أن تبوءَ الثورات الوطنية بالخيبة متى بدت من الثائرين أمور تنافي العهد الذي عاهدوا، والرأي الذي بيتوا، وهذه الثورة الفرنسية لما أخرجها رجالها عما كان فيها من معان شريفة، وراحوا يقتتلون لمآرب لهم، وأمسى شعارهم الظاهر والباطن ذلك القول المشهور عندهم: «تنح أنت حتى أجلس أنا مكانك» لما أتوا ذلك كانت سيئات ثورتهم أكثر من حسناتها، وكان الواجب على من قاموا قومتهم الجريئة ألا يخلطوا في ثورتهم غير ما قصدوا له، وأن يتركوا المجال لأرباب الأعصاب الهادئة يقضون ويحكمون.

النجاح مضمون للثورات التي تقوم على البصيرة تُزكِّيها، وسلطان الحق من ورائها يؤيدها، والثورات التي تعرو الرعونةُ أربابها، ويضعف لأقل عارض إيمانهم بدعوتهم، وتتحول نفسية من يتولون كبرها في الآخر إلى ما لم يكونوا عليه في الأول أنذرها بالخيبة والإخفاق.

في الثورات تتحكم العواطف، ويتراجع المنطق السليم، وقد يطيش سهم الثائرين فيضطهدون العقل ومن يخاطبهم بالعقل، ويصيبهم الغرور فلا يرون في الوجود غير أنفسهم. وكل ثورة تجمع إلى العاطفةِ النبيلةِ القوةَ العاقلةَ تبلغُ الغايةَ، ومتى تغلب العقلاء على الجهلاء تأتي الدماء المطلولة والأموال المبذولة بأعظم النتائج، وإذا أصبحت الكلمة العليا للزعانف، جاءت النتيجة حقيرةً مثلهم، والحقيرُ حقيرٌ في كل ما يأتي ويذر.

يقول غستاف لبون: مهما كان الداعي إلى الثورة فإنها لا تثمر الثمرة المطلوبة إلا إذا نزلت إلى روح الجماعة. وأعظم الثورات ثورات الأخلاق والأفكار، وعقلية الشعب

لا تتبدل بتبديل اسم الحكومة، ولا يُعد قَلْبُ أوضاع أمة تجديدًا في حياتها. وقد حاول رجال الثورة الفرنسية للمرة الأولى منذ كانت الإنسانية أن يقلبوا الناس والمجتمعات باسم العقل، وأعظم ما ناله الشعب استمتاعُهُ بحقوق ما كانت له، ولكن الربح الذي تم بمثل هذا الخراب العظيم كان يمكن الحصول عليه بعد حين بفعل التمدُّن، وقد علمتنا وقائع الثورة أن كل شعب تخلص من القيود الاجتماعية وتُرك للدوافع الفطرية فيه لا يلبث أن يسقط في وحشية الأجداد، وكل ثورة شعبية نجحت كان نجاحُها عودة مؤقتة إلى البربرية. ا.هـ.

تقوم الثورات بحساب، شأنُها في ذلك شأن أعمال العالم، وما لم يقم على هذه الطريقة كان فيه الضرر أكثر من النفع. انظروا إلى الثورتين الأخيرتين في مصر والشام تشهدوا النجاح قرين الثورة المصرية الأخيرة؛ لأن القائمين بها كانوا ممن نجذتهم التجارب، ودرسوا ثورات الأُمم، واعتبروا بالثورات المصرية التي أخفقوا فيها، ولما عادوا يروضون ثورتهم برأي حصيف، مقدرين الممكن وغير الممكن، عامدين إلى السياسة يستخدمونها أولًا، وكان مقدار العقل في حركتهم أكثر من العاطفة، أثمرت لهم ثورتهم بعض ما كانوا يرتجونه منها.

أما الثورة الشامية فمازجتها العاطفة أكثر مما يجب، ارتجلت ارتجالًا قبل أن تتخذ لها الأسباب. وكان فيها الخصم شديد البأس، وعدمت النسبة بين قوة الثائرين ومن ثاروا عليهم. وليس في صفوف الزعماء وحدة في الرأي ولا في العمل. وما استطاعت الدولة التي كانت تحنو على ثورتهم أن تنجدها جهارًا فأخفقت، خلافًا للثورة التركية الأخيرة فإن مَنْ أرادها من الدول عاون أربابها على خصمهم معاونة فعلية، وما قدِّر للدولة التي دفعت بخصيمة الترك إلى الهاوية أن تأخذ بيدها إلى النهاية. وكان عدو الأتراك الظاهر دونهم شجاعة ودربة وأَرْيَحِية، وهل كان الثائرون إلا بقايا دولة حربية قديمة، وفلول جيش مدرب مشهور بمواقفه، وصدقوا القتال وهم موقنون أن في تراجعهم فناءَهم، وفي وِنائهم انحلال أمرهم على الدهر، حاربوا وهم على عِرْق من الحق، وأخلصوا في دفاعهم عن حوزتهم فعطف عليهم من يحبهم ومن لا يحبهم. أما محاربوهم فحاربوا تؤزهم أزة اعتداء مغرورين بوعود خلابة. ونجح العراقيون في ثورتهم؛ لأنهم كانوا مخلصين فيها، وقامت ببعض أصقاع العراق بها بعامل ديني وقومي.

ونجح ابن سعود بثورته فأسس ملكًا واستولى على بلاد أجداده نجد والأحساء، ثم على الحرمين الشريفين وما إليهما. ولم تنجح الثورات التي ثار أهلها على ابن سعود؛ لأنها

كانت بعوامل مجهولة المقاصد، وهو قويٌّ بجيشه وسعة حيلته، فمزق شمل المتآمرين عليه الثائرين على سلطانه، كما لم تنجح ثورة الأشوريين في العراق وإن قيل: إن أيدي قوية كانت تعضدها.

قد لا يواتي النجاح المرتجى للثورة في سبيل فكرة أو عقيدة إذا عمد فيها إلى السرعة، وهذا النوع من الثورات تعوزه الرَّوِيَّةُ والأناة. ورأينا ثورة الترك على كل ما رأى أنصار الجمهورية القضاء عليه من أوضاعهم لاقتباس كل ما هو غربي، والمبالغة في نزع عقائدَ لهم عزيزٌ نزعُها على مَنْ اعتقدوها، لم يكتب لها الظفر المطلوب لتوهم دعاتها أن القوة المادية هي كل شيء، ونسوا أن من المسائل ما يعوزه الزمن ليعمل عمله، أكثر مما ينقصه سن قانون جديد وإبطال آخر متأصل في اللحم والدم، والأمة التي تسخو كثيرًا بنشر القوانين، تُبطل منها وتُثبت مسرعة، تكون إلى تَقَلْقُل في حياتها.

لما ثارت مصر والشام على الجمود، وصحَّت نية قادة الرأي فيهما على الأخذ من مدنية الغرب، مع الاحتفاظ بمقدسات الأمة نجحت ثورتهما؛ لأنها كانت مقرونة بهدوء وبصيرة فصح أن تدعى نهضة ونشوءًا، لا ثورة تأتي على الأخضر واليابس. راعى رجال هذه الثورة الفكرية اعتبارات كثيرة وأدخلوا إصلاحهم على أمتهم متدرجين فيه، متوقعين من الزمن تحقيق رغائبهم الباقية، ولئن أبطأ تأثيرها بعض الشيء لقد كان ما دخل منه راسخًا رسوخًا يتعذر استئصاله.

هَامَ رجال الثورة التركية بكل ما أتى من طريق الغرب، وعَدُّوا اقتباسه سعادة وما عداه شقاء. وضربوا القديم ضربة لم يبق معها فيه غير أمور ما أمكن التحلل منها، فكان شأنهم شأن من أَلَّفوا لغة جديدة وفرضوا على أمة تَعَلُّمَها في الحال، وقالوا لها: انسي لغتك الأصلية، وتَخَاطَبِي بما صنعنا لك من لغة مرتجلة، وشتان بين لغة ركبت تركيبًا مصنَّعًا، وأخرى صنعتها الأيام وكملت بسنة الترقي الطبيعي.

كانت مجموعة مدنية مصر والشام أرجح في الميزان من مجموعة مدنية تركيا، إلا الجيش فإن الترك امتازوا بجيشهم منذ كانت لهم دولة. وكانوا في كل عصر عبارة عن معسكر لا عناية لأهله إلا بما كان ذا علاقة مباشرة بالقتال والصيال. أما الجيش بمصر والشام في العصر الأخير فقد ضعف بفعل القائمين بالأمر، وكانوا يحاولون نزع الروح الجندية من أهل القطرين. وكان هذا الروح ظاهرًا الظهور كله في الأعصر الماضية، وما قوة جيش محمد علي بخافية على العارفين، فقد كان أرقى من جيش الدولة العثمانية صاحبة الماضي الحربي العظيم، وما كانت مصر يومئذ غير ولاية من ولايات السلطنة.

ولنا أن نقول بعد هذا: إن الثورات الفكرية قد لا تسرع نتائجها كما تسرع الثورات السياسية، وثورة الفكر لا تتوقف على القوة فقط ولا بد فيها من الأخذ بقوًى أخرى. الثورة السياسية هَبَّةٌ فسكونٌ، والثورة الفكرية متوقفة أبدًا على استعداد طويل ثم تهب من ذاتها بريح طيبة.

من مقومات الحياة في الأُمم ما يتوقف نجاحه على النشوء الطبيعي يجري حكمه فيها. فقد حرص رجال الثورة التركية الأخيرة على إدخال الروح التجاري والزراعي والصناعي في أُمتهم فلم يحصلوا على كبير أمر بعد عمل نحو ربع قرن. وظل العرب أرقى من الترك في هذا المعنى، شهدت لذلك معارض تركيا ومعارض الشام ومصر، وأيد ذلك الواقع المحسوس. والمظنون أن رجال الترك لن يوفَّقوا إلى بلوغ الهدف الذي يتطالون إليه من دفع أُمتهم إلى مجاراة الشعوب الأوربية قبل مضي أجيال كثيرة.

مشاكل الأُمم لا تنحل بقانون إن لم تكن جراثيم التراقي مبثوثة في الجسم كله، والنقص في الخَلق والخُلق لا يُجبر في سنين.

مَثَّلْنَا لِمَا قرَّرنا بأمثلة مدركة قريبة منا، ولا يعدم الناظر في التاريخ العام عشرات من الأمثلة من هذا القبيل، يستأنس بها في حكمة الثورات وقيام الجماعات.

القول في صحافتنا

كان فن الصحافة أو نشر صحف الأخبار في جملة ما أخذناه في القرن الماضي عن الغرب، ولما كانت الثقافة العامة يومئذ ناقصة، والأمية غالبة والجهل مطبقًا، جاءت الصحافة عندنا فقيرة ضعيفة. ولم تنشأ للعرب صحافة بالمعنى الذي تدل عليه في أوربا وأميركا إلا في مصر على عهدها الأخير، ثم في الشام. وسار العراق مؤخرًا على قدم هذين القطرين، فكانت له صحافة كالصحافة الشامية ودون الصحافة المصرية. ولم تقم في جزيرة العرب صحافة، ولو ضعيفة، لأنها تكاد لم تخرج إلى اليوم عن البداوة، ويقل جدًّا المثقف من أبنائها ثقافة عصرية. والصحافة في شمالي إفريقية لا تُعد راقية للضغط على الأفكار والاستبداد بالحرية.

أتت الصحافة بفوائد جُلَّى عرف بها مَنْ كُتب لها الرواج بينهم معانيَ المدنية، وأطلعتْهم على أحوال الأُمم ونهوضها، والدول وسياستها. وحملت إليهم مجملات من العلوم والآداب كان يتعذر الوصول إليها على غير أرباب الأخصاء من العلماء. فالصحافة كانت مدرسة سيارة جمعت فأوعت، أنارت الأفكار وجعلت من قرائها طبقات راقية يصح عَدُّها في الأُمم المتمدنة، وأخرجتهم عن عزلتهم فعرفت بها كل أمة ما عند الأخرى.

صحافة كل أمة مرآتُها، يتجلى فيها علمها وجهلها، ومليحها وقبيحها، وقوتها وضعفها. فإذا كانت فقيرة بمادياتها أو معنوياتها أو بكليهما معًا وجدت الحكومات والأحزاب والشركات سبيلًا إلى إفسادها، تعطيها قليلًا لتفسدها كثيرًا، فيضيع الغرض الأسمى منها.

ومن البلاء أن يعتقد العاجزون عن تحصيل رزقهم أن الصحافة مورد عيش هنيء يبرِّز فيه حتى من ليست له أهلية سابقة، ومن لا يحسن قراءة جريدة كيف له أن ينشئها

ومن فقد أبسط الدعائم لقيام الأعمال أَنَّى يتأتى له النجاح في عمل عظيم يتوقف على معرفة ومِرَان ومالٍ وتنظيم.

وتساهلت الحكومات بمنح امتيازات الصحف لبعض الطفيليين على هذه الصناعة الشريفة، ولو عرفت سوء عاقبة ما ارتكبت لساقتهم إلى الفحص أولًا كما يفحص الأطباء. ذلك لأن الضرر الذي يُحدثه الصحافي الجاهل في العقول ليس أقل مما ينجم عن يد الطبيب الدجال في الأجسام. وكم من صحافي طماع أو جهول جَرَّعَ قُرَّاءَهُ السم الزعاف ولو علم لأتاهم بالترياق النافع، وكم من صحف ورَّطت بأُمتها في حرب كان منها تراجع أمرها، وخلقت لها مشاكل سياسية أعيا الحذاقَ حَلُّها.

ولذلك وجب على الصحافي أن يكون على علم كثير وخبرة واسعة، وأقل ما يتحلى به إتقان لغة أو لغتين من لغات العلم والسياسة، وأن يكون من طبقة تُحسن استعمال عقلها والاحتفاظ بكرامتها، وممن عانى البحث والدرس وتذوق الشرائع، وأحاط، بتاريخ أُمته واجتماعها وحياتها الاقتصادية، وثوراتها وضعفها وقوتها ونهضتها وأوضاعها وأحزابها ونقاباتها وشركاتها.

والصحيفة المفيدة هي التي تنشر كل ما يهم الاطلاع عليه، وتذكر إلى جانب أخبارها السياسية مقالاتٍ صغيرة في فنون مختلفة تعلِّم القراء وتسليهم، يلتزم فيها البساطة في الأداء؛ ليتيسر لمن لم يسعدهم الحظ بالدراسة الواسعة أن يتعلموا فيها ما يحتاجون إليه في تنمية ثرواتهم وتحسين مَلَكاتهم، وما يتزينون ببحثه في مجالسهم وفي بيوتهم إذا خَلَوْا إلى بنيهم وبناتهم وزوجاتهم، أي: تنشر ما تلذ تلاوته، وتستسيغه الأذواق وتهضمه النفوس.

وقد حاولت الصحف الكبرى في مصر الوفاء بهذا الغرض ولَمَّا تبرحْ مقصرة عن صحف الغرب الراقية؛ لأن عدد مشتركيها قليل بالقياس إلى القراء الغربيين، والجرائد الكبرى في أعظم عواصمنا لا يبلغ مجموع ما تطبع كل يوم مجموع ما تطبعه جريدة واحدة من جرائد الولايات عندهم. وجرائدنا متخلفة من حيث مظهرها الخارجي فالواجب التفنُّن فيه والعناية بإتقان الطبع والوضع والتحضير والتصوير، وتنويع أساليب العرض المغري. وأنه يراعى فيها أمر المقالات فلا يكون منها المطول الممل، ولا العسير الفهم، ويتوخى فيها السهولة والوضوح أبدًا. أما المقالات العلمية والأدبية المطولة فهي من غرض المجلات الدورية وكل ما يُنشر من أبحاث في الصحف السيارة يختار فيه الإيجاز.

بقيت الإشارة إلى مسألة المسائل في تصنيف الجرائد ونعني بها: نَزْعتها السياسية، فالأمة تُضلها جرائدها كما يضعفها تناحرُ أحزابها وتلاعب ساستها وقادتها، وانتشار شهوة المال فيمن بأيديهم موتها وحياتها. هذا في الأُمم التي تتمتع باستقلالها أما في الشعوب الصغيرة المقطورة وراء غيرها فجرائدها سببٌ كبير من أسباب بلائها إذا استحلت صحفها أن تتناول معونات من عدة دول، وأن تدعو لأكثر من مذهب سياسي. وهناك صحف تضلل العقول كأن تنقل الخرافات على أنها من الدين، وتنشر الخزعبلات المُضرة في قوالب فصول طريفة، تزيد ظلمة الأفكار، وقد يتعمد صاحب الصحيفة نشر السفاهات والمهاترات والهزؤ بالشخصيات ليُضحك قُرَّاءَه.

لساسة الغرب طرق في الاحتيال لاستخدام الصحف، وصاحب الجريدة الذي يعتقد أن كل ربح تأتيه به صحيفته حلال عليه، وأن له أن يخدم كل غرض حَمَلَ إليه نفعًا كأن يعلن عن المشروبات الروحية وعن بيوت الفجور والخلاعة، ثم هو يزعم أنه حر أن يساوم على نشر ما ينشر إذا لم يؤاخذْه القانون بما يعمل، وقد رأينا موضوعات أباحها القانون فكان فيها بعض المضار. وعلى الصحافي أن يدرك أنه إذا ملك العين من صحيفته فلا يملك روحها وسياستها، وكيف بصاحب جريدة يبيع شرفه أن يتولى تهذيب أُمة ويرشدها إلى طريق سعادتها؟

من أجل هذا كان من الظلم أن تُوكَل سياسة صحيفة إلى شخص واحد، وأن تسير الجريدة على غير منهاج مقرَّر، والأَوْلَى توسيد أمرها لجماعة، وهذا أشرف لمكانتها وأَبْعَدُ عن مزالق التضليل، تصدر برأي ناشريها ومراقبة أمنائها. وعمل الجماعة المنبعث عن مناقشة واستشارة أصحُّ في الغالب من عمل الفرد وأدعى إلى الثقة والاستمرار.

وكما أن الجريدة الواحدة لا يقوم بعد اليوم بتكريرها وإدارتها الفرد، وتحتاج حتمًا إلى أيد كثيرة وكفاءات منوَّعة، كذلك لا يصح أن تعتمد في سياستها على واحد، والفرد مهما بلغ من ثقةِ قومِهِ به مظنةُ الميل مع مصالحه الخاصة. ولا يخرج عن هذا الحكم إلا الشاذ، والشاذ لا تُبنى عليه قاعدة.

بلغ من فقر الصحف، في بعض الأقطار، أن تصدر نسقًا واحدًا بسياستها وأخبارها، ومغزاها وحجمها، وورقها وطبعها، وربما اتفقت بأوقات صدورها، كأنهم ينشرون نسخة واحدة مختلفة الطبعات والأسماء، تدار بإدارة واحدة وتحررها يدٌ واحدة. وجرائدُ كهذه متشاكلة فيما ترويه من أخبار وأفكار تَقِلُّ فائدتها ويضيع الغرض من نشرها، والقراء لا يستفيدون من جرائد رتيبةٍ في مظهرها، تنشر ما وقع لها عرضًا، أو ما

اقتبسته من جريدة تَصدر في بلد آخر، أو ما بُلِّغَتْه من ديوان رسمي ومكتب دعاية، ولا تسعى هي في جلب ما قد يكون أَعْوَدَ على مُطالعيها، وأحلى نغمة من صحف تضرب على سندان واحد وتُردِّد نغمة واحدة وتنشر أخبار القاصية وتغفل عن أنباء ديارها.

كان يذكرنا هذا الضرب من الصحف بجرائد الولايات على العهد العثماني، وكان قُصاراها أن تنشر مقررات الحكومة المحلية وأنباءها وإعلاناتها الرسمية، وغايتها التسبيح بحمد العاهل الأكبر وطغمته، والابتهال إلى رب السماوات أن يحفظه ورجال دولته، وليس فيها شيء من الفكر ولا ما يُرجى منه نفعٌ في رَفْع مستوى التهذيب، تقرؤها فتقرأ حروفًا وجُمَلًا وسطورًا، فإذا عَصَرْتَها كانت عصارتُها بلا زبدة. ولكن العهود تختلف، وأُمة يقال لها: مستقلة، تحتاج إلى لون من الصحف ما كانت تحتاج مثله أيام كانت تابعة لغيرها.

لو كنا نعرف كيف يجتمع أرباب البصيرة فيؤلفون شركاتهم، ويربحون باجتماعهم ما يتعذر على الفرد أن يقوم ببعضه لصحَّت نيتنا على توحيد هذه الصحف أو أكثرها وإصدار جريدة أو جريدتين متقنة في كل صورها والربح من مثل هذه الصحيفة أضعاف ربح الصحف الفقيرة، وعلى تلك النسبة تعظم تأثيراتها السياسية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية.

مضى على الصحافة العربية نحو جيلين، كانا لها دور حضانة ودرس، وها قد وصلت الآن إلى دور الفتوة، تعلمتْ في مدرسة قاستْ فيها الأَمرَّين من المحن التي أتت عليها في فترات صعبة على الأقلام، وكانت الحروب والثورات، وتحكمات جهلاء المراقبين أَقَلَّ ما عاشت في مصائبه ومصاعبه. أما وقد أصبحت تتمتع بحرياتها بعض الشيء فواجب رجالها أن ينعموا بنعمة هذه الحرية، ولا ينسوا ما مرَّ بأهل صناعتهم من خطوب، وعليهم أن يعملوا لأُمتهم بما توحيه إليهم ضمائرهم لا بما تمليه عليهم أهواء غيرهم يعملون بسائق من أنفسهم لا بما يريدهم على اتِّباعه أبالسةُ العمال، ولصوص المال.

الصحافي قاضٍ يتجدد على الأيام ما يُعرض عليه من القضايا، وتقتضيه أحكامه ذوقًا سليمًا، ونقدًا عادلًا، وأدبًا غضًّا، وقضاياه أبدًا معجلة لا مؤجلة، تنظر في أحكامه محكمة الرأي العام. الصحافي حامي أُمته ومحاميها، وسيدها وخادمها، ومعلمها وتلميذها، وهو صاحب دعوة تَفْسدُ بأقلَّ هوًى يَتبعه، ومربي عقول ونفوس، ومنشئُ أُمة وعمران، وليس هو بالتاجر العادي إذا ربحت عروض تجارته فقد بلغ سؤله.

الصحافي معلِّم لا انتهاء لمهمته إلا بانتهاء عمره، ومهمتُهُ تتلوَّن كل ساعة بلون، ويطلب من صاحبها أبدًا أن يطلع على قرائه كل يوم بجديد. هو يجمع إلى عمل القاضي عملَ الباحث، وإلى صنعة الفَنَّان صنعةَ النقاد، وإلى صفة الأديب صفةَ الاقتصادي، وإلى مرح الأدباء حكمةَ الحكماء، ويحتاج إلى بديهة وإلى رَوِيَّة وإلى سرعة وإلى أناة. يراقب كل صاحب سلطة، ويدافع عن كل مظلوم، وينفذ إلى أحشاء كل أمر. هو صديق الحكومات وعدوهم، وخطيب القوم ولسانهم، ومؤرخهم ومؤدبهم، يلقِّن ذوقًا، ويلقح عقلًا، ويدعو إلى واجب، يردد ما يرضي وما يغضب، لا يكتم حقًّا ولا ينشر إلا عرفًا، يزيد مريدوه مع الزمن، ويستجيب له أهل كل نحلة، وأرباب كل أدب، وأصحاب كل طريقة، ويتوقف إرضاؤهم كلهم على أن يصدقهم لا يكذبهم، ويعلمهم ولا يضلهم.

قال بعض المدركين من الإفرنج: ليس الصحافي كاتبًا من الكتاب بل هو كاتب محمول، بحكم صناعته، على أن يكتب على طريقة خاصة، وأن ينظر إلى الأمور بضرب معين من النظر، وأن يعبر عن ذلك بلسان مخصوص؛ فهو لا يدرس المسائل في ذاتها ولذاتها، ويهمه منها ما يحببها إلى القلوب يتوخى بها فائدة القارئ لا ما تحمل من فائدة وندارة، وليس الصحافي مؤرخًا ولا فيلسوفًا. وإذا كان هكذا في مكتبه فيكاد لا يذكر ذلك وهو في حجرة تحرير جريدته. وقد يكون الصحافي عالمًا ولا يكتب مقالاته كتابة العالم. فالعالم مأخوذ، قبل كل شيء، بحقيقة ما ينظر فيه، فهو يبحث ويتردد، ويتلمس ويتحسس، ويتقدم بخطًى قصيرة ويرجع أحيانًا قبل أن يصل إلى النتائج، وكثيرًا ما يشك ولا يستخرج. وواجب الصحافي أن يستنتج أبدًا ولا يحق له أن يشتبه ويتردد، وعليه في حالة عدم معرفته أن يُظهر أنه عارف، وهو يحب أن يكون على ثقة فيما يقول؛ حتى ينال ثقة الناس ولا يعنيه ما يخوض فيه من الأمور بل هَمُّهُ الجمهورُ وما يعرضه عليه ويزينه في نظره.

وسواءٌ كان الصحافي ناقلًا أو معلمًا فهو خطيب على الأيام يُعنى بإرضاء سامعيه ويكلمهم باللسان الذي يريدون، لسان أوهامهم وشهواتهم، وهو إلى ذلك يحاول إصلاحهم وتنبيههم ويعرض عليهم الحقيقة والإصلاح في صورة مقبولة. وليس الصحافي أُستاذًا، فقصارى ما يطلب التلاميذ من الأستاذ بسط الحقائق وتطبيق ما يقول على ما يستسيغونه لا على ما يوافق أوهامهم. وشأن الصحافي على العكس من ذلك؛ لأن سلطانه على قُرَّائه متوقف على حسن التفاتهم إليه، فهم لا يعتقدون ما يقول، ولا يُولُونه ثقتهم،

ولا ينتهون بالتسليم له في كل ما يلقي عليهم إلا إذا وُفِّق إلى جلب رضاهم، فهم كالذين يستمعون إلى خطيب بمحض اختيارهم وينصرفون عنه إذا لم يعجبهم ما يلقِي عليهم.

فعلى الصحافي أن يمسك سامعيه ويقيدهم بسلاسل مذهبة ببيانه وبلاغته، وهذا من البلاء في هذه الخدمة، فالبلاء في أن الواجب الاكتفاء بمراعاة الأميال والأهواء وعدم الاصطدام بالأوهام وأن يحس صاحب الصحيفة على الدوام أنه تحت سلطان الجمهور وتأثيرات أهوائه، والعظمة فيه أن يقتدر مع هذا على الاسترسال مع شهوات القراء وعلى كبح جماحهم، متظاهرًا بأنه يراعي الأوهام ويمشي مع الرغائب وهو يتصدى لحلها، وفي وسعه أن يحمل إلى النفوس شعاعًا من الحق وشعلة من العقل وأن يقلِّب القلوب في منازع كريمة، ويزرع في الأفكار بذورًا من العقل والمنطق. فصفات الصحافي الفطرية هي صفات الخطيب وشأنهما واحد، فهو خطيب يصل بقلمه إلى مسامع الجمهور يطبع ما يقول بأَسْوَدَ على أبيض لا بنغمة الكلمات ورجرجة الصوت وتنوُّع الأوضاع والحركات.

الصحافي خطيب مضطر أبدًا إلى الارتجال، وأن يكون على استعداد للخوض في كل شيء، وذِكْر كل شخص في أي ظرف وأي موضوع، وليس له من وقته ما يساعده على الاعتماد على الوثائق، وهو يكاد لا يستطيع معاودة قراءة ما كتب ومع هذا يكتب ويبقي ما تخطه يداه، وللقارئ أن يعاود قراءة ما خَطَّه قلمُ الصحافي وأن يتفحصه ويتدبره. ويمكن، كل حين، الرجوع إلى ما كتب والبحث عنه في المجاميع، وعلى الصحافي أن يكتب ويسلم من نقد قرائه ومن تحامُل خصومه ومنافسيه، وأن يتجنب المتناقضات الظاهرة بين ما كتبه أمس وما سيكتبه غدًا ويكتبه اليوم، ولا يتنبأ بما يكون لمقالاته من تأثير.

وعليه أن يكون واسع النظر، صحيح الذاكرة، جَمَّ المعلومات، خصبًا في آرائه، حَذِرًا في تنبؤاته، سريعًا في عمله. هذه هي الصفات التي يجب أن يتحلى الصحافي بها أو بأكثرها، فإذا أضاف إليها صفات التفكير والتفنن في التعبير والتصوير جاء منه الصحافي المطلوب الموهوب، والمفروض فيه ألا يستخدم هذه الصناعة التي يتصف بها في طريق الظلم والتضليل بل في سبيل العدل والحق. ا.هـ.

وفي كتاب الصحافة اليوم Le Journalisme d’aujourd’hui أن نقابة الصحافة الوطنية وضعت قاعدة للصحافي، إذا أحب أن يستحق هذا الاسم، وهو: أن يأخذ على نفسه تَبِعَةَ كل ما يكتب حتى ولو كان بدون توقيع، وأن يوقن أن النميمة والتشهير والاتهامات الكاذبة من أعظم غلطات المهنة، وعليه أن يعمل بما يلتئم مع شرف صناعته، ولا يرضى أن يستخدم لقبًا من الألقاب، ولا صفة من الصفات الموهومة، بغية الوصول

إلى التقاط خبر ولا يقبض مالًا من خدمة عامة أو مشروع خاص، يستغل بذلك صناعته الصحافية وينتفع بنفوذه وعلاقاته، ولا يوقع باسمه مقالات هي محض إعلان تجاري أو مالي، ولا ينتحل كلام غيره وينسبه إليه ولا يتطلب عملًا كان يتولاه بعض رصفائه، فيطلب تسريحه ليخلفه في عمله بشروطٍ أَقَلَّ من شروط صاحبه، ويحافظ على سر المهنة ولا يسيء استعمال حرية الصحافة مقابل منفعة خاصة.

الصحافة من أعظم أدوات التمدن الحديث، إذا صلحت، كانت لنا من أعظم المعونات على الأخذ بمقدارٍ أَوْفَى من هذه الحضارة، تَطِيب بها الحياة، ويحلو بها العيش.

والصحافي الحق من كان على مثل أخلاق صديقي الأستاذ أمين الرافعي صاحب جريدة الأخبار المصرية، عليه الرحمة. خَدَمَ الصحافة وخدم مصر والإسلام بقلمه وعبقريته وروحه، وما تناول معونة من أحد ولا من حكومة. أرسل إليه يحيى إبراهيم باشا رئيس الحكومة المصرية — وقد رأى تأخر حالته المالية — حوالة بعشرة آلاف جنيه، مع كتاب يقول له ما خلاصته: أرسلت إليك مبلغًا تستعين به على ما أنت بسبيله وهو من أصل ما لك في ذمة الحكومة من دين بما أسلفت لها من خدمة صادقة فنقدت إدارتها وسياستها نقدًا خالصًا، وهذا المبلغ يرسله يحيى إبراهيم القاضي، لا يحيى إبراهيم رئيس الوزراء، وأنه يرجوه قبولَه، على أن يظل على ما كان عليه من نقد الحكومة لتستفيد من آرائه … إلخ. فما كان من صاحب الأخبار إلا أن رد المبلغ معتذرًا بأنه ما أخذ حياتَه شيئًا من أحد، ولا يحب أن يعوِّد نفسه، الآن، أخذ شيء من أحد.

وجاءه مرة أحدُ كبار رجال السياسة الوطنية، وعرض عليه أن يتكفل له، مع جماعته، بوفاء ديون الجريدة، ويأتونه بمحررين يدفعون لهم مشاهراتهم، وتُطبع له الجريدة على نفقة الحزب، وتُدفع إليه كل شهر مائة جنيه، ويكون له صافي ربح الجريدة، ويكتب كما يشاء لا يتقيد بشيء. فأبى إجابة هذا المقترح أيضًا، وبعد بضعة أيام اضطرت صحيفته إلى التوقُّف لأسباب مالية قاهرة مفضلًا صاحبها تعطيلها بيده على صدورها بمال غيره، قالت إحدى كبريات الصحف الإنجليزية يوم نَعَتْهُ لقرائها: قضى رجل قلائلُ في رجال العالم مَنْ رُزِقوا أخلاقًا كأخلاقه، أما في مصر فلا. وسيرة هذا الصحافي العظيم يجب أن تكون نُصب عين كل صحافي.

القول في الكذابين والمنافقين

ما خلا زمان من أُناس من الديانين والدنياويين، يجوِّزون التفلسفَ فيما لا يلائم هواهم، ويخترعون لأنفسهم من أنفسهم تعاليم، لا يرون حرجًا في مخالفة الشرع، ويتحذلقون في إيجاد المخارج لارتكاب محظوراتٍ لا تبيحها الضرورات، ويتحللون من كل أيمان وعهد، كأنه لا يضيرهم أن يؤمنوا ببعض الكتاب ويكفروا ببعض، وكأن التوبة تمحو الذنوب ولو نُقضت مائة مرة.

من هذه المحظورات: داء الكذب القتال، وقد أجمعت الأديان السماوية والقوانين المدنية على تهجينه، تأصل في أصل هذا الجيل تأصلًا غريبًا، وفشا فشوًّا منكرًا خِيف منه على كل نظام، ونزلت به الأخلاق وانحلَّتْ عرى المروءة. ومن المؤلم للنفس أن نتكلَّف هنا الكلام في أمر هو من البديهيات عند العارفين، وكان الواجب أن يراعيه كل شريف من نفسه، وبدافع من تهذيبه وتربيته.

حدثني صديق من علماء التربية في مصر أن أحد مُدَرِّسي الأخلاق في سويسرا حاول أن يشرح، ذات يوم، لطلبته أضرارَ الكذب وفوائد الصدق، فعجبوا من هذه المحاولة، وعَدُّوا كلامه من النوع المفروغ منه؛ لأن القضية مسلَّم بها وليس في التعرض لها إلا شَغل الوقت بالعبث من القول، وكانوا يسألون معلِّمهم، وهو يمضي في بيانه: ولِمَ يكذب الكذاب، وأي فائدة يرتجيها من كذبه؟ فيجيبهم بما يحضره من التعليل فيقول مثلًا: إن الذي يَسُوقه إلى ارتكاب هذه الرذيلة إما سلبُ مَالِ مَنْ كذب عليه، أو إضاعةُ حق له، أو تضليل عقله في أمر يريده، أو غير ذلك، فيقول تلاميذه: ولم يأتي هذا؟ وهل في الخَلْق مَنْ يهون عليه سلب مال أخيه الإنسان، أو ارتكابُ ما يعبث بالمروءة ويضيع الحق على صاحبه؟ قال: وانتهت حصة الدرس وما استطاع الأستاذ أن يشرح للأولاد ما أراد.

برهان جليٌّ على أن قانون التربية نافذ الحكم في السويسريين؛ وأن أثرها ظاهر مما تشبعت به نفوس أولادهم. ومنافع القانون تقدَّر بقَدر ما ينفذ من أحكامه، والأُمم التي تقل قوانينها وتطبق منها ما يمكن تطبيقه هي أقرب إلى السلامة من أُمم تكثر قوانينها وتكتفي بحفظها في أدراج وصحف، تقرؤها للتبرُّك وتذكرها للتفاخر!

ولو كان لنا أمهات يعرفن معنى التربية ولا يُلقِّنَّ أطفالهنَّ الكذب لصدِّهم، بزعمهن، عن مطالبهم وردعهم عما لا يردن صدوره منهم، لنشأت ناشئتنا على غير ما تنشأ عليه اليوم، ولَمَا بدءوا يكذبون على من يكذب عليهم في ساعات مبكرة من الحياة، ولو أَمن الأَبناء أن يعاملوا بالصدق ما جسروا — وهم على الفطرة — أن يردوا الكذب بكذب مثله، ولما قويت فيهم هذه الملكة الخبيثة حتى لا تعود منكرة عندهم، وهي التي ما كانت منكرة عند أمهم وأبيهم ومَنْ رَبَّاهم، ولطالما سمع الأطفال أُمَّهُم تكذب على من حولها، وتفخر بما فعلت إذا جاز كذبها عليهم، وكذلك حال أبيهم، وعامة مَنْ فتحوا أعينهم عليه من أُسْرتهم. ومن لَقَّنَ ابنه الصدق من يوم أن وعى، ونشأ وهو يراه متأصلًا في رفاقه في المدرسة أيضًا جاء منه رجلُ صدق على مثال أولاد السويسريين الذين لم تدخل معاني الكذب ومراميه في أذهانهم.

الكذَّاب، مهما كان لونه، منخوب الفؤاد، كافر بالشرائع، هازئ بكل وازع، وسواء كان الكذب عن عبث ودعابة، أو عن جد وحقيقة، فهو بالغ الضرر، وأضرُّ أنواعه الكذب الذي يؤذي الفرد والجماعة، ويُتناقل وتبنى عليه أحكام.

ولقد مُلئت الكتب بالحث على الصدق والابتعاد عن نقيضه، وما جعل الباحثون حدًّا بين الصدق والكذب عمدًا كان أو خطأً. وقيل: إن بعضهم جَوَّزوا الكذب في حالات مخصوصة مثل الكذب للنجاة من القتل، أو لإصلاح ذات البين، أو لاتقاء أُمة خطر عدوها. وهذا كما جَوَّزوا أكل الميتة إذا بَرَّح الجوع بإنسان فكاد يهلك. وقالوا: «إن في المعاريض مندوحة عن الكذب.» وتساهلوا مع السياسيين، فرَخَّصوا لهم الكذب في حالات معينة، وعلى هذا بَنَوْا قولهم: «اكذب واكذب واكذب؛ فلا بد أن يترك كذبك أثرًا في النفوس.»

يقول الجاحظ: الكذب جماع كل شر، وقد قالوا: لم يكذب أحد قط إلا لصغر قدر نفسه عنده. ويقول الراغب في الذريعة: إن الصدق أحدُ أركان بقاء العالم حتى لو تُوُهِّمَ ارتفاعه لما صحَّ نظامه وبقاؤه، وهو أصل المحمودات وركن النبوات ونتيجة التقوى، ولولاه لبطلت أحكام الشرائع، ولهذا قال الله — عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله

وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، قال: والاختصاص بالكذب انسلاخ من الإنسانية، وخصوصية الإنسان المنطق، فمن عرف بالكذب لم يُعتمد نطقه، ومن لم يعتمد نطقه لم ينفع، وإذا لم ينفع نطقه صار هو والبهيمة سواء، بل يكون شرًّا من البهيمة فإن البهيمة إذا لم تنفع بلسانها لم تضر؛ والكاذب يضر ولا ينفع. وقد ورد في التنزيل العزيز لَعْن الكاذبين كما ورد لعن الكافرين والظالمين ومَنْ نقضوا الميثاق. ولم يجوِّز رسول الله الكذب في جد ولا هزل، وقال الحكماء: ليس لكذاب مروءة، ومن عُرِفَ بالكذب لم يجز صدقه، وأبدع ابن المقفع في قوله: رأس الذنوب الكذب وهو يؤسسها وهو يتفقدها ويثبِّتها ويتلوَّن ثلاثة ألوان بالأُمنية والجحود والجدل، يبدأ صاحبه بالأُمنية الكاذبة فيما يزين له من السوآت فيشجعه عليها بأن ذلك سيخفى، فإذا ظهر عليه قابله بالجحود والمكابرة، فإن أَعياه ذلك ختم بالجدل، فخاصم عن الباطل ووضع له الحجج والتمس به التثبُّت، وكابر الحق حتى يكون مسارعًا للضلالة ومكابرًا بالفواحش.

رأينا أُناسًا كانوا في ظاهرهم على تعقُّل وأدب ينصحون لمن عصمهم الله من الكذب أن يكذبوا حتى يُرضوا رؤساءهم ومرءوسيهم، ويفوزوا برضا العامة، ويتيسر لهم الوصول إلى الغنى والترقي، قال لي أحدهم، وأنا في وزارة المعارف، وحملة منكرة مدبرة عليَّ في الصحف، أوقد نارها عليَّ رجل طالبتُه أن يقدم حسابًا عن دائرته العظيمة: إن هذا الرجل يَدُسُّ عليك، ويكذب عند أصحاب السلطة العليا، فدُسَّ عليه كما يدس عليك، واكذب عليه كما يكذب عليك، فإنه لا سبيل لك إلى الخلاص منه إلا إذا قاتلتَه بسلاحه، فكان من الجواب: إني لم أهذب نفسي أعوامًا طويلة حتى أنتهي باستعمال الدس والكذب، أما هذا الكاذب فأنا أُقاضيه إلى القانون، وأستعمل علنًا ما لي من سلطان لأخذ الحق منه، فإذا نجحت فبها ونعمت، وإن لم أنجح يقيم لي الأعذار من يطالبونني ضمنًا بحفظ أموالهم، ورعاية حقوقهم.

وقال لي أحد معارفي أيضًا في تلك الحقبة: لقد اتخذت خطة في معاملة من يراجعونك ما أراها تعود عليك بحسن القالة. إنك تصرح في الساعة الأولى بالحق الذي تعرفه، وصاحب الحاجة أرعن لا تنبسط نفسه إلى كلامك، وأحلى على قلبه أن تراوغه وتطاوله، أفما كان الأَولى لمصلحتك أن تكذب عليه، ولا تقطع رجاءه، وتتركه في حالة بين الشك واليقين، يروح ويغدو مراجعًا متوسلًا، وبذلك تراعي أمر السياسة أيضًا، ولا تنفر منك المراجعين؟ كأن شغل أرباب المصالح بالمحال أيامًا بل شهورًا، وإضاعة أوقاتهم ووقت صاحب الشأن، ليس من الأمور ذات البال، وحقيقة إني ما كنت أشهد

ممن أصدقهم إلا تجهمًا، وقَلَّ فيهم مَنْ أدركوا قصدي وشكروني أن صدقتهم وما أتعبتهم، بيد أني كثيرًا ما سمعت تحاملًا على مَنْ أَلِفَ تسويف المراجعين بالطرائق المألوفة، وخصوصًا يوم يغادر صاحب المنصب مقعده، وأَقَلُّ ما يطلقونه من القول على من يعاملهم بهذه الصورة: قبحه الله إنه أشبعنا من كذبه مدة، وهو في باطنه يضحك منا، ويعرف أن ما طلبناه متعذر التحقيق، فمن ربح يا ترى؟ الذي صدق أم الذي كذب؟ إصلاح الأخلاق المعوجة من أصعب الأمور، فعلى من يحاول نزع خلق سخيف ألا يهتم لرضا الناس كثيرًا، فرضا الناس غاية لا تدرك.

العالم منذ الأزل لا يخلو من سُذَّج سهل إغراؤهم، ويكثر في كل قبيل من قد تَغُرُّهم الظواهر، وتنطلي عليهم حيل المبطلين، حتى في الطبقة التي تعلو عقول أهلها عن عقول جيلهم. كل شيء عرضة للكذب فيه، والكذب أشكال وضروب، وأفظع أنواعه ما دُوِّن في الكتب وسجل في الدواوين، تعرفون هذا إذا قرأتم كتابًا كُتِبَ في خيالات الخياليين وأكاذيبهم، وشطحات المتصوفين وسخافاتهم، تعجبون كل العجب من عرض هذه الترهات في ورق لتبقى على الأيام، وتعجبون كيف تجد هذه الأفكار من يقرؤها ويؤمن بما فيها من كذب لَفَّقَهُ الضالون ليُتلى في زمن وُضع فيه كل شيء من أمور الدنيا والآخرة على محك النقد، ونظر إليه بقانون العقل والمنطق. وإذا طالعتم مع هذا كتابًا أملاه الصدق للعلم تتبينون عقل مُصَنِّفِه ومقدار عنائه في تجهيز بنات أفكاره حتى يُبرزها في تأليف مقبول، وترون أن الأيام ما أَنصفت هذا المؤلف المخلص، وإنصافه يكون بالقضاء على آراء المؤلف الأول، حتى لا تجد لها من يعيرها التفاته، والمؤلف الحقيقي من يَصْدُق نفسه ويَصْدُق قُرَّاءه.

نعم إن الزمان يمحِّص، وقاعدة الانتخاب الطبيعي وبقاء الأنسب — كما يسميه أهل العصر — يجري حكمها، ولكن حتى يتم ذلك على ما تقضي سنة الكون يُخدع أُلوف، وتفسد عقول، وتُنفق أموال، وتذهب أوقات، وينجح الكاذبون. وإذا كهربت المطامع قومًا، فزين لهم الغرور حب المنفعة فقط، فمن الصعب أن ينفع في النفعيين علم العالم، أو ينجع في تقويم منآد المبطلين نصح الناصح، ولو استجيب لكل عالم، وأُطيع كل ناصح، لَمَا بقي في هذه الأرض جهول.

الكاذب في كذبه قد يكون ممن يدرك سوء مغبته عليه يوم يُعرف به، والكاذب كالسارق لا بد أن يقع يومًا في قبضة القضاء، السارق يسرق المال والمتاع، والكاذب يُضل العقول والجماعة. لا جرم أن من الأسرار ما تتجلى عاقبته ولو بعد حين للعاقل والجاهل،

والكذب من هذا الضرب الأثيم، ومن قيل له: كذاب، فقد وُصف بأبشع الأوصاف، وكأن المولى الذي رتب الكائنات ودبرها بأدق الأنظمة يجازي من لا يحفل هذه القوانين، فيأخذ الكاذب بكذبه؛ يعجل له العقوبة في الحياة، وأقلُّ عقوبة له: إسقاطُه من الأنظار.

تدبرت أمر كثيرين، فتراءى لي باديَ بدء من ظواهرهم أنهم على شيء من الأخلاق، وأنهم أهل لأن يتمتعوا بالصيت الحميد، ويفوزوا بمتاع الدنيا، فلما بلوتهم لم أحمدهم، ولما شاهدت مبلغهم من الصدق لم أعجب أن خانهم التوفيق، على ذكاء فيهم وحسن حيلة، إذًا فلا يستغربنَّ حال إنسان استجمع صفات النجاح، وتوفرت فيه بعض شروط الكمال، وكان كلما طلب العزَّ كمن يزحف إلى الذل برجليه ويديه، وكلما نشد الغنى اقترب من الفاقة والقلة، وما شهدنا الكذاب إلا غبيًّا في ذاته؛ لأنه يعتقد الغباوة فيمن يصرِّف فيهم بضاعته العاطلة، والغبيُّ كل الغبيِّ مَنْ يحتقر جليسه ومعامله، ويتخذ من الكذب عليهما أعظمَ أدواته وأَمضى سلاحه.

رأيت التاجر يتوسع في عمله ما يجاوز طاقته فيفلس، ويكون العامل الأول في إفلاسه كذبه على نفسه بتقدير ثروته إلى ما لا تحتمل التوسع، وكذبه على من يعامله باستجازة التدليس عليه، وشهدتُ الصانع يُدخل الغش في مصنوعاته، ويكذب في المواد التي يستعملها، وفي المواعيد التي يعدها، وفي الثمن الذي يتقاضاه، فينفضُّ عنه زُبُنه فيفلس، ويكون كذبه سبب إفلاسه. ورأيت أُناسًا من المتعالمين والمتعلمين يعمدون إلى الكذب بمقياس واسع كل حين، ويكذبون على بعض من له اتصال بهم، ولا يعتقدون أن في أعمالهم غضاضة عليهم ولا شرًّا على غيرهم.

إذا رأيتم محاميًا عَزَّ عليه استحصال قوته فابحثوا في الخفي من حاله، يثبت لكم أنه كذاب لا يصدق وأن غرامه في إملاء جيبه فقط، لا يهمه إنصاف الخصوم بقدر ما يهمه الحصول على ما يُسمُّونه أتعاب المحاماة، ومن أسهل الأُمور عليه أن يغش في القضاء والحكومة ويضلل أرباب القضايا والقضاة. وإذا شهدتم طبيبًا حاذقًا في الجملة وهو لا يكاد يشبع بالخبز القفار فاعتقدوا أن في فطرته نقصًا أو نقائص، ومنها: الإغراق في الكذب على من يراجعونه في شفاء أسقامهم، وادعاؤه أُمورًا لم يُتْقِنْها، وإيهامه أنه أهل لتشخيص كل مرض، وإدراك كل نازلة. وإذا رأيتم أن فلانًا لمع قليلًا أول ظهوره ثم مُسِخَ نورُه وكمد اسمه فأيقنوا أنه غش الناس بكذبه، فانكشف حاله وأصبح قومه لا يثقون به حتى في الشئون التي يصدق فيها الإنسان، فأفسد عليه عملُه السيئ حاضرَه ومستقبله، فجنى الحنظلَ وحُرم العسلَ.

لا يتعاظمنكم ما ترون من شقاء الشقي، فشقاؤه هو الأصل فيه، واحكموا لا تبالوا على كل عمل بَهَرَتْكُم روعتُه، ثم رأيتموه يميل إلى السقوط والخيبة، بأن أمره قد قام على شيء من الكذب والتدليس، فكان ذلك العاملَ الأعظم في انهياره. ولهذا أمثلةٌ ماثلةٌ أمام أعيننا كل ساعة، وتَقَع عليها في كل ناحية وحيٍّ ومنزلة.

ليس الكذب من خصائص أهل مذهب بعينه، وليس لنا أن نمنح إنسانًا شهادة بصدقه؛ لأن دينه سماوي مثلًا؛ فلا عبرة بالمذهب الذي يتمذهب به المرء بل بحُسْنِ سيرته وجَوْدَةِ معاملته. حدثني أحد أدبائنا، وكان قضى أعوامًا في إحدى الممالك الشرقية الكبرى، أن مما استرعى انتباهه هناك ما نقله إليه الثقاتُ من أن في مجلس تلك الأمة عشراتٌ من النواب من أهل دين واحد هو دين الدولة، لا تراهم يأتمنُ بعضُهم بعضًا على مال ولا وديعة. وأن الرجل الذي يأتمنونه كلُّهم هو من فريق ضئيل يدين بدينٍ غير سماوي، وهو وحده من بينهم عمدةُ زملائه، أوْلَوْه ثقتهم جميعًا؛ لأنه ما كذب حياتَه وما اشتهر إلا بالأمانة والصيانة.

وذكر لي بعض من عُهد إليهم إحصاء النفوس في بعض أحياء إحدى المدن الكبرى؛ ليجري على أهلها توزيع الخبز بالعدل خلال الحرب الأخيرة، أن الأرمن ما كانوا يكذبون في الإخبار عن عدد نفوسهم، وأن الإخبار الكاذب يَكثر في الأغنياء من السواد الأعظم؛ ليخدعوا من تَوَلَّوْا أمر التوزيع فيأخذوا ضعفَي ما يستحقون على الأقل. وسَمَّوْا لي بيوتًا معروفة كان عند أهلها من حبوب مزرعتهم ما يمكنهم أن يطعموا منه مائة نسمة طول السنة، ثم هم يسعون لمشاركة الفقير في خبزه، فانظروا في هذا الكذب المزري من هذه النفوس الصغيرة.

لا يُنزع ستر الكذاب إلا إذا أتى ما تَعُود مغبة الكذب فيه على الجماعة، وجزاء الكذَّاب أبدًا ألَمُهُ من إخفاقه في بعض ما يحاوله ويتطال إليه. رأيت تجارًا أُمناء صدقوا في تجارتهم فكانوا يكسبون كثيرًا وينعمون بما كسبوا، وما كانت رءوس أموالهم عظيمة وعاشوا ما عاشوا موفورة كرامتهم، يؤتمنون على الأموال ويفزع إليهم في الخلافات، وسرُّ كل ذلك أنهم كانوا يبتعدون عن الكذب لا يجوِّزونه في معاملاتهم ومبايعاتهم، ورأيت تجارًا بدءوا بتجارتهم وأموالُهُم كثيرة، وسمتهم يدل على أنهم أهل الثقة والنجاح، فما إن جالوا في معترك التجارة جولات حتى أتتهم الأيام بما لم يحتسبوا، وضربتهم التجارة ضرباتها، فخسروا ما جمعوا وما جُمع لهم، وكانوا هم السبب في إفقار أنفسهم؛ لأنهم ما صدقوا الحق ولا صدقوا أنفسهم ولا صدقوا الناس، وعَدُّوا الخديعة مهارةً، ومراعاة

الأخلاق كلامًا لا محصل له، وما خطر لهم ببال أن الأيام قد تُنصف المخدوعين من الخادعين، وأن الزمان يفضح المجرمين بما كسبت أيديهم.

إن من يحاول الامتناع عن الكذب فيما لا يأتيه بفائدة محسوسة يكون إلى التعقُّل والبصيرة، وأعقلُ منه من يمتنع منه بَتَّة. ولقد رأينا الصادق يجلِّه حتى الكاذبون، ورأينا الكذاب يحتقره أقربُ الناس إليه، بل هو في باطنه يحتقر نفسه وعرفت أُسَرًا اشتهر بعض أفرادها بالكذب والتبجُّح بمبالغات تافهة، واشتهرت بذلك بين من عرفها عن كَثَب، ولما نشأت لهم ناشئة صالحة في الجملة وعرفت سوء أثر الكذب في أهلهم حاولوا نزع هذا الخلق منهم فلَقُوا عَنَتًا؛ لأن حكم الناس عليهم كان قد نفُذ، وعرفوا أنهم كآبائهم ممن لا يتورعون من الكذب، وأن الصغير فيهم يأخذ سيئات أهله كما يأخذ حسناتهم. ولو كان المجتمع أرقى مما هو لكانت عقوبته أوجع لمثل هذه الأُسر كأن يقاطعهم الناس ويبتعدوا عنهم.

لو عمدنا إلى الصدق، نجعله شعارَنا الباطن والظاهر في عامة أحوالنا، لوَفَّرنا على أنفسنا وعلى مَنْ يحتفون بنا وعلى القائمين بالأمر فينا أوقاتًا وأموالًا ولغوًا وباطلًا، ولَعِشْنَا وأبناؤنا سعداء لا نقلق ولا نُرَوَّع، ممتعين بما نجني، مباركًا لنا فيما نأخذ ونعطي، ولعشنا في ظل الشرف، وتذوقنا معنى الإنسانية، ونَعِمنا بالقناعة وعَمَّنَا الرضا.

روى الثقة أن أحد كبار الفقهاء بينا كان يحيك في مصنعه الثياب — وكان كثير من علماء الدين يحترفون ويعيشون من كدهم — هجم عليه شاب مستجيرًا به من الشرطيين، فأشار إليه أن ينزل إلى الحفرة التي كان يعمل فيها، وجاء رجال الأمن يطلبون الفتى فضحك الشيخ وقال لهم: ها قد خبأته لكم في الحفرة، فابتسم رجال الشرطة وانصرفوا، وخرج الشاب من مخبئه منزعجًا وقال للشيخ: ولماذا يا سيدي قلت لهم إني مختبئ في الحفرة؟ فقد قطعت نياط قلبي بقولك، فأجابه الشيخ: يا بني أنجيتك بالصدق، فأدرك الفتى سر هذا الكلام، وأصلح نفسه فيما كان يأتيه من الكبائر التي تجعل لصاحب الشخصية سبيلًا إليه، وجَانَبَ الكذبَ وتخلَّق بالصدق.

ولَكَمْ سمعنا بأشقياء سقطوا في أيدي رجال الأمن وصَدَقُوهُمْ حقيقة أمرهم، فأعانوهم على تخفيف جرمهم، ورب قاض أعجبه صِدْق جانٍ فخفف عنه. وعهدنا كذابين كذبوا على من أحبوا الحطَّ منهم، وتقوَّلوا عليهم ما لم يفعلوا، فكانت عاقبة أمرهم أن زُجُّوا في غيابات السجون، وعاشوا حتى في حال استمتاعهم بحريتهم الشخصية

عيش الذليل المَهين؛ لأنهم كذبوا عندما أُريدوا على الإقرار بالحق، وأضاعوا دمًا، وأتَوا على ثروة، وثلموا شرفًا.

في المدرسة العظمى في أُوتون من ضواحي لندن — وفيها يتعلم أبناء أرقى الأشراف من الإنكليز — يجلد رئيس المدرسة بيده في الملأ كل تلميذ كذب كذبة، وقد نتج عن هذه العقوبة المذلة أن وقع الرعب في نفوس الفتيان، وابتعدوا عن الكذب إلى حد لم يبق معه من حاجة إلى تطبيق هذه العقوبة على أحد إلا نادرًا. وحبذا لو وضعت كل مدرسة في هذا الشرق هذه القاعدة موضع العمل تجريها على من يكذب من تلاميذها.

جاء أعرابي إلى الرسول — عليه السلام — وقال له: إنه يريد أن يُسْلم إلا أن نفسه لا تصبر عن الخمر والزنا، وسأله عن مخرج له من ذلك، فقال له الرسول: «عاهدني على ألا تكذب.» فعاهده، فما استطاع هذا المسلم الجديد لمكان العهد الذي قطعه على نفسه أن يعود إلى موبقاته السالفة ونجا مما كان يضرُّ به وبغيره. وكان إسلامه نافعًا من كل وجه.

والنفاق شعبةٌ من الكذب أو هُوَ هُوَ، شاع شيوعًا فاحشًا، واستفحل فساده، وعم الطبقات العالية والتالية. ينافقون كل من يتوهمون أنه ينفعهم أو من يقع في نفوسهم أنه ينفعهم، يُصانعون ويغرقون حتى ليوهموا المصانع أنه من أفراد العالم وهو حقير في ذاته وصفاته، ويعدون هذا النفاق من دلائل الظرف ولطيف الذوق، ويقولون: إنا بنفاقنا نأتي ما لا ضرر به علينا، ونحن إذا لم يحصل لنا من المنافق خيره، فإنا بنفاقنا نأمن شره، وأعقل الناس من يجامل، ونسوا أن المجاملة غير النفاق.

من ذلك نفاق المشايخ للعامة يُقرونهم على معتقداتهم الفاسدة يرون أنواع البدع في كل مكان، ولا يفتحون أفواههم بكلمة في إنكار ما يعرفون أنه ينافي الشرع، يجارونهم في كل ما يأتون تَقِيَّةً ومتاقاة؛ ولذلك زادت الخرافات التي أُلصقت بالدين زيادات عظيمة على الأيام. وكان السبب في ذلك نفاق من نافقوا وتفاديهم من أن يسيروا بروح العصر وهدي الدين الصحيح.

ومن النفاق نفاقهم المتطفلين على مقاعد العلم والأدب يصفِّقون لكل ما ترعف به أقلامهم، وتفيض به قرائحهم، مهما كان من الرداءة، ويساعدونهم على نشره فتستقبله الصحف والمجلات بالتقريظ.

ومن أَنْكَدِ النفاق أن تخلو بالرجل فينفض إليك جملة حاله من دون أن تسأله، ويبرأ إليك من كل معتقد ديني ليقنعك أنه حرٌّ بريء من كل تخريف، ثم يظهر أمام

الأمة بأنه معتقد بكل ما ورد وما لم يرد، وبما صح وما لم يصح. أما هو فسواء كان من المؤمنين أم من الملحدين فإن إيمانه لا يستفيد منه مستفيد، وإلحاده البارد لا يضر به القريب ولا البعيد، ولكن هو النفاق وحُبُّ الظهور.

والسلطان وأصحاب السلطان من أكثر من ينافق المنافقون، يؤذونهم بنفاقهم ويَشُقُّون عليهم بأماديحهم، والسلطان ومدبروه في حاجة إلى من يذكرهم بالحقائق لا لمن يحول بينهم وبينها، وإلى مَنْ يبصرهم بالعيوب يَتَّقُونها لا لمن يطمس لهم معالم الصدق، إنهم ينافقون السِّفْلة كما ينافقون العِلْيَة، وصيغ النفاق تكاد تكون واحدة عندهم يطلقونها على الكبير والصغير سواء.

ينافقون في أحاديثهم وخُطبهم ومقالاتهم ويُقِرُّون أنهم مراءون مخادعون. ونفاقُهم الغنيَّ من غريب ضروب النفاق، يرفعون منزلته كأنه بعض الحكماء والعظماء ويعدون ما يبدر على لسانه حكمة بالغة هبطت عليهم من السماء. وقد يكون صاحبهم أُميًّا وأكبر لص في بلده وحَيِّه، استحل كل محرم حتى جمع ما جمع. رأيت تاجرًا اقتنى العقارات الكثيرة، اتجر بالورق النقدي سرًّا حتى لا يطعن فيه من يُلحقون هذه التجارة بالقمار في الحرمة، وهو رجل يصلي الصلوات الخمس مع الجماعة في المسجد الجامع، وسقط الورق المتجر به سقوطًا عظيمًا فأفلس التاجر التقيُّ، واشتد قهره على ما ضاع منه فمات كمدًا وما استطاع أن يبوح بمصيبته لأحد، وما عَتَّمَ المادحون له المعجبون بثاقب آرائه، المعولون على نقاء ذمته، أن انقلبوا من الغد يقدحون فيه، وهو ما خرج عن جهول يحسن ضبط نفسه، ومعلوماته لا تتعدَّى كتابة توقيعه، بَيْدَ أنه كان يتقن الاحتيال على ابتياع أَملاك المَضِيقين بأقلَّ من ثمنها، بأحابيل يتممها له السماسرة، وهكذا جمع ثروته.

أما نفاقُهم الأجنبيَّ الذي يكون لدولته صلة بهم، ولو ضئيلة، فدونه كل نفاق، وأنفقُ من ينافقه صنف المستوزرين والمستوظفين، وإن كان المنافق وضيعًا في قومه، وليس في درجة الآمر الناهي، يتوهمون أنهم إذا لم ينالوا عطف الأجنبي عليهم لا تسلم لهم وظائفهم، وأن في إرضائه اتقاءَ الضربة القاصمة للظهور ذات يوم، حتى لقد قال أحدهم: لو سرى إلى خيالي أن الغريب سيغادرنا بعد عشرين سنة لأخذت من الآن أفكر من أين أتقاضى راتبي، فأنا لا يهمني من هذا الوطن غيره. وهذه الحثالة من الخَلْق لا تعرف عزة النفس ولا تتصور عقولُها معاني الوطنية، وإن عُدَّت بحسب الظاهر مثقفة، ومن بيوت تسلسل فيها الحكم. ومن يبلغ به التزلُّف وهو في منصب الوزارة أن يربط بيده رباط حذاء أجنبي كبير أمام الجمهور فهو ساقط مهما كان له من منزلة.

ولبعض الموظفين خطة في النفاق ابتدعوها لا يكاد يجاريهم فيها أحد من طبقات المنافقين، ويزيد نفاقهم كبراءَهم إلى ما وراء حد التصور عندما يكونون على رأس مناصبهم، فإذا ما انتقل أحدُهُم إلى مكان بعيد أو أُخرج من الخدمة ينقلب نفاقهم نفاقًا آخر، ذلك أنهم يتناسونه، ويحتقرونه، وقد يكون من خير الرجال الذين يجب إكرامهم وهم كانوا يقبِّلون يده يوم كان في كامل سلطانه.

ومن أَسْقَطِ المنافقين مَنْ ينافق جليسه في الحضرة، ويختلق له محاسن ليست فيه وإذا تفارقا لا ينشب أن يذكر له من المساوئ أَقْبَحَهَا، وكان قبل بضع ثوان يصوغ له من الأماديح كل ما يستميل به قلبه، ولو كان مثلُ هذا على شيء من الخير لكان مع صاحبه في غيبته وحضرته نمطًا واحدًا، هذا إذا لم يكن ممن يَعرف أن الأنفع أن يذكر له عيوبه في وجهه ليحمله على الإقلاع عما يُزري به.

ومن النفاق ما يغتفره بعضهم ولا يرون فيه ضررًا، نفاقهم النساء حتى ليتراءى لهن أن ما يُسمعونهن حقيقة لا ريب فيها، فيتطلَّعْنَ إلى ما ليس لهن من الحقوق، وإذا كان من ينافقهن ممن يحسن الاستهواء بطلاقة لسانه يَتِهْنَ مغروراتٍ، فتعتقد الطاعنة في السن أنها فتاة غريرة، وتتوهم القبيحة أنها ملكة الجمال، وتتخيل الجاهلة أنها سيدة العلماء.

ومما عَمَّتْ به البلوى نفاقُ جمهرة الشعراء على الدهر يكيلون لمدوحيهم الثناء بدون وزن ولا كيل، وإذا سخطوا عليهم اختلقوا لهم من العيوب ما يكسوهم عار الأبد. ومعظم شعراء العرب — ولا سيما المحترفون — هم رؤساء عصبة النفاق بلا جدال، ويندُرُ المعتدل في ثنائه وهجائه. أفرطوا في المدح وغَلَوْا في القدح. وليس ما نقل إلينا منذ عصور الجاهلية إلا عنوان نفوس وضيعة، دَنَّسَت وجه الشعر العربي الجميل بحظوظ أنفسها. وعدت من أنفق المنافقين، وفي الصف الأول من الكذابين.

القول في المستهزئين

من عادة المستهزئين أن يستخفُّوا بصاحبهم وعدوهم، وبمن يعرفون وبمن لا يعرفون، واستخفافهم بالقرباء أكثر من استخفافهم بالبعداء، وبالأحياء أكثر من الأموات، وبالعالمين أكثر من الجاهلين، ويتناول استخفافهم كل صاحب فضيلة، ومن يقوم بما لا تحتمله حوصلتهم ولا تتصوره عقولهم. يستهزئون بالشيخ والعجوز وبمن به عاهة كفقد بعض جوارحه وحواسه، وهذا من أنذل أنواع الاستهزاء لهزئهم بمن ليس له يد في تشويه خلقته، وربما كان من الناقمين على هذا النقص الطبيعي فيه.

ولا يستحي المستهزئ أن يطلق على من يستخف به ألفاظًا جارحة يصغِّر بها من شأنه، فعل عدو لدود ضاقت به سبل الانتقام فلم ير إلا شقشقة لسانه يشفي بها ضغينته، والمستهزَأ به يكون، على الأغلب، أعلى منزلة وأوفر رزانة من المستهزئ فيتفنن هذا في وصفه بأشنع الأوصاف ليصرعه، بزعمه، صرعة لا يقوم بعدها.

السخرية كالهجاء لا تصدر على الأكثر إلا عن موتور مغرور، وقد يصرف المستهزئ وقتًا في هزئه ولا يصل منه إلى المستهزأ به إلا رشاشات قليلة، وبخاصة إذا كان هذا ممن لا يهتم لما يقال فيه، أو يعرف أن المستهزئ يزيد في عَبَثه إذا ما رأى أن قوله في المستهزأ به مما يؤلمه، والمستهزئ يظن عند نفسه أنه بلغ أُمنيته من ضرب المستهزأ به في الصميم، ويحسب أنه كلما أكثر من قذفه استحسن الناس ما صدر عنه ونال من المستهزأ به ما لا ينال منه السلاح الماضي والقذيفة المردية.

قالوا: الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم. وإن المرء ليشهد حيث انقلب اليوم أحقادًا لا تنطفئ جذوتها، وعداوات يتساجلها المتعادون بسبب وبلا سبب. ومنها ما ينتهي بإهلاك من حنق عليه الحانق، وإيذاء المستهزأ به في شرفه وصِيته وماله أقل

ما يوجهه المستهزئ إلى من يريد الحط منه، والعقلاء يمرون بما يسمعون مر الكرام باللغو، وربما حفزت الحمية بعضهم فدافعوا عن المستهزأ به وصغروا سيئاته وجسَّموا حسناته؛ نكاية بمن يتعمد الكذب على الأبرياء، وربما زادوا في إعظام شأن من وقع التحامل عليه، على نسبة اشتداد المتحامل في تحامله، والأُمة مهما كثر فيها من يميل لسماع الشر لا تعدم فريقًا يحب الحق ويرتاح للخير.

داء الاستهزاء قديمٌ في العرب فقد حدَّثنا القرآن أن من ضروب الإيذاء الذي كانت قريش تؤذي به الرسول — عليه الصلاة والسلام — في مبدأ دعوته السخرية به. وسمى المؤرخون بضعة منهم. وقد كفاه الله شرهم وخذلهم بما جَنَت أيديهم وقذفته ألسنتهم، ورأينا أهل الشام — أي: العرب الذين نزلوها في الفتح منذ القرون الأول — يستخفون برجال الدولة ويلقبون الخلفاء فمن دونهم ألقابًا يقصدون بها السخرية منهم والولع بهم.

ومن جعلوا الاستهزاء ديدنهم وأغرقوا في استعماله لا ينتهون منه إلى حد متى بدأوا به، وقد يؤدي استهزاؤهم إلى الإضرار بالمستهزأ به في ماله وجسمه لا يبالون عاقبة ما يجنون إذا كان في سخريتهم ذريعة إلى الانتقام، أو باب لضحكهم وإضحاك رفاقهم. ومثال من هذه السخرية المؤذية ما ارتكبه ضِيفان الواساني من شعراء اليتيمة، وقد غلا في وصفهم في قصيدة له، سَجَّلَ بها ما اجترحوه من سخف قبل أكثر من ألف سنة، وما زال بعض ما أتوه مألوفًا إلى اليوم في بعض البيئات الشامية، والأخلاق تُتوارث وتتناقل.

رأيت وسمعت أن من المستهزئين من يشق معطف من يهزأ به أو صدرته أو قميصه أو قفطانه أو سراويله أو طربوشه أو عمامته أو قبعته أو حذاءه أو نعله. ومنهم من يقطع له قماشه أو رياشه أو لحافه أو فراشه أو طنفسته أو ستارته أو فوطته. ومنهم من يبلغ به حب الأذى إذا وجد صاحبه مستلقيًا أو نائمًا أن يشبك أحد أطرافه بخيط أو دبوس فتتأثر بعض أعضائه عندما يتحرك وينهض، ومنهم من يطعم المستهزأ منه لقمة مغموسة بشيء يضر بصحته، أو تَغْثَى منها نفسه، أو ينشقه مادة يكثر بها سعاله وعطاسه إلى آخر حركاتهم السفيهة.

واعتاد بعض الخبثاء أن يستخفوا أيضًا بمن يعمل لمعاشه في حرفة يزعمون أنها دنيئة، وما كان في الصناعات الدنيء، وإنما الدنيء ما ثلم الشرف وعبث بالكرامة، وهم يسخرون بمن يقضون حوائجهم بأنفسهم، فينقلون طعامهم وحاجات أهلهم، ويحملون أولادهم بأيديهم، وإذا كان من يستجيز لنفسه ذلك من أهل الدولة والصولة عَظُم عيبه

في أعينهم وراحوا يستفظعون ما أتاه ويُجَرِّحونه ويثلمونه. سخافة لا تدانيها سخافة، فإن هذه الأمور مهما قال فيها ضعاف المدارك لا تقدح بمروءة من يعانيها، وهي، على العكس، توجب احترامه.

ومن أشق ضروب الاستهزاء ما تدرج إلى المعنويات وصدر عن جماعة، وكل ما يمليه الباطل من هذا القبيل يعود بالضرر الشديد على مرتكبيه، فقد رأينا من ديدن عامة أهل الحواضر الهزؤ بأهل القرى يُدِلُّون عليهم بجميل أذواقهم، وسلاسة لهجاتهم، وحسن هندامهم وأزيائهم، وظريف أَحاديثهم وسمرهم، ويتوفرون على السخرية بكل غريب، ويعجبون من كل طارئ، ثم هم يتحاشون السخرية بمن وَقَرَ في نفوسهم أنهم من الشعوب الراقية. ولا يقدِّر غُباة المدن أنهم بسخريتهم بأهل الريف يعلنون حربًا دائمة على أَجْزل أجزاء الأمة نفعًا، وأن الفلَّاح بكسر المدني قَلْبَه كل حين ليكيل له الصاع صاعين متى أمكنتْه الفرصة. يهزأ المدنيون من الفلاحين، وكان أعظم رجل في الملة قديمًا لا يستنكف من معالجة زراعته بيده، يحرثها ويبذرها ويسقيها وينقيها، ولا يعد ذلك منافيًا لوقاره ولا ذاهبًا بمكانته.

وقع اختلاف مرة بين روسيا واليابان، وكانت اليابان في أول نهضتها مغمورة غير مشهورة في الغرب، فوقف روس القياصرة من خصومهم موقف الساخر، وأخذوا يعيرون اليابانيين بقصر قاماتهم ونحول أجسامهم وضيق عيونهم، وتعدَّوا ذلك إلى الاستخفاف بعدتهم وعديدهم، وما إن نشبت الحرب بين الدولتين حتى مزق الأقزام شمل العماليق، وقضى العدد القليل المنظم على العدد الكثير المختل، وكُتبت الغلبة لمن جَدُّوا، والهزيمة لمن استهزءوا، وأبان اليابان في تلك النازلة عن عبقرية في فنون القتال البري والبحري دهش لها العالم الغربي، وأقر الغرب للشرق لأول مرة في التاريخ الحديث ببلوغه درجة راقية من التمدُّن، وشهد الأوروبيون والأميركيون للآسياويين بالشجاعة والإقدام على العظائم والرسوخ في الحضارة، وكل هذا لا يَثْبُت لدولة في نظر الغرب إلا إذا أرهفت الحد وأهرقت الدم. جَرَّ هذا البلاءَ على روسيا استهزاؤها باليابان يومئذ، وكان مما جرى عبرة لكل فرد ولكل أمة في الأرض.

قد يقول المستهزئ، فيمن يحرص على أن يقصر به: ومن هذا فلان حتى تشيد الأمة بذكره! أنا على يقين أن كل ما يُعزى إليه أو يقوله لا يَدَ له فيه، وهل بلغ من قدره أن ينظم قصيدة، أو يكتب مقالة، أو يؤلف كتابًا، أو يحبر خطابًا، أنا لا أعتقد أنه يحسن شيئًا من هذا، على أن ما ينتجه ليس بشيء؛ فإني عرفته وهو في المدرسة الابتدائية،

فكيف له أن يدعي الآن ما يدعي؟ ولا يكون المدى بين عهد المدرسة وقول المستخف أقل من عشرين عامًا، كأن عقدين من السنين لا يكفيان ليتم الذكي خلالهما تعليمه ويتقن صنعته.

وربما نفع المستهزئون من يهزئون بهم فيكون مما يختلقون مهمازٌ يدفع من استهدفوا لسخريتهم إلى التصلب في آرائهم فتحقق بالثبات أمانيُّهم، وشهدنا من صبر على مرارة الاستهزاء كيف أفلح وخاب المستهزئ، وربما أَثَّرَ تهكمُ المتهكمين ببعض ضعاف النفوس فصدهم عن مقاصدهم. وقد تفرغ هذه الفرقة الساخرة استهزاءها في قالب النصح والشفقة، أو تسوقه في معرض التخويف والتحذير، والقصد مما تتحيل له أبدًا وضع العقبات في طريق من يعز عليها مشاركتهم في مزاياهم. وكم من قريحة كُبتت بفعل المستهزئين فما انبعثت إلى الحد الذي كان مقدرًا لها.

أدركتُ عهدًا كانوا يعدون فيه الفنانين وأرباب الحرف الحرة من أرباب الصناعات الدنيئة، لا يتمالكون من إعلان سخريتهم بهم. رأيتهم يتهكمون بالموسيقار والمغني والشاعر كما يسخرون من الممثل والصحافي والمحامي، ومن لم يتقلقل بما أسمعوه من عبارات السخرية لم يمض عليه زمن طويل حتى شهد أولئك المستهزئين يقرون جهرة بشرف هذه الصناعات، ويزعمون أنه لا بأس بتعاطيها لمن آنس من نفسه استعدادًا لها. وما بهرهم في الحقيقة منها غير ما رأوا من الأرباح التي كان يجنيها أربابها.

وكنت أتساءل — وأنا أشاهد قِحَة المستهزئين بالموسيقاريين والمغنين والشاعرين، ثم من الممثلين والصحافيين والمحاميين — لم لا يهزءون يا ترى بالمزورين والمرتشين والمتجسسين، كأنهم ما وصل إلى سمعهم حديث الموسيقى والغناء والشعر، وما كان لها من رفيع المنزلة في الدول العربية الأولى، وكأنهم لم يبلغهم أن التمثيل والصحافة والمحاماة نوع جديد من الأدب والقضاء والتربية يعد أهلها من أعلياء القوم، وكأن الأديان ما حظرت التزوير والرشوة والتجسس. ولكن كتب للشرقي أن يستريح إلى هزله أكثر من جده، وللغشَشَة من أهله أن يهينوا من لا يستحق إلا الإكرام والإعظام.

لَمَّا شرع أبو خليل أحمد القباني في إقامة بنيان التمثيل العربي في دمشق، وأنشأ يضع رواياتٍ مسرحيةً من تأليفه ونظمه وتلحينه، يمثِّلها أحسن تمثيل، كان المستهزئون من حُسَّاد فضله يصفونه بأوصاف يضمنونها معنى التحقير، وما زال أرباب الغباء إلبًا عليه حتى استصدروا إرادة سلطانية بإقفال مسرحه فرحل إلى القاهرة وفيها ظهر نبوغه. وقد وقعت لأبي خليل هذا حادثةٌ تبين منزلته عند المدركين، ذلك أن أحد الأعيان

احتفل لتلاوة قصة المولد النبوي في ولاية الوالي مدحت باشا، وكان هذا الوزير العظيم من المعجبين بأدب السيد القباني، ولما حان وقت تلاوة المولد قال الوالي لصاحب الدار: قل لأبي خليل القباني — وكان في آخر صفوف المدعوِّين — أن يقرأ هو المولد، فدهش صاحب الدعوة من هذا الاقتراح، ورأى فيه افتئاتًا على الفقهاء، وقد جرت عادتهم أن يتولوا هم تلاوة هذه القصة الشريفة، يقرءونها في نسخة مطبوعة مشكولة أُلفت في عهد ضعف التأليف. ثم عاد الوالي التركي فأكد مقترحه مرة ثانية على صاحب البيت فما وسعه إلا امتثال أمره مستغربًا تقديم الممثل على الفقهاء، فارتجل أبو خليل قصة من نمط لم يألفوا مثله، أخذ يعدِّد بصوته الرخيم أثر الرسول في هداية البشر، ولم يذكر ما سبق الولادة من العجائب التي اعتادوا إيرادها؛ ذلك لأن عظمة الرسول تجلت في نبوته لا في طفولته. وكان الوالي يبكي ويشهق طوال ساعة المولد، وقد قصد باختصاص القباني بقراءة السيرة الشريفة أن يشير لمشايخ الرسم أن هذا الممثل الذي تسخرون منه لا تلحقون غباره في كثير من الصفات، وإذا عددتموه صاحب بدعة، تعصبًا وتزمتًا، فهو فرد في صناعته.

يستهزئ المستهزئون بمن يتوهمونه أهلًا للاستهزاء، في نظرهم، فإذا لم يظفروا بما يسيئه ويجعلون منه موضوعًا لهزئهم اختلقوا ما لا أثر له في غير مخيلتهم. ومن رعونة بعض المستهزئين أن السيد محمد عابدين، أكبر فقهاء القرن الماضي — وكان من أبناء التجار تفقه في الدين لا ليتولى القضاء ولا الإفتاء، ولا لينال الحُظوة من الرؤساء والأمراء، تفقه ليخدم الشريعة وينفع المسلمين بعلمه — لما بدأ يؤلف وهو دون العشرين لجأ بعض المثبطين إلى طريقتهم في الاستهزاء فكان يبسم لهزئهم، ويتجاهل ما يُبَيِّتون لدفعه عما عقد العزم على المضي فيه. وما زال يَصُمُّ أُذنه عن مهازلهم حتى اشتهرت تآليفه وفتاواه في حياته، وكتب له الخلود وللساخرين الخزي. ولو عبأ ابن عابدين بالمستهزئين لضاع على الأمة عالم عظيم نظم لها فقهها كما انقطع عن العلم عشرات من العلماء قبله بخبث المستهزئين.

ولا أزال أذكر ما كان يلقى مؤسس بنك مصر من استهزاء بعض معاصريه عندما كان يفاوضهم في إنشاء مصرف يحفظ للمصريين بعض ثروتهم، ويطلعهم على مسائل اقتصادية ومالية كانت وقفًا على الأجانب يستأثرون وحدهم بثمراتها، وكان كلما سخر منه الساخرون زاد اعتقادًا في نجاح دعوته، حتى وُفِّقَ إلى إنشاء مصرفه ورفع عن أمته عار الجهل بسياسة المال، وكل مشروع نافع استقبله المستهزئون، لأول إنشائه،

بأسلوبهم الماكر، وغض القائمون الطرف عما يقال فيهم خاب فيه المستهزئ ونجح المستهزأ به.

الاستهزاء داء من أدواء الشرق وما أكثر أدواء هذا المسكين.

القول في الهمازين اللمازين

كلما تأملت حال اللمازين في عصرنا — واللُّمزة من يَعيبك في وجهك، والهُمَزَة من يعيبك بالغيب، أذكر ما وقع لأحمد بن يوسف الكاتب وهو يقرأ الرسائل في حضرة المأمون، وقول الخليفة له — وقد مَرَّتْ قصة أصحاب الصدقات: انظر في أمرهم قد كثر ضجيجهم. فقال: قد نظرت في أمرهم وفررته، وكلهم أهل تعدٍّ وظلم، وبالباب منهم جماعة، فقال المأمون: أدخلوهم. فدخلوا فناظرهم، فاتجهت الحجة عليهم، فقال أحمد: هؤلاء ظلَّموا رسول الله كيف يرضون بعده، قال الله — عَزَّ وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾.

اللمَّازون جيل عجيب من أجيال الخلق، لا تراهم إلا متأفِّفين متبرِّمين، غاضبين على الأيام، حربًا على البشرية، كأنهم يطالبونها بطوائل لهم وثارات، ويتربصون الدوائر بمن صفا لهم الزمان، وأفلحوا بعض الشيء في تحصيل أرزاقهم وتحسين مظاهرهم، اللمازون يشاركون الممسوسين والمهووسين في كثير من الأوصاف، يُنحون عند كل سانحة على من ألقى في رَوعهم أنهم حائلون دون تقدمهم، ويتوهمون أن في إزالتهم من طريقهم فرجًا لهم ومخرجًا، يضمرون في قرارة أنفسهم أنه لا حياة لهم إلا إذا عابوا واغتابوا، وأنهم لا يصلون إلى حقهم المهضوم إلا إذا أكثروا الغمز واللمز، ويتأصل هذا العيب فيهم حتى لو أرادوا التخلي عنه ساعة ما استطاعوا، وكلما زاد إخفاقهم وسُدَّتْ في وجوههم أبواب الرزق، وحالت بينهم وبين الظهور حوائلُ، اسودتْ الدنيا في أعينهم.

اللمازون ما رضوا عن أحد ولا رضي عنهم أحد، تشهدهم في وجوم وحسرة، سُلبوا راحة النفس، ورضى القلب، ومطامعهم عظيمة حتى لو نالوا عامة أمانيهم لنشأت لهم من الغد أمانٍ أخرى، يخرجون من ضيق إلى ضيق، ويدافعون القلق بعد القلق،

وحياتهم عليهم وعلى غيرهم لا تخلو من مصيبة، يعيشون كارهين مكروهين، مُعابين عَيَّابين، يظلمون غيرهم، ويعتقدون أنهم مظلومون، يعترضون على المولى في أحكامه، وعلى السلطان في تصريف أُموره، وعلى الناس وما تواطئوا على استحسانه واستهجانه، يمارون في كل ما يسمعون ويرون، لا يُخْلُون من ثلبهم أحدًا، ويعتقدون التفوُّق على كل إنسان في كل شيء.

اللَّمَّازون تنم سَحَنات وجوههم عما تُكِنُّه أنفسهم، وتبدو لعينك نزغاتهم من حركات شفاههم، وخَلَجات أطرافهم، وهواهم أن يستكثروا من الباكين والشاكين حولهم، ويتطلبون منك أن تتألم لألمهم، وتشاركهم في نكبتهم، وتشايعهم على أفكارهم، وتعترف بفضائلهم وغَنائهم، وهم إلى هذا يوهمونك أنهم أغنياء عنك وعن غيرك.

وقاعدة «خالف تُعرف» ماثلة في الهَمَّاز اللماز المثول كله، يبدو بمظاهر غريبة أمام من يحاول إقناعه بصدق حديثه، وسواء جاز المضحك والمبكي من كلامه على أهل البصيرة أم لم يَجُزْ فهو يفرِّج عن صدره بالانتقاص من قدر مَنْ تقدمه، أو حال، بزعمه، دون تقدمه. وقاعدته التي لا يحيد عنها أن يبغض كل الناس ويتنقَّص كل الناس.

اللَّماز لا يرى لأحد مزية، ولو كان هذا، بالإجماع، أعلى منه قدرًا وأحكم أمرًا، ومن طبعه أن يلمز الأحياء والأموات ويخص الأحياء بالمقدار الوافي من لمزه؛ ذلك لأن من أصول اللمز ألا تثبت لأحد مزية، ومن خصائص المبتلى بهذا الخُلُق أن يقنع من حوله أنه منقطع القرين، وما هو إلا نقمة على كل صاحب نعمة، لا يتعمد إلا الكبراء بلمزه، على الأكثر، يشير إلى أنه من قوة الشكيمة بحيث لا يبالي بعظمة أصحاب المقامات، ويجسر عليهم لأنهم في حكم بعض أقرانه أو في درجة بعض مريديه، وما قدمهم عليه إلا سبقهم في الميلاد، فشهرتهم ابنة الأيام فقط، ولو عقل الزمن لجعل له الصدارة في كل شيء، ولقَصَرَ عليه التوفيقَ دون سائر لِدَاته ومن كان قبل لداته.

ويالله كيف تفيض بالغيظ نفس اللماز إذا تجاوزه بعض أترابه إلى منصب راقٍ، أو إلى الوقوع على رزق أجدته عليه العناية، وهو المعتقد بأن كل سعادة يجب أن تكون موقوفةً عليه دون غيره، ولا يدري أن أرباب العبقريات كثيرًا ما تَخَطَّوْا أقرانهم، وأن مقاييس السعادة قَلَّمَا تطَّرد، وأن للتوفيق أسبابًا أخطأها فتَخَطَّتْهُ إلى غيره.

ويُصاب بهذه العاهة أنصاف المتعلمين، على الأكثر، ومن أَوْرَثَتْهم شهاداتهم المدرسية شمخًا في أنوفهم، فراحوا يعتقدون أن من تعلم صفَّ جملتين، وحلَّ مسألة أو مسألتين، حقيقٌ أن يتولى لأول ظهوره أرقى المراتب، وأن يُصبح من أرباب الجاه، ويُجعل ناظورة كل مجلس، وموضع كل إجلال، ومثابة كل نوال.

رأيت من هؤلاء اللمازين من يهون عليه انتحال كل مذهب، والاندماج في كل حزب، ومنهم من بَدَّل لقبه ونحلته غير مرة، وبينا كنت تراه مع المجددين، إذا هو في جملة الحشويين، وبينا هو ملحد يجهر بإلحاده لا يبالي، إذا هو من الغد في زاوية مع أهل الطريق يتواله ويتواجد، وبينا هو يتقبل كل ما في المدنية الجديدة بقبول حسن، إذا هو رجعي ينبذها نبذ النواة. وبعض من كانوا على هذه الأخلاق اعتبطوا قبل الكهولة، وما حملوا إلى قبورهم إلا الحسرات والتأوهات، ومن طالت أعمارهم انقضت في سلسلة من الآلام.

شاهدت طوائف منهم كانوا يظنون أن ما لقفوا من معلومات، وحملوا من شهادات وإجازات، شيءٌ نادر لا يصل إليه أحد بعدهم وما وصل إليه أَحد قبلهم، وإذا سألتهم وأنتم ماذا عملتم؟ جمجموا واعتذروا بأن الزمان ما صفا لهم، ولو سالمهم لتَمَّتْ على أيديهم العجائب، أما هم فلا يرون في باب الاعتذار عن قصورهم أحسن تسلية لهم من الطعن في العاملين، وهم ما عملوا ولن يعملوا وما علموا ولن يعلموا.

رأيت لمازًا من هؤلاء المفتونين جمع إلى قلة العقل قلة الأدب، دخل عليَّ في وزارة المعارف وهو مستخدَم في بعض مدارسها، ولم أكن أعرفه من قبل، حتى إذا أخذ المقعد الأول أمامي بدأ يكلمني كلام المغيظ المحنق، ثم أخرج من جيبه مرآة يتراءى بها ومشطًا يمشط به جُمَّته، وأبرز زجاجة يدهن منها شعره المسترسل ووجهه المحفف، كأنه في غرفة نومه، أو في حانوت مزين. فأَقبح بهذه الحرية التي تذكرني بما كان يأتيه أحد الرؤساء من التهتك في عاصمة دولة أخرى، وقد كان يشرب علنًا في إحدى الحانات، ويجمع إليه بنات الهوى يداعبهن أمام الماجنين أمثاله، ولما قلت له: إن هذا لا يليق بمن كان في مثل منصبه أجاب إنها حريته يتمتع بها. فقلت له: إنه ليس حرًّا ما إن تقلد زمام الأمر والنهي، ومما يطلب منه أن يراعي شعور أُمته، وقلت له: هل رأيت أحدًا قط من كبراء الدولة التي تنزل في أرضها يفعل مثلك، أما هو الأَحزم أن تستتر في دارك إذا كان لا بد لك من هذا الاستهتار؟

أطلعني أحد أصدقائي من وزراء المعارف على إضبارة برقيات، وردت عليه من فريق من الطلبة والمعلمين، يحتجون على نقل معلِّم اقتضت المصلحة نقله إلى بلد قريب، فقرأت في هذه الاحتجاجات صورة من صور اللمازين، وأيقنت أن أدب الدرس إذا لم يقرن بأدب النفس لا ينتفع بالطالب أهله ولا وطنه ولا ينتفع هو بنفسه، فمنهم من قال: إن الرجل المنقول وقع عليه هذا الحيف؛ لأنه قاوم النازية والفاشستية، ومنهم من

قال: إنه ينطق في هذا الاحتجاج بلسان الشيوعية، يوهم الوزير أن صاحبه شيوعي، ومنهم معلم صعلوك خاطب وزيره بقوله: (أخوك، ويَا أخي) كأن الوزير بعض أقرانه! وكان معظم المحتجين من اللمازين ومن الأغبياء أنصاف المتعلمين.

وقد يَكثر اللَّمَّازون في أصحاب التعليم العالي، والمفروض فيهم أنهم علَت مداركهم عن مستوى العامة، وهم ما امتازوا عن العوام إلا بالثرثرة وإطالة اللسان، وربما كان في هؤلاء من الصفات ما يُستحب، والعامي إذا ظلَّ على فطرته أخف شرًّا من الذي أخذ تافهات العلم، وقعد مقعدًا ظن نفسه معه أنه صار، حتمًا، إلى السمو والبسوق.

يقول «سانت بوف» إن كثيرًا من أمور المجتمع والحياة والعالم الحديث يُعَلَّم في الهواء، وفي الجو الطلق، ويقوى بالاتصال الذي يحدث للمرء كل يوم مع مواطنيه، فالاعتمادُ على الفحوص المدرسية فقط للحكم على الرجال غيرُ صحيح، وهنالك إلى جانب المعرفة معرفة حسن السلوك مع الناس، فالمدارس لا تُعَلِّم الطالب ثقوب الذهن ولا توحي إليه الكياسة والذكاء.

عرفت رجلين، بلغ الأول أكبر مقامات السياسة، ووثب الثاني إلى مرتبة علمية عالية، وما شهدتهما إلا نمطًا واحدًا في الفتوة والكهولة والشيخوخة، قَضَيَا العمر الطويل وما أقرا حياتَهما لأحد بفضيلة، وما حسدا إلا صاحب فضل، يختلقان المساوئ علنًا ويغمطان الحسنات صراحة. ما سمعتُهما أَثْنَيَا على إنسان، ولا فَرِحَا بسعادة إنسان، يعترضان على كل شيء، ويسخران من كل من فاقوهما بالمطبوع والمكسوب من الصفات. ومدحهما وقدحهما عن هوًى في النفس، فهُما مثالُ التناقض في عامة أحوالهما، بلغا سن الشيخوخة وما أقصرا عن الغضب على المدركين المتميزين في بلدهما وغير بلدهما، يتحسران أبدًا؛ لأن الأعمال العظام ما وُسِّدت إليهما ليُسعدا هذه الأمة، وشأنهما شأن مستخرجي الكنوز وأصحاب الكيمياء لو صدقوا في دعواهم لكانوا أَغْنَوْا أنفسهم أولًا قبل أن يحاولوا نَفْعَ غيرهم.

لم يعمل اللُّمَزَة الأول عملًا يذكر به، وأخطأه التوفيق في كل ما حاول من مشاريع للظهور بمظهر أرباب المدارك، ورأيته يلمز أصحاب المكانة ويصانع الصعاليك ويتحبب إلى المارة في الطرق، يسلِّم على من لا يعرف، يتودد إلى الأداني والسِّفْلة، ويلمز الفضلاء والعِلْيَة، ولطالما شُوهد يستزير العامة ويزورهم في الأفراح والأتراح، يشيع جنائز من ليس له بهم صلة، ويحضر الولائم والأعراس، وهو لا يميز بين صاحب الدار ومدعويه، ولا يعرف اسمه ولا اسم أحد من أهله.

والثاني كتب أشياء في صباه، وكان يرجى منه إذا اطرد عمله أن يكون له شأن في صناعته، ولكن طغت الشهوات عليه مقرونةً إلى المبالغة في الظهور بمظهر لم يظهر به أحد معاصريه، فسكت نصف حياته الأَخير لا يكتب إلا ما فيه منفعة خسيسة، وعاهد ربه أَن يطعن في كل آن بالعرب ويمدح أعداءهم، بل يسعى لبسط سلطان هؤلاء على قومه، ولو تأملته حق التأمل لما رأيته يخرج عن طور رجل استخدم ما تم له من الأدوات في حرب أُمته، وأتعب قلبه ولسانه طوال حياته في الغض ممن جوَّدوا أعمالهم.

كنت إذا ذكرت أمام هذين اللمازين حسنة لرجل يُرجى أن يتم على يده بعض الخير يحملقان حملقة المنكر الساخط، ويُحَدِّقان النظر فيَّ كأن أتيت أمرًا إدًّا، وكان يلوح على سيماهما أنهما قد يغفران كل هفوة على أن يسمعا مثل هذه الإشادة بمن لا يستحقون مدحًا، ما كنت أنجو من سلاطتهما إلا إذا رجعت في الحال عن قولي واعتذرت عما اجترحت!

وبعد، فإن من أبشع ضروب اللَّمز ما صدر عن رجال الدين، يلمزون من لا يرضون عنهم باسم الإرشاد والهداية، والتصنعُ بادٍ عليهم لقلة علمهم وفرط بلاهتهم، ومن الرجال من يداوون جهلهم بالغمز واللمز لا تتعدى عقولهم ما ينيلهم شهواتهم، وإن محادثة الحراثين والباعة لأشهى إلى القلب من سماع هؤلاء المتعلمين، ففي هؤلاء الغرور وفي أولئك التواضع، ولشدَّ ما تأنف العقلاء من أمثالهم، حتى قال بعضهم: لأن أُزاول أحمق أحب إليَّ من أن أُزاول نصف أحمق، يعني: الأحمق المتعاقل.

وصفنا بعض النواحي من أخلاق اللمازين حتى كاد يدخل هذا الفصل في باب الأهاجي، وما هو به، وإنما مَثَّلْنَا بأمثلة مدركة ليستقر في الأذهان ما نقرر، والمثل يدعم القاعدة. وما أجمل ما قال أحد الظرفاء: «لقد عَييت باعتراض المعترضين، إذا ذكرت لرجل مساوئه في وجهه قالوا: إنها وقاحة، وإن عددتها في غيبته قالوا: هذه غيبة، وإن أوردتها بعد وفاته قالوا: ألسنا قد أُمرنا بأن نذكر محاسن موتانا، فمتى يا ترى يجوز في شرع هؤلاء المتزمتين نقد أخلاق الساقطين؟»

وبعد فاللمز مرض قتال، واللماز مجنون مصغر، وأنجع دواء في مداواته الإعراضُ عنه، والابتعاد عن سماع كلامه، والامتناع من مناقشته، فإن عشرته سجن الروح وعذاب القلب. واللماز قد يكون مصابًا بإحدى العاهات الطبيعية كفقر الدم وضعف الأعصاب أو فقد إحدى جوارحه، أو جاء من أبٍ مدمن أو من بيت تغلب البلاهة على أهله، فكان

ابنه مجموعة غضب ونقمة لا يهنؤه إلا النيل ممن كانوا أفضل منه. ورد في الأثر: «الجاهل يظلم مَنْ خالفه، ويعتدي على من هو دونه، ويتطاول على من هو فوقه، ويتكلم بغير تمييز.»

القول في الخياليين وأصحاب الشذوذ

بين اللمازين والخياليين وجه شبه كبير، إلا أنَّ ضرر الخياليين على أنفسهم أكثر من ضررهم على الجماعة، وخطبهم على كل حال أسهل من خطب اللمازين الهمازين. الخياليون غارقون أبدًا في آمالٍ وأحلام يصوِّرون المستحيل ميسورًا، ويذهبون إلى أن كل شيء ممكن، ولو عدمت جميع مقدماته ومقوماته، وأن النجاح على طرف الثمام لكل من تطالَّ إليه، والمشاكل مهما صعبت تنحلُّ متى اتجهت إليها الهمم، وأصحاب هذا الخُلُق يفرضون الفروض التي لا تصحُّ، ويأخذون بما يتخيلون، يقربون البعيد ويجسمون الصغير وهم مغامرون إلى أقصى حدود المغامرة لا ييأسون ولا يقنطون، ولا يَخْلُون من شيء من البلاهة.

كتب إليَّ أستاذي من القاهرة أنْ قد جرت مذاكرةٌ سرية في طريقة ترجمة إحدى دوائر المعارف الفرنسية، فتبين أن أمر المال سهل فإن أحد الحاضرين تعهد بذلك، وقال: إنَّ له إخوانًا لا يتوقفون في الإمداد، والمهم وجود مترجمين يتعهدون بالقيام بذلك إلى النهاية، فقلت: إن هذه المسألة تحتاج إلى تفكير وبحث شديد. وقد تشبث بهذا الأمر منذ سنين أناسٌ ظنوا أن المال يأتي بكل شيء، فتبين لهم غلطهم، وأعرضوا عن الأمر، وهو في درجة الإمكان القريب إذا كانت هناك همة ومعرفة بالطريق، وقد كان بعض الحاضرين يريد أن يجعل زمام الأمر في يد الحكومة، فطلبنا أن يكتم ذلك عنها، فإنه لا يؤمل أن تقدر عليه، فالأمر يحتاج إلى الحكمة أكثر من احتياجه إلى الحكومة. وصدق أستاذي في قوله: إن هذا الأمر يحتاج إلى الحكمة أكثر من احتياجه إلى الحكومة، فإن للحكومات مشاغل أعظم من هذا، وتأليف المَعْلَمَات أو دوائر المعارف من شأن الأفراد، والحكومات تُعاونها بالمال فقط، وإلى الآن لم ينشر مثل هذا الكتاب النافع؛ لأن مَنْ فَكَّروا فيه يومئذ كانوا من الخياليين، ومتى حان وقت الجد فهناك الصعوبة.

كان لي صاحب يحمل شهادة الطب، فقام في ذهنه ذات يوم أن ينقل إلى العربية من الفرنسية كتاب علم الحياة للفيلسوف سبنسر. تَخَيَّلَ أنه مقتدر على هذا، وهو، حياتَه، لم يترجم سطرين، ولا يحسن قراءة جملة صحيحة بالعربية فضلًا عن أن يكتبها، وجئته بعد سنين فرأيت على مكتبه أطباقًا من الورق الأبيض، وقد كتب على الطبق الأول اسم الكتاب واسم مؤلفه واسم مترجمه فقط، وإلى جانب هذه الأوراق المجلدان الضخمان من كتاب علم الحياة. وصاحبي هذا هو أيضًا من أرباب الخيال الذين يتوهمون بأنهم يحسنون كل شيء.

قصدني غير مرة بعضُ الشبان يسألونني رأيي في إنشاء جريدة يومية سياسية وأخرى علمية شهرية، وتأسيس مطبعة تَطبع الكتب والصحف والنشرات التجارية، فكانت أجوبتي إليهم تختلف باختلاف حالة المخاطَب. ومِنْ أغرب ما يُدَوَّن أن أكثر من كانوا يتخيلون نشر الصحف الكبرى لا علم عندهم ولا مال ولا خبرة، ويتوهمون أن الناس يُقبلون على جريدتهم أو مطبعتهم في أول يوم من إنشائها، ويضمنون لأنفسهم أُلوف القراء وألوف الزُّبن، وهم لا يعرفون شيئًا من هذه الصناعة الصعبة التي يحاولون أن يزجوا أنفسهم فيها، وغاية ما عرفوا أنهم قمشوا معلومات ضئيلة، ثم انصرفوا عن النظر في الكتب ساعة غادروا المدرسة وقد يكونون ممن تعذر عليهم استحصال الشهادات. والذي أَقْدَمَ من هؤلاء الخياليين ولم يستمع للنصيحة أخفق بالطبع، وفقد القليل من رأس المال الذي وضعه، وكان ربحه أن كتب اسمه في ثبت الجرائد المنقطعة. ولذلك ترى في تاريخ الصحافة العربية أن الصحف التي لم يصدر منها إلا أعداد محدودة في أيام محدودة أكثر من الصحف التي عاشت. ومن جميع الصحف التي صدرت في مصر والشام لم يبق إلا صحف قليلة، وما ذاك إلا لأن الخياليين كانوا أكثر سوادًا من العمليين، والذي ثبت يدين بثباته لعلم من تولى العمل، ثم لمعاونة الحكومات أو الأحزاب أو الجمعيات.

وهكذا الحال في معظم الشركات الصناعية والتجارية، التي قامت في أصقاعنا على غير أساس متين، سقطت بعد أن أضاعت على مؤسسيها أموالَهم وأوقاتَهم، وكان السبب الأعظم في خسائرها كثرة الخياليين من المساهمين فيها، وتسلط النظريين على العمليين، فنتج عن ذلك سرقة الأموال والإسراف في النفقات غير المثمرة.

ورأيت من هؤلاء الخياليين مَنْ لم يحجموا عن البداءة بعدة أعمال في آن واحد قائلين: إذا خسر هذا فالنجاح في ذاك محتَّم، وأَدَّتْهم قلة حسابهم إلى أن خسروا ما وظَّفُوه

من مال، انقطعوا في أول الطريق، بجرأتهم على ما لا يحسنون، وعادوا بعد الخسارة يسبون البيئة وأهل البيئة التي خلقوا فيها، ويندبون حظهم، ويقولون: إنهم لو قاموا بهذا المشروع المفيد في بلد غير بلدهم، أو في أمة غير هذه الأمة لصُبَّتْ عليهم الأموال صبًّا ولو عقلوا لأَنْحَوا باللائمة على أنفسهم أولًا؛ لأنها لم تعرِّفهم أقدارهم فأقدموا وكان الواجب عليهم أن يُحجموا.

ولقد كنت أنصح لمن يحاول القيام بمثل هذه المشاريع أن يبدأ بشيء صغير، كأن يدخل أولًا في إحدى المطابع ويتعلم تنضيد الحروف وتحريك الآلة الطابعة وصورة إدارة المطابع، وأقول لمن يريد إنشاء جريدة: أن يدخل في إحدى الجرائد المشهورة عاملًا أولًا، يدرس التحرير بأنواعه وبعد سنتين أو ثلاث تنشأ له فكرة في الصحف، فيعرف من أين يبدأ أو كيف يبدأ، وكنت أقول لمن يحاول أن يؤسس شركة صناعية أو زراعية أو تجارية أن يلقي نفسه في غمار إحدى الشركات مدة ليعرف من أين تؤكل الكتف. وكان أكثرهم يرى أقوالي مما يمس عِزَّةَ نفوسهم، وأن هذا تكليف محال ولا يليق بهم أن يتذرعوا بمثله، وأن الأمر سهل يأتون بصانع يعمل لهم مقابل قليل من المال يبذلونه له، أو أن المسألة ظاهرة من ذاتها لا تحتاج إلى كل هذا العناء.

طلب إليَّ خياليٌّ، من هؤلاء الخياليين، أن أتوسط له لدى أحد أعيان المزارعين ليعطيه مزرعة له كبيرة يزرعها له على أصول الفن الحديث، وكان صاحبي يحمل شهادة ابتدائية بالزراعة، فقلت له: إنك لم تُثبت كفاءة حتى يهون على صاحب المزرعة أن يَكِلَ أمرها إليك، فلو كنت بدأت أولًا بزراعة خمسة أفدنة فأَحْسَنْتَ تعهُّدها وزرعها وغرسها لكان من السهل الاقتراح على صديقي أن يسلم إليك شيئًا من أملاكه، أما الآن فمن المحال أن يعطيك خمسمائة فدان دفعة واحدة، وهو أَعْرَفُ بما ينبغي لها من معرفة ومال، وإدارتها كإدارة حكومة صغيرة تحتاج إلى أمور كثيرة. فزُعِجَ الخياليُّ لحديثي، وربما قال في سره: إني قليل الخير، لا أريد أن أتكلف نفع أحد. وبعد سنين قصدني هذا الزراعي أيضًا وقال لي: إن لدى وزارة المعارف وظيفة شاغرة، هي: مدير مدرسة الصنائع ويطلب إلي أن أُعيِّنه فيها، فقلت له: إنك زراعي فكيف لك أن تقوم بأمر صناعي يحتاج إلى مران طويل، وشهادات تثبت كفاءتك لتولي مثل هذا المهم، وأنت يا هذا لم تأتِ ببرهان على نجاحك في اختصاصك، فكيف لك بتَوَلِّي أمر لا تعرف مبادئه؟ فعَبَسَ وبسر.

ولقد كنت آسف لمن يستهينون النصح ويسترسلون في الخيال؛ لاعتقادي أن العاقبة لن تكون مما يَسُرُّهم، وآسف لما يصرفونه من جهد ومال ووقت، وآسف لأن إخفاق شاب

من أول أمره مدرجة إلى انقطاع أمله من الفلاح طول عمره، وسبيلٌ إلى تثبيط همم العاملين من أهل جيله. ورأيت أكثر من عُنُوا بالتجارة والصناعة والزراعة كان لثباتهم وحسن حيلتهم أعظم يد في تقدُّمهم، وعددُهم أَوْفَرُ من المتعلمين، والخيال يكثر في طبقة هؤلاء، ومن عادة الناس أن يروا من أفلحوا يشيعون أخبارًا مبالغين فيها، ولا يتكلفون البحث عن عشرات وراءهم أخفقوا، ولا عن سبب إخفاقهم.

ويُعدُّ من الخياليين من جَرُؤَ على تأليف جمعيات سياسية قالوا: إنها سرية، وأقدموا قبل أن يحين الزمن على أعمال خطيرة، وليس لديهم مال كاف يستعينون به، ولا أنصار يُركن إليهم، فجاء ما تذرعوا به مبتسرًا، وانكشف أمرهم فوقعوا في شباك أعدائهم فهلكوا وأهلكوا من معهم. ورأينا من هؤلاء الخياليين شبانًا وكهولًا كنا في باطننا نعتقد جنونهم، وكان أقل ما يَنال مَنْ يجسر على نصحهم، ويصرح لهم أن عملهم غير مضمون النتيجة أن يُرمى بضعف الوطنية وربما أُوذي وشُتم. ومن كان على شيء من التقية يمتنع من الإدلاء بشيء في هذه الأحوال. وأذكر أني قلت لأحد معارفي، أيام الثورة السورية: إن غوطة دمشق لا تصلح لحرب العصابات؛ لأنها معروفة الحدود والمعالم، فما بالُ الثوارِ يتجمعون فيها ويقتربون من أسوار القصبة، وأصحاب هذه الحرب في العادة يضربون في عدوهم ضربة ثم يفرون من وجهه إلى مكان ممتنع عليه، فقال صاحبي: وأنت ما يدريك ما هنالك؟ إن الأمر يديره أناس من أركان الحرب، فقلت: وهذا لا يمنع من أن يلتقطهم عدوهم لَقْط اليد كالعصافير، وبعد أيام قليلة طوق الجيش الثوار، وقضى على قسم عظيم منهم وكان ما كان من المصائب.

أدركتُ طائفة من الرجال كان يتراءى لي أن عقولهم تامة من جانب ناقصة بعض النقص من الآخر. ومنهم من كان به جِنَّة، وهو في ظاهره سليم العقل، صحيح الأحكام. كأن الفطرة لا تحب أن تكون سمحة بكل شيء؛ فلا تجمع الصفات الحسنة كلها في فرد، كما لو جمع الجمال في امرأة فإنها تَفْتِن العالم وتستعبده. وشهدتُ الشذوذ يكثر في المصورين والخطاطين والشعراء والمتفلسفين، وبعضهم يتكلفونه ويتزيَّدون فيه، كأن الأعمال الخرقاء من موجبات الفن ودواعي النبوغ. ومن يتطلبون الشهرة من غير طريقها، ويبالغون في خيالاتهم، هم أيضًا من أرباب الشذوذ، وما من كمال إلا كان إلى جانبه نقص.

أطلتُ النظر في منازع بعض من أُصيبوا بهذه العاهة، ومنهم صاحبان لي، كنت أُعجب بذكائهما النادر، عُرف أحدهما بالشعر والفلسفة، والآخر بالتصوير والهندسة،

واشتهر الأول في العراق، وما تعدت شهرة الثاني الشامات، كان الأول يبتده الشعر، ونشأ بفطرته يتفلسف في كل شيء، وينتقد كل شيء، وعتب على أبيه لأنه دفعه إلى مدرسة دينية، ولم يَعهد بتربيته إلى إحدى جامعات الغرب، ولو فعل لجاء منه الفيلسوف العظيم الذي كان العالم يترقب ظهوره لينقذ البشر بتعاليمه من آلامهم، وينظم لهم بعقله شئونهم. وقد ادعى، فيما أذكر، أن للإنسان رجعة إلى الدنيا بعد مائة ألف عام أو أكثر أو أقل، وربما تكون عودته بالصورة التي يختارها، وما أدري إن كان يرجع كلبًا أو خنزيرًا، أو قردًا، أو ثورًا، أو دبًّا، أو إنسانًا كاملًا، أو إنسانًا ناقصًا!

وهكذا طغت الفلسفة على قلبه، ووجد الشذوذ مرتعًا خصيبًا في لسانه وقلمه، وما كنت أهتدي إلى حقيقة دعوته، ولا إلى أين يرمي بانحرافه. ادعى أنه كان في صباه يسمى: المجنون؛ لحركاته الغريبة، وفي شبابه: الطائش؛ لخِفَّته ورعونته، وفي كهولته: الجريء؛ لمقاومته الاستبداد. وفي شيخوخته: الزنديق؛ لمجاهرته بآرائه الفلسفية. أي: أنه كان شاذًّا من أول أمره، إلى خاتمة عمره.

ولعهدي به في اليمن في الدور العثماني، يقرأُ لإرشاد الزيدية، مناقب أحد مشايخ الدجالين في جامع صنعاء. نزعة لا تلتئم مع دعوى التجدد، ولا مع دعوى الفلسفة. وقد ألَّف في الرد على بعض المذاهب الإسلامية ردًّا بعيدًا عن روح الحق، ما إخاله هو يعتقد صحته، واعتذر بأن الداعي إلى تأليفه كان سياسيًّا.

صاح صيحة عظيمة لإغفال الأُمة إصلاحَ خطئها القبيح الشكل! واخترع لها خطًّا جديدًا مقطعًا من أبشع ما رسم راسم. ودعاها إلى قبوله. وجاهر مرة بوجوب الإقلاع عن القوافي في الشعر العربي — ونسيتُ إن كان قال الأوزان أيضًا — وجَعْله مطلقًا؛ لأن القافية تقيده، وأتى من ذلك بنموذجات ركيكة سخيفة، لو كان في باطنه مقتنعًا باستحسان طريقته لجرى عليها في شعره، ولكنه ما كان يؤمِن، فيما أحسب، بما يقول، ويقصد أن يقال عنه فقط: إنه أتى بجديد.

أرسل إليَّ بضع قصائدَ لشعراء بغداديين مشهورين — ومنهم من يُعد في أرقى طبقات العلماء — ادعى أنهم نظموها بمناسبة ورود شاعر هَجَّاء على مدينة السلام، هجا شعراءها وهجوه هجوًا ليس أَسْفَه منه. وما ظننتُ أولئك الفحول، ينظمون مثل هذا الإقذاع. وطلب مني أن أنشر له هذه الأهاجي في كراسة، أو في إحدى المجلات المصرية، فتألمتُ من توسيطي بنشر هذه السخافات، وكتبت له ما معناه: أصبح المسلمون عبئًا ثقيلًا على الأرض، ويشتغل الموصوفون الآن بالعلم والآداب من رجالهم، في بلد كان ينزل

فيه أمثال بِشْرٍ المَرِيسي وأبي عثمان الجاحظ بهذه الترهات، ثم ينشرونها ليُثبتوا للعالم أنهم سخفاء.

وبعث إلى مجلة المقتبس، أيام كانت تصدر في القاهرة، عِدَّةَ قصائد في الدعوة إلى الإلحاد، والحط من الأديان، وأَوْعَزَ إليَّ أن أنشرها باسم المجلة أو باسم مستعار، فرددتها إليه ذاكرًا له: إذا كان من خطة المقتبس عدم التعرض لمسائل الدين، فليس معنى ذلك أنه يدعو إلى محاربة الدين، وأن صاحب المقتبس لا ينظم الشعر فكيف يجوز له أن يدعي ما ليس له.

عدَّ بعضُ المشتغلين بالمشرقيات من الغربيين ما صرح به صاحبُنا هذا من الآراء فلسفةً جديدة، وغلا في تقدير شاعريته. ومن عادة المتعصبين من الغربيين أن يهللوا لكل مسلم حارب إسلامه، ولكل عربي خرج على قوميته، ولكل شرقي مرق من وطنيته. يتفننون في تأويل كلام من أرادوا الإشادة به، ويُعظِّمون أقواله وأفعاله، ويُلبسونه من ثياب المديح أضفاها، وعلى هذا قضت الأمانة على مستشرق متعصب بالاقتصار على ترجمة هذا الشاعر المتفلسف في أمتع كتاب كتب على الإسلام في الغرب، ليقول لأبناء الأجيال القادمة: هذا كل ما أنبغ الشرق الأدنى في القرون الأخيرة، والعرب أو المسلمون لم ينشأ منهم في هذا العصر رجال يذكرون.

أما المهندس المصور فكان من أترابي، وعرفتُه وهو يافع، يصور كل شيء بالريشة والقلم والظفر والأصباغ والحبر والفحم والطباشير، وتبدو عليه علائمُ الذكاء البراق، وكان أبدًا يحاول التفلُّت من كل قيد، ويأتي ما ينافي العرفَ، ولعله ما كان يَخفى عليه أن العرف ينكِر عليه ما يرتكب وهو مُحتاج إلى مراعاة هذا العرف، ومن ذلك أنه بدأ شذوذه بلبس القبعة، وهو تلميذ في المدرسة، وصور نفسه بها، وكان لبس القبعة يومئذ يُعَدُّ من الكبائر، فصدرتْ إرادة السلطان بطرده من مدرسته.

أخذ طول حياته يبتدع أشياء لا يوافق العقل عليها، وثباته قليل وحركته كثيرة. وكان إذا وضع لأحدهم خريطة في أرضٍ اختلف معه، وسمع البعيدُ والقريب اختلافاتِهم، وإذا صوَّر لآخر صورة يقع الخلاف ولا تفضه إلا المحاكم أو المحكِّمون، وإذا عاشر إنسانًا لا يلبث إذا اختلف وإياه على أمر تافه أن يخترع له المثالب، وكان أيام التواصل يبتدع له المناقب. مستهترٌ في أخلاقه موغلٌ في إباحيته.

عينتُه في وظيفة ينتفع منها وينفع، وحميتُه ممن يتهمونه، بنزعة كانت النفوس يومئذ حانقة على أهلها، فاشترك مع أحد العاملين في سرقة، مع أن راتبه يزيد على

كفايته، ولما نصحت له أن يُحَسِّن سيره انقطع عن عمله مع تضرره من ترك الخدمة. وأشرت إليه أن يكف عن مشاكسة معلمة كانت من تلميذاته، وكان يقول إنها خليفته الوحيدة، ويلتمس أن يرقيها في الدرجة؛ لأن راتبها ضئيل، فلما غضب عليها استدعاها إلى المحكمة، فذكَّرتُه بما قاله فيها قبل سنة، ورجوته أن يرحم فتاة ضعيفة تنتسب إليه، ولا يليق به، وهو أستاذ كبير، أن يجعل منها خصيمة له، فغاظه كلامي وحلف بالطلاق ألا يكلمني طول حياته، ونسي طلاقَه بعد أَشْهُر، فكان عندي يلقي النوادر الطريفة، ويمثل في مجلسي الروايات البديعة، وكان يحفظ من النكات، ويستظهر من المعلومات ما لو دُوِّنَ لكان عجبًا من العجب.

وأبدعُ ما صدر عنه لوحاتُه؛ فإنها مثال الإبداع إذا صور أشخاصًا أو مناظر أو غير ذلك. وكان سريعًا في وضعها وصنعها، مُجيدًا في كل ما له اتصالٌ بذلك إجادةً شهد له بها أحذقُ الرسامين، وقد يرسم من ذاكرته رجلًا تعرف إليه من سنين ورآه مرة واحدة، فيأتي بصورته طبق الأصل كأنها نقل عن عيان الآن. وصوَّر بعض المشهورين فجاءت صورهم كأنها تنطق. وكان يصور الصور الهزلية والجدية، ويرتجل ويبتدع، ويحتذي وينتحل.

وُلد هذا النابغة في الديار الشامية من أب تركي وأُم عربية، ولطالما أكد أنه عربي النحيزة والأصل. وكان هواه تركيًّا طول حياته. وكثيرًا ما قُلت له مداعبًا — وأنا في باطني أَجِدُّ: لو سرت سيرًا متزنًا، وآمنت أنك تعمل لفنك فقط، لأغنيتك وشهرتك شهرة عالمية. وكنت حقًّا أستطيع أن أُدخله إلى بيئات عالية، تبدأُ بقصور الملوك والعظماء، وتنتهي بقاعات الفنون الجميلة ومعارض التصوير، بيد أني كنت أُحاذر أن ينقلب الخير الذي أبغيه له شرًّا عليَّ؛ ذلك لأن صديقي إن حَبَتْهُ الفطرة بأشياء فقد حرمته أشياء، كما كان شأنها مع ذاك الشاعر المتزندق. والذكاء يفقد بعض قيمته، إذا لم تكن اللوازم الأخرى معه متآزية.

القول في ثروتنا

تنتقل الثروة على الدوام بطريقة مطردة بين العاملين، ولا تدوم لصاحبها إلا إذا أحسن تنميتها بالمعقول، وأخذ منها وأدخل فيها بالأساليب الطبيعية، وفي العادة أن يطول بقاؤها في أيدي الزارع والصانع والتاجر خاصة؛ لمعرفتهم حساب دخلهم وخرجهم، ولأنهم ينفقون غالبًا بالمعروف لا يسرفون ولا يَقْتُرون، فإذا كان منهم من تطيشهم المكاسب الفاحشة، وخرجوا عن القصد والاقتصاد، أضاعوا ما جمعوا وما جُمع لهم. وهذا هو المشاهد في بعض الوارثين فإنهم قد يبددون ما ورثوا لجهلهم قيمة ما دخل إليهم، وعدم مرانهم على الكسب والجمع. ولا يشغف بالحرص على المال إلا من تعب في جَنْيه، وكلُّ ما أتى عفوًا صفوًا استُهين به، على الأكثر.

ومعلومٌ أن التجارة تحتاج إلى شيء من المغامرة، والمغامرةُ قليلة في الصغير من الزراعات والصناعات، وقد يربح مغامرٌ واحد من عشرات من المغامرين فيشتهر ويُغري غيره بانتهاج خطته. والإفلاسُ أبدًا مصير معظم من لجئوا إلى المضاربات والتجارات غير المحللة ليغتنوا بسرعة، وكذلك مَنْ تداينوا بالربا؛ لأن فائدته تربو عادة على ما تغله التجارة أو الزراعة أو الأملاك، ولذلك كان محرمًا في الشرائع؛ لما يحمل من مضارَّ ظاهرة.

أنعمت النظر في طبقات الناس الثلاث، فرأيت الغنيَّ يزيد دخله على خرجه زيادةً عظيمة، والمتوسط يتعادل معه الربح والنفقة وزيادة ريعه قليلة، والفقير لا يعرف له موازنة بين ما يجني وينفق، وضيقه أكثر من سعته. وأسعدُ الطبقاتِ الطبقةُ المتوسطة؛ لأنها لا تحتاج إلى غيرها، وليس من مواردها فضل يخرجها عن اتزانها. والمال مهما قيل في احتفاظ صاحبه به لا يتلكأ عن إنفاقه في غير وجوه صرفه يوم تتسلط الشهوات عليه، ويخدعه حب الظهور والتمجد، على أن في إسراف هذه الفئات حكمةٌ ظاهرة، وذلك أن

الغنيَّ إذا جمع كل ما يُجبى إليه تَبطل الحركة الاقتصادية، فمِن الخير أن يتوسع في بذخه فإن في إمساكه جمودًا يعود ضرره على الطبقات الأخرى.

وَهِم بعضهم أن الثروة عبارة عن الناضِّ من الذهب والفضة، وما الثروة إلا العملُ المتواصلُ المنتج. وإن بيتًا يعمل رجالُهُ ونساؤهُ وأولاده لَبَيْتٌ مكتوبٌ أهلُهُ في عداد الأغنياء، وإن لم يملك رَبُّهُ أوراقًا نقدية ودنانير ذهبية. وبيتٌ لا يعمل فيه غير صاحبه ويجمع لبنيه وَرَقًا ووَرِقًا ليس بذاك. وصعب على مستحصل واحد أن يوسع على عدة مستهلكين، والفرد ما عمل ولن يعمل عمل عشرة.

ومن جمع مالًا ووظفه في أرضين وعقارات وأسهم وسندات يعد صاحب ثروة، إلا أن ثروته يَتَحَيَّنُها الخطر كل حين أكثر مما يتهدد صاحب رأس المال المتوسط الذي ينميه بتعقل. وكثيرًا ما ضاعت ثرواتٌ اعتمد أصحابها في تنميتها على المضاربات ونحوها. وصغار اللصوص إذا قنعوا بسرقة الألوف فإن كبارهم، وهم المضاربون، وأرباب الشركات المجهولة لا يقنعهم إلا أن يلتهموا كل ما تصل إليه أيديهم الأثيمة، ومن هذا الضرب أغنياء الحروب الذين يغتنون خاصة من أقوات الناس وكسوتهم.

لو أحسنت الطبقات الثلاث الانتفاع بالثروة، ويكون الانتفاع بها بعدم حيف الكبير على الصغير، لصلحت حال العالم. فالغنيُّ إذا ارتفق ببعض ما يَفيض عن حاجته ونزل عن الفضل من ريعه يكفيه ما يبقى له يُرَفِّه به عن نفسه. وتدور على المتوسط كل حركة وتقع معظم التكاليف، وهو أدنى إلى الاضطلاع بحقوق غيره من ذلك الذي جعل غرامه بالجمع فقط، والذي وقع في نفسه أن نعمته لا تبقى إلا إذا بالغ في الإمساك ومنع الخير، ولو قُدِّر زوالُ الطبقة الوسطى لانحل أمرُ الجماعات، ومتى كثر في الأرض من يفكر في إعطاء حق الفقير، وأيقن الغنيُّ أنه هو والفقير لازمٌ وملزوم يدخل البشرُ في طور الإنسانية.

لم يُعهد أن وُزعت الثروة توزيعًا عادلًا في ديارنا. وهذه مصر، وهي أعظم الأقطار العربية انتظامًا، مثالٌ ظاهر في هذا الباب. فقد ثبت «أن ثلاثة أرباع المصريين، أي: اثني عشر مليونًا من الفلاحين والعمال وصغار الزراع يعيشون في فقر مدقع، يَفتك بهم الجوع والمرض. والثروة الزراعية في مصر موزَّعة توزيعًا عجيبًا. فبينا تجد مُلَّاك الأراضي يقرب عددهم من مليونين ونصف مليون نجد من هذا نحو مليونين لا يزيد متوسط ما يملك الواحد منهم على عشرة قراريط، في حين أن أصحاب الملكيات الكبيرة لا يزيد عددهم على اثني عشر ألفًا يبلغ متوسط ما يملكه كل منهم مائة وسبعين فدانًا

أو يزيد» وفي إحصاء آخر أنه بلغ عدد الملاك المصريين ٢٤٧٣١٣٦ مالكًا وتبلغ جملة ما يملكونه ٤٧٦٩٦٢٨ فدانًا وعدد ملاك الأجانب ٧٢٧١ مالكًا، يملكون من الأراضي ٤٠٨٦٨٣ فدانًا، وهناك ١٨١٣٩ وقفًا تبلغ الأطيان المحبوسة لها ٦٦٢٧٠٠ ويملك اثنا عشر ألف مالك أكثر من مليوني فدان.

ويشبه العراقُ في تقسيم أراضيه حالةَ مصر؛ فهو قطر الزراعات الكبير، وما يتبعها: فقر متناهٍ، وغِنًى مفرط. والخطبُ أيسر من هذا في الديار الشامية؛ ذلك لأن ستين في المائة من الأراضي يملكها صغار الفلاحين، ومن هؤلاء في بعض الأقاليم من يعيش عيشًا رغدًا أرقى من عيش الفلاح المصري حتى ولو كان ممن يعمل في أراضي الغَنِيِّ بالأجرة أو المرابعة. فالأرض في الشام مقسمة في الجملة، ولا سيما في الأقاليم القريبة من الحواضر. والثروات على كل حال لم تتضخم كما تضخمتْ في مصر، فنَعِمَ بها مئات وشقي مئات الألوف. وإذ كان الشاميون بمأمن من غزو تجار الإفرنج حفظت لهم بعض ثروتهم لا كما هو الحال في مصر.

وتمتلك الحكومات في شمالي إفريقية معظم الأراضي. وجزء منه من الأرض ملك أربابه. وقسم للأهلين حق الاستثمار فقط والعين ملك الحكومة، ومنها ما هو ملك صرف للحكومة وهبت أكثره للمستعمرين، كما فعلت الدولة المستعمرة في الجزائر، فلم تكتف بإعطاء المستعمرين ما تملك من الأرضين، بل أعطتهم ما كان ملكًا للسكان، نزعتْه منهم بحق الفتح أو حق التغلب أو المصادرة، حتى خرج جزءٌ عظيم من أيدي مالكيه ولم يرجع إليهم بعضُهُ إلا بالشراء من المستعمر الذي ما أحسن الاستعمار. ثم نزعت الأحباس واستصفتها لنفسها وملَّكتها للمستعمرين من أبنائها. وحالة الريف في مراكش الإسبانية، من حيث توزيع الأرض على أهلها، أحسنُ من حالة عامة الأقطار التي ارتفع عليها عَلَمُ فرنسا وإيطاليا، أي: مراكش والجزائر وتونس من جهة، وطرابلس وبرقة من جهة أخرى.

يقول جسل ومارسيل وايفر في كتابهم تاريخ الجزائر: إنه يبلغ مجموعُ مساحة الأرض المستعمرة فيها ١٦٠٠٠٠٠ هكتار، أي: اثنين من خمسة من الأرض القابلة للفلاحة، ومن فساد الرأي، بل من قلة الإنسانية تقليلُ مساحة الأرض التي يملكها الوطنيون لتُجعل ملكًا للمستعمرين، ويقول هاردي: إن مجموع الأرض القابلة للزراعة في الجزائر هو ٣٨٥٤٠٠٠ هكتار، ويستثمر الأوربيون منها ٢٤٠٠٠٠٠ هكتار، وللأهالي ١٤٥٠٠٠٠ هكتار فقط.

إن توزيع الأراضي الواسعة على الناس بالعدل عملٌ عظيمٌ ما تم في عصر من العصور، ولا تزال تنتقل الأراضي العظيمة في أيدي أرباب القوة، وكان يُرجى تكثير الزراعات الصغيرة في القطر المصري لَمَّا باعتْ حكومتها أراضي لها فابتاعها أرباب اليسار ومنهم غير مصريين وأحسنت الحكومة صنعًا في العهد الأخير في تفكيرها بتوزيع نصف مليون[1] فدان من أملاكها توزع أكثرها على صغار الفلاحين بأيسر الشروط، وخصصت جانبًا من أراضيها المستصلحة لتوزيعها على المُعْدِمين على أقساط، وكل قسط منها لا يزيد على قيمة الضريبة السنوية المربوطة على الأرض، وقررت توزيع جانب من أراضيها على خريجي المعاهد الزراعية، وخصصت لمتوسطي المزارعين وكبارهم مساحات كبيرة من الأراضي أكثرها يحتاج إلى استصلاح، حتى يساهم الجميع في التوسع الزراعي. وما خرجت مصر عن الخطة التي سارت عليها منذ أقدم العصور أي: مراعاة مصلحة القوي قبل الضعيف. فهل تبدل خطتها اليوم، والحكمة في تبديلها؟[2]

نعم كان الجماعات منذ عرف للبشر جامعة بين غني وفقير، ولكن أليس من الإنصاف أن ينعم الفقير أيضًا ببعض ما يتمتع به الغني، ولقد كان عمال الصدقات في بعض أيام بني أُمية في الشرق يجمعون الأموال فتأمرهم الدولة بإنفاقها في فقراء الأقاليم التي أُخذت منها، فلا يجدون فقيرًا يُسِفُّ إلى تناولها. ذلك أن الناس كلهم كانوا يعملون ويعيشون من كسبهم، ويندر فيهم المعوز مستحق الصدقة أو من يجوِّز لنفسه أَخْذها. وهذا عهد صعب تَكَرُّرُه في عصورٍ ما عرفت غير التكالب على الدنيا تستحل لها كل طرق الأخذ. وفي العهد الأُموي أيضًا كانت جباية القاصية تُحمل إلى الخليفة، ويصحبها أربعون قسامة يقسمون بالله أن هذا المال فضل ما جمع من الرعية بعد أداء أُعطيات الجند وإنفاق ما يجب إنفاقه في مرافق البلد، وهذا من غرائب تاريخنا، ما حدث مثله في شرق ولا غرب، فيما نظن.

ولو فكر أربابُ الأموال فيما يجب عليهم للفقير لخَفَّ الشقاء، فإذن بالضرورة وبالواجب ينبغي للموسَّع عليه أن يتفقد المقتر عليه، ويدرك أن من الظلم أن يملك رجل واحدٌ مئات أو ألوفًا من الأفدنة، أو قرية أو قُرًى يعجز عن إدارتها إدارة حسنة، ويعمل له فيها الفقيرُ المحرومُ ويتمتع هو وحده بثمراتها، ولا تسمح نفسه لمن هو محتاج إلى جهوده بأكثر من طعامه، وكثيرًا ما يكون من الجنس الرديء، ورُبَّ غني اهتمَّ لعلف ماشيته أكثر من اهتمامه بطعام أجيره.

نعم إن تقسيم الثروة بالعدل مما يَتَعَذَّرُ تحقيقُه، ومحال أن يغنى الخلق كلهم، ولا يتيسر هذا إلا إذا تساوت العقول، وزالت الفروق بين القرائح، فكان ذكاء ولا غباء، وكان علم ولا جهل، وكان عمل ولا كسل. ولو تيسر العيش الطيب لكل إنسان لانقطعت الرغبات في العمل. ولو تهيأ الغِنَى لكل من يريده لقَلَّ السعي له، والفضائل تزيد قيمتها باعتبار ما يناقضها، وما عزَّ وجوده يُطمع في الحصول عليه.

وما دام صغار الفلاحين والعملة يرون الألوف منهم لا يملكون شبرًا من الأرض، ويستأثرُ عشراتٌ بالثروات العظيمة، وما دام أرباب الأموال يَنْعَمون بما يزيد عن حاجتهم كثيرًا، وأرباب الفاقة ليس لهم إلا ما يَتَبَلَّغون به، يوشك أن يصاب مال الغنيِّ بما لا يخطر ببال، ومن الإنصاف أيضًا الاعترافُ بأن بعض هذه الأراضي الواسعة ما كانت إلا مَوَاتًا وبورًا لو لم يتداركها أربابُ الأموال بعنايتهم، ولكن كثرت المزارع التي يملكها الأفراد فعجزوا عن تَعَهُّدها على ما يجب في بعض الأرجاء، وقستْ قلوب الأغنياء فلا تسمح نفوسهم حتى بإعطاء الزكاة الشرعية.

سيقولون: وكيف السبيل إلى مداواة هذه المعضلة، أننزع الملك من مالكه الشرعي لنعطيه إلى من لم يتعب في تحصيله، أو تستصفي الدولة الأرض كلها لنفسها وتستثمرها لحسابها؟ كلا؛ هذا من مذاهب الشيوعية والاشتراكية التي لا تصلح عليها أرجاؤنا. ونحن نقول بتخفيف الشرِّ ودَفْع الضر بالتدريج، فندعو إلى أن تنزل الحكومات للفلاحين عن جميع ما تملك من الأرضين بثمن طفيف أو بلا ثمن، بعد أن تعمرها العمران الذي تكون به صالحة للانتفاع بها من أول ساعة، وتعاون أصحابها الجُدُد على استثمارها. وإيجاد عمل دائم للمتبطلين أنفع من التصدق عليهم.

وتعالج الزراعات الكبيرة بتحديد المقدار الذي يحق للفرد أن يملكه، كما فعلت رومانيا فحددت الملكية الكبيرة، وكما فعلت فلسطين فقضت بأن يكون ربع كل قرية ملكًا للأهلين من الفلاحين والثلاثة الأرباع الباقية يتصرف فيها مالكها، وكما فعلت تركيا وقضت ألا يملك الفرد أكثر من مائة فدان والمالكون فيها خمسة آلاف، والذين لا يملكون شيئًا خمسة ملايين، فقررت أن تعطي المالك الأصلي ما يحق له أن يتملكه، وتأخذ الفضل توزعه على من لم يكونوا في عداد المالكين وتنجِّم عليهم ثمنه على أعوام.

وتفاديًا من حصر الثروة في أناس بعينهم يجب أن تُستوفى ضريبة الدخل من التجار والمحتكرين والمضاربين والماليين. وهذه ضريبةٌ لا تنكرها القوانين الاقتصادية الحديثة المسلَّم بها وبها يقضي العدل. وللحكومات أن تضرب أيضًا ضريبة «حركة العمل» تجبى

مع ضريبة الدخل، وبذلك يمكن تخفيف المغارم عن المكلف، والإقلال من الضرائب غير المباشرة، فينتعش الفلاح والصانع. وبهذا الترتيب يخرج مالك الأرض العظيمة، أو صاحب الوفر الكبير عن بعض الزوائد التي لا يضيره إعطاءُ جزء منها، وينتفع بأموال من كثرت في أيديهم وفاضت عن حاجتهم الحقيقية.

ثم يشرع بحل الأوقاف الأهلية إذ ثبت أن هذا النوع من الأحباس عائقٌ للثروة عن النمو، وزائدٌ في عدد الكسالى والبائسين، ثم تُضرب ضرائب على التركات العظيمة وعلى كل مال عظيم مجموع، وبذلك يكثر المالكون ويزيد الإنتاج بتقسيم الثروة على النحو الذي يفيد الطبقات بأسرها. ويزيد هذا التقسيم في حركة التجارة والصناعة ونماء الثروة العامة وإمتاع البائسين بشيء من اليسر. وفرق بين من تكون الأرض ملكًا للقائم عليها وهي له ولأولاده وأحفاده من بعده، ومن يشتغل بها بالمياومة أو المشاهرة أو المسانهة لحساب غيره. وبهذا التوزيع العادل، فيما أرى، تتضاعف الثروات المتوسطة وتكثر الملكيات الصغيرة والزراعات الصغيرة، والخير في هذا التقسيم لا في حصر الثروات. ويلاحظ في تقسيم الأرض أيضًا ألا تصغر مساحتها عن حد معين حتى لا يقل الانتفاع بها،[٣] كما يقتضي أن ينصرف المالك إلى استثمار ملكه، والزارع إلى التوفُّر على زراعته، ولا يكون لهما عملٌ آخر فيجمع الموظفُ مع وظيفته زراعة أو تجارة، ويكون للطبيب مع طبه أملاكٌ وعقارات. عرفت كثيرًا من المتعلمين يعملون في بضعة أمور مثمرة، وذلك في غفلة القوانين عنهم فيقطعون بجشعهم أرزاقَ عشرات.

لما انتشر المذهب الشيوعي في روسيا سَرَى إلى البلقان، فلم تر بلغاريا لاتقاء الخطر المداهم أَحْسَنَ من ابتياع مزارع الأغنياء وتوزيعها على الفلاحين، تستوفي ثمنها مع ضريبة الأرض في خمسين سنة. وانقلب أرباب الزراعات العظيمة بالأموال التي صارت إليهم ينشئون الشركات والمعامل وبنيات في المدن. وبهذا دَفعت بلغاريا عنها غائلة الشيوعية، وعمرت مدنها وأرباضها، وما أتاه البلغار ليس بالميسور لكل حكومة، فإن فلاحنا جاهل، على الأكثر، قليل البصيرة يوشك، لأقل ضائقة تصيبه، أن يقع بين براثن المرابين فيسلخون جلده ويعرقون لحمه. ومتى نفض الغنيُّ عندنا يده من الفقير، أو نفض هذا يده من الغني، وأظهر كلٌّ منهما الاستغناء عن صاحبه تنقلب الحالة من سيئ إلى أسوأ، وما جاز في بلد لا يجوز في آخر.

ولما كثر المتبطلون في ألمانيا بعد الحرب العالمية، فزاد عددهم على ستة ملايين، واضطرت الحكومة إلى أن تعولهم لم تر، بعد أن ضاقت سنين بإطعام جزء عظيم من

رعيتها، أفضل من أن تنقل المعامل من المدن إلى القرى البعيدة، وأن تمنح كل عامل قطعة من الأرض تقوم زوجته وأولاده باستغلالها وتغلُّ لهم بعض حاجاتهم، وبذلك دفعت عن المدن الخطر الذي يصيبها بتكاثُر نفوسها إلى ما لا تتحمله. ثم ضربت على الأغنياء ضريبة تُوازي نصف دخلهم الصافي فوَقَتْ بعملها الفقراءَ من البؤس، وظل الأغنياء على غِنًى معقول.

والذي ينفع في مصر والشام والعراق وسائر الأقطار، تحديد ملك المالك، وأخذ الفضل من أرباب الأَملاك الواسعة، ومن أَرباب التجارة العظيمة، وبذلك نسلم من الغوائل في الحاضر والمستقبل، فتضمن القوانين للطبقة العاملة، وهي معظمُ الأُمة، مستوًى من العيش يقضي به العقلُ والعدل.

هوامش

(١) من خطاب العرش لعام ١٩٤٥.

(٢) مما يسر ما رأيناه في أيامنا من عناية جلالة مليك مصر المحبوب فاروق الأول بإصلاح مزارعه الخاصة؛ لتكون نموذجًا لأرباب السعة من المزارعين، ينسجون على منواله، فقد جهزها بأجمل جهاز تُجهز به القرية الحديثة، ونظر إلى كل ما ينعشها وينعش القائمين على زراعتها من الفلاحين، فوَفَّرَ لهم أجزل قسط من مستوى العيش، وخص كل مزارع بمقدار من الأرض يستغله، وهو يمده بكل ما يحتاجه في غذائه ولباسه وصحَّته وتعليمه، ويحرص على أن تتناول هذه العناية القرى المجاورة لمزارعه. ولطالما قال لمن يعرضون على مسامعه مشروعات لهم: إنني سئمت النظريات، وأريدكم أن تدخلوا في العمليات. نعم لو سار أرباب الزراعات في مصر بسيرة مليكهم لتغيرت حالة الفلَّاح تغُّيرًا محمودًا لحُسن عيشهٍ وتربيته.

(٣) في كتاب الحالة الاجتماعية في مصر للأستاذ مصطفى محمود فهمي، أن الحكومة الإيطالية عنيت بمنع تجزئة الملكية العقارية كما عنيت بتوحيدها عند اللزوم؛ إذ إنهم وجدوا أن من حسن السياسة الزراعية والاقتصادية والمالية أن لا تتجزأ ملكية الأطيان إلى أجزاء صغيرة، وأن من المصلحة ضم هذه الأجزاء بعضها إلى بعض بالمال اللازم لشراء هذه الأجزاء، على شريطة أن يُرد المال إلى الحكومة مقسَّطًا على آجال طويلة، وبفائدة معتدلة جدًا. وقال: إن علاج هذه التجربة يأتي من طريق سَنِّ تشريع يعطي للبكر من الأولاد، أو لمن يليه حَقَّ شراء كل أو بعض حصص باقي الورثة، بإجبارهم على

البيع، وإذا كان غير قادر على دفع الثمن فإن الحكومة تمده بالمال اللازم، وهو يردُّه بفائدة معتدلة جدًا (٢ أو ٣ في المائة) على أقساط موزعة على عشر سنين أو عشرين سنة.

القول في تاريخنا

التاريخُ علم حوادث المجتمعات البشرية، فما كان في أخبار الحروب والثورات والدول والحكومات والملوك يُدعى: التاريخ السياسي، وما كان خاصًّا بالترجمة للأشخاص فهو: تاريخ الرجال. وإن كان البحث في أُمة أو جزء من أُمة فهو: التاريخ الوطني العام، وإذا تناول الكلام عامة المجتمعات في الأزمان كافة، فهو: التاريخ العالمي، وإذا درست فيه النواميس التي يكون لمجرى الحوادث تأثير فيها يسمى: فلسفة التاريخ، وإذا بحث في زمان معين أو كان خاصًّا بمجموعة سياسية أو اجتماعية فذلك: التاريخ الإقليمي أو المحلي. ومن ضروب التاريخ ما يُطلق عليه تاريخ الأوضاع والأنظمة، أو التاريخ الحربي أو التاريخ المدني أو التاريخ الأدبي، إلى غير ذلك من الأسماء التي يسمى بها نوع من التاريخ يُعنى بعلم خاص أو فن خاص.

وضع العرب التاريخ وهم يعتقدون أن عمر العالم سبعة أو ثمانية آلاف سنة، وكان الأقرب إلى الصواب لو قالوا: عمر الحضارات التي عرفها البشر، كحضارة بابل وأشور ومصر، ثم اليونان والرومان والعرب. وقدَّر العلم الحديث عمر الأرض بما لا يقل عن سبعمائة مليون سنة، وقالوا: إنه أتى على الإنسان خمسون ألف سنة حتى خَلُصَ من الحيوانية الأصلية، وهذا ما يُسمونه عصر ما قبل التاريخ.

كتبَ العرب تاريخهم بالتزام الصدق وذكر المصدر، وكانوا في وضعه مبتدعين لا مقلدين، على الأرجح. هذا، وهم ما عرفوا العلوم التي تُعاون على التجويد فيه، كعلم الأحياء وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد وعلم المصادر والوثائق والمراسلات والمفكرات والمذكرات، فإن هذه العلوم حديثة النشأة كعلم المخطوطات القديمة وعلم الكتابات والرُّقم وعلم النقود وعلم الأَختام وعلم السياسة الدولية، علوم انقلب بها علم التاريخ رأسًا على عقب، ووجب على المؤرخ بعد اليوم أن يكون له نصيب منها، وأن

يشارك فيها المشاركة الكافية. لا جرم أن العلم كان بطيء الحركة وظلَّ على حالة ابتدائية إلى أوائل القرن الماضي. ونعني بالعلم هنا: ما يبعث النهضات ويوسع العقول وينهض بالصناعات والفنون. والعلم الذي عرفه اليونان في أرقى عصورهم هو العلم الذي ما عرف العربُ غيره طوال أيام سلطانهم.

ولما أصبح التاريخ علمًا برأسه تخلَّص من خيالات الشعراء، ومبالغات الخطباء، ولما تعينت مراتب الأخصاء في التاريخ رأوا أن مما يوجبه التحقيق أن يصغروا دائرة عملهم، فحصروا وَكْدَهم في حدود معينة حتى يكتب لهم التبريز فيه، جودوا الطريقة لكنهم لم يستطيعوا أن يتجردوا عن التعصبات الدينية والسياسية والجنسية، ودام بعضهم يعبث بالنصوص على ما يحقق الأهواء ولا يحقق أمانة العلم، ومن هنا كان تخالف المؤرخين في حكاية الحادثة الواحدة، ومردُّ ذلك إلى التخالُف في الدار والمنشأ والجنس والنحلة. وغرام كل أمة من الأُمم الحديثة اليوم أن تكتب تاريخها بما يوليها شرفًا ومجدًا.

يقول غستاف لبون: لقد أُحصيت على المؤرخين آراءٌ خاطئة في تقدير المدنية الإسلامية، وقَسَوا في الحكم على العالم الإسلامي القديم، فاقتضى النظر في تاريخ القرون الوسطى بجميع أجزائه التي لها علاقة بانتقال المدنية القديمة إلى العصور الحديثة. واستشهد بكلام المؤرخ غيزو حيث قال: إن من تصفَّح التاريخ من القرن الخامس إلى القرن الثامن عشر يرى اللاهوت مستوليًا على الفكر الإنساني يُصَرِّفه على ما يريد، ويتراءى له أن عامة الآراء مصبوغة بصبغة لاهوتية، لا ينظر إلى المسائل الفلسفية والسياسية والتاريخية إلا بنظرٍ مذهبيٍّ، فالفكر اللاهوتي هو الذي سَرَى في عروق العالم الأوروبي إلى أن قام باكون وديكارت.

ونحن، ألا يصدق علينا قول غيزو في بعض عصورنا، ولا سيما في عصور الانحطاط؟ أما كان يُصبغ التاريخ بالصبغة التي يميل إليها المؤرخ، وتتفق مع مصلحته الخاصة؟ أما كانوا لدواع دينية أو خوفًا من أرباب السلطان يحسنون ظنهم بالخلافات المزيفة، والحكومات الطاغية، وتُنطقهم السياسةُ في أعدائهم وأوليائهم بما ليس فيهم. ولقد استحال تاريخنا في بعض الأدوار تاريخًا رسميًّا صرفًا: يكتبه الوزيرُ، وينقِّحه النديم، ويُقره الملك. وبلغ من الضعف أن يصانع القابض على القلم لكتب الحوادث بغمزة تصدر له من صاحب الشأن، أما إذا كان هنالك مغنم فالمؤرخ ينسى نفسه ويستهويه تهافته، وهذا ما يدعو إلى أن نتساءل: هل كان المؤرخون أرقى في أخلاقهم من الشعراء؟ وقد عرفنا هؤلاء وما صدر عنهم من الإغراق في الكذب وإضلال العقول.

وسواء صح فينا رأي غيزو أم لم يصح، فقد آن لنا أن ننظر في القديم والحديث من تاريخنا بنظر التجديد. والعلماءُ اليوم يَدْعُون إلى إعادة النظر في التاريخ كل خمسين سنة، وها قد مضى على تاريخنا المدوَّن قرونٌ تبدلت خلالها طرق البحث، وغدا العالم غير العالم، والدول غير الدول، والعرب غير أولئك العرب، والإسلام غير ذاك الإسلام. بدَّل الزمان كلَّ شيء فوجب تبديل طريقة عرض التاريخ على نحو ما فعل بعض رجال العصر فدرسوا موضوعات منه دراسة حديثة فأفادوا، كما أفاد العرب يوم كانوا أعلم أهل الأرض لما سردوا التاريخ بعُجَرِه وبُجَرِه.

وكان من أشد العوامل في تجويد العرب كتابة التاريخ بالقياس إلى عصرهم، حِرْصُهُم الحرص كله على الأخذ بما صح من الأحاديث النبوية، فوضعوا لذلك عِلْم الجرح والتعديل، يعدِّلون الرواة ويجرحونهم، وكما جوزوا الجرح في الشهود وشهاداتهم جوزوه في الرواة ورواياتهم، لقول الرسول: «كفى بالمرء كذبًا أن يحدِّث بكل ما يسمع.» وكما وضع العرب علم الجرح والتعديل وضعوا أساس فلسفة التاريخ والاجتماع، وغَلَوا في تصحيح السند غُلُوًّا لم يعهد في أُمة، وقالوا: الإسناد قيد الحديث، وإن الحديث من غير إسناد كالجمل بلا زمام وخطام، وقالوا: إن المراد بقوله تعالى: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ الإسناد.

من صفات المؤرخ أن يكون أمينًا في النقل، صُلبًا في الحق، متشددًا فيه، جَلْدًا حازمًا، هادئ الأعصاب، لا يتحامل ولا يجامل، وإلا كان ما يكتبه قطعة شعرية أو خطبة حماسية، ورسالة أخوية. وليس التاريخ بشعر حتى تُغتفر فيه المبالغات ولا أُفكوهة حتى لا يضرَّ به التزيُّد، ولا أُسطورة أَمتع ما فيها الإغراب. وإن تاريخًا تُمليه الأهواء لا يعدو أن يكون صحيفة تدليس، وليس أفسد للتاريخ من التدليس فيه.

ومن يحرف نصًّا لاستخراج ما يلائم غرضه منه عُدَّ في زمرة من اختلط صوابهم بخطئهم. وحاجة كل جماعة إلى من يدربهم على سماع الحق، أكثر من حاجتهم إلى من يكذب عليهم. ومثل من يكتم عن أُمته حقائق تاريخها كمثل طبيب يُصانع مريضه وهو في أشد ساعات البُحران من مرضه، فيسمح له بتناول كل ما تشتهي نفسه.

كانوا أكثر ما يؤرخون للدول ينقلون أخبار حروبها وشرورها، واعتداءاتها ومهادناتها ومصاولاتها، يجسِّمون حسناتهم ويَغُضُّون عن سيئاتها، ويخصون الملوك من ذلك بأكبر حصة، ولو كانوا من السخف على جانب عظيم. ومن نظر في تاريخ بعض العهود نظرًا سطحيًّا يتراءى له أن القوم كانوا في جنة نعيم، عدلًا وراحةً وهناء،

وكذلك يقال في أكثر من ترجموا لهم من الرجال، فقد كانوا يصورون من يترجمون لهم صورة لو حذف من بعضها اسم صاحبها ومولده ووفاته، لأمكن وَضْعُها على عشرات من الرجال.

وإن مؤرخًا لا يبسط لأُمته حقائق ماضيها وحاضرها، ولا يَقِفها على جلية أَمر المحسن والمسيء، ولا يروض قلبها على قبول الحق، حريٌّ أن يُحسب في زمرة المجابهين للأنصاف المتجهمين للصواب. والمرء لا يكون كَيِّسًا حساسًا إذا أغمض عينيه عن ماضيه وعن مستقبله، فالواجب أن يبحث للوصول إلى ما يَقِفه على الصلات التي تربطه بأجداده وذريته وبالإنسانية أمس وبالإنسانية غدًا؛ فالماضي يفسر الحاضر، وهذا يشرح الغابر، كما قال العارفون.

كان ما كتبه المؤرخون السياسيون عند العرب، أمثال الطبري والمسعودي وابن الأثير وابن خلدون، ومَنْ ترجموا للرجال أمثال ابن سعد وابن خَلِّكان وأبي حيان ولسان الدين وغيرهم موضع عَجَب العارفين، حتى قال العلامة براون: إن العرب ألفوا كتبًا في الجغرافيا وتخطيط البلدان على طريقة لم يؤلَّف مثلها، وكتبهم في التاريخ أوسع الكتب وأدقها بل إن بعض التواريخ العربية لم يكتب على نسقها في أوربا إلى اليوم. وقال العلامة نيكلسون في كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية»: إني أوافق السير ويليام جونس على رأيه القائل إن كتبا وَفَيَات الأعيان لابن خلكان أحسن كتاب كتب في التراجم العامة.

أمثال هذه الطبقة الرشيدة في مؤرخينا كتبت ما أملاه الحق على أقلامها ولم تبال الجَوَرة والظلمة، فلما كانت عصور التدلي أصبح المؤرخون يحاذرون الملوك والأمراء، ويخشون من شر المشايخ والأعيان والعامة، فلا يسعهم إلا أن يكتبوا عن بعض الأمور الجوهرية ويكتبوا في التافهات؛ لأن من كان يجهر بما اعتقد في ذكره فائدة لا يلقى إلا عنتًا، وأقل ما يتعرض له تسلطهم على دفاتره، وإن لم يكن في حياته فبعد مماته، ولهذا ضاع تاريخ كثير في الأرض العربية. والحق مُرُّ المذاق، والنفاق أكثر ذيوعًا في كل العصور. على أن من كانت لهم صلاتٌ بأرباب الدولة، واختلاطٌ بطبقات الشعب، كانوا أقرب إلى التقاط صحيح الأخبار ممن كانوا بمعزل يكتفون بتلقُّفها من الأفواه.

ومما يؤلم أن العرب استعاضوا في بعض أدوارهم عن دراسة التاريخ بتخريفات سَمَّوْها علومًا، كعلم الجفر والسحر والطِّلَّسْمات والسيمياء والكيمياء، وزهدوا في علم لا تُعرف بغيره حقائقُ دولهم وملوكهم وشعوبهم، ولا روح كِتابهم وسنة نبيهم وهدي أصحابه، زهدوا في تاريخهم بعد أن أتت عليهم عصورٌ وهم يدرسونه في الجوامع كما يدرسون الفقه والحديث.

ليس أضر على التاريخ من التقية، ولا أنفع فيه من الصراحة. وقول بعض الفقهاء من أهل السنة — وهو ما كانوا يدرسوننا إياه في المدرسة الأولى على أنه من العقائد: «ونسكت عَمَّا شَجَرَ بينهم» أي: بين الصحابة، كلامُ من لا أَرب له في غير العافية. ولو شايعناهم على هذا الرأي لأضللنا طريق الهدى في قيام أمرنا، وهل يوجب العقل أن يدعونا حب الخلفاء الراشدين — رضوان الله عليهم — إلى الإغضاء عما بدا من ضعف عثمان في آخر عهده؟ وهل من المنطق السليم أن نغض الطرف عن حرص عليٍّ على الخلافة، ويدعونا إعظامُنا لمكانته، إلى أن نطوي البحث في مسائل يستحيل علينا، بدون التعمق فيها، أن نتفهم ما دخل الإسلام من خلل، وما حملت التفرقة بين أهل القبلة من الخطوب، وما جرَّت من ويلات. شيعة عليٍّ تغلو في الحط من بعض الصحابة الكرام، من الفريق الذي لم يشايع صاحبهم، وأهل السنة يفرضون السكوت عما شجر بين الصحابة تأدبًا أو تزمتًا. والتاريخ لا يخلي عثمان ولا عليًّا ولا معاوية من ملامةٍ، ويرى المنصف أن عليًّا ومعاوية والسيدة عائشة مسئولون عما جرى في وقعة الجمل وصِفِّين. هذه أُمور يؤلم ذكرها، ولا بد من درسها وبسطها لمصلحة التاريخ والحقيقة.

ما رضي بعض مَنْ يختلفون إلى المجمع العلمي العربي خلال خمس وعشرين سنة لاستماع محاضراتي عن صورة عرضي للتاريخ الإسلامي، ولا عن بعض ما نشرت منه في كتب ومجلات، وإن كانت الشواهد تَدْعُمُه، والوثائق تؤيده، والأرقام تجليه. وما دمنا نكتب لإرضاء الحق، ولا نكتب تاريخًا رسميًّا فلا يضيرُنا أن نكتب ما تجلى بعد البحث، ونتمتع بحرية هذا القرن، فلسنا من المؤرخين الرسميين، ولا يُطلب من هؤلاء إلا محاباة الملوك لا يدونون لهم إلا ما يروقهم. وشأن مؤرخ الملك كشأن شاعر الملك في إخراج صور تُرضي ولا تُغضب، أما نحن فنحاول أن نعلم التاريخ.

صدر كثيرٌ من المؤرخين عن تصورات لهم، أَلبسوها ثوبًا من نسيج خيالهم كالذين رَمَوْا بعض خلفاء الأُمويين بما ليس فيهم، ليذهبوا من ذلك إلى أنهم لا شيء بالقياس إلى أعدائهم المطالبين بالخلافة، فقد وضعوا على ألسنتهم أشعارًا وحكايات لا يصدر مثلها إلا عن السفهاء، وجسموا ما وقع لهم من الحوادث مع من عصوا عليهم، وما خلا أعاظم خلفاء بني العباس من مثل هذه التهم الشنعاء أُلصقت بهم وهم أبرياء، فقد وصف صاحب الأغاني أمير المؤمنين الرشيد مستهترًا بالشراب والنساء، مجنونًا في مجونه، وما كان الرشيد بصدد هذا كله، وهو الخليفة الذي كان يحج سنة ويغزو سنة، وما كان له مأْرب في غير حفظ دولته، ومن المتعذر أن يخلو عصر من جماعة يكتبون الحوادث

بحسب أغراضهم السياسية والمذهبية، بيد أن الحقائق مهما أُريد طمسها يبقى منها جانب يبرز منه نورها، رغم مَنْ كَابَرَ وراوغ.

ومن جسروا على قلب الحقائق ولقنوا أُمتهم الكذب، لم يفيدوا عند المحققين ولا عند أنفسهم شيئًا، كفعل بعض مؤرخي القرون الوسطى من الإفرنج في حكمهم على الإسلام والعرب، فقد اطرد تمويههم حتى كشف الستر عنه علماء المشرقيات منهم، فقاموا يؤلفون متوخين الصدق في الجملة، فصححوا أفكار من أضلهم التعصب الديني دهرًا طويلًا، شرب المؤرخون في الغرب من كأس رجال الدين أولًا، ولما عافته نفوسهم ألقوه من أيديهم واستقوا من مصادر أخرى أكثر صفاء، فظهر الفرق بين الأحفاد والأجداد، وتبين الكونُ بين باحث بعقله وآخر بعقل غيره.

قال أناطول فرانس: أنا أعرف أن التاريخ مُلفق مكذوب فيه، وأن جميع المؤرخين من عهد هيرودتس إلى ميشله هم قُصاص حكايات ورُواة روايات، فلقد خُصَّ التاريخ حتى يومنا هذا بذكر سير العظماء وغرائب الحوادث، فالواجب أن يُجعل بعد الآن خاصًّا بالبحث في حياة الشعوب فيُعنى مثلًا بأَسعار الحديد وسعر القطع، فإن في بحث هذه المسائل من الفوائد ما ليس في نقل حوادث واقعة حربية، أو ذكر حديث دار بين عاهلين. يريد المؤلف أن يعرف أن ملايين من البشر المجهولين كان من نشاطهم المتواصل نهضة شعب، يروم أن يحلل هذا النشاط العظيم، وأن يدرسه قطعة قطعة، بأسلوب محكم، وأن يسطر ما يعرف، فإن هذا هو التاريخ الذي يجب وضعه بعد اليوم، وللحكومات الفتيَّة كأوستراليا وزيلاندة الجديدة وكندا ولابلاتا؛ بل وللمجتمعات القديمة في أوربا التي تطمح في أن تنظم شئونها على أرقى مثال من النظام والعمل والسلام والحرية، أن تتبع هذه الطريقة الجديدة. أما الحالة التي وصل إليها التاريخ بصورته الحاضرة فدراسته غير سليمة، فالواجب الشروع في إصلاحه، فقد انقضى عهد التدوين الأدبي، وبدأ عهد التاريخ العلمي الذي سيكون منه وصف حياة شعب على ما يحمل فائدة وتعليمًا وعظمة. ويرى بعضهم أن التاريخ لا يفيده بعد الآن بغير الوثائق من مثل إحصائيات الشعوب، وتعريفات الجمارك، وحالات التجارة، ونتائج حسابات المصارف، وتقارير السكك الحديدية، فإن من نُقَّاد التاريخ من قالوا: إن هذه الأمور أدنى إلى الثقة من الشهادات التي يوردها المؤرخون. قال أناطول: وقد يكون صاحب هذا الرأي على صواب في قوله، وإن كان الإحصاء في ذاته محل ريبة كثيرة أيضًا.

ولنا، بعد الذي قدمنا، أن نحكم على مبلغ التطور الذي حدث في كتابة التاريخ للانتفاع به النفع كله، وعلى درجة اجتهاد العارفين من أهل العصر في تحري مصادره

ومستنداته، والتفلسف في مراميه ومغازيه. ونحن لا ننتفع بعِبَر التاريخ إلا إذا قسمناه كما قسمه غيرنا إلى شُعَب، وسقنا من يحب الاشتغال به إلى تناول شعبة من شعبه الكثيرة بالدرس العميق المجرد عن الهوى. هذا من حيث كتابة التاريخ. أما من حيث تدريسه وتلقينه فالواجب العناية به عناية بالغة، فالطلاب إلى اليوم يخرجون من المدارس العالية ولا يعرفون من تاريخ بلادهم الشيء الذي يعتدُّ به. وفي كتاب سياسة الغد:[١] إن دراسة التاريخ ناقصة في مصر من عدة نواحٍ، فهي تُعنى بالغرب أكثر من عنايتها بالشرق، وتبحث عن الدول الأوروبية دون أن تُبين الصلة بينها وبين الحضارة المصرية. هذا إلى أن تاريخ مصر نفسه يُعرض عرضًا جافًّا مختزلًا اختزالًا مخلًّا، لا يخرج منه التلميذ بفائدة كبيرة، وليس في التاريخ المصري — كما يدرس اليوم — وحدة ولا تناسُق ولا ارتباط بين أجزائه المختلفة، وفي توزعه على هذه الصورة ما يفقده كثيرًا من قيمته. ومثل هذا يُقال في درس التاريخ في الشام.

عرفتُ تسعة مشايخ، حاول ثمانية منهم أن يكتبوا في التاريخ السياسي ويترجموا للرجال، كان اثنان منهم من العامة، ليس بينهما وبين الأُمية سوى درجة، وبينهما وبين العلم درجات، وكان أحدهما ممن يحسن النسخ ويجيد الخط. ادعى الأول أنه كتب تراجم من عاصرهم، وهدد من أحب تهديدهم زمنًا بما سيكتب فيمن كان غير راضٍ عنهم، ولما هلك لم يعرف عما كتب شيء. وكان الثاني يتمجد بما يكتب وهو جاهل، فما ظهرت له ورقة بعد موته مما نسخ ومسخ وسلخ. وجاء شيخان آخران لا يقلان عن الأولين في العامية والأُمية، فساعدهما الزمن على طبع ما جمعا وجُمع لهما، ونَشْر ما كتبا وكُتب لهما، فكان ما أزعجا العالم بنشره دليلًا على جهل مُرَكَّبٍ ودعوى فارغة.

أما الأربعة الباقون فكانوا على شيء من فقه وأدب، وما عُرفوا بالتاريخ، إلا أنهم جسروا على الكتابة فيه، وترجموا لمن أهمهم أن يترجموا لهم فما جَوَّدوا التجويد المتوَقَّع منهم. واستسهلوا علمًا يحتاج معانيه إلى دراسات كثيرة، قبل أن يخط فيه صفحة. وكأن لسان حال الفقيه والأديب يقول: لا بد أن أُعَدَّ من المؤرخين، كما أنا من المتفقهين والمتأدبين، على نحو ما كان بعض رجال الدين يرون من الواجب أن يكتب كل واحد منهم تفسيرًا له، كما يتحتم على كل إنسان يمت إلى المعرفة بأدنى سبب أن يثبت نفسه في قائمة الشعراء، ولو بنظم أبيات قليلة ضئيلة.

وأَقْدم الاثنان على طبع ما دَوَّنَا وما كان عُرف كلاهما مِنْ قبلُ بغير الأدب. فكتب الأول في تاريخ بلده، وأجاد فيه النقل والاقتباس، ولم يُجِدْ فيما أتى به من عنده،

والمصانعة ظاهرة في بعض صفحاته. وكتب الثاني كتابًا يدور أكثره على تراجم أهل مدينته، فجود في الترجمة لبعض من أدركهم، ووقع فيما وقع فيه معاصره من الإكثار من النقل، والتبسُّط في الحادثة الواحدة، والاختصار في أماكن كان الواجب بسطها. ولو درس موضوعه حق دراسته واقتصر على اللباب دون النقل المستفيض، وذلك بطرح الزوائد والاقتصار في المقتبس من كلام المؤلفين القدماء على الضروري؛ لوفر بهذا الصنيع على القارئ وقته وماله.

وسقط هذا المؤلف فيما سقط فيه مَنْ عانوا الترجمة للمشهورين في عصور الظلمات، فامتدح من أفراد أُسرته، وأمثالهم كثار في بلده وغير بلده، وكان الإنصاف يقضي عليه أن يترجم لغيرهم من أبناء حرفتهم، وعدَّ مَنْ يعرف أحكام البيع والشراء في العلماء، وما أكثر تساهله بتسويد من كان راضيًا عنه، وضنانته بتلقيب من لم يظهر له علمه، وعدَّ في العلماء من يطالع كتب القوم؛ أي: المتصوفة، ويضيع حياته في تأويل المنامات ونقل الكرامات، وترجم للمجانين والممرورين، وأطال في ترجمة أحد المجاذيب، ولما عُوتب على ذلك قال: إن أهله اشتركوا ببضع نسخ من كتابه، فلم يسعه إلا إرضاء خواطرهم وذلك بخلع الصفات الحسنة على جدهم!

أما الرجلان الآخران فكان يغلب عليهما الفقه مع مشاركة في الأدب، فكتب الأول في تراجم من عاصرهم على نسق تاريخ ابن شاشة والمرادي، حشاه بهنات لم تكن متوقعة منه، فترجم لأحد كبار الدجالين ترجمة صوَّره بها من أعاظم الأولياء والعلماء والأدباء. وكان بين كلامه وبين حقيقة الرجل بَوْن شاسع جدًّا، وترجم لصعاليكَ بعلمهم وأخلاقهم، وأغفل ترجمة الأعلام الذين عرفهم.

وكتب الشيخُ الآخر تاريخ تراجم أيضًا، فتوسع في ترجمة بعض ذوي قرباه، واختصر في ترجمة إمام الفقهاء والمؤلفين في عصره السيد محمد عابدين، وتوسع توسعًا عظيمًا في ترجمة جده، واختصر في ترجمة عالم عظيم كان بالإجماع من أكابر العلماء. وليس من التاريخ في شيء ترجمة أُناس ليسوا من العلماء والأدباء تقع أنظارنا عليهم في الشوارع كل ساعة. وفي طبقة التجار والزراع والصناع اليوم أرقى منهم، وليس من الأمانة إغراق المؤرخ في ترجمة أُسرته، وإلباس أعضائها ثوبًا هو في ذاته ليس لهم، ولو كانوا على ما زعم لهم من صفات وعلم لظهرت في عصرهم علومُهم، وتناقل العارفون تراجمهم قبل أن يتفضل قريبهم فيترجم لهم بهذه المبالغات، وكأنه بما يترجم لأقربائه ومغالاته في نَعْتِهِم، ينادي ضمنًا: أنا من بيت علم قديم أيضًا. وكان من أزياء القرن

الماضي والذي قبله أن يدعي الشرف كل من يحاول التمجد، فينتسب إلى الرسول أو إلى أحد أصحابه على الأقل، أما صاحبنا هذا فاخترع لأُناس من أهله صفات ليست لهم، جعلهم سلالة علماء وهم على بَرَكة الله.

وبعد، فأين هذه التآليف من تآليف أرباب الطرابيش الذين يضن أرباب العمائم عليهم بلقب عالم، كأن العلم مقصور على المعممين وحدهم، وكأن من لا يعرف حِيَل الفقهاء المتأخرين وعسلطاتهم، ولا يضع على رأسه بضعة أمتار من الشاش الأبيض ليس من العلم على عرق.

خذ مثالًا لذلك العلامة أحمد تيمور باشا من علماء مصر، فإنه كتب أشياء كلها تنبئ عن تحقيق. لا تجد له سجعة نابية عن محلها، ولا معنى مبتذلًا، ولا لفظًا جيء به للزينة، ولا فكرًا سخيفًا مرجوحًا، وإذا قرأ المرء ما نشر في حياته ونشر له بعد مماته، وقابل بينه وبين تآليف هؤلاء المشايخ يدرك الفرق بين علم رجل أتعب نفسه في تحصيله، ورجل يحاول التهجم على التأليف بدون إجهاد فكر ولا سهر ليالٍ، والفرق ظاهر بين من يؤلف فيما يعرف، وبين من يصنف قبل أن يستعد الاستعداد الكافي، وبين من لا يكتب قبل الدرس ومن يكتب كيف اتفق، لا ينقح ولا يصحح، ولا يبحث ولا يطيل النظر، ويبتعد عمن ينقده ويناقشه. وكذلك يقال في تآليف العلامة أحمد زكي باشا، قريع تيمور ومواطنه وصديقه، وفيما خطته يمينه من التحقيقات الممتعة الطريفة. وهذا أيضًا من المطربشين الذين يتجاهل المعممون ما عندهم من علم. ومِنْ هؤلاء مَنْ لا يستطيع أن يقرأ فصلًا واحدًا مما كتب الأحمدان زكي وتيمور على وجه الصحة، فضلًا عن أن يفهموه حق الفهم، أو يكتبوا، لا قدر الله، مثله. والدعوى ما لم تقم عليها البينات ساقطةٌ باطلة.

اقترح أوسكار الثاني ملك أسوج ونروج، وكان عالمًا ومؤرخًا ومحبًّا للآداب، وضع تاريخ العرب قبل الإسلام فأَقدم على التأليف فيه من أبناء الشام بعض من لا عهد لهم بهذه الأبحاث، وما أدركوا خطورة التأليف فيها، ومن جملتهم شيخ كتب رسالة، لو جرت العادة أن توضع علامات للتأليف كعلامات صبيان المدارس لأخذ علامة قريبة من الصفر لرداءة ما كتب. وكتب أيضًا أحد الأدباء تأليفًا من هذا الطراز وكان أرقى من تأليف زميله بقليل، فما وقع ما كتبه موقع القبول من لجنة المحكمين، ولاحظتُ على كتابه أنه حرف آيات القرآن الكريم، وقلت: إن القرآن يحفظه، على وجه الصحة، صغارُ الأولاد في بلاد الإسلام، فإذا كان المؤلف خان أمانة النقل في القرآن، فكيف يجوز أن يؤتمن على تاريخ العرب؟

قلت لصديق من الفقهاء يوم كنت أُؤلف كتاب «الإسلام والحضارة العربية» أقسم المشايخ — حفظهم الله — ألا يهتموا لغير فائدتهم المادية على حين أن إجلالنا كله لهم، نجلسهم في صدور مجالسنا، ونطلب بركاتهم ودعواتهم، ونعطيهم من الرواتب والهدايا ما ينعمون به لو أنفقوه وما ادخروه، وننزل على أحكامهم وآرائهم ونحن نعتقد ضعفها، حتى إذا جاء الوقت الذي أعددناهم له وطالبناهم بخدمة دينهم يسارعون إلى التواري عن الأنظار، ويقولون لأرباب الطرابيش بلسان الحال: أنتم رُدُّوا على أعدائنا، وقوموا بما عهد فيكم من البراعة بنصرة ديننا، بارك الله بكم وعليكم. قلت له هذا وزدت عليه: لقد اضطررت هذه المرة إلى مراجعة الأمهات في الدين، بعد أن طال عهدي بها لأرد على أعداء الإسلام والعرب. وأهلُ العلم — كما يدعو أرباب العمائم أنفسهم — ساهون لاهون لا يقومون بواجباتهم نحو دينهم وأُمتهم، وفي مقدمتهم شيوخ الأزهر الأجلاء. فضحك صاحبي من قولي، وما وجد له جوابًا ولو ضعيفًا يجبيني به في معرض الدفاع عن العلماء الرسميين، ممن حُسبوا علينا رجالًا تمحضوا لنفع الأمة، وما هم نافعوها بدرهم ولا دانق.

هوامش

(١) سياسة الغد لمريت بطرس غالي.

القول في سياستنا

عرَّف بلونشلي السياسةَ بأنها: علم حياة الدولة، ومعرفة الشأن العام، وفن الحكومة العملي. وقال: إن رجال السياسة، بحكم مناصبهم أو مواهبهم، يؤثِّرون تأثيرًا عظيمًا في قيام الجماعات. وعَدَّ في السياسيين الوزراءَ وبعضَ كبار العمال ونُوَّاب الأمة وأرباب الصحف. قال: ويطلق اسم «رجال الدولة» على أفراد عظماء ممتازين. ويقال زيادة في التعريف: إن السياسة علم الحكم، يَتَوَلَّاه أهلُ البصيرة والعارفون بأُصول هذا العلم وقواعده في الدولة، والسياسة العملية تؤثر في السياسة النظرية، فتستأثر الأُولى بالعَمل وحدها في طفولية الدول ثم تشاركها الثانية.

لا جرم أن علم السياسة من أدق علوم البشر، وأشد الناس بلاء من يُعانيها. ورب سياسي انصرف إلى عمله أعوامًا طويلة وما أَفلح على ما يجب، وقد يوفق في مسألة واحدة طوال حياته، فيخدم بها أُمته بما لا تنهض بمثله كل قواها مجتمعة. والنابغون في السياسة قلائل جدًّا في كل العصور. وحاجة الأُمم إلى السياسة كحاجتها إلى الماء والهواء، وهي على صعوبة بادية فيها يدَّعيها الأغمار ويعز في مضمارها المجلُّون. وإذا فرضنا أن معدل من يوفقون في الأعمال خمسين في الألف، فما أَحراهم في السياسة ألا يعدوا أكثر من واحد في الألف. وقديمًا ادعى الجاهلون طب الأبدان وطب البلدان، فنجا العالم بظهور المتطببين من غوائل أَدعياء الطب الجسماني، ولم ينجُ من الدجل السياسي في طب الدول والأُمم.

ينبغي للسياسي ثقوبُ ذهن، وفرط حيلة، ووفرة دهاء، وثقافة عالية، ومرانة طويلة، والسياسي على كثرة ما يعالج من آراء، ويصطدم به من مشاكل، أشبه بمجموعة عيون باصرة، وآذان مرهفة، وقلوب واعية؛ وهو مع هذا يحتاج إلى حافظة وذاكرة، وبديهة

وروية، وعزم وحزم، خصائص متى جُمعت أو أكثرها في فرد عُدَّ ظهوره نعمة كبرى على أُمته.

السياسي تنشئه الحوادث، وتُنَجِّذُه الخطوب والكوارث، ولعله يفيد منها أكثر مما تفيده الكتب والأقارير، وتَصَفُّح السجلات والدساتير. ويظهر السياسي في الحكومات الشورية كما يظهر في الحكومات الاستبدادية، ولسانه في الحكومات الديمقراطية الحرة أكثر طلاقه وعمله أحسن ظهورًا. وينشأ السياسي من الطبقات الفقيرة كما يستوي في الطبقات الغنية. وأرباب السعة أَوْلَى بممارسة السياسة من المُقِلِّين؛ لقدرتهم على الظهور بمظهر بعيد عن الصعلكة، مجمَّل بالاستغناء والكرامة. والغني مَظَنَّة البعد عن مواقع الإسفاف، وللظواهر الخارجية أثر في الشئون العامة.

يرجح في السياسة الشيوخ على الكهول، لما يُفرض فيهم من وفرة التجارب، والتجرد عن الشهوات. وإذا كان السياسي من بيت رياسة وزعامة، يضطلع بتحمُّل أعباء السياسة أكثر من غيره؛ لانطوائه غالبًا على ذوق خاص يُقدر به ما يصلح وما لا يصلح. وينشأ له من حسن ظن قومه به، وإمتاعه بثقتهم شيء من الروعة في القلوب، والمهابة في النفوس. وما نجح بنو أُمية بالسياسة في الإسلام إلا لأنهم كانوا ساسة وقادة في الجاهلية، نشأ الأبناء على غرار الآباء، وتعلم الصغار في مدرسة الكبار، وبأمثال الأُمويين أتى العرب في زمن قصير من أفانين السياسة ما هو قرة عين الزمان. ولما قلَّ عظماء السياسيين في الدول الخالفة تراجع أمر الأمة جمعاء. أصاب العربَ ما أصاب البولنديين من الأُمم الحديثة، فتمزقت دولتهم أولًا وآخرًا لضعف رجالهم في السياسة. ومتى أشرف أمر جماعة على الانحلال لا يعدمون سائسًا غريبًا يجيئهم، فيتولى منهم ما كان الواجب أن يتولاه خواصُّ الخواص من رجالهم.

ولقد تَكْرُثُ السياسيَّ المعضلاتُ، فإذا لم يتبصر فيما يعرض له، ولم يتسع صدره للتَّوقِّي من النوازل، ولم يوطِّن نفسه على تحمُّل الأذى، ولم يجامل أولياءه وأعداءه تنصرف الوجوه عنه، ويصير إلى حالة يضيع فيها رشده، ومتى ضاع رشده أضاع أُمته، وهو أعظم ضياع. ومِنْ هذا كان ما يصيب السياسيَّ من ظهور وحرمة دون ما يكافئ اضطراب ساعة، تمر عليه وهو لا يهتدي إلى وجه الصواب في خطب دَهَمَهُ، ومأزق صار إليه.

السياسي الشريف كالتاجر الشريف لا يغامر بحق ائتمن عليه، ويعز على صاحب الذمة أن يسيء استعمال الأمانة، وإذا مُزجت السياسة بالدين تخرجه عن قصده، وإذا

تسربت إلى العلم تعبث ببهائه، وإذا سرت إلى الإدارة يقع فيها الخلل، على أنه قلَّ أن يستغني شيء عن قسط من السياسة.

ومنهاج السياسي متشعب منتشر، كأنه إضبارة قضية خطيرة لا يتيسر للقاضي إصدار حكمه قبل أن يقرأ مئاتٍ من الأوراق، وينعم النظر في دعوى المتخاصمين ودفاع المدافعين، وربما فُتح له منفذٌ إلى الحق بجملة صغيرة يسقط عليها، أو بنكتة توحيها تجاربه إلى قلبه. ويندر من أحرزوا صفات السياسي، ولعهدنا بالدول الكبرى المعاصرة تنشئ في العصر بعد العصر نفرًا معدودًا من العيار الصحيح منهم.

ولقد كان الساسة عند الإفرنج منذ القرون الوسطى أكثر من العرب إبان تدليهم، وما غلب ملوك قشتالة وأراجون حكومات العرب في الأندلس إلا لتفوقهم في السياسة، ولو كان في ملوك الأندلس يومئذ ساسة محنكون ما انتهى مصيرهم المفجع إلى ما انتهى إليه. ولو نزل صلاح الدين على رأي بعض فقهائه وما راعى السياسة — فعامل الصليبيين يوم فتح القدس، كما عاملوا المسلمين يوم دغروا عليه — لوسَّع الخلاف بين الغالبين والمغلوبين. فعمل بعقله لا بعواطفه، وجرى على نهج السياسي الحكيم لا على نهج فاتح مغرور.

وكان — رحمه الله — حريصًا على رجاله، الذين يرى فيهم مواهب سياسية ككاتبه ووزيره القاضي الفاضل، فقد كان يحترمه ويبره، وينزل على رأيه، ويعده من أكبر الدعائم في حفظ مملكته. وأن ملكه قام بفضل قلمه. ولما أَسَرَ الإفرنج أحد قضاته — القاضي الهكاري — قلق عليه ودفع في فدائه مالًا عظيمًا، وأطلق بعض من كان في أسره من رجالهم ليعود إليه قاضيه الأمين، وكان منه كما كان الإمام أبو يوسف من الرشيد العباسي، تَزِين السياسةُ علمه، ويستفيد الملك من صائب رأيه.

قيل للشهيد أتابك زنكي والد نور الدين محمود إن هذا كمال الدين بن الشهرزوري يحصل له في كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية، وغيره يقنع منك بخمسمائة دينار، فقال لهم: بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي؟ إن كمال الدين يقل له هذا القدر وغيره يكثر له خمسمائة دينار، فإن شغلًا واحدًا يقوم به كمال الدين خير من مائة ألف دينار.

نامت السياسة في بلاد العرب أجيالًا طويلة، واستفاضت بأَخَرَة شهرة أفراد أحسنوا الإعلان عن أنفسهم، ويندر في الممالك التي مُنيت بتدخل الغريب من يطلق عليهم اسم

السياسي إلا بشيء من التجوُّز؛ ذلك لأن السياسة في أرضهم تكون في قبضة أصحاب القوة من الدول العظمى، وهؤلاء لا يرتضون لها إلا من يمالئهم على ما يريدون بدون أخذ ورد. وجُلُّ من يختارونهم من طبقة النفعيين، ممن تهمهم مصالحهم قبل كل شيء، ولا يعرفون السياسة إلا في أنها الغلو في مصانَعة صاحب القوة، وهم، إلى هذا، قَلَّ فيهم من تَفَقَّه بفقهها، وأتقن الوسائل إلى التبريز فيها. الساسة عندنا مبتدئون، ولا يُطلب من المبتدئ اللحاقُ بالمنتهي. والإفرنج ما تحققوا بالسياسة إلا لتوفُّر عامة أسبابها لديهم، وأهم ما يعوزها عندنا السيادة القومية، وربما كان بعض الموسومين بالسياسة يحسنون صناعتها في الشرق لو وجدوا المجال حرًّا، ولا تعرف حقائق الرجال إلا إذا مُتِّعوا بحرية العمل.

جرى العرفُ على أن السياسة كذب كلها، وهو حكم جائز جرَّ إليه ما بدا من بعض من ينتحلونها من منابذة الصدق في خلوتهم وجلوتهم، حتى لتخالهم مجاميع أكاذيب وأحابيل، وقد أسقطوا بضعف ثقافتهم، وانحلال أخلاقهم، من قيمة أَشرف عمل يقدمه إنسان لأمته. ومن الغريب أنه كلما غلا السياسي في التلاعب، واستراح إلى نصب الأحابيل، أكبروه وخلعوا عليه من الألقاب أضخمها، وأُعجبوا به ولا إعجاب أرباب الغَباء فيمن أسرفوا في قتل البشر من الفاتحين أمثال الإسكندر، وجنكيز، وأَتيلا، ونابليون.

لا يُلزم السياسيُّ، في العادة، أن يطلع الناس على سر حركته وسكونه، ومن الخير له ولهم ألا يقفوا على شيء إن أمكن. ومن أول شروط السياسة الكتمان الشديد، وكم من سرٍّ أدى إفشاؤه إلى مفسدة. والسياسي، مهما اختلفت الظنون في تعليل أعماله، لا يسعه إلا أن يطاول ويحاول، وقد يُحْرِجه أرباب الفضولِ باستدراجه إلى الكلام في غوامض يرى الفائدة في سترها، وقد يتجاهل حبَّ الخلوص بغرضه إلى ساحل السلامة، وربما كان نصيبه من قومه وغير قومه توجيهُ المطاعن إليه، وهو أَحَقُّ الرجال بالاحترام والإعظام.

يقول بارتو: إن العمل هو المحك الذي يُعرف به السياسي، والواجب عليه أن يجعل من كلامه قوة فعالة يصرفها في خدمة المصلحة العامة. ويختلف السياسي الحق Le politique عن السياسي المحترف le politicien اختلاف السياسة عن المكيدة. السياسي المحترف يعيش من السياسة وغايته منها منافعه، وإذا عهدت إليه مهمة عدَّها وسيلة يستثمرها لإملاء جيبه، واستفاضة صِيته، وبسط جاهه، يرتكب هذا وهو على علم بما ارتكب واحتقب، إذ ليس هو ممن تعنيه المصلحة العامة، ولا النظر إلى المستقبل، ولا يهتم لغير نفسه، ولا يتوقع إلا إرضاء شهواته من كل ما يدخل فيه من المؤامرات. يعبث ما طاب له العبث، حتى إذا فاز بربح اغتبط وعَدَّ ذلك غاية الغايات؛ وهذا لأنه

لا أرب له في إحراز مجد، ولا هو ممن تُحدثهم أنفسهم بأن يَشْقَوا لإحراز اسم رفيع، وذكرى طيبة يخلفها لذراريه. ولا يشبه المحترف السياسيُّ السياسيَّ الحقيقي إلا كما يشبه الممثل السخيف الرجل الفنان. قد ينخدع السياسي الحق، والسياسي المحترف أبدًا خدَّاع، للسياسي خطط وأمانٍ ونظر بعيد، وللسياسي المحترف ذرائع يتذرع بها، وأحابيل يحيكها وينسجها. الأول يستخدم السياسة، والثاني يحيا بالمكائد، والناس لا يميزون بينهما، وهما متخالفان وبينهما قرابة خاطئة، ومن الظلم عدم التفريق بينهما. ومن عاش زمنًا بالدسِّ لا يقدر أن يرجع عنه، ولا تطيب له الحياة بدونه. ولا يُحْظَر على السياسي أن يكون على شيء من الدهاء، فإن هذه الصفة تُتطلَّب منه، والمهارة شيء، والاحتيال شيء آخر، والدهاء غير الخديعة.

قال: قد يكون من الضروري للسياسي — حتى يقف على ما يجهل — أن يوهم بأنه عارف حقيقة ما يعالج من أمر. ومن سوء البخت أن يحتاج السياسي الصحيح إلى الاستعانة بالسياسي المحترف. السياسي الحق يقوم بواجبه. ويستخدم من يغامرون معه توقعًا لما يجلبون من المنافع. وقد يحتاج إلى الخونة الماكرين، أما الشرف والفضيلة والضمير فهي وإن كانت صفات محترمة، فَيُستغنى عنها في بعض الأحوال، ورجل الخير لا يصلح في المواطن كلها. ومن الأعمال ما لا تطبق فيه قواعد الفضيلة كل التطبيق، بل يعمد فيها إلى اللين يستميل به صاحبُه القلوبَ، ولا مندوحة لبعض أطباق الطعام من معالجتها بشيء من الأبازير تُطَيِّبها. ثم إنه لا يُشترط في السياسي أن يكون على رأي ثابت أبدًا، وأن يقضي عمرًا في دائرة معينة لا يتحول عنها ولا يَحيد.

بلى، هو مُضطر إلى الاستعاضة عن رأي برأي لحل ما يطرأ عليه من المشاكل. وكم من قانون أساسيٍّ وقع التبديل فيه بعد إقراره بزمن يسير. ولكل حق وقتٌ وموسم. وليس الثبات من طبيعة الآراء. ذلك لأن النظر إلى الأشياء يتبدل بالتجربة وبحسب الزمان والأحوال الطارئة، ومن كان من الحزب المعارض في دولة لا يلبث إذا وُسِّد إليه الحكم أن يُمضي ما يرى فيه المصلحة. فقد قال ميرابو: ما ارتقاء الرجل إلى منصب عظيم إلا بحران يُصيبه فيَشفى من آلام كان يُحسها، ويُعْدَى بما كان منه بريئًا من قبل. وقال هوغو: قد تذم الرجل إذا وصفته بأنه ثابت على رأيه السياسي لم يتزحزح عنه منذ أربعين سنة، فإذا قلت فيه ذلك فكأنك وصمته بأنه رجل لم يستفد من تجاربه اليومية، ولا من تفكيره، ولا اعتبر بما مر به من الحوادث. وكأنك — وأنت تحكم عليه هذا الحكم — تمدح الماء لركوده، والشجرة لأنها صوَّحت، وتوهم أنك تفضل المحار على النسر. فالرأي

قابل للتحول، وما من شيء هو على إطلاقه أبدًا في المسائل السياسية، ويبدل المرء رأيه ولا يخرج عن قانون الشرف، والعار كل العار في اطراح الرأي لهوًى في النفس وجلب مغنم، والذهاب بمظهر، فينتقل صاحب هذا عندئذ من لون واحد ليصبح ذا ألوان ثلاثة. انتهى.

وإذا كان بارتو يجيز للسياسي أن يجتهد في تعديل رأيه حسب الأحوال، فنحن في هذا الشرق نشكو من أنه يندر فينا من له حظٌّ من الرأي أو ما يشبه الرأي، كدأب بعض زعنفة السياسة يخرجون من حزب ليدخلوا في غيره، أو ينضمون إلى عدة أحزاب في آنٍ واحد، يحلفون لكل واحد الأيمانَ المؤثَّمة، ينزعون مذهبهم السياسي كما ينزعون ثيابهم المتسخة، وأشخاصهم أبدًا كالسلعة المعروضة في السوق يقتنيها من يزيد في ثمنها شيئًا، فهم وصوليون يتجرون بالوطنية ووطنيتهم سرقة أُمتهم، وتضليل عقول أبنائها. ولو قد كتب لك أن تستمع لما يبدو على لسان بعضهم ساعة يخلو إلى صاحب السلطان إذًا لسمعت خنزيرًا من خنازير البشر يهم ليلتهم طعامه القذر، ولو كشف الغطاء عن وجوه بعض من يَدْعونهم بالسياسيين لتجلت صورهم واغلةً في التمويه كثيرًا، وهم لو تركوا أيضًا وشأنهم يسيرون بقرائحهم بدون ردء لهم لظهروا للملأ بِقيَمهم الحقة.

وإذا جَوَّز مكيافيلي في كتابه «الأمير» للرجل السياسي أن يصطنع القسوة، ويدوس كل فضيلة؛ لإنشاء مملكة، وقيام دولة، ونادى منذ القرن السادس عشر بأن الغاية تبرر الواسطة، وتابعه على مذهبه هذا بعض ساسة الغربيين، فإن معظم رجال سياستنا استباحوا كثيرًا من الكبائر في سبيل مطامعهم الخاصة فقط، أما الإخلاص في الشئون العامة فهو مما لا موضع له في جريدة أعمالهم.

لا يخجل بعض المتطفلين على السياسة من إثبات اليوم ما نفوه أمس، ومن تسويد الأبيض وتبييض الأسود على هواهم، هُمْ في الأسواق غيرهم في المجالس، وفي حضرة الكبراء صورة مناقضة لما هم فيه عند الجمهور، يكذبون على قومهم، ولا يظهرون العطف عليهم إلا يوم يحتاجونهم؛ ليجعلوا منهم سُلَّمًا إلى أغراضهم. ومن المتعذر على تلك الفئة أن تحرز حُظْوة حقيقية من أُمتها؛ ذلك لأنها من الفريق الذي ما غلط حياته وعالج من أمرها ما يحمد عليه ويخلص فيه، وهم ما أقنعوا أحدًا قط بحسن حالهم، ونبل مقاصدهم، وغاية الذكي منهم أن يبذل أنواع البذل لإغواء العامة تقيم له الحفلات، وتهتف له وتصفق في التظاهرات، وتنوه به في الصحف والمجلات، وإذا كان بعض الساسة بعقولهم في حكم العوام، فما الشأن في هؤلاء ممن لا يفرقون بين سياسة

وسياسة، ولا تميز عقولهم بين حزب وحزب، وهم كالعجائز دينهن دين إمامهن، وكثيرًا ما رأينا العوام يَدْعُون لمن استلحقوهم، وهم لا يعرفون ولو شيئًا قليلًا من منازع دعوتهم، ومرامي حزبيتهم وعصبيتهم، كيف بهذا يصح الاعتماد عليهم؟

أما بعد فإنه يقل في ساسة العرب من وصل إلى ما وصل إليه بالطرق المشروعة، ومن العبث توقُّع الخير ممن يبيع نفسه، ويصنع أبدًا ما يؤمر به. أما ساسة الغرب فلا نكاد نسمع بواحد منهم، بلغ ما بلغ، إلا إذا كان من رجال الكد والعمل، وعلى جانب من الثقافة النافعة، ممتَّع بثقة أُمته.

القول في مشايخنا

قال لي صديق له دالة عليَّ: إنك تنظر في حساب المشايخ الفقهاء بتدقيق يزيد على تدقيقك في حساب سائر الطبقات، وأنت إنما حصلت على ثقافتك الأولى من المشايخ؛ فهلا رعيت طبقتهم على نسبة ما ثقفت عنهم؟ وما نخالك تنكر أيادي الأجلَّة الذين أخذت عنهم وتأدبت بأدبهم. فأجبته بأن غيرتي على مقدساتنا تدعوني إلى أن أحاول بكل ممكن إدخال الإصلاح على سلك المشيخة؛ لعلمي بأن أصحابها هم رجال المدرسة الأولى للأمة، وأن معظم الناس يستجيبون لنصحهم وإرشادهم.

أنا لا أُبغض المشايخ لأنهم مشايخ، وأمقت بعضهم لأنهم عبثوا بواجباتهم، وكان المأمول أن يكونوا أحسن مما هم لأنفسهم ولقومهم، فقد تمت شرور على أيدي الحكام الظالمين كان المشايخ العلة الأولى فيها. وأنا أُحب، على البعد والقرب، من كانت نفسه بعيدة عن المطامع الخسيسة، والظاهر والباطن من سيرته سواء، وليس بيني وبين المشايخ ثارات، وكنت ولا أزال أنكر ما بدا من جشعهم ولا يناسب دعواهم ودعوتهم.

أحببتُ كثيرين ممن عاصرتهم من مشايخ الشاميين والمصريين والعراقيين، وأُعجبت بسيرتهم ونوهت بفضلهم؛ لأنهم عملوا الخير وعلَّموا أُمتهم ما علموا، وترفعت عن سفساف الدنيا إلا ما لا بدَّ منه لمعايشهم. أنا أعرف أن للمشايخ كغيرهم واجبات لا بدَّ من قضائها يعوزهم المال وتحدثهم أنفسهم بالظهور، ولكن طريقتهم تخالف ما يقرءون في كتب الدين، ومنهم من كانوا أبدًا أجرأ ناس على انتهاك حرماته، وهذا ما يزيد كراهتي لهم، واحتقاري لثرثرتهم، وتزييفي لخططهم.

أنا أكره كل منافق فكيف بمن ينافق في دينه، والنفاق في الدين ألا يعمل به، وهو يدعي أنه المحافظ الأمين عليه. وأكره من يدلس في الدين، فكيف يكون كرهي له إذا كان

من رجال الدين، وأكره من يظهر للعالم غير ما يبطن؛ ليخدعهم وينفِّق عليهم بالباطل. والعلم بالدين أن يدخل هديه شغاف القلب وتتهذب النفس بأدبه حقًّا وصدقًا لا رياءً ونفاقًا.

رأيت شيخًا اشتهر عند العوام بالتقوى والعلم، كان إذا قبض راتبه آخر الشهر يذهب إلى الصيرفي حالًا يبدل الجنيهات بجنيهات مثلها؛ لأن الدنانير التي تعطيها خزانة الدولة فيها، بزعمه، الطاهرَ وغيرَه، أما جنيهات الصيرفي فلا شبهة فيها! هذا هو الورع الكاذب، ولو كان صاحب ورع حقيقة لكان كالشيخ عبد الحكيم الأفغاني فقيه عصره، فإنه عفَّ عن كل مال عُرض عليه، وكان إذا ضاق به العيش يذهب إلى الكُور المجاورة، ويشتغل عاملًا بالطين، فإذا تجمع له بضعة ريالات عاد بها إلى غرفته في مدرسته ليعيش بها أشهرًا. ورأيت مبدل الجنيهات يقيد باسمه في دار التمليك دارًا لا يملك إلا نصفها، وكان النصف الآخر لامرأة فقاضته وثبت للقاضي تزويره، فسأله كيف استحل ما ليس له وقيده على اسمه فقال: نسيت. ورأيت هذا الشيخ أيضًا ما توقف عن أن يشهد الزور ليرضي أحد الكبراء ممن له به شبه اتصال أو قرابة، فبربك قل لي: كيف يُحْتَرَم هذا الشيخ ولو ملأ الدنيا علمًا، وطار في السحاب لكثرة صلاته وصيامه!

عُرضت موازنة إحدى الدول في مجلس نوابها، فاستنكف من إقرارها نائب من المشايخ، فسأله أحد رصفائه عن سبب استنكافه فقال: إنها أموال جمعت من المظالم والمغارم، ودينه لا يسمح له بالموافقة عليها، فأمسك صاحبه بيده ورفعها له فأُقرت الموازنة. وماذا نقول لهذا المتمشيخ الذي يدين بمقاومة المدنية الحديثة رياءً وتصنعًا، ويمد يده فيقبض راتب النيابة من هذه المظالم والمغارم.

لقيت والي سورية في الحرب العامة متأثرًا من أحد المشايخ العراقيين وقال إنه قال لقائد الجيش:

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون له ضرام

وأن حكومة سورية ساهيةٌ لاهية، وشبان العرب يتآمرون على سلامة الدولة؛ أي: أنه كان يتجسس على قومه. فقال الوالي: أرجوك أن تقول له إني أنا الحاكم هنا فما هذا الفضول؟ أنا لا أستطيع أن أُجيبه إلى رغائبه، فقد طلب مني أن أسعى له بأن يكون نائبًا عن بلده أو مفتيًا فيها، وبلدته ليست من عملي، فإما أن يترك الدخول فيما

لا يعنيه، أو أنفيه من هنا ولا تأخذني به رحمة. ثم قل له: كيف جرأ وضرب حاجبي على صدره، ودخل عليَّ بدون استئذان، فما هذه القحة؟ فقلت له: إن الرجل مريض في عقله. وشخصت إليه وبدأته بالكلام على أن القوم تضيق صدورهم بمن يدخل عليهم بدون استئذان فقال: وأنت هل ترضى أن يحجبوك كما يحتجبون عن الصعاليك، فقلت له: اللهم نعم، والشرع الإسلامي والمصطلح المدني يأمران بذلك، وعلى من لا يعجبه هذا النظام ألا يكلف نفسه الاختلاف إليهم. وأشرت إشارة خفيفة إلى أن الوالي لا يستطيع أن يعمل له ما يريد، فلم يفهم في الغالب ما قصدت، وما أحببت أن أُبلغه كل ما حُمِّلته، لعلمي بسوء وقعه في نفسه. وكنت أتقي هذا الرجل مخافة أن أزيد في مرضه إذا ناقشته. والوقت أثمن من أن يضاع في مراعاة الأمزجة الغريبة.

وعلمت أن الوالي لم يتبرم وحده من تعجيز هذا الشيخ، بل تبرم به قائد الجيش من قبل. فقد رُوِيَ لي: أنه كان يدخل إليه، ويقضي ساعة بين يديه يحدثه بأخبار صحته، ويقول له في جملة ما يقول: إنه تناول أمس مسهلًا، وأنه خرج ثلاثة مجالس، وأنه أحس بمغص، وأنه سيتناول الكينا، ولكنه يخاف منها لما تُحدث من صداع في رأسه … إلى آخر حديث الغث السمج، خصوصًا في تلك الأيام العصيبة، وكان على عظماء الدولة من التبعات ما تُعد معه عليهم الدقائق والثواني.

اجتاز بدمشق بعض السنين شيخ من أهل مصر، ونشر رسائل في إحدى الصحف المصرية الكبرى، ادعى بها أنه اجتمع إليَّ وأنا لم أَلْقَهُ قط، وزعم أني قلت له: إن متحف دمشق أغنى من متحف القاهرة! وقال: إن كتابي «خطط الشام» ليس إلا كتاب رجل قرأ كثيرًا، وكتب كثيرًا إلى غير ذلك من الآراء، فضحكت وقلت: ليس هو أول رجل كذب عليَّ. وجئت القاهرة فقيل لي إن فلانًا يبحث عنك ليدعوك إلى داره؛ فسألت عنه وقلت للسائل هل هذا الذي ذكرني في مقالاته، قال نعم، قلت: هذا الرجل ادعى أنه لقيني وأني قلت له كذا وكذا، وكل ذلك غير صحيح فما لي وله، ولمَ يحاول الآن أن يدعوني إلى داره، فإن كنت شيئًا في نظره، فلم طعن بي قبل أن يعرفني، وإن كنت لا شيء فلماذا يحرص اليوم على التعارف إليَّ، ألا يكفي في مكارم الأخلاق أني تغاضيت عنه، فألح الوسيط بقبول الاجتماع بصاحبه فما قبلت. ومما قال: إن صاحبه يؤكد أنه مدحني في رسائله فقلت له: وهذا أعظم، كأني لا أفهم الكلام العربي!

وكنت في بعض الليالي في المقهى، فجاء هذا الشيخ وأنا بين رفاقي جالس، فقام له القوم ولم أقم، وجاء يمد يده إلي فما مددت إليه يدًا، وقلت له باحتقار: من أنت؟ أنا

لا أعرفك، فانصدع ورجع إلى الوراء، وتناقل القاهريون ما جرى بيني وبينه وهم بين مستحسِن ومستهجن. حقًّا إني لم أعرف سببًا لحرص هذا الشيخ على إكرامي بعد أن كتب ما كتب فيَّ زورًا وبهتانًا، إلا أن يكون خاف على منصبه، وقد رأى ما لي من المنزلة في بلده، وما لي من اتصال بمقامات عالية هو لها بمثابة العبد الرقيق، فوهم أني ربما ذكرته بسوء عندهم، كما جرت عادة أمثاله. وقد علمت من سيرة هذا الرجل بعدُ أشياءَ، واتصل بي أن حكومته طردته من عمله، فتألم ألمًا شديدًا على تنحيته من الخدمة ومات بعد أيام.

وعرفت شيخًا لم يبقَ له منصبه الديني إلا بفضل علاقته بأصحاب الأخبار من الإفرنج، وقد رأيت ثلة من هؤلاء المشايخ لا يرون في دينهم مانعًا يمنعهم من أن يكونوا عيونًا على قومهم، ويعتقدون أنهم يأخذون من مال مَنْ يتجسسون لهم غنيمة واستلابًا. وكان ولاةُ الأمر يرضون عن هذا الشيخ بدون هذا، ولكن هي النفوس الوضيعة وحب الدنيا. وسار أخوه على نهجه وهو كشقيقه يستدر رواتب كثيرة من الأوقاف، وبمعاونة من يتجسس لهم كان يتناول رواتبها بضع سنين وهو متغيب. ومع كل هذا الإحسان كان يظهر بُغْضَ من يحسنون إليه جهرة، ويقول فيهم ما لا يقوله عدوٌّ في عدوه. وهذا نمط آخر من أنماط الأخلاق، والأخوان من أُسرة كبيرة يعيش بعضها بالخلط والاتجار بالطريقة ودعوى التصوف.

وهناك كثيرون تَوَلَّوْا الأعمال العلمية العظيمة كالقضاء والإفتاء، وكانوا على جانب من الجهل المخيف. أدركت منهم مفتيًا سخيفًا كان يدعي له مريدوه أنه عفيف لا يرتشي، وأنا أعرف أن أحد أقربائي قد رشاه بمقدار من الأرز والسكر والسمن فحكم له بما أراد، وكان إلى هذا جاهلًا لا يعرف إلا ما تعلَّمه من فِقْه المحاكم سأله الوالي ذات يوم عن معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ فقال: يُكشف عن معناها في التفسير. فما قول القارئ برجل مسلم يتولى أَرقى منصب ديني، ولا يعرف كلمة من سورة ربما كان ممن يقرؤها في صلواته كل يوم؟ والشيوخ إذا زادوا إلى ضعة نفوسهم جهلًا يستحيل على أحد أن يوقِّرهم أو تؤثر فيهم كلماتهم. وهذا الشيخ كان ممن يتقرب إلى العوام بلعن رجال الإصلاح وتكفيرهم وتبديعهم؛ لأنهم هم الذين يُظهرون حقائق أمثاله للملأ، ويعرِّفونهم أنهم طبولٌ فارغة لا يطرب الضرب عليها، طبول عُملت من مواد غير صالحة، جلودها كريهة الرائحة، وخشبها مسوَّس، والضارب عليها من كل أخرق أحمق.

وعرفت شيخًا كان معلمًا في كتَّاب يأتي ما يأتيه المُجَّان ويغتاب وينمُّ ويلقي الشغب بين أصحابه، فقلت لشيخه: رأيت من اختلفوا إلى مجلسك قد حسنت أخلاقهم بعض الشيء، حتى الباعة والصناع، إلا صاحبنا فإنه يسمع كلامك ليل نهار ولم يأخذ من سيرتك شيئًا. وهذا الرجل عرض عليَّ بدخول المحتلين أن أُعرفه إليهم، وقال: إنه مستعد ليأتيهم بما ينفعهم من الأخبار، فقلت له: أنا لا أعرفهم، وليذهب بنفسه يعرض عليهم هذه الخدمة. وقد ارتكب في الوظائف التي وليها ارتكابًا لا يصدر إلا عمن عَرِيَ من كل خلق ودين، ورأيته يقبِّل ركبة رئيس أحسن إليه، ويطلب رضاه ويذكر جميله معه، فلما سقط قام يقدح فيه على المنبر في المسجد. ونسأل الله السلامة.

لم يخجل شيخ آخر وهو شيخ معمَّر يدعي الشرف، وصاحب منصب علمي كبير من تقبيل الباطن والظاهر من كف المفوض السامي، وهذا الشيخ تولى القضاء، فكان يدوس الشريعةَ في سبيل دراهم يجتعلها. عُهِدَ إليه في محنة من المحن توزيعُ مقادير من الحنطة على العلماء؛ فأعطى من أحب إعطاءه، وممن خصهم بمؤنته من الحنطة بقَّاله وقصَّابه وخادمه وبائع الدخان، عدَّهم من العلماء وحرم كبار العلماء، وجمع من هذا الاحتيال مبلغًا ابتاع به عقارًا جديدًا، وادَّخر الباقي للأيام السود.

وأدركت شيخًا كان على علم ومعرفة بزمانه تحدث الناس فيه واختلفوا في أمره، وربما حسده بعض أبناء صناعته لانهيال المال عليه في صور مختلفة من مرتبات وهبات وتجارات. كان سمته سمت الزهاد والعباد، وعمله عمل أرباب الدنيا. وما كان كبعض شيوخ الأزهر لعهدنا يلبسون الحرير ويتختمون بالفضة والذهب، ويركبون السيارات الفخمة، ويبنون العقارات والدور. صرف في التعليم والإرشاد حياة طويلة يغبط عليها، ولم يضع كتابًا ولا رسالة ولا عُرف له رأي ولا مذهب، اللهم إلا ما كان من دروسه التي أشبهت دروس القصاص لو دُوِّنت لرأى فيها أهل العلم صورة عقله وحقيقة أمره، وشأنه في ذلك شأن المشايخ عامة في عصرنا يحفظون ولا ينتجون، أما هو ففاقهم بسعة محفوظه وحسن إلقائه، وإلباس علمه لباسًا يلوِّنه حسب الأحوال. وكان هذا الشيخ من أغرب من عاصرت، روى أحد ذوي قرباه أنه صحح في بعض دروسه أحاديث المهدي وهي موضوعة ضعيفة. وقال: إن المهدي المنتظر جاء البلد منذ أيام وضاف عند بعضهم. ولما انتهى الدرس لحق به أَنجبُ تلاميذه وسأله عما إذا كان نزل المهدي فابتسم، وأوَّل بعضهم ابتسامته بأنها إشارةٌ إلى أن الأمر كان كذلك. وادعى هذا الشيخ الخلافة لما رأى حبلها يضطرب ثم عدل عنها لما هُدِّد. وكان حريصًا على بقاء السلطان لأهل الإسلام،

ويذهب إلى أن الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ الله وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ تَصْدُق على من يُتهمون بالكيد لدولتهم والدعوة لقوميتهم. وكانت له منذ نشأته علائقُ مع بعض ساسة الغربيين ويعطف كثيرًا على أبناء الذمة. وأنكر على أحد تلاميذه تساهله مع إحدى الطرق، وأبان له أنها تنافي الإسلام، وما تعدى إنكاره حدَّ المذاكرة بين شيخ وتلميذه وما أحب أن تشيع أفكاره؛ لئلا تصل إلى مسامع من يحب رضاهم. وأنكر مرة الإسرافَ في بيت المال فلما أُعْطى منه راتبًا ضخمًا سكت، وأثار الأفكار على أعداء الدين حتى نشبت الثورة عليهم، فلما رضي عنهم حمد الله في مجلسه على وجودهم وقال: إنه بوجودهم حفظ الدين.

وهاكم الآن صورة رجل من غير هذا الطراز تلقى صاحبها دروس اللسان والدين في الأزهر، وقصد إلى الأستانة يطلب منصبًا دينيًّا، وربما كانت نفسه تحدثه أن تنصبه الدولة شيخ إسلام، يوم موافاته دار الملك، ولما لم ينل ما طمحت إليه نفسه هجا الأتراك ودولتهم. وما أدري بأي واسطة من وسائط الشفاعات صار قاضيًا، وكان في سياسته يتقلب كالحرباء، يشدو بمدح كبير يتوهم أنه يحميه، ثم يعرض عنه ويتصل بغيره ويهجو المحسن الأول. وكانت له أماديحُ تحت الطلب، كان فيها أشبه بمن كان في مصر يعد القصائد في المدح والتهنئة أو التعزية، ويصفُّ حروفها في المطبعة، فإذا كان هناك من يرى فائدة له من مدحه أو تهنئته أو تعزيته وضع على القصيدة اسمه ونشرها، ونال عليها الجائزة، وإذا لم يمنحها الممدوح أو المعزَّى أو المهنأ اختيارًا منحها اضطرارًا؛ أي: بالتهديد والوعيد.

أراد هذا الشيخ أن يظهر بمظهر جديد أمام العوام فأخذ يؤلف، وماذا يؤلف وهو لا يحسن إلا نظم الشعر، أخذ يؤلف كتب صلوات، كأن المسلمين لم يعرفوا كيف يصلون على نبيهم — عليه الصلاة والسلام — حتى جاء هذا الشيخ في آخر الزمان يدلهم على صيغة الصلاة. ويرشدهم إلى ما لم يصل إليه كل من قام في ديار الإسلام من العلماء، وكان يكتب على بعض ما يطبع منها أنها توزع مجانًا، ويطبع منها ألوفًا من النسخ. فإذا صار أحد المتقاضين إلى المحكمة أشار إليه بعض خواص الشيخ أن يبتاع مقدارًا من الكتاب، فيشتري المسكين ما لا ينفعه، وقد يكون المشتري من غير ملة الإسلام.

وحشا هذا المؤلف كتبه بالموضوعات، يزيد العامة بها جهلًا، وأذكر أن من مناماته ما قرأته مدونًا في بعض كتبه أنه رأى نورًا خرج من امرأته، ففسره بأنها ستلد ولدًا

يملأ الأرض علمًا وعقلًا، فما كذب في حسابه، ولدت البارة ولدًا ولكن لا من الطراز الذي تنبأ به أبوه. وقالوا: إنه ألَّف نحو خمسين كتابًا ورسالة، فهو من المكثرين من التأليف بالتأكيد، إلا أنه على التحقيق ليس من المجودين فيه. وتآليفه صلواتٌ وأحاديثُ موضوعة، ومناقبُ وكراماتٌ منقولة من الكتب الضعيفة وغيرها، وكتب ورسائل مختصرة بحسب ذوقه. ولو أن امرءًا جوَّز لنفسه أن يؤلف مثله لكتب خمسمائة تأليف لا خمسين فقط. وكل تأليف من مثل تآليفه لا يتطلب منه أكثر من أسبوع، يأخذ نسخة مطبوعة ينقل عنها عبارات مَنْ تقدمه في الموضوع الذي اختاره، ويحذف منه أماكنَ ويكتب للكتاب بضعة أسطر مقدمة ويقول: هذا تأليف.

ونحمده تعالى على أن أمثال هؤلاء المؤلفين ما غشوا عاقلًا قط، وكان مرماهم استتباع العامة، والعامة لا يعرفون من هذه المسائل شيئًا. حقيقة أن هذا الرجل شاعر ولكن شعره من نمط غريب، ظن الدين شعرًا ينظمه كيف يشاء، وفَاتَهُ أن الشعر هوًى وخيال، والدين حق اليقين أكمله صاحبه الأعظم، وما صحَّ أنه جاء عنه يعمل به فقط ويرذل ما سواه.

سمعت أستاذي في بعض مجالسه يقول: يكثر اثنان الكتابة في هذا العصر، فيفتحان فيما يكتبان على الإسلام وعلى السياسة أبوابًا يعيي العقلاء سدها. أحدهما الشيخ الذي تصدى للرد على الماديين، وهو لا يعرف العلوم المادية، والآخر فلان الذي يكتب المقالات الطويلة في السياسة العثمانية تبدو بها مقاتلها، وينال أعداؤها منها، فقلت له يا سيدي: وأرجو ألا يغرب عن بالكم، ثالثهما ذاك الشيخ المؤلف فإن مناماته وموضوعاته تعود بأكبر الضرر على عقول المسلمين، وتلقنهم الشريعة مقلوبة. وكانت حملاته شديدة على كل من ينفع المسلمين، عادة له اتخذها؛ لأنه لا يرى هذه الصفة تثبت لغيره. وقد حمل حملات منكرة على الإمام محمد عبده، والفرق بين الرجلين كالفرق بين النور والظلمة.

هذا رسم خفيف لحال أهل الطبقة الأولى من المشايخ. فاسمع الآن أمثلة نؤثرها عمن سلمت نفوسهم من المطالع كانوا على أخلاق العلماء لتجري المقارنة بين الفريقين. كان للعلامة الشيخ طاهر الجزائري صديق قديم ارتقى إلى أعلى المناصب في الدولة العثمانية، وكانت صلات الود مستحكمة جدًّا بينهما، ولما بلغه عنه أشياء أتاها، قطع كل علاقة معه فجأة. فألح ذاك الكبير ليفهم الداعي إلى إعراض الشيخ عنه فأجاب: قولوا له: إني كنت أعتقد أنه ممن يغارون على أُمتهم ويريدون خيرها، أما وقد وصل إلى مقام يستطيع أن

ينفعها، وهو لا يفكر في غير مصلحته الخاصة فأنا لا أعرفه. وظل على مقاطعته حتى الممات وصاحبه يتوسل أنواع التوسل ليعود الشيخ إلى ما كان عليه، وهو يعده ويُمَنِّيه ولكن من عزفت نفسه، كشيخنا، عن حطام هذا العالَم، لا يخدعه كلام سياسي ولا بريق وعد خلاب.

وقعت في القرن الماضي حادثة لعالم كانت مما يرفع الرأس، وخلاصتها أن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا لما فتح الشام، وتقدمت الجيوش المصرية حتى بلغت كوتاهية، حَسُنَ لدى والده أن يأخذ فتاوى من علماء دمشق لاستبدال سلطانه بسلطان العثمانيين، فجمع الوالي فريقًا من المشايخ ليأخذ فتواهم في هذه المسألة، فكانوا على أن يضعوا تواقيعهم بما يرضي الوالي، لولا أن أبان الشيخ سعيد الحلبي ضعف الفتوى التي كتبها المفتي، فغضب الوالي على الشيخ الحلبي، وبعد أيام صلى إبراهيم باشا في الجامع الأموي وسأل عن الشيخ الحلبي فقيل له: إنه في غرفته، فجاءه وهو يلقي درسه على طلبته، مادًّا رجله، فما قام له ولا هش، ولما انتهى حول وجهه إليه، وسلم عليه سلامًا بسيطًا، ولم يتحرك ولا ثنى رجله عن مدها، وبقي قاعدًا كما كان، وهو في حلقة طلبته، فانصرف الباشا مغيظًا جدًّا، وأرسل إلى الشيخ من الغد صرة كبيرة فيها دنانير، منحة منه، فردها وقال للرسول: اقرأ على الباشا السلام واشكره على عطيته، وقل له: إني غني ومن يمد رجله لا يمد يده. قالوا: وكان الباشا أقسم بأن الشيخ لو قبل الصرة لأورده حتفه، وأُعجب هو وجماعته في باطنهم بهذا الخلق الشريف.

ولما دخل الإنكليز العراق بعد الحرب العامة زار حاكمها البريطاني السيد محمود شكري الآلوسي العالم المشهور في منزله ببغداد، ودفع إليه صرة من الورق النقدي ورجاه أن يتقلد أرقى منصب ديني في بلاد الرافدين، فأبى الآلوسي قبول ذلك، وادعى أنه في سعة من العيش، ولا حاجة به إلى المال، ولا أرب له في تولي عمل. وكانت سيرة صديقنا الآلوسي سيرة السلف الصالح، لم يسف حياته إلى مال، ولا ركض وراء جاه، وخدم أُمته بعلمه حتى الممات.

بقي أن نقول شيئًا في علم المشايخ، وقد رأينا أكثرهم يجمدون على ما تعلموا، ويكتفون بما تيسر لهم أوان الطلب، خصوصًا إذا كانت بلادهم تتقاضاهم شهادات رسمية كمصر، والشهادة جماع المعرفة عندهم لا يحتاج صاحبها إلى غير ذلك. ورأينا أكثرهم إذا بلغوا درجة توهموها رفيعة يضربون عن كل ما ينير عقولهم، ويزيد في ثروتهم العلمية والأدبية، وقد لا يهتمون للنتائج اهتمامهم بالظواهر.

وكنا نرجِّي من الأزهر أن يخطو خطوة إلى الأمام في عهده الأخير بعد أن قال شيخه في تقريره لأول أمره: إن كل الجهود التي بذلت لإصلاح المعاهد منذ عشرين سنة لم تعد بفائدة تذكر في إصلاح التعليم، وإن نتائج الأزهر والمعاهد تؤلم كل غيور على أُمته وعلى دينه، وصار من المحتم لحماية الدين لا لحماية الأزهر أن يغيَّر التعليم في المعاهد، وأن تكون الخطوة الأولى إلى ذلك جريئة، لا يبالي فاعلها بما تحدثه من ضجة وصراخ. ا.هـ. ولما جاءت ساعة الوفاء بالوعد توقف الشيخ الأكبر عن المضي في إصلاحه، مع أن الظاهر أنه يجد معاونةً من أكبر سلطة في مصر، ويصفق له كل عاقل، ولا أزال أعتقد أن من نبغوا من جماعة المشايخ وعملوا أعمالًا عظيمة أمثال الشيخ محمد عبده في مصر والشيخ طاهر الجزائري في الشام كانوا فلتة من الفلتات.

وبالله عليك أيها القارئ لا تحرجني لتخرجني إلى التصريح بما أنتج هؤلاء المشايخ لخير الإسلام، فقد صدرت في العهد الأخير نحو عشرة تآليف في سيرة رسول الله كتبها كتاب مصريون من أرباب الطرابيش، ولم نر تأليفًا واحدًا لشيخ أزهري ولا لغيره من أرباب العمائم، وشهدنا المستعربين من علماء المشرقيات في الغرب يحيون تراث العرب والإسلام بنشرهم بعض المخطوطات العربية، ويعلِّقون عليها ويعارضونها على النسخ المختلفة، وقلَّ أن شهدنا لعالم أزهري عناية تشبه عناية هؤلاء الغرباء. أليس هذا عنوان ضعف الأزهريين وإهمالهم ما يفترض عليهم؟ ألا يعد في باب العجز المطلق أن الأزهر إلى اليوم لم يوفق إلى وضع فهرس علمي منظم لخزانة كتبه العظيمة؟ كأنه في انتظار أحد علماء المشرقيات من الإفرنج ليضع له فهرست كتبه أيضًا. الأزهريون ومن تابعهم وشايعهم من المشايخ يعملون بعقلية قديمة، لا يرغبون كثيرًا في المعنويات، وكان الرجاء ألا تكون رغبتهم في غيرها.

حدثني صديقي الأستاذ محمد حلمي عيسى باشا شيخ وزراء مصر أنه كان على عهد الملك المصلح فؤاد الأول في قصر عابدين، فسمع صوت الملك عاليًا، فاقترب من البهو الذي كان جالسًا فيه، فرأى في حضرته ثلة من مشايخ الأزهر وهو يقول لهم — وكانت الصحف يومئذ تخوض في تحريم لبس القبعة أو تحليلها — وماذا أعمل لكم أكثر مما عملت؟ كانت موازنة الأزهر سبعين ألف جنيه فجعلتها لكم ثلثمائة وأربعين ألف جنيه وعاضدتكم في كل ما سألتم معاضدة فعلية. ومن الغد أصدر المشايخ — حفظهم الله — فتوى بتحريم لبس القبعة وقَّعَها كبارُهم إرضاء للملك.

كتب الأستاذ محمد علي علوبة باشا في كتابه «مبادئ في السياسة المصرية» صفحة جميلة في هؤلاء الأزهريين تصدق على المشايخ عامة، نعى عليهم توانيهم في خدمة دينهم

ولغتهم، وتساءل عما أنتجوه في مائة عام في أصول الدين والفقه، والتفسير والحديث، والتوحيد والأخلاق، والتاريخ والفلسفة، قال: «وكنا نرجو من رجال الأزهر أن يخرجوا معاجم اللغة العربية للناس سائغة متفقة مع حاجة العصور الحاضرة، فضاع رجاؤنا، واضطررنا إلى الالتجاء في لغتنا لغة قرآننا إلى معاجم المستشرقين والآباء اليسوعيين، وكنا نرجو أن يخرج لنا الأزهر — وقد مضى على تأسيسه ألف سنة — من المؤلفات والبحوث الدقيقة في علومه المختلفة ما يحقق أطماع العالم الإسلامي، بل إنا نرجو ونطمع أن يخرج لنا أمثال الفارابي وابن سينا وابن رشد في الفلسفة، والطبري وابن خلدون والمقريزي في التاريخ، وعبد الله بن المقفع وعبد الحميد الكاتب في الأدب، وغير هؤلاء في التوحيد والفقه والتفسير والحديث والمنطق، وما إلى ذلك مما يمارسه الأزهر ويقوم به.»

ونحن لا نقول أكثر مما قال صديقنا الأستاذ المراغي شيخ الأزهر نفسه — عليه الرحمة — من أن العلماء في القرون الأخيرة استكانوا إلى الراحة، وظنوا ألا مطمع لهم في الاجتهاد، فأقفلوا أبوابه ورضوا بالتقليد، وعكفوا على كتب لا يوجد فيها روح العلم، وابتعدوا عن الناس فجهلوا الحياة وجهلهم الناس، وجهلوا طرق التفكير الحديثة وطرق البحث الجديد، وجهلوا ما جدَّ في الحياة من علم وما جد فيها من مذاهب وآراء، فأعرض الناس عنهم، ونقموا هم على الناس، فلم يؤدوا الواجب الديني الذي خصصوا أنفسهم له، وأصبح الإسلام بلا حَمَلة ولا دعاة بالمعنى الذي يتطلبه الدين.

القول في الفرق

من كانت له دعوة يحاول نشرها لا يُبالي الطرق التي يسلكها للوصول إلى مقصده، ولا يحفل ما يصيب دعوته في الآجل إذا سلم له العاجل على ما يحب ويرضى. وصاحب كل دعوة مأخوذ بتحقيق دعوته لا يحسب حسابًا إلا للحاضر. كانت هذه سيرة دعاة الفرق الإسلامية، ما أهمهم غير تكثير سواد أبناء نحلتهم بكل حيلة، وكانوا يستجيزون وضع الأحاديث لتأييد الدعوة، ويكذبون على مخالفيهم كما يكذب مخالفوهم عليهم، وأدنى نظرة في صورة تأليف هذه المذاهب تنبئ بما أتاه دعاتها في القديم من اتهام غيرهم بما لم يقولوا به.

تحامل بعض السنية على الشيعة (والشيعة فرق كثيرة)، وتحامل بعض الشيعة على أهل السنة والخوارج، تحاملًا لا يقوم على منطق، وتحامل الجماعة على الفرق الباطنية، وهذه بالطبع ما قصرت في أن تختلق لهم ما لا يقولون. ومعظم السبب في هذا التعادي تحمُّس كل فريق لدعوته، ثم ساعد الجهل على اتساع هذا الخرق.

وكان على علماء السنة — وهم السواد الأعظم من أهل القبلة وأصحاب القوة في كل زمن — أن يتساهلوا مع الفِرَق الأخرى أكثر مما تساهلوا ليعيدوها إلى الأصل المُجمَع عليه. ورأينا بعض الفرق الخارجة على أهل السنة كلما حاسنهم هؤلاء تزيد نفورًا، يصطنعون هذه النفرة مخافة أن يزول منهم بالاختلاط ما يرونه مبقيًا عليهم أَمْرَهم، وما كان هدف الفرق الإسلامية غير السياسية بادئ بدء، طمعوا في تأسيس دولة وإقامة خلافة.

ليس في تحقير الفرق على ما يجوزه ضعاف النظر شيء من الحكمة، فالإهانة لا يرضى بها الفرد، فكيف بجماعة لا تخلو من عزة في نفوسها وشمم في أُنوفها، ثم إن الكثرة الغامرة لا يضرها تسامحها إذا رأت أنها متفقة مع الفرق الأخرى في الأصول. ومن وافقتَه في مائة مسألة وخالفتَه في مسألة أو مسألتين لا يعد خلافك معه خلافًا

يُذكر. ولن يقرِّب بين الفرق بعد الآن إلا أن يقيموا الصلوات في مسجد واحد، ويكثروا من الزواج بعضهم من بعض، وبهذا يجري التآلف بين القلوب المتنافرة ويُقضى على دعايات قديمة ما راعى دعاتها الحق والعدل.

غلت فرق الشيعة في نشر مذهبهم، وبناء مذهبهم على تأوهات وآهات، وعلى رثاء وبكاء، وعلى ندب حق مهضوم، وعلى دعاية لا ترقد عيون أصحابها، وعلى ثورة أبدًا ملتهب شواظها، وعلى بذل أموال للدعاة تجبى من الضعفاء والفقراء. وكانوا إلى قلة لأول أمرهم، فزاد سوادهم كثيرًا بهذه الدعايات، وما غرسوه في النفوس بالتكرار. أما أهل السنة فما أتوا ما أتاه مخالفوهم لنشر الدعوة، ذاهبين إلى أن الحق ما دام معهم لا تزيدهم الدعاية قوة إلى قوتهم، وفي العادة ألا يتذرع القويُّ بما يتذرع به الضعيف.

كنت إلى ما بعد سن الشباب لا أُحسن ظني كثيرًا بمعاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد وبعض بني أُمية، وأغلو في حب عليٍّ بن أبي طالب، مقلدًا في هذا الحب وتلك النفرة بعض أساتيذي، واستحكم هذا الاعتقاد في نفسي بما قرأته من الكلام المنسوب إلى أمير المؤمنين في نهج البلاغة، وبما كنت متأثرًا به من كتب التاريخ، وأكثره مما كتبه الشيعة، ونُقل عن رواتهم على غير معرفة. فلما طبعت كتب أهل السنة كتآليف ابن جرير الطبري وأبي حنيفة الدِّينَوَري والجاحظ وابن قتيبة وابن تيمية وابن حزم وأمثالهم، وأخذت أدرس الأخبار كما يدرس الحديث النبوي دَرْسَ تدبر ونقد، لا آخذ ما يعرض على نظري قضية مُسَلَّمة بادئ الرأي، تجلى لي أن بعض ما نسب إلى الإمام في النهج ليس له فيه يد، وأن العقل والنقل ينبذان ما نحله الناحلون، وأن من يجوِّز الكذب على رسول الله تأييدًا لدعوته، لا يتوقف في الكذب على ابن عمه أمير المؤمنين، وثبتت لي أغراض بعض مؤرخي الشيعة فيما رووا ودونوا، رجعت عما كاد يصبح لي عقيدة، وأخذت أُحَكِّم العقل في الحكم على الحوادث، وأتدبر النصوص ومصادرها، نازعًا ما ورثته من فكر، وأخذته بالتسليم من معتقد، وطالعته في الأسفار، وما محصته ولا محصه غيري. فعرفت بعد البحث أن عليًّا — كرم الله وجهه — كان عالمًا عظيمًا، ونابغة ببلاغته وفصاحته، وعلى صفات ممتازة يفوق بها أكثر كبار الصحابة، لكنها لا ترفعه عن الشيخين أبي بكر وعمر، وأن عليَّ بن أبي طالب كان من البشر مثل أصحابه يخطئ ويصيب، وأنه طمع في الخلافة بعد وفاة الرسول على صغر سنه وتقدَّم الشيخان عليه، وهُمَا ما هُمَا بإخلاصهما لصاحب الدعوة، وبمواقفهما المشهورة في نصرة الدين، وقيام دولة الإسلام، وأيقنت أن

الرسول لو كان يؤثر عليًّا لأوصى له بالخلافة، وكان الظاهر من أقواله وأفعاله أنه يؤثر أبا بكر، ومع هذا ترك المسلمين واختيارهم.

ورأيت دعوى أحباب آل البيت أنهم لا يخطئون، وأنهم منزَّهون عن كل ما يتلوث به الآدميون، هي من الدعاوى التي ليس لها من الدين ما يدعمها، نشأتْ من البيئة الفارسية، وكان الفرس يؤلهون الملوك ويقدسونهم. وظهر لي أن الحسين بن علي — رضي الله عنهما — قد غامر في فئة قليلة ممن معه، فقاتل جيشًا لجبًا لبني أُمية فأهلك نفسه، وأن عمال الأُمويين حاولوا إرجاعه عن قصده فلم يستمع لنصحهم، وكان قتله هو ومن كان معه من آل بيته الطاهرين باعثًا على غضب المسلمين كافة. وأيقنتُ أن الخليفة يزيد بن معاوية — رضي الله عنهما — ما أمر بقتله وإنما أراد صده فقط عن الأمر، وقد ساءه وساء آل بيته قتله، فتَزَيَّدَ الشيعة في حكمهم على الخليفة يزيد، وظلموه كما ظلموا أباه أمير المؤمنين معاوية من قبل؛ لأنه طالب بدم عثمان واستولى على الخلافة بنزول الحسن بن علي سبط الرسول عنها.

وهكذا، رجعت عن كثير مما كان سَرَى إليَّ بالتقليد في مسائل علي وعثمان وبني أُمية، وأخذتُ أدين دين المؤرخ لا يتحزب لغير الحقيقة، وشرعت أُدون في كتبي ما اعتقدت صحته، فعَزَّ على بعض الشيعة سماع قولي، وأكبروا مني هذا الجهر بالحق الذي وضح لي، ومنهم من ظنوا أني أرجع عن رأيي إذا هم دغدغوني بمطاعنهم. وطلبت إلى عقلاء الإمامية إخواني الأعزة في دمشق وبعلبك وجبل عامل والعراق أن ينقدوني نقدًا علميًّا مشفوعًا بنصوص مقبولة، فأبى بعضهم إلا السكوت، واسترسل المتعصبون في طعن مبهم، وانتقاد مجمل.

ولطالما قلت لبعض أصدقائي من علماء الشيعة الاثني عشرية إني أكتبُ ما أكتب في بني أُمية، وأنا بعيد عن عوامل التعصب لهم، غير مأخوذ إلا بما يجب على المتمسك بالحق، وإني بعد أن ثبت لي أن تاريخ الأُمويين إنما كتبه أعداؤهم بعدهم، وأن الغرض ظاهر في الحكم عليهم، وليس في الأُمهات ما يبرر الحط عليهم كما يريد خصومهم — قلت: لو كانت المسألة مسألة حب لبني أُمية وبغض لمنافسيهم لتطوعت في التشيع لآل البيت. أستميل قلوب مئات الأُلوف من الشيعة في الأرض، وإني لا أتوخى إلا إنصاف بني أُمية، وليس في العالم الآن فرد واحد ينتسب إليهم لأَتَرَضَّاهُ، فالمسألة إذًا ليست مسألة حب وبغض، ولا تفضيل أموي على علوي، بل مسألة حق وباطل. والغالية من

الإمامية يقولون: إن الواجب أن أُسَلِّم بكل ما قاله جماعتهم في آل البيت المعظمين، وما رواه الراوون من الأحداث التي جرت ودسوا فيها ما راقهم، وكان قولي يشق على من اصطنعوا لهم اعتقادًا قديمًا ورثوه بالعادة، ورأيًا ما رسخ في نفوسهم إلا بشدة الدعاية المتواصلة، وصمُّوا آذانهم عن سماع غيره.

نعم، حاولت أن أُزحزح بعض غلاة التشيع عن تَقِيَّتِهِمْ، وأن أجرهم إلى البحث في هذه الكائنة بحث إنصاف، فأبوا إلا أن يسيروا بعواطفهم، ويفكروا بعقول غيرهم، ويسيروا مع الهوى قدمًا، وكان منهم من إذا لقوني أكبروا جرأتي ووافقوني على كثير من أقوالي، فإذا غبت عنهم اغتابوني، خصوصًا إذا كانوا في مجالس العوام، وتراءى لهم أن كلامهم لا يبلغ مسامع المطعون عليه.

زارني أحد علماء النجف الأشرف، وكان هبط مصر وفاوض بعض علمائها لعقد مؤتمر من علماء الشيعة وأهل السنة في مدينة القاهرة، للبحث في إزالة الخلاف بين الطائفتين العظيمتين، والتوحيد بينهما توحيدًا معقولًا، وزارني بعد حين صديق لي من علماء إيران، فتفاوضنا بشأن المؤتمر، وهو مثل صاحبه جِدُّ معنيٍّ بذلك ويعقد عليه آمالًا كبارًا، وتعاهدنا على العناية بإخراج هذه الفكرة من القول إلى العمل، ووعدني السيد الإيراني إن أنا عُنيت مع علماء مصر بعقد هذا المؤتمر أن يحمل على الاشتراك فيه أربعة من كبار علماء إيران. فما كان ممن يرون هواهم في دوام الخلاف بين السنيين والشيعيين إلا أن زيفوا هذا المشروع المحمود، وشددوا الوطأة في الصحف على القائمين به من جماعتهم، ونسبوهم إلى الغرض، ولكنهم لم يجسروا أن ينتسبوا ولا أن يصرحوا بأسمائهم. قاتلوا هذا المُقْتَرح وهو جنين، شأن الجبناء يحاربون من وراء ستر صفيق بوجوه صفيقة.

لا جرم أن أكثر من يقيمون العقبات في سبيل إبطال الخلافات بين طوائفَ من أهل الإسلام متحدة في جوهرها هم من الفريق الذي يتأكل بهذه التفرقة، ويعيش بالشقاق يوسع شُقَّته بين أهل القبلة. ولا تزال العامة من الطائفتين تردد ألسنتُها مسائلَ تؤلم النفوس على غير طائل. وقد كانت الدواعي إلى هذه الخصومة سياسية محضة وزالت أسبابها منذ عصور، فحري بالعقلاء أن يسدلوا دونها حجابًا ويعملوا للإسلام فقط، وإلا فقد انحلَّ الفرع والأصل وذهبت ريح أهل السنة والشيعة من الوجود.

أطلتُ التفكير فيما جنت هذه العداوة على المسلمين فما رأيت السبب فيها إلا الملوك ومن أعانهم على مقاصدهم من الفقهاء، نفخوا في ضرامها فتأججت، وحملت من المضار

الاجتماعية والوطنية والدينية ما عظمت به المصيبة. اتخذوا من هذه الخصومات أدوات لتأسيس دول، وبها أنشئوا الدولة الفاطمية والدولة البويهية والدولة الصفوية وغيرها. ومن غرائب الاتفاق أن ما قام به الفاطميون في مصر من الدعاية نحو ثلاثة قرون، وصرفوا كل جهد في بث تشيعهم في أهله ما أغنى عنهم شيئًا لما أزالهم نور الدين على يد صلاح الدين، كأنهم ما كانوا أكثر من حزب سياسي يقبض على زمام الأمر، ولا يعتمد على غير جماعته، ولا يفكر في غير إرضائهم، ويبعد من إشراك مخالفيهم في الحكم والغنم.

ورب مدَّعٍ يقول: إن هذه الدعايات نفعت في وقتها، وما نفعت في الحقيقة إلا أصحاب تلك الدولة نشروا كلمتها، وقَوُوا بها بعض القوة ردحًا من الدهر. واليوم ماذا يُرجى من مثل هذه الأمور، والدول قد استقرت في نصابها، ومن المتعذر تأسيس دول جديدة باسم المذهب؟ ومسائل المذاهب نغمة من النغمات كان لها عصور راجتْ فيها كما راجت في القرون الوسطى في الغرب حكومات الرهبان. نعم اتخذت بعض الدول من هذه المذاهب مطايا لأغراضها، وذهب الأصل وهو الدولة وبقي الفرع وهو المذهب. أي: أنه قامت في الشرق باسم علي بن أبي طالب دول كما قامت في الغرب دول باسم عيسى بن مريم، ذهبت الأولى بما فيها من خير وشر، وخلدت الأخرى تحمل مدنيات وتنشئ حضارات. وكان بعض الخير من المدنيات النصرانية ولم ينشأ مثل ذلك من المدنيات الشرقية. ولما تم للساعين ما أرادوه منها لم يبق منها إلا القسم المضر وهو تمزيق شمل الجامعة والجماعة. وأَقْبِحْ به من تراث شغل الناس بالباطل، وصدهم عن التعاطف والتراحُم. وعجيب أن تنقضي القرون بعد القرون ولا هَمَّ لأصحاب هذه المذاهب إلا نشر مذهبهم، لا يَمَلُّون من مُناصبة كل مخالف العداء. وبمثل هذه العقلية كيف يتقدم مُلك وتُزهِر حضارة.

قضى الغرب زمنًا في حروبه الدينية الفظيعة، ولما انتبه لما ارتكب من شَطَط، وأدرك سبب النكبة وسرها تناسى ما حدث، وراح يفكر في سعادته لا يحفل المذاهب، وفي الشرق خَلَّفت دول التشيع القديمة انقسامات أبدية، وحزازات باعدت بين الأهل والعشير من دون ما سبب صحيح. فالواجب على كل عاقل — والأمر كما ذكر — أن يبذل الجهد لينزع من الصدور هذه السخائم، ويأتي على هذه المعتقدات التي تخرج معتقديها من نطاق العقل، ويحارب أولئك الذين يحاولون استبقاء هذا الشقاق لتسلم لهم رياساتهم ويشووا سمكتهم في حريق هذه الأمة الغافلة.

أرى عاملين اثنين للخلاف بين المذهبين: داخلي وخارجي، فالداخلي هو الذي أشرت إليه آنفًا وجمهرة من يتألف منه جماعةُ التجار بالدين، ومن يجري على آثارهم من

العامة بدون روية. أما الخارجي فمنشؤه الحكومات التي يعز عليها أن يأتلف فريق مع فريق في الشرق، فكيف بملايين من البشر أصحاب هذه المدنية، وهذا الدين السماوي وهذه الأقطار الغنية.

دعي مرة لزيارة الهند أحد أصدقائي من رجال الإمامية، فرأى الشيعة وأهل السنة فيها يتطاعنون في مجلات لهم وجرائد تطاعنًا ممزوجًا بروح العداء الشديد، فأنكر على الفريقين عملهما، واستغرب صدور ذلك من رجال كان المأمول منهم أن يعمدوا قبل غيرهم إلى إزالة الخلافات المذهبية القديمة لثبوت مضرتها في هذا العصر أكثر من كل عصر، فأسر إليه بعضهم أن يكف عن عذل المقدمين من أبناء المذهبين على ما يأتون؛ لأن ذلك ليس من صنعهم بل من صنع السياسة. وما جرت العادة أن تشفق الدول على الناس إذا كان في هلاك بعضهم نجاح سياستها.

فقد حدثنا التاريخ أن السلطان سليمًا العثماني قتل على الحدود أربعين ألف شيعي لقيام دولته السنية أمام دولة الشاه إسماعيل الصفوي الشيعية، فكم قتل هذا يا تُرى من أهل السنة في بلاده وكانت أكثريتها من أهل السنة؟

قال بارتولد في تاريخ الحضارة الإسلامية: إن مؤسس الدولة الصفوية في إيران آذن بجعل التشيع دينًا للدولة فأمكنه أن يظهر حروبه مع العثمانيين جيرانه في الغرب، ومع الأزبك جيرانه في الشرق في صورة حروب دينية، فبلغت المنازعة بين أهل السنة والشيعة منذ القرن العاشر الهجري شدة لم يشاهَد مثلها في القرون الوسطى، فأخذ أهل السنة والشيعة يكفِّر بعضهم بعضًا معتمدين على رؤسائهم الدينيين، وصارت الشيعة المجادلة مادة مقدسة لإيران.

وذكر صاحب العلم الشامخ أن سنان باشا فاتح اليمن، قد صار اسمه عَلَمًا على الظلم والفتك وأُولع بسفك الدماء والتفنن بالسلخ والصلب والخنق والجلد، قال: وبينا هو في خاصته ذات يوم يتأوَّه ويبتهل إلى الله في طلب المخرج من قتله مسلمًا في الروم (بلاد الترك) إذ قيل له: إن الجماعة الذين أرسلت لهم حضروا، فأشار إليهم أن اقتلوهم من دون اكتراث ولا نظر ولا استثبات، فقال له بعض الحاضرين في ذلك، فقال: إنما أتأوه من قتل مسلم محترم وهؤلاء زيدية تحلُّ دماؤهم بدون هذا! قال: وكنت أظن أن هذا شيء نادر في سنان المشئوم وجماعته قلائل وإذا هو مجمع عليه في من هو في دولة الأروام، كأن هذا شيء يتبع الدولة وكأنما نسخت الشريعة. ا.هـ.

ونحن رأينا الأحقاد بين اليمانيين والترك تزيد بعد اغتيال الفاتح التركي لمن جاءوه، يلقِّنها الأب أبناءه أربعة قرون، واطردت الفتن العظيمة، وكانت المذاهب هي الباعثة عليها.

القول في الإعلان والشهرة

الإعلان علم جديد قديم فيه نفع وضرٌّ، وفيه خير وشر، مداره على الارتزاق والارتفاق، وسبيله الحظوة وتحسين السمعة واستفاضة الصيت. وقد انقسم الباحثون فريقين في فائدة الإعلان: فريق يقول: إنه كثيرًا ما يجلب ضررًا لما يَحمل من مبالغة وخديعة، فما ابتاع مبتاع شيئًا إلا غُبن، وما صدَّق قارئ ما يراه في الإعلانات إلا بُخِس، ففيها مضارٌّ ولها مساوئ. وقال آخر: إن لكل سبب من أسباب العمل سلاحًا ذا حدين، وإن ذكاءنا أيضًا قد نصرفه في الشر كما نصرفه في الخير، فلا داعي إذًا لتعنيف المعلنين بحجة أن في إعلاناتهم خطأً وتضليلًا. وليس من العقل أن ينبذ الدين والأدب بحجة أن هناك أناسًا من المنافقين والمخادعين، كما لا يجوز أن يزهد في سهام المصارف؛ لأن في بعضها تدليسًا وغشًّا.

ولا مُشاحَّة في أن الغرب أفرط كثيرًا في الإعلان، وأساء استعمال الحرية، ففتحت الصحف في بعض الممالك صدرها لنشر الإعلان عن المواخير والحانات والبغايا والراقصات، وأمسى الناس هناك يسكرون بالإعلان، ويفسقون بالإعلان، ويتبايعون بالإعلان، ويقدَّرون بأكثر من قيمهم بالإعلان، ويخدعون بحسن حالهم على لسان الإعلان. والشرق في ذلك يتقيل طريق الغرب ويقلده وينقل عنه، بمقياس مصغر الآن، وما ندري إلى ما يصير فيما يستقبل من الأزمان.

عَمِد الغربيون أولًا إلى الصحف والمجلات ينشرون فيها الإعلانات، وكان هذا النوع من الإعلان من أكمل الأساليب وأوفاها بالغرض، ثم هبُّوا يُعْنَون بترقية الإعلان، ولا سيما في إنكلترا وأميركا، فألَّفوا لذلك شركات نصبوا لها رؤساء وسماسرة ووكلاء يستعملون كل حيلة من وسائط النشر، وكان من أول من عُني بالإعلان أرباب التجارة والصناعة، ثم الأدباء والفنانون، فغدا الإعلان يرد لهفة كل ملهوف، يُلجأ إليه في نشدان كل ضالة، والبحث عن كل شريد، ويركن إليه كل من يطلب عملًا يعيش منه، وأصبح أيضًا مفزع

كل آنسة أو ثَيِّب تبحث عن زوج تقترن به، ومرجع كل امرئ يطلب حليلة توافقه أو خليلة ترافقه. وبدا لهم أن يعتمدوا في الإعلان بعد الصحف على الجدران، وعجلات النقل والمركبات والحوافل والميضآت، ويعلنون في الأزقة الضيقة والشوارع الفسيحة في المدن والقرى وعلى طول السكك الحديدية وفي المصايف والفنادق والمطاعم وأكواخ الباعة، واتخذوا من الأدوات الكثيرة الاستعمال إعلانات دائمة كالقرطاس الذي يجعل تحت يد الكاتب وقَطَّاعة الورق والموسى وعلبة الثقاب والدُويِّ وموازين الحرارة والمفكرات وورق النشاف وبطائق البريد، وجعلوا الإعلانات على ستائر دور التمثيل والصور المتحركة، وعلى إعلانات يُسيِّرونها في الطرق تجرها مركبات صغيرة بالأيدي أو بالحيوانات، وعلى نشرات ملونة مجسمة، وعلى الأنوار الكهربائية يكتبون فيها ما تهمهم إذاعته، أو يتخذون أشخاصًا عرفوا بطلاقة اللسان يلبسونهم بزةً طريفة ليلفتوا الأنظار إليهم، فيتوهمهم العامة، لأول وهلة، من السادة والقادة، فيرفع المعلن عقيرته في الجادات والساحات يتكلم فيما يحاول الإعلان عنه، ومن الإعلان تلك النشرات المطبوعة على ورق ملون يوزعونها في المقاهي والمطاعم، وفي كل محل يغص بالمرتادين.

وإن ما تنفقه معامل الغرب وبيوت التجارة والمال والملاهي والشركات والنقابات على اختلاف ضروبها والحكومات على تلون أوضاعها، من الأموال على الإعلان لأكثر مما يتصور العقل حسابه. تنفق عن رضًى جزءًا مهمًّا من موازناتها، وتعتقد أنها إذا امتنعت عن نشر ما تنشر وإنفاق ما تنفق تضؤل أرباحها وربما وقف دولاب أعمالها، وتصاب بالإفلاس والكساد. وكذلك الحكومات فإنها موقنة أنها إذا لم تعمد إلى التأثير في أمتها وغير أمتها بالإعلان يتراجع أمرها، ويتخلى عنها حزبها، وتتغلب عليها الأحزاب الأخرى.

ومما كان الاستناد على الإعلان في نجاحه الإعلان عن المصايف، فإن معظم الدول تعلن عن مصايفها بالطرق الكثيرة. وتتفنن؛ أي تفنن في تحبيبها إلى المصطافين من أبنائها ومن الغرباء، وكان للبنان في بلادنا يدٌ طولى في باب الإعلان عن مصايفه فاق بها أهلُه عامةَ الشعوب العربية، وغالَوا في هذه السبيل حتى صار الإعلان عن جبلهم في كل لسان من أبناء هذا الجبل ولم يُشابههم في ذلك قطرٌ من الأقطار. وفي هذه أيضًا مصايفُ جديرة بأن يفزع إليها المصطافون، ولكن أهلها لم يتشبعوا بروح الإعلان، ولم تصرف حكوماتها عنايتها إلى ما يخدم بعض ثروتها من طريق الإعلان.

وبعد، فقد رأيتم أن الإعلان على الأسلوب التجاري في الغرب، واقتبسه عنه الشرق في العصر الأخير، هو من مواضعات المدنية الحديثة، وما عُرِفَ نظير له عند العرب، فالإعلان

وليد الطباعة والصحافة، وفي العهد الأخير زاد المعلنون من كل فريق وزاد التفنن في الإعلان، ومرن دعاته على قول الصدق والكذب، وعلى التلفيق والتزويق.

كانت حكومات الشرق تنشر أوامرها بإرسال المُنادين إلى الأسواق، ينادون فيها وفي المآذن بما يريد الحاكم إبلاغه للرعية، وكان شيخ القرية يرسل ناطورها في هذه المهمة، فيقف في البيدر أو الساحة العامة أو على مزبلة عالية من مزابلها يعلن السكان بما يريد إلقاءه على مسامعهم. ولا يزال أثر لهذا الإعلان في بعض القرى إلى اليوم. وكانوا في الغرب تعلن حكوماته أوامرها بالأبواق، يبوِّق المبوقون في الجادات والأسواق، فيدرك الأهلون المراد من هذا التبويق. فكان الإعلان إذًا ضيقَ المضطرب ضعيفَ الانتشار في الشرق والغرب.

وليس من المعقول أن تخلو المدنية العربية من مواضعات تشبه الإعلان ولو من بعض الوجوه، وتقوم ببعض الغرض منه. كان للشعراء الأثر الكبير في الإعلان، وكان بعضهم إذا أراد أن يبث فكرًا، ويحاول أن يوصله إلى مسامع الخليفة أو الأمير، يحتال أن يلقن إحدى الجواري أبياتًا تلقيها على المسامع في ساعة الأنس، فينتبه المقصود من هذا الإعلان الخاص إلى ما يُراد، ويصل من انتدب القَينة إلى التغني بما لُقِّنَتْه إلى غرضه.

أما الإعلان العام فليس له عندهم أفعل من لسان الشعراء أيضًا ينظمون لهم أبياتًا، متى كثر تناقُلُها بلغوا المرتجى. فقد ذكروا أن تاجرًا من أهل الكوفة قدم المدينة بخُمُر فباعها كلها، وبقيت السُّودُ منها فلم تُنَفَّق، وكان صديقًا للدارمي الشاعر فشكا ذاك إليه، فقال له: لا تهتم بذلك فإني سأُنَفِّقُها لك حتى تبيعها أجمع، ثم قال:

قل للمَلِيحة في الخمار الأسود   ماذا صنعت براهب مُتَعَبِّدِ
قد كان شَمَّرَ للصلاة ثيابه   حتى وقفتِ له بباب المسجد

وشاع في الناس قولُ الشاعر، فلم تبق في المدينة ظريفةٌ إلا ابتاعت خمارًا أسودَ، حتى نفد ما كان مع العراقي منها. وهذا نوع من الإعلان على البضائع. وكانت الحكومات العربية توحي إلى الشعراء أن ينشروا في الملأ قصائد يقرظون بها أو يثلمون على ما تشاء أغراضهم، وكان الحُطَيْئَة شاعر الأُمويين ينظم لهم ما يحبون أن يؤثروا به في الأفكار، وكان الدارمي أيضًا من شعرائهم يرسلونه في هذه المهمات. قالوا: إن يزيد بن معاوية كان يؤثره ويصله ويقوم بحوائجه عند أبيه فلما أراد معاوية البيعة ليزيد تهيَّب ذلك وخاف ألا يمالئه عليه قومه لكثرة من يرشح للخلافة، وبلغه في ذلك ذرو كلام كرهه

منهم، فأمر يزيد مسكينًا الدارمي أن يقول أبياتًا وينشدها معاوية في مجلس إذا كان حافلًا، وحضره وجوه بني أُمية، فلما اتفق ذلك دخل مسكين إليه وهو جالس، وابنه يزيد عن يمينه وبنو أُمية حواليه، والأشراف في مجلسه، فمثل بين يديه، ومما قال:

إذا المنبر الغربيُّ خلَّاه ربه فإن أمير المؤمنين يزيدُ

فقال معاوية: ننظر فيما قلت يا مسكين، نستخير الله. قالوا: ولم يتكلم أحد من بني أُمية في ذلك إلا بالإقرار والموافقة.

وفي كتب الأدب والتاريخ أمثلة من هذا القبيل يتجلى فيها بُعْدُ نظر العرب فيما يصلحهم، وحسن استخدامهم شعر الشعراء في سبيل السياسة والإعلان الحاذق. قالوا: إن مروان بن أبي حفصة نظم في مدح الرشيدة قصيدة، ومما قال فيها:

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الأعمام

فأعطاه من أجل هذا البيت مائة ألف درهم؛ لأنه صادف هوًى في فؤاده وخدم بذلك سياسته.

ما قامت دعوة إلا بالدعاية لها، أي: بالإعلان، وقَلَّما أكبر الخلق رجلًا إلا كان من جملة الأسباب في إكباره ترداد اسمه على الأفواه بالخير أو بالشر. والعالم قد يظنون أن كل من تكرر اسمه على مسامعهم هو عظيم في ذاته، ويتضاعف صيته إن كان على شيء من الأدب، ورزق أنصارًا يحبونه ويمجدونه، ويتطوعون لتعداد مزاياه وصفاته. فإذا كان من رجال الحكم فاتفقت له نكتة أو مسألة تبين عن دراية أشاعها في قومه، وأشاعها له المأخوذون بالظواهر من المخدوعين به، فلا تلبث حكايته أن تنتقل من فم إلى فم، وتزيد بهذا الانتقال شروحًا وحواشي، وتلبس ثوب الصدر الذي خرجت منه، والألسن التي نغمتها.

ويختلف من اشتهروا بالاستمتاع بالشهرة، فمنهم من يشتهر في بيئة معينة، ومنهم من يشتهر في أمة، ولا يعرف عند جارتها، ومنهم من يتمتع بالشهرة في الشرق وآخر بمثلها في الغرب، ولا تتأفق شهرة القلائل إلا إذا كان لهم مدخل عظيم في سياسة العالم، وكانوا ممن بأيديهم القبض والبسط والحرب والسلم. وربما شاع ذكر الواحد من هذا

الفريق أكثر من ذيوع اسم باستور وكوخ وأديسون وكوري. وقد اشتهر جنكيز وهولاكو وتيمورلنك أكثر من ابن سينا والفارابي والبيروني.

يَقِلُّ في الناس من يعطي الحق لصاحبه وينصف فيما له وعليه؛ ذلك لأن العوام ممتحنون بالإفراط والتفريط «والجاهل إما مفرط أو مفرِّط»، ولا يُعرف الاعتدال في غير أرباب العقل والعلم، وقليلٌ ما هم. والعلم كالثروة عارض والأصل في العالم الجهل، ولكَم شُوهد الرجل الذي يُتوقع الخير على يديه قابعًا في كسر بيته، خامل الاسم منكَر الشخصية لا يعرفه غير أهله وأصحابه؛ وهذا لأنه ما أحسن الإعلان عن نفسه، ولم يهيئ له جماعة يعلنون عنه، فلم تتعد شهرته أهل حيِّه أو من سمعوا به بالعرض.

وطالب الشهرة يحتاج، في الغالب، من فنون الجربزة إلى أكثر مما يحتاج الرجل المتزن من أدوات الفضل. ومن الأشخاص من اتصفوا بصفات تفيدهم في وجه وتدفعهم عن آخر. ومنهم من يستسهلون شيئًا لا يهون على غيرهم القيامُ به. والأُمم كالأفراد تنفرد بشيء وتقصر في آخر، وتعيش بشهرتها كما يُميتها خمولُ أبنائها.

قالوا: إن الشهرة قد تكذب، وهو قولٌ لا يخلو من بعض الحق، ورب تاجر عُرف بحسن معاملته وسلامة ذمته، فما أولاه قومه الثقة التي يستحقها؛ ولذلك لم يشتهر الشهرة المطلوبة، وانصرفت الوجوه إلى من هو أحط منه، يعاملونه ويأتمنونه، وقد يَجبرون — لموقعه من نفوسهم — ما قد يصدر منه من حيف في معاملاته، ويغالطون أنفسهم في الثقة به، وما كان له ذلك إلا بفضل الإعلان الذي برع به التاجر الثاني وقصَّر فيه التاجر الأول، والغُنم بالغُرم، ولكل شيء سبب.

انظروا إلى المؤلفين في الدهر الغابر وفي هذا العصر، تشهدوا أن من وقعت لهم وقائعُ تأثرت بها أعصاب العامة هم أكثر أبناء صناعتهم شهرة، وقد تدوم لهم شهرتهم زمنًا طويلًا، والخلق يقلِّد بعضهم بعضًا في الإشادة بذكر صاحب الشهرة والإقرار بفضله. واشتهر قديمًا من كُتب لهم أن كانوا في صحبة الملوك والعظماء أكثر ممن عزفت نفوسهم عنهم. ومن حظوا عند العامة أوسع شهرة ممن اعتمدوا في شهرتهم على الطبقات العالية من الخاصة، وعلى من ركنوا في شهرتهم إلى اقتدارهم الشخصي فقط، ومن النادر أن يشتهر من ليس على صفات تؤهله للشهرة، وهذه تتضاعف إذا هيأ لها صاحبها أو هيأت له الأحوال الأخذ بأسباب الاشتهار.

والمؤلفات كالمؤلفين منها ما يدين بشهرته لأسباب خاصة، فإن كتاب ألف ليلة وليلة أشهر من جميع كتب الأدب العربي، ومن قرءوه في الغرب والشرق أوفر عددًا ممن

قرءوا الآداب الرفيعة. وقد تجد في الفن الواحد بضعة كتب اشتهر أحدها شهرة فائقة، وإن لم يتفوق على أمثاله بشيء ظاهر، وقد يتم له هذا بعوامل لم يكتب مثلها للكتب الأخرى. ومن الكتب ما أحدث ثورة ككتب روسو وفولتير؛ فإنها اشتهرت، وقرأها الناس في عصر صدورها فلقحت العقول بالثورة الفرنسية. وفي الأدب الغربي أُلوفٌ من الكتب لم تكتب لها الشهرة، كما كتبت لرواية دون كيشوت وقصص روبنصن كروزي وجول فرن. ولعهدنا بالأدب الحديث عند الإنكليز وليس في رجالهم من أحرز شهرة الكاتبين العظيمين ولز، وبرناردشو فهل كان الرجلان منفردين حقيقة بما لم يكتب لغيرهما إنتاجُ مثله أم أن عشرات من الكُتَّاب أنتجوا مثلهما ما ينفع الناس ويسليهم لكنهم لم تكتب لهم الشهرة العالمية؟ لم يشتهر شكسبير شاعر الإنكليز وأكبر شاعر في الأرض هذه الشهرة المستفيضة إلا بعد أعوام طويلة مضت على موته، فهل زادت الأيام في قدر شهرته والعالم الغربي ما اهتدى إلى ما في شعره من بدائع إلا بمرور الزمن؟

اشتهر من أرباب المذاهب الدينية من عاضد الملوك دعوتهم، ومن هام العوام بها وهضمتها نفوسهم. وهناك مذاهب جماعية لا تقل عن غيرها شأنًا كمذهب الظاهري والأوزاعي والطبري، ضعُفت شهرتها إذ لم تجد لها من يعضدها من الملوك، ولا من يستهيم بها ويساهم فيها من الخاصة والعامة، كما وقع لمذاهب الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة أوسع مذاهب أهل السنة انتشارًا. واستفاض صيت مالك وأبي حنيفة وابن حنبل؛ لأنهم أُوذوا في سبيل آرائهم، فكسبوا عطف الأمة عليهم. ونجا ابن جرير الطبري بدهائه من ظلم السلطان في حياته، ولم ينج من ظلم العوام بعد وفاته.

ومن البدع في الإسلام ما ذاع بما لقي من المقاومة. وما سكت العارفون عن محاربته ذاع ذيوعًا طبيعيًّا لم يتعد المدى الذي قُدر له في عالم الشهرة. ربما كان من مصلحة صاحب الدعوة أن يُلْغَط فيما يدعو إليه بالموافقة أو المخالفة. وعلى قدر ما يتكلم المتكلمون في أمر يلقى قبولًا. ورب دعوة خُنقت في مهدها لإعراض الخلق عنها، فما انتشر لها في الملأ صيت ولا علقت في الأذهان، ولا نفذت إلى القلوب. ورأينا من يحرص على الشهرة قد لا يوفق إلى الحصول عليها على ما يريد، ومن يتباعد عنها تكون له غالبًا أتبع من ظله. كأن الشهرة غانية حسناء عرفت بالصدود فلا تواصِل كل عاشق.

قلنا: إن الغربيين تفننوا في إحراز الشهرة تفننًا عظيمًا، وبلغوا من ذلك المبالغ، وهم يتعلمون هذه الصناعة كما يتعلم المتعلمون الحساب والكتاب، ساعدهم على هذا التفنن،

وضمن لهم النجاح فيه كثرةُ انتشار الصحف المنوعة، ووفرة العلوم والآداب، وكان من كثرة اتصال الأُمم بعضها ببعض ما نفع الصانعين وما صنعوا والتجار وما هيئوا وعرضوا، والسياسيين وما قالوا، والمغنين وما غنوا.

تقدم أن من سيئات الإعلان أن سُرَّاع التصديق بما يقرءون من أساليبه العجيبة يقعون في شرك المعلنين أكثر من غيرهم، فينخدعون ولا يدركون أن حقيقة ما نُمي إليهم فاقتنعوا بصحته هو أقل من الواقع. ذلك لأن لهذه الإعلانات ثمنًا يستوفيه المعلن من المعلن إليه بافتراض الفرص للانتفاع بغفلته. ولو رجع كل من يصدق ما يقرأ في إعلان بنصف ما وطد نفسه أن يحصل عليه لكان الرابح كل الرابح. والأغلب أنه يُدَلَّس عليه كثيرًا وخسارته أكثر من ربحه. ولا يزال الطماعون يسقطون في أحابيل المعلنين، ولو تكررت هذه الخدع مرارًا. فإن من يُستهوى مرة يقع في نفسه أنه لا يخدع في المرة الثانية. وصاحب الإعلان يردد في سِرِّه: إذا خُدع زيد اليوم فإن عمرًا يخدع غدًا، ولا يخليه الإعلان من أناس يغشهم ويستثمر سذاجتهم. إن شهرة يحرزها صاحبها باستحقاق قد تدوم له ويورثها عقبه، وصاحب الشهرة الحقيقية ينتفع بالإعلان ولا يتضرر كثيرًا، إذا أحجم عنه ما دام له من خصائصه وماضيه وحاضره إعلان كافٍ. وهل أكثر بقاء من إعلان يصدق على الدهر لا يكذب، وقوامه حق وحقيقة.

حاول كثير من أدعياء العلم في العصور الغابرة أن يشتهروا بالنيل من علماء اشتهروا في أيامهم كالجاحظ وابن حزم والغزالي وابن تيمية، فأكثروا من الحط عليهم وتزييف آرائهم، فماذا كان من الزمن الذي لا يُبقي على غير الصحيح؟ كان منه أن انقرض أولئك الذين طلبوا الشهرة على حساب غيرهم، وسلكوا إليها غير طريقها، وبقيت آراءُ هؤلاء الأئمة تُقرأ وتُتناقل، وتَتمتع، على الأيام، بثقة العلماء والمتعلمين والموافقين والمخالفين.

مثَّلنا بهؤلاء الأعلام الأربعة والأمثلة من هذا القبيل كثيرة، ونريد أن نقول فقط: إن من ظنوا أنْ تكتب لهم الشهرة بالإنحاء على أرباب الشهرة يضرون أنفسهم وينفعون المطعون عليهم، ورب مطاعن لم تورث الطاعنين إلا الخزي، وبقي بعدها المطعون عليهم لم تزعزع مكانتهم أهواء المبطلين وإفك الأفاكين.

لا يأخذ المرء فراغًا في هذا الوجود أكثر من حجمه، ولا ينال حظًّا من الشهرة بحسد من اشتهروا، والاعتداء على شهرتهم، والمرء وحده ناسج برود شهرته، وقد تقع له من الأحوال ما تعظُم به هذه الشهرة وتضؤل، ولا تكون له يد كبرى فيها. وقانون الشهرة

غريب في ذاته، فقد رأى التاريخ بلادًا عُرفت بخمولها، فاشتهرت بأفراد خرجوا منها ونشروا بعبقريتهم شهرتها في الآفاق، اشتهرت البلدة بالفرد وكان المعقول أن يشتهر الفرد بالبلد. وقد يأتي من أبناء القرى الخاملة أرباب حزم وعزم أكثر من أهل المدن الكبرى. ورب مشهور يُحَسِّن سمعةَ أُمته، وكم من أُمة لا تُنيل بنيها ما يستحقون من شهرة؛ لأنها من مجموعها لا تعد شيئًا. وتفعل في رفع صاحب الشهرة وخفضه عواملُ كثيرة، ومنها ماضي أُمته التي نبغ فيها، وكذلك حاضرها إذا كان مما يُحمد ويعجب به.

لا تفيد الدعوة إلى الاشتهار إذا كان من يدعى له صفرًا من المعرفة التي تنبعث عنها الشهرة بقدر ما يفيد الأخذ بالأسباب المشروعة المعقولة لإدراكها. وكل من يلاحق الشهرة غالبًا بدون سلوك طريقها المعروف لا تواتيه على ما يريد ويبقى العمر في حسرة على ما يتوقع من فوائدها لو جاءتْه بالقدر الذي يتطاول إليه. والشهرة قد تكون آفة على صاحبها لما تحمل من تبعات وأتعاب، ولكنها على كل حال مدرجة إلى الغنى وذريعة إلى تخليد الذكر.

يقول ابن خلدون إن الشهرة والصيت «قلَّ أن تُصادفا موضعهما مع أحد من طبقات الناس من الملوك والعلماء والصالحين والمنتحلين للفضائل على العموم، وكثير ممن اشتهر بالشر وهو بخلافه، وكثير ممن تجاوزت عنه الشهرة وهو أحق بها وأهلها، وقد تصادف موضعها وتكون طبقًا على صاحبها، والسبب في ذلك أن الشهرة والصيت إنما هما بالأخبار، والأخبار يدخلها الذهول عن المقاصد عند التناقل، ويدخلها التعصب والتشيع، وتدخلها الأوهام، ويدخلها الجهل بمطابقة الحكايات للأحوال لخفائها بالتلبيس والتصنع أو لجهل الناقل، ويدخل التقرب لأصحاب التجلة والمراتب الدنيوية الثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك، والنفوس مولعة بحب الثناء والناسُ متطاولون إلى الدنيا وأسبابها من جاه وثروة وليسوا، في الأكثر، براغبين في الفضائل ولا منافسين في أهلها.»

الإعلان، كما قلنا، خيرٌ وشر، والعاقل من انتفع بالشق المفيد منه، وتجرد من الطمع فيما يتعذر عليه نيله. وكم قِنْيَة لا تفيد، وكم من أُمور لا ينفع العلم بها ولا يضر الجهل. الإعلان صورة من هذه الدنيا تمثلها أصدق تمثيل، وما برح العالم في كل عصر سوقًا يعرض فيه الكذب والتزوير كما يعرض الحق والحقيقة، فلينظر الإنسان أَيَّ صراط يختار، صراط الصلاح أم نقيضه، صراط الكذب أم صراط الصدق؟ أما هو فعليه أبدًا تَبِعة ما يُسِرُّ وما يعلن.

القول في إرشاد العامة

لو كان مَنْ وُكلت إليهم هداية العامة يؤمنون حقًّا بما يعظون لأثرت أقوالهم التأثير المطلوب ولقلَّ معظم ما نراه من شرور. الدين يطهِّر النفوس، وإذا آض إلى أيدي من لا يحسنون استعماله يُصبح عبارة عن رسومٍ وشعائرَ لا تدخل الصميم. الدين ينفع في هداية الطفل والبالغ وسلطانُهُ يسري إلى الأرواح والقلوب، ويجعل بين المرء وربه صلة محكمة، تحمله على أن يكون سره كعلانيته وظاهره كباطنه.

نرى المصلين في الجوامع إلى اليوم ليسوا بقليلٍ عددهم، ولكن هل علموا كلهم يا ترى بما يتلون وبما يُتلى عليهم؟ هل هَدَتْهُمْ صلاتهم إلى أن الله تعالى حرم عليهم الكذب والسرقة وأمرهم بالصدق والأمانة؟ ابحثوا في شئون هؤلاء المستهترين، هل ترون أكثرهم عمل بقليل مما أمره به الدين أم هو مسلم جغرافي، ومسلم تشهد بإسلامه تذكرة النفوس ووثيقة الهوية فقط؟

أرجو ألا أُتهم باستعمال الأسلوب الخطابي، وأنا لا أطلب ممن يتهمني بذلك إلا أن أدعوه ليحتك بالمرتزقة والتجار والفلاحين، فيشهد العجب من انحطاط الأخلاق. نرى السارق يسرق بدون نكير والكذاب يكذب ولا يخجل، ولو أردنا تصفية أبناء كل حرفة من مخازيهم ما ثبت على محك النقد إلا أفرادٌ قلائلُ في كل قرية وفي كل حي ومنزلة.

تدبروا أخلاق أكثر أهل القرى وأخلاق أهل المدن تَرَوا بعض الفلاحين والمدنيين سواءً، في الفساد وضعف الأخلاق، لا تكاد تجد الأمين المؤتمن إلا نادرًا، وكان الأجداد على عكس ذلك، تغلب الفضائل النفسية على السواد الأعظم منهم في الجملة. وأكثر من تعتقدون فيهم الأمانة يسرقونكم متى آنسوا منكم ضعفًا أو غفلة، أما الكذب فلم يسلم

منه إلا مَنْ عصم ربُّك، وأما الغش فما أظن المانع لبعضهم من الاسترسال فيه إلا عِلْمُهم بأن اشتهارهم به يؤدي إلى قطع أرزاقهم!

أُمثِّل لكم بمثال واحد أُثبت به ما أقول، وهو تحت نظرنا كل ساعة وكل يوم، انظروا البياعات والحاجات هل تجدون أشياء كثيرة سلمت من الغش؟ يغشون في الكيل والوزن وفي القياس والذرع، وأكثرُ مواد الغذاء مغشوشة، فالغش يدخل الخبز واللحم والسمن والزيت والزبدة والقشدة والجبن والدبس والعسل واللبن الرائب الحليب وماء الزهر وماء الورد. وإذا أرادت الحكومة أن تسيطر على العامة والمرتزقة قد يشترك مَنْ تُنصِّبه لذلك مع الغشاشين، فيزيد لص كبير إلى أُولئك اللصوص الصغار، وهذا المسيطر قد يكون ممن يحمل شهادة أطول من قامته ولكن نفسيته دنيئة. معظم ما يعمل في السوق وفي خلوة مغشوش، الأدوية مغشوشة في الصيدليات، والقهوة والمرطبات مغشوشة في المقاهي، والحلويات والألوان المطبوخة في المطاعم مغشوشة. وأرباب المدارك من المستهلكين يعلمون هذا ولا يستنكرونه؛ لأنهم هم أيضًا مشاغيلُ بغشهم.

كان أكثر العامة يبتعدون عن الغش في الوزن والكيل، وعن غش المائعات والسائلات، وما كان الفلاح يجوِّز لنفسه غش اللبن غالبًا؛ لأنه كان يعتقد أن الله تعالى يجازيه على فعلته بهلاك بقرته أو عنزته أو نعجته، وما كان يُحب أن يُخسر الكيلَ والميزانَ لأن الله له بالمرصاد، يعاقبه في الدنيا قبل الآخرة فيفجعه بأولاده، ويرزؤه بصحته أو دابته، ويسلط الأقوياء عليه ينهبونه ويسرقون ما ادخر من مال ومؤنة، أو يسلط عليه آفة تأتي على ما جمع. كان هذا الاعتقاد نافعًا جدًّا في دفع الأذى، يساعد المحتسب على القيام بإنفاذ قانونه على الناس في يُسْر وسهولة. وفي أيامنا تفلسف العامة؛ بل ألحدوا وتزندقوا، فظلوا يصلون ويصومون، ولكنهم يسرقون ويفحشون في سرقاتهم. وهذا مما ينذر بسوء المصير.

أنا كلما زدتُ معرفة بهذه الطبقات يسوء ظني بالمستقبل، وأُعزِّي نفسي بأن الأخلاق تتردى في الحروب، ولا بد أن تتحسن متى انجلت الغمرة وزالت الشدة، ولطالما تمنيت لو قاسمني السارق، برضاي، ما يريد أن يسرقه مني في سر، وكثيرًا ما قلت لهؤلاء الفلاحين وغيرهم: إذا طمعتْ أنفسكم في أخذ شيء من أشيائي قولوا لي، وأنا أنزل لكم عن بعضه برضاي فتأخذونه حلالًا طيبًا، ولا تطمعوا في أخذ شيء بدون علمي فأنا لا أريد أن أُسترقع وأستحمق. ولطالما قلت لبعض أرباب الصناعات خذوا أجرة حسنة على أن تعاهدوني ألا تسرقوا شيئًا في غيابي. ولكن نفوس أهل هذه الطبقة زُيِّنَ لها الربح

من أي طريق أتى. ولكَم كنت أعطي العامل وأُكرمه، وكلما زدت في إكرامه استضعفني وغلا في نهبي.

لا ألوم من لا تدرك عقولهم إلا المنفعة المعجلة، وقد تجردوا من الفضائل الكسبية والفطرية، بقدر ما ألوم من يجيئون في طبقة أرقى من طبقتهم، وهم مناط الرجاء في الهيمنة عليهم.

رأيت هؤلاء الغَشَشة باعة وتجارًا، يجمعون أموالًا، ويبنون حوانيت وبيوتًا، ويقتنون مزارع وحدائق، ثم يبدَّد كل ما جمعوه بأدنى عارض، فكنت أحمد الله على ذهاب أموال جُمعت بالسُّحت وبالغش، وأجد ذلك عقوبة عادلة لهم. رأيت ثروات من احتكروا أصنافًا من القوت في الحروب تتمزق شر ممزق، وكذلك سيكون مصير أموال من تجردت نفوسهم من كل شفقة، واحتكروا ما الناس في أشد الحاجة إليه.

والآن ماذا يجب أن يُعمل لإصلاح هذا الفساد المستشري أو تخفيف ويلاته على الأقل، هنالك ثلاثة عوامل تُفيد في تقليم أظافر الفاسدين وتعيد إلى المجتمع صفوه الذي كان له في الدهر السالف. العامل الأول: تطبيق القانون على من يعبثون بحقوق الخلق بدون مسامحة ولا هوادة، فإن قوانيننا الشرعية والوضعية كفيلة بالسعادة، لو جرى تطبيقها على ما يجب ما احتجنا بعدها إلى وازع آخر. إلا أن المسألة تتوقف على إنفاذ تلك القوانين، والقوانين تغني غناءَها بالتطبيق لا بجمال مادتها، وانسجام عبارتها. وفي بعض الآثار: «يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن.» أي: أن مَنْ يُكف عن ارتكاب العظائم مخافة السلطان أكثر ممن تَكُفُّه مخافةُ القرآن والله تعالى، ولا بد من تضييق خناق المسيطرين على القوانين في إرشاد العامة إلى الجادَّة، وأن يُطرد المتساهل من عمله ولو كان يُعد من الرؤساء، فالسمكة تنتن من رأسها، كما يقول الأتراك في أمثالهم، والتفتيش يجب أن يتناول الكبار قبل الصغار، فبأيديهم تَسير شئون الناس سيرًا حسنًا أو تتلوَّى وتزيغ.

والعامل الثاني: الخطباء والوعاظ، فهؤلاء من واجبهم أبدًا أن يبينوا للفاسدين مغبة عملهم على أنفسهم وعلى الجماعة، يقولون ما يقولون لهم عن عقيدة، لا كلامًا لا يتعدى أطراف الشفاه، يختلطون بالناس ويُنوِّعون الأساليب لمن يهم الجماعةَ إرجاعُهم إلى الطريق السوي، ويخاطبونهم باللغة التي يفهمونها، ويدلونهم من طريق العقل والنقل إلى كل ما فيه صلاحُ نفوسهم، والبعد بها عن الكذب والخديعة.

والعامل الثالث — وهو الأهمُّ: قيامُ الأمة، على اختلاف طبقاتها، بهداية الضالين، وتذكيرهم بحقيقة دينهم ومصالح دنياهم، ومقاطعتهم إذا سرقوا وكذبوا، يبينون لهم

السبب الذي من أجله قاطَعوهم. وعلى الصالحين أن يعتقدوا أنهم بعملهم هذا يقومون بواجب مقدس، وإذ هم رحموا حيث لا تحلُّ الرحمة تضيع حقوقهم وحقوق غيرهم، وعليهم أن يعتقدوا أن واجب كل إنسان أن يعتقد اعتقادًا جازمًا أنه هو القانون وهو الحكومة، وأنه متى تهاون فيما يرى ويسمع من منكر ولم يتقدم لإصلاحه يُعد خائنًا لأمته وخائنًا لنفسه، فإن الفرد في معظم الأُمم الراقية في الغرب يعاون الحكومة في مهمتها، ويعتقد أنه إذا لم يهيمن بنفسه على من يخرق القوانين يُعد شريك الجاني والمجرم.

وهذا العامل الثالث من أشد العوامل الناجعة في هداية الزائغين من العامة، خصوصًا إذا أوهم الخواصُّ العوامَّ أنهم ليسوا أرقى منهم كثيرًا، وأن بينهما درجة إذا صعدوها ماثَلُوهم، وكانوا موضع الرعاية والحرمة، ولا يؤلم العامة أكثر من احتقارهم. ومن هنا جاء حسدُ الفقراء للأغنياء، وإعراضُ الجهلاء عن العلماء، وغيرةُ الضعفاء من الأقوياء.

إذا اجتمعت هذه العوامل الثلاثة وعُملت بإخلاص وجِدٍّ ينصلح الجزء الأعظم من الأمة، وبإصلاحه ندخل في طور جديد ونحمد غبَّ القوانين المرعية، وإذا بقيت كما هي اليوم عادت كعلم جابر اقرأ تفرح جرب تحزن. ومن كان صلاحه بيده وهو يهمله لا يبالي فأنذره بمصير من يعلمون ولا يعملون. ا.هـ.

هذا نص خطاب ألقيته في المجمع العلمي العربي، على طبقات من الناس فيهم أعظم أصحاب السلطان، فانزعج بعضهم لسماعه. وقال كبير فقهائهم: إنني قمت بما كان الواجب عليهم أن يقوموا هم به! وزارني بعض من لاحظوا أنني عرَّضت بهم يشرحون لي فرط غيرتهم على مصلحتهم وأنهم يعملون جهدهم لمنع هذا الغش الماثل في نطاق عملهم. وانتهى الأمر عند هذا الحد، لم يغير المغيرون شيئًا وكيف يغيرون وهم ما اعتادوا إلا العناية بما يدخل جيوبهم وعيابهم، لا يهمهم سواه ولو خربت الدنيا. رأيت أن أضم ما قلت إلى هذه الفصول؛ لتعرف الأجيال القادمة مبلغ بعض الحاكمين والمحكوم عليهم من العلم والعمل في عهدنا.

القول في بغضنا للأجانب

يتهم بعضُ أرباب الأغراض من الغربيين سكانَ بلاد العرب ببغض الغرباء وكراهة الأجانب، من الإفرنج خاصة. تهمةٌ كثر تردادها وتعددت ضروبها وقويتْ مصادرها وما ردَّ رادٌّ عن المتهمين ما عُزِيَ إليهم، وهم ما فكروا أن يدفعوا عن أنفسهم تلك الأباطيل التي لا يحققها الواقع وتنكرها البديهة.

والمأثور عن العرب أنهم أكثر الأجناس تحببًا إلى الغريب ومن أعرق الشعوب في التسامح وأنهم في سخائهم آية، لا تماثلهم فيه أمة، حتى كاد أن يُعد كرمُهم إسرافًا، وهم، إلى هذا العهد، لا يفرقون في قِرَاهم بين عدوهم وصديقهم، وبين من يعتقد عقيدتهم ومن لا يعتقد، وعندهم أن العدو إذا تحرم بطعام عدوه كان له بذلك مخرج من ذنب اقترفه معه، فيضطر إلى أن يصفح عن جرمه مهما كان عظيمًا، وكما أنهم ما عرفوا للكرم حدًّا ما منع دينهم من إعطاء المسلم وغير المسلم من الصدقات.

من القديم اختلط الإفرنج بالعرب، وكان أكثر هذا الاختلاط والعرب في أوج عظمتهم في الأندلس وصقلية، ثم التقَوا بهم في الحروب الصليبية في الشام ومصر، فدوَّن بعضُ مؤرخي الفرنجة بعض ما شاهدوه في ديار المسلمين، وأشار بعضهم إلى أن هؤلاء كانوا على صفات ممتازة لا يختلف في التحلي بها عامتهم عن ملوكهم، وذكروا من سماحتهم ووفائهم ما ناقض ما كان يختلقه بعض رجال الدين عندهم من وصف المسلمين بالتوحُّش وضعف العهد، واتهامهم بأمور مستغربة لم تُعهد عند غيرهم من أبناء آدم وحواء.

وكلما كَرَّت الأيام كان التهريج في العرب يتزايد بما يخترعه القسيسون من أساطير وترهات، ولما تسلطت بعض الدول على الشرق، كان من مصلحتهن إلصاق هذه التهم في

العرب تصغيرًا لأمرهم، وصرفًا للنفوس عنهم، وتبريرًا لموقفهن منهم، وإيهامًا بأنهن ما فتحوا ممالك الإسلام إلا ليحملوا المدنية إلى مَنْ هُمْ في هذه الدركة من التقهقر.

حالت صعوبة المواصلات في الأعصر الماضية دون تعارف العرب والإفرنج، فوَلَّدَ البعد جفاء وأورث الإفرنج تعصبًا على من لم يتعارفوا إليهم، وكان من أشد الأُمم الإفرنجية بغضًا للعرب خلفاءُ الرومان من العنصر اللاتيني، نشأ هذا البغض من استيلاء العرب على ديارهم في الدهر السالف، وما عُهِدَ مغلوبٌ يحب غالبَه. ثم إن تلك الشعوب لم تكن يومئذ من الثقافة بحيث تدرك ما امتاز به العرب من مكارم الأخلاق، وما صَفَتْ نفوس جاهلية القرون الوسطى من لوثات التعصب الذميم حتى تنصف مخالفيها في الطباع والجنس والدين، وحرية الأديان وحرية النظر في العلم ما عُهدت في الغرب قبل أن يحملها العرب إليه، أضف إلى ذلك أن أوربا كانت في سلطان الدين قرونًا طويلة، وكانت رُومِيَّةُ المصنعَ الأول لصوغ ما يوجه من التهم إلى أهل الإسلام.

كان الإفرنج كلما جاء أحدُهم الشرقَ العربي في سفارة أو تجارة لا يعود منها إلى أهله، قبل أن يملي من مخيلته غرائب مما رأى، وفي جملة ما يذكر نُفرة العرب من الغربيين، ولعله كان يطمع في أن يقف الأهلون على أقدامهم صفوفًا على الجانبين يسلمون عليه وهو يجتاز الشارع، ومنهم من قال: إنه شاهد الأطفال يهربون منه لما وقعت أعينهم على عينه، واستغربوا هندامه، وإن بعض الأحداث في الطرق أسمعوه كلامًا ربما كانوا يداعبونه به فوهم أنهم يشتمونه، وما أكثر ما يرى السائح الشرقي اليوم في صميم أوربا مثل هؤلاء الأحداث يتجمعون عليه ويصرخون في وجهه. يوردون من هذا القبيل حكايات سرت إلى أرباب السذاجة منهم، وهي لا تتألف منها مادة للبغض ولا للحب، وقد صُور فيها العربي صورة كلها بهتان وتضليل.

ومما يستدلون به على نفرة العربي من الإفرنج أنه قُتل في العصرين الأخيرين بعضُ أرباب الرحلات من الغربيين في ديار العرب ولم يُعرف القاتل. ومثل هذه الحوادث طبيعيةُ الوقوع؛ لأن هؤلاء السائحين تسللوا خفية إلى البوادي في زيٍّ منكَر، وهم لا يعرفون العربية في الأغلب فكانوا موضع شبهة، وربما كان السبب في هلاكهم مرضٌ أصيبوا به في تلك المفازات. وإذا وقع أن هلك أفرادٌ فكثيرون نجَوا، وكتبوا في الأرجاء التي استقروها أمورًا مهمة، وأتوا منها بعاديات وآثار خدموا بها العلم. وعجيب أن يذكروا من قضوا في حوادث أفرادية تقع للولي والعدو في كل بلد، ولا يذكرون عشرات ممن عادوا إلى أهلهم سالمين غانمين.

ولما سهُل الارتحال على أهل الغرب وعلينا كان سائحهم يأتي مدينة من مدننا فيقص في العودة من عجائبها وغرائب سكانها ما رأى وما لم ير، قاصدًا الإغراب أو خدمة غاية معينة لا تتحقق بزعمة إلا بالكذب. أما هو فما رأى العرب إلا في الطريق ذاهبين جائين، وما وصل إلى علمه عنهم شيء نقله ثقة، اللهم إلا إذا صح عنده ما تلقفه من أفواه التراجمة وغلمان الفنادق والحوذيين والسواقين ومساحي الأحذية، وبعض أصحاب هذه الحرف يصورونا عن قصد صورًا مضحكة ليجلبوا بها السرور إلى قلوب السائحين فتنبسط أيديهم بالعطاء.

ولو كنا في مقام التنظير بين معاملتنا للغريب ومعاملته لنا في القرون الغابرة لقلنا للغرب إن ديارنا كانت تَقبل كل من يَفِدُ عليها إن لم يكن ممن ثبتت جاسوسيته. وأنتم يوم كنتم تفترون علينا هذه الافتراءات كنتم لا تسمحون لمن يخالفكم في معتقدكم، وهو من جنسكم، أن يساكنكم في بلد واحد، فتطردونه طرد الوحوش الكواسر. فكان من يخالف مذهبُه مذهب السواد الأعظم عندكم في بلاء ليس بعده بلاء. فهل سَجل لنا مَنْ طالما كذبوا علينا مسألةً واحدة تشبه عملكم هذا خلال تاريخنا الطويل، أو أنَّا أسأنا لمخالفينا في الدين، بدون موجب، في عهد ارتقائنا أو في عهد انحطاطنا؟ ويوم كنتم تقتلون في المسجد الأقصى العُبَّاد والزهاد وتمرقون بحرابكم أحشاء الأطفال، وتقطعون أثداء النساء كنا نُحسن معاملتكم بما يأمرنا به ديننا، ولم نترك بابًا نتألَّف به قلوبكم إلا وَلَجْناه، كنا في مقام الظافر فأحسنا ولم نسئ، أما أنتم فأسأتم كل الإساءة يوم كنتم الغالبين.

وبعد، فإن العرب لعهدنا في حيرة مع كثير من الإفرنج، إن تقربوا منهم قالوا: يصانعوننا خوفًا منا، وإن أكرموهم لبوا ضيافتهم ثم وصفوهم بالإسراف وضحكوا من عاداتهم، وإن هادَوْهم قبلوا هداياهم وهزءُوا بذوقهم وكرمهم، وإن أعرضوا عنهم قالوا: إنهم متوحشون لا يعرفون معنًى للعشرة ولا يحبون التمازج معنا، وإن ناقشوهم في بعض أغلاطهم احمرت أعينهم ووصموهم ببغض الأجانب. وهكذا حار العرب في استرضاء هؤلاء الغربيين الذين يدَّعون التفوق علينا في كل شيء.

كان مدير المعهد الفرنسي بدمشق يجمع بعض الرعاع ويُلبسهم ثياب المساخر، ويعلِّمهم ألعابًا له ابتدعها، ويدربهم على مخرقات وشعوذات كان يظنها جميلة مغرية، ويغوي بعض الأوباش بالمال ليمثلوا له مشهدًا من مشاهد مشايخ الطرق، وهم يلحسون الحديد المُحْمَى بالنار، ويبلعون الحيات والثعابين، وكان يأتي بمومسات يجردهن من

ثيابهن يرقصن ويتخالعن زاعمًا أن هذا مشهد من مشاهد ألف ليلة وليلة. ثم يدعو لحضور مهازله المنظور إليهم من قومه وغيرهم، ويصور هؤلاء الممثلين والممثلات على أوضاع مختلفة ويخرج منها ما شاء من الصور يرسلها إلى من يلزم في الغرب، ويعطي منها من يزور مكتبه من السائحين مدعيًا أن هذه هي عادات الشاميين وأجمل ما يجب أن يشهد عندهم.

وهو لا يقصد من كل ذلك إلا أن يصور العرب بأبشع صورة، ويقول لمن يطير فرحًا إذا سمع سبة: ها هم العرب وهذا تمدُّنهم، هم همج كما ترون وفي أحط دركات الهمجية. وقضى أعوامًا طويلة بمثل هذه المخزيات ولما ينته من إعداد مجموعاته، وما نجت دمشق من عبثه إلا لما ثبت عليه أنه سرق دولته.

لم يترك هذا الساقط المروءة فرية إلا افتراها علينا، وما رأى إلا استحسانًا ممن كانوا على شاكلته، يتعمد الحط من كرامة أُمة، إذا كان فيها شيء من العيوب فللأُمم الأخرى مثلُها وربما أكثر منها. ولا نعرف كيف يصح له أن يحكم على أُمة لا يعرف لغتها، وما اختلط بالطبقة المنورة من بنيها. وقديمًا كان من يَعِنُّ له افتراء شيء علينا يكتفي بنكات قليلة يسجلها في رحلته أو جريدته. أما هذا المأفون، فكان دأبه إيجاد ألاعيب يمثلها بمال حكومته.

لا جرم أن بمثل هذا العياب وما ينقل عنا من سوء القالة تسود صحيفتنا في الغرب، وصحيفتنا بما اخترع المضللون ليست بيضاء كثيرًا، فقد قال لي أحد رجال الطليان: إنه ما برح يعتقد أن المسلمين يأكلون لحم الآدميين حتى زار أقطارهم في شبابه، وأيقن ببطلان هذه الدعوى عليهم، قال: إنه قرأ هذه الأكذوبة في كتاب مطبوع وهو طفل. ولطالما سمعت في رحلاتي من أفواه بعض الطبقات الراقية في أوربا غرائب عن بلادنا ما كانت إلا من مختلقات أمثال ذاك الدجال ومن اعتادوا تصنيع القصص الملفقة وَوَضْع الأحاديث المنكرة علينا.

يقولون إننا نكره الغرباء، صحيح أننا نكرههم، ونحن على حق بهذه الكراهة، بيد أننا نكره أمثال ذاك الوقح الذي باع من بضاعته المزيفة مقادير عظيمة حاول أن يحظى بها ويَغنى على حسابنا. ونقل عنها صورًا مزورة مزرية، ولم يكتف بتمثيلها في عقر دارنا بل توسع في أذاه، وعرضها في بعض معارض الغرب، يحاول بها إسقاطنا عند العالم المتمدن جميعًا.

أما فضلاء أهل الغرب فقد كنا، ولا نزال، نكرمهم ونحترمهم، بل نبالغ في إكرامهم واحترامهم، نخلطهم بأنفسنا، ونُطلعهم على ما يهمهم الاطلاع عليه من حقائقنا، وننزلهم

على الرحب والسعة بين أظهرنا، ولكن منهم فئات لا تحب الاختلاط بنا ولا بغيرنا، ولا تسمح لها حكوماتها بمعاشرتنا. ولطالما وددنا لو عاشرنا أهل الطبقات الصالحة منهم لما نتوقعه من تخفيف تلك التهم عنا، وإفادتنا من أدبهم، فبالاحتكاك بهم نعرفهم في صورهم الواضحة ويعرفوننا كذلك، وهذا يفعل فينا وفيهم ما لا تفعله القوة الغاشمة ولا الدعاية الواسعة.

زاد في العصر الأخير اختلاطنا بالغربيين، ووافانا منهم رعيلٌ صالح من علماء ومفتنين وساسة وغيرهم، ونشأت بينهم وبين بعض أدبائنا وعمالنا وتجارنا صداقات، وعُقدت بينهم صلات وأصبحوا إذا تغيبوا يتراسلون ويتهادَون، يضيف الصاحب صاحبه، ويقصده في بلده وتتجلى الصداقة بين الشرقي والغربي إذا كانت صداقة الند للند، لا ينظر أحد الصديقين لصديقه نظرة غالب ومغلوب، فتغيرت بذلك الصور التي كان صَوَّرَنَا بها أرباب الأهواء، وكانت طبقة الخواص منهم أول من عرف هذا، وحبذا لو تفضلوا ونفوا ما أُلصق بنا ظلمًا، ودونوا مشاهداتهم على حقيقتها يُزيلون بصنعهم ما علق في أذهان شعوبهم عن العرب، ويعرفونهم أننا لسنا سود البشرة كالزنوج، كما يتوهم الجهلاء منهم، ولسنا بادية تعيش عيش سكان الوبر، نأوي إلى الخيام ونرعى الأغنام والأنعام، وأَنَّا لا نأكل لحوم الآدميين، ولا نضمر عداء للغربيين.

لما انهزم الجيش الفرنسي أمام الجيش الإنكليزي في سورية ولبنان سنة ١٩٤١ أبدى السوريون من العطف على المنهزمين ما أدهش القريب والغريب. كانوا يُئوون الضباط والجنود من فلول الجيش المدحور ويلاطفونهم ويطعمونهم ويحملونهم زادًا إذا كانت الشقة بعيدة، ويأتونهم بثياب جُدُد ليغيروا قيانتهم العسكرية، ويوصلونهم إلى مأمنهم بالاحترام والإكرام. عاملوا بذلك من استجار بهم ومن لم يستجر من الهائمين على وجوههم في البراري والجبال وهم مئات، حتى لقد أثنى المفوض السامي الفرنسي الأخير علنًا على ما بدا من شهامة أهل دمشق وعمالتها. ألا تعد هذه المروءة من بعض الأدلة على أن العربي لا يكره الغريب وأنه يعامل بالحسنى حتى من أساء إليه! أما الذين أحسنا إليهم هذا الإحسان فأقبلوا علينا بعد حين ينسفون مدينة مثل مدينة دمشق بقنابلهم وقذائفهم، ويقتلون الأبرياء، ويقضون على الثروة، ولولا تدخل البريطانيين لدمروا القسم الأعظم من مدن سورية.

وبعد فإن الغربي يعرف لعهدنا عن العرب صورة ما كان له مثلها في القرن الماضي، فغدا من الواجب على أهل الرأي في الغرب أن يدونوا الحق مما علموا، فبالحق ينفعون

قومهم وغير قومهم، وينصرون الحقيقة بتكذيب من افترَوا ما أضر باسمنا وشهرتنا وشوهت به صورتنا وزيفت أعمالنا وتأخر استقلالنا. نريد أن ينقلوا عنا أننا نكره كل من يُملي علينا إرادته بالباطل، وينازعنا في سلطاننا في عقر دارنا، ويبرئ نفسه من كل عيب ويلصق عيوبه بنا. نحب الغريب على ألا يؤذينا بقلمه ولسانه، ولا يسمم الأفكار من ناحيتنا في دياره، وأننا نكره من يفتات علينا فيما لم نفعل، ويخترع لنا عيوبًا ليست فينا. نود أن يروى عنا أننا حقًّا نحب الغرباء ولا نبغضهم، وأن قرآننا أمرنا بأن نحسن إليهم فقال: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

القول في المبشرين

كانت التربية العامة في هذا الشرق العربي قبل أن يوافيه دعاة التبشير من الغرب تربية مشتركة فيها سذاجة الفطرة، وتعاطف الجيران، وتراحم أبناء الوطن الواحد. فلما أسسوا في القرن الماضي مدارسهم عالجوا عقول من فزعوا إليهم ليعلموهم ويهدوهم بأساليب لهم خاصة، فأنشئوا منهم جيلًا جديدًا انقسم في جملته إلى معسكرين يُباين كل منهما الآخر، الأول: لاتيني أفرنسي، والثاني: برتستانتي أنكلوساكسوني. صاغ اللاتين تلامذتهم في قالبهم، ولقَّنوهم معارف تنقصها حرية النظر وفيها شيء من التعصب والجمود، وصبغ الأمريكان طلابهم بصبغتهم، وصبغتهم أقربُ إلى حرية البحث، وكانت وطأة المبشرين في الشام وشمال إفريقية أشد منها في كل قطر عربي ويليها في ذلك مصر ثم العراق.

كانت الدعوة إلى البرتستانتية، بادئ بدء، المحور الذي دارتْ عليه هذه الدعايات أو التي أنشأت هذه الدعايات، فتألفت جمعيات منظمة تصدَّق عليها أرباب الخير عندهم، وعاونتْها الدول ذوات الشأن بمالها وسلطانها، وكان للولم يبق أمامهن عائق يعوقهن عن التعلم ونشرطوائف البابلوية في هذه السبيل شدة وغرامة؛ ذلك لأن البرتستانتية جاءت لتنتزع منها بعض أبنائها، كما صبأ إليها بعض أبناء الروم الأرثوذكس، وظلَّ في الطوائف الإسلامية من انتحل البرتستانتية بل هم أندر من النادر.

نشرت هذه المدارس أفكارًا أنتجت تراخي صلات الوطنية، وانحلال عقدة القومية، وبثَّت بذور العداوات بين الديانات، فحركت العرق الحساس في البنين والبنات على ما يَضرُّ بهم وبغيرهم. واستحال من تخرج بالمبشرين ودرس لغاتهم ومذاهبهم عدوًّا لمن يخالفه إلا قليلًا. وتجلى أثر التخالف في الأكثر بعد الحرب العالمية في بعض الأفكار، وقد لقي غير المسلم من رعاية الحاكم الجديد ما جسره على أمور كان منها مخاشنة من طالما حاسنوه فعاش معهم بسلام.

والحاصل أن مدرسة التربية الجديدة عملت عملًا صالحًا وآخر سيئًا. ومن سيئاتها أنها[1] غيَّرت من طباع من اختلفوا إليها، وأورثتهم عقلية ما كانت لهم، ولقنتهم ثقافة نَفَّرَتْهم من بلادهم وأهلها، وأقلُّ ما جلبتْ من ويلات أن أكثر من درسوا فيها هاموا على وجوههم في العالم، وهاجر معظمهم هجرة قطعية إلى بلد غير عربي فذابوا وأبناؤهم في بوتقتها مع ما جَنَوا من حطام. ذلك لأنهم نشئوا لا عربًا ولا إفرنجًا يهون عليهم التخلي عن مشخصاتهم والاندماج في الجنسية التي تقبلهم. ومن أثر تلك التربية أن قال أحد رؤساء لبنان، لمن ذكر له أن هذا الجبل عربي والواجب أن يسير مع العرب: إنا لَقوم قد وجهنا وجوهنا نحو الغرب ولا أرب لنا أن نعود إلى الشرق. أما أنتم معاشر المُنادين بالعرب والعربية فالحقوا بالجزيرة التي أخرجتكم. أو ما هذا معناه.

وتذرع أحد رؤساء الجمهورية في لبنان بإلغاء مدارس الحكومة بدعوى أن في مدارس المبشرين والمدارس الطائفية ما يُغني عنها. ومعنى إغلاق هذا النوع من المدارس القضاء على معظم مسلمي لبنان بالجهل الأبدي؛ لأن تلامذتها من المسلمين على الأكثر. ومن آثار هذه التربية الكهنوتية أن يكتب قسيس لبناني كتاب «فرنسا صديقة ومحامية» طبعه في المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين الذين تَوَفَّروا على غمز الإسلام في كُتُبهم ومجلتهم وجريدتهم ومدارسهم، حَشَاهُ بما ينفِّر قلوب النصارى من المسلمين، وقال بدون حياء: إن الإسلام أباح حياة غير المسلمين ومالَهم وعرضهم، وأَوَّلَ آيات القرآن على غير معناها، وحمل الآيات الواردة في مشركي العرب على النصارى، وعَمِيَ عن كل ما صدر عن الرسول وأصحابه والخلفاء والأمراء لحمايتهم منذ كان الإسلام. كتابٌ ما كَتب مثله غير بعض رهبان القرون الوسطى، وما أهمهم إن كان من أثر ما لفقوا نشوبُ فتن وإيراث حزازات. وما كان العقلاء من الفريقين في كل عصر ليرضوا بما تولد هذه السخائم، ودينهما ما دعا لغير الإحسان والمحبة.

حنقت حكومة لبنان على المدارس الإسلامية الدرزية؛ لأنها لم تدرس التاريخ على الطريقة التي ترضي السياسة اللبنانية، ولبنان، بفضل مدارس المبشرين، أصبح ذا تاريخ خاص لا يعرفه سواه! وعَزَّ على بعضهم أن يقول مؤلف هذا الكتاب في مجلة المجمع العلمي العربي لَمَّا نقد كتابًا عَرَّبَهُ أحد قسيسيهم بلغة ركيكة جدًّا. وأدمج فيه ما ليس من أصله وطعن على العرب وهزأ بالمسلمين؛ إن مثل هذا التأليف لا يليق أن يصدر من قلم أستاذ البيان في مدرسة كان مدرِّس بيانها العلامة الشيخ إبراهيم اليازجي، ومن تلاميذها الشاعر العظيم خليل مطران، وأن بعض اللبنانيين اليوم يكتبون

العربية بمثل ما كان يكتبها أجدادهم، وكأنهم يحاولون أن يخترعوا لهم لغة خاصة كما حاولوا أن يجعلوا لم كيانًا سياسيًّا خاصًّا. فاغتاظ أرباب هذه الكتابة الساقطة، وخاف المستوظَفون والمستوزرون أن يُقضى على كيان لبنان بكلمة قِيلت فيه بالعَرَض، وشكاني رئيس جمهوريتهم إلى رئيس جمهورية سورية. ولكن أسفر شَغْب المشاغبين عن تأليف جمعية من كبراء المسلمين والنصارى تنظر في إنهاض اللغة العربية من كَبْوتها في لبنان.

هذا مثال مما أورثتْه مدارس المبشرين من نَزَغات، وكلما أراد عقلاء الطائفتين العظيمتين أن تمد إحداهما يدها للأُخرى، للعمل معًا في المسائل الوطنية الكبرى، يقوم من تشبعوا بمنهاج تلك المدارس يذكون نار الأحقاد، ويجهرون بما يخالف مصلحتهم الحقيقية، محكومين لعواطفهم، وما كان للعواطف أن تُؤسس ممالكَ وتَبني مجدًا، وما كان لعاقل أن يرضى بالعبودية طائعًا مختارًا في دائرة ضيقة، ويأبى أن يكون سيدًا في بيئة عظيمة يسرح فيها ويمرح على ما يشاء ويهوى.

ولنا أن نحكم أن ذاك النوع من المدارس على نفعه في الماديات، لم تظهر منه فائدة في المعنويات. بل، نشأ عنه روح ما كان ينفع البشر في جاهلية ولا عالمية. ذلك أن مؤسسيها جهدوا ألا يصرفوا العناية فيها إلى تنشئة الناشئة في نطاق وطنيتهم، فحببوا إليهم أوطانًا غير أوطانهم، وأعظموا في نفوسهم رجالًا غير رجالهم. ولقد يعرف التلميذ في مدرسة رهبانية عن رجال فرنسا وبلادها وأدبها وسياستها ما لا يعرفه علماؤها أنفسهم. فإذا جئت تختبر معلوماته عن أمته ورجالها تسقط على الجهل المخجل.

وكان على تلك المدارس لو تَوَخَّتْ خير من يدرسون على دكاتها أن تخرجهم معمورة قلوبهم بحب أوطانهم، أليس مما يدل على سوء ما لَقَّنته تلك المدارس أنك لا تجد واحدًا في المائة من غير المسلمين يدرس في المدارس الأميرية الابتدائية والثانوية في سورية؟ لأن مدارس الحكومة تحبب القومية إلى الدارسين فيستلزم ذلك حب العرب والعربية، ولا يرضى بعضهم أن يتعلم أبناؤهم التعليم الابتدائي في القرى التي يسكنها المسلمون والنصارى إلا إذا كان المعلم مسيحيًّا، على الأكثر.

وأنى لأبناء أرض واحدة ينشئون على التعادي والتخاصم أن يرفرف السلام على ربوعهم، ويطيب المقام فيها للموافق المخالف. وكيف يُرجى أن يتشارك المتنافران اشتراكًا فعليًّا في سعادة ديارهم إن لم يحب أحدهما صاحبه؟ حقيقة نحن بعيدون عن إدراك معنى التربية المشتركة بما حمل إلينا الغرب من تربية لا تنشئ إلا أعداء متشاكسين في بلد يضم نحو عشرين نحلة ومذهبًا.

وكيف، لَعَمري، تتساكن فئتان في أرض وكلتاهما حرب على الأخرى. وكيف تفكران في جلب الخير ودفع الضر إذا كانتا على هذا النحو من التنافر. والناس منذ وقع اجتماعهم لا يستغني الأبعدون منهم بعضُهم عن بعض فكيف بالأقربين. ألا بئست التربية تربية تلقن أبناءها التباغُض والتدابر. وتعسًا لبيت ما تجزأ في ذاته وأصحابه يسعون إلى تقسيمه، ويتباعدون عما لا يقوم لهم شأن إلا به.

كثيرًا ما قلت لبعض أصحابي من عقلاء النصارى: لو كنت محلكم لسعيت إلى تعليم أولاد المسلمين قبل أن أعلم أولاد النصارى؛ ذلك لأني إذا كنت في وطن لم يَعُمَّ التعليمُ معظم أهله فأنا منغَّص في حياتي، غير آمن على حقوقي وراحتي، وإذا لم تستحكم المشاكلة والتفاهم بيني وبين جاري فأنا كل ساعة عرضة لأن ينالني من انحطاطه، ويصيبني مكروهُهُ من حيث يدري ولا يدري، ولا يغنيني، مع حالته هذه، علمي ومالي، ولا تعصمني من انحطاطه دولةٌ ولا طائفة، وربما اضطُررت في الآخر إلى أن أرحل عن مسقط رأسي إلى مكانٍ يحلو فيه العيش.

لا المسلم براحلٍ عن هذه الأرض، ولا النصراني بزاهد في سكناها، فهي ملكهما الأبدي، وتراثهما الذي لا حياة لهما بدونه، يَنْعَمَان بخيراتها، وعليهما تحمل أعبائها وتَبِعاتها. أعجبتْني كلمة فاه بها أحد فضلاء الكاثوليك، وقد أُريدت طائفته على أن تكتب محضرًا تطلب فيه حمايتها من المسلمين بضمانة إحدى الدول، قال، والغضب آخذٌ منه: أي غضاضة علينا أصعب من إنفاذ هذا الاقتراح، إنا وإخواننا المسلمين شركاء في هذا الوطن لا دخلاء عليه، ومن العار أن نطلب إلى الغريب أن يحمينا من أخينا وابن عمنا. وهذا الرجلُ درس دروسه الثانوية والابتدائية في مدرسته الطائفية والمدارس الطائفية المسيحية لا تخلو من روح الوطنية، وليست هي كمدارس المبشرين تغرس التفرقة في القلوب، وتَلَقَّى دروس الحقوق في مدرسة وطنية، وعرف المسلمين على غير ما وصفهم به صاحب كتاب «فرنسا صديقة ومحامية» الذي كذب جهرة بقوله: إن الإسلام أباح للمسلمين مال النصارى وعِرْضهم ودمهم.

تَجْمَعُ النصارى والمسلمين عدة جامعات، تجمعهم جامعة اللغة الواحدة، وتجمعهم الأخلاق الواحدة، والعادات الواحدة، وجامعةُ الجامعات هي هذه الأرض المُباركة التي أنبتتْهم ليعيشوا على أديمها كما يعيش أبناء أُمٍّ واحدة عيشَ بر وحنان. ولقد شهدنا من الدول المتمدنة اليوم ما ليس بين سكانها بعض هذا التجانس، وبفعل التربية المشتركة ألَّفوا دولًا وشادوا عزًّا وأحرزوا عظمة، ومنها ما كانت اللغات فيها متباينة، ومنها ما لا

تربطه رابطة من دين ومذهب وعنصر. وما استقام أمرهم، في الواقع، إلا عندما نبذوا ظهريًّا ما يوسوس به دعاةُ دينهم وعملوا لأُممهم ما ينبغي لها مشتركين متماسكين.

ولو كان في التربية الرهبانية صلاح العالم ما زهد فيها الغرب نفسه، وأصحاب هذه التربية، بحسب الظاهر، يخدمون مقدساته. رأينا شعوب الغرب لَمَّا سارت نحو العُلى تضرب على أيدي الدينيين، وتنزع منهم كل سلطة دنيوية كانت لهم، ولكن بضاعة التبشير، كما قال أحد وزراء فرنسا، من بضائع التصدير محرمة في الغرب محلَّلة في الشرق؛ ذلك لأن المبشرين أعوانُ المستعمرين.

في اليوم الذي تصح النيات فيه على القول بتربية واحدة يتحد أبناؤنا في كل مظاهرها، وأعظم ما يتم لهم وحدتهم في أساليب تفكيرهم، يعملون يدًا واحدة للحصول على أمانيهم الوطنية، ولا تعود تلحظ هذه الفوارق المشهودة بينهم الآن. فإن أُمة تعيش في صعيد واحد وأعضاؤها متفككة محكومٌ عليها بالفناء، عيشها منكد وسلامها أبدًا مهدد.

حُمل أقباط مصر على مشاكسة مواطنيهم من المسلمين ليؤلفوا منهم حزبًا ارتجاعيًّا فأبت عليهم وطنيتهم أن يغتروا بأحابيل السياسة، وعادوا يعملون بقلوب واحدة، ويعلِّمون أبناءهم تعليمًا مشتركًا، وعاشوا مع إخوانهم ناعمين باستقلالهم، وظلوا مصريين وما أُصيبوا بأذًى في دينهم. ولقد رأيت من عطف المسلمين على القبط وبالعكس ما ألقى الفريقان به على من يختلفون في الدين درسًا نافعًا، وآخر ما صدر عن القبط من مراعاة حرمة مواطنيهم أن أعيانهم تقدموا إلى نجاشي الحبشة — وكنيسة الحبشة تابعة للكنيسة القبطية بمصر — أن يُمتع المسلمين في مملكته بحقوقهم فأجابهم إلى ما طلبوه، ومن مطالبهم نصب قضاة مصريين يحكمون بين رعاياه المسلمين.

إلى الآن سارت مدارس المبشرين على هواها لا تُسيطر عليها حكومة، ولا يراقب أعمالها مراقب، فكانت تأثيراتها ما رأيتم. فهل في الحكومات العربية اليوم يا ترى من تقوى على إرجاع تلك المدارس إلى الصواب؟ تضع لها منهاج دروسها وتلزمها بالسير عليه بما يوافق شريعة الوطنية، ويقال لها: كَفَى أَنْ أنشأتِ ممن نهلوا العلم من مناهلك آلاتٍ صماء في أيدي الغرباء، وأبواقًا تنادي، على الدوام، ببغض ذوي القربى.

ولقد لاحظتْ وزارة المعارف المصرية أن بعض المدارس الأجنبية بها تدرِّس لتلاميذها كتبًا تشتمل على عبارات تثير الأحقاد السياسية والدينية بنوع خاص مما يخالف المبادئ الأساسية التي ينبغي أن تقوم عليها العلاقات بين الشعوب، وهي مبادئ المودة والتعاطف

وتبادل الاحترام. وأن عصبة الأُمم عنيت بهذه المسألة عناية شديدة، وطلبت إلى الدول المشتركة فيها أن تراقب الكتب الدراسية من هذه الناحية بحيث لا يكون فيها ما من شأنه إيجادُ الأحقاد أو إبقاءُ الأحقاد القديمة. وأخذت مصر تراقب كتب التاريخ والجغرافية والأدب وعلم النفس والتربية. وعسى أن يكون من هذا مقدمةُ خير، فتراقَب المدارس الغربية كلها في البلاد العربية.

هوامش

(١) من كتاب تقدم مجموعة الأُمم البريطانية تأليف و. ن. هانكون وهو من المنشورات البريطانية الرسمية: «ولست أنكر عقلية كثير من المبشرين وعدم حساسيتهم وخشونتهم والأضرار التي ألحقوها بكثير من الشعوب المتأخر، فإنهم استخفوا بالثقافة المحلية، وانتقصوا من قدرها الحقيقي، كما بالغوا في تقدير مدنيتهم، وكان اعتماد بعضهم على الزي الغربي وعلى التراتيل والكلمات المطبوعة أكثر مما كان ينبغي. قال: وهناك حقيقة واضحة لا نزاع فيها وهي أن المبشرين البريطانيين كانوا دائمًا، وبصورة مُلِحَّة، يطالبون بإنصاف الشعوب المتأخرة.

القول في الغربي والشرقي

ليس في هواء الغرب ولا تربته ما يدعو إلى أن يمتاز عن الشرق، وإذا زعم زاعم أن البرودة تسبب نشاط الغربي، والحرارة داعية كسل الشرقي، فالعرب في القديم لم يَحُلْ هواء بلادهم ولا تربتها دون إنشاء مدنية، إن لم تَفُقْ مدنية الرومان بقوتها فقد فاقتْها برحمتها، وسر النهوض متوقف على مسائل أخرى لا دخل للحرارة والبرودة فيه. سر مدنية الغرب دءوب دام أحقابًا مطرد الأول بالآخر، ونظام نافذ لا يُبقي على جاهل ولا ضعيف، وعناية بالدقيق والجليل من ضروب المعارف البشرية.

رأينا الغربي يحتفظ بالقديم ويتهالك على اقتباس الحديث، والشرقي يجمد على قديمه، وقَلَّما تحدثه نفسه بأن يأخذ الحديث إلا بحيطة شديدة وبطء مستطيل. وإذا جئت تنظر في الهمم والمضاء بين الشرقي والغربي فهناك يتفاوت البون بين الخلقين والجيلين. الغربي يعمل عمل من يعيش أبدًا والشرقي يعمل عمل من يموت غدًا.

وإنا لنشهد الغربيَّ على كثرة ارتقائه في نُظُمه النيابية لا يزال مستكينًا لعظمائه، يصدر عن آرائهم وينصاع إلى مشورتهم، وقد يقيم لهم المعاذير إذا غلطوا، ويعفو عن هفواتهم إذا هَفَوا. أما في الشرق فالكل يكادون يعدون أنفسهم في مستوًى واحد، لا يرون الخضوع للكبير إلا إذا كان ذا سلطان وبطش، يتأففون من القانون جائرًا كان أم عادلًا؛ ولذلك ضاع ملكهم وقضت عليهم دعواهم العريضة.

ومن أسباب تفوق الحضارة الغربية على الحضارة الشرقية أنه قام في الغرب طبقةٌ من الخواص ليس للشرق مثلها، وخواص كل أُمة سَدَنة علومها وحماة صناعاتها، أما طبقة العامة فمتشاكلة عندنا وعندهم، ولا يفوق عوامُّ الغرب عوامَّ الشرق إلا بأخذ العامة

هناك بسائط المدنية. وقد يكون في عوام الشرق من هم أقرب إلى الفضائل من بعض عوام الغرب الذين أهلكتْهم المسكرات والمخدرات، وظلوا على شيء من همجيتهم القديمة.

العبرة بالخواص في قيام المدنيات، ولا نعني بالخواص هنا رجال الدين، فهؤلاء يدعون إلى الآخرة، والمدنية ابنة الدنيا، ووليدة أمور لا تدخل منهاج الديانين. ومن الخواص نشأ الاختصاص في المدنيات الحديثة، وكلما كثر عددهم تنوع هذا الإخصاء حتى لتجد العلم الواحد أو الصناعة الواحدة اليوم تنقسم إلى عشرة أو عشرين نوعًا.

في الغرب يفنى الفرد في المجموع، وفي الشرق يعبث الفرد بالمجموع. وبحق ما قال بعضهم: «الغرب هو التسلط على الطبيعة بالعمل، والشرق هو استثمار الإنسان للإنسان.» وما وقع في الأدوار التي مرت بالإنسانية أن تسلط الإنسان على الطبيعة، كما هو متسلط اليوم في الغرب، وما عُهد أن قبض ابن الغرب على قياد ابن الشرق كما هي الحال في العصرين الأخيرين، تسلطَ الغربيُّ لَمَّا تفوق على الشرقي بعلمه وعمله.

وفي الواقع إن الممالك كانت تقوم عندنا بالأفراد النابهين إذا ذهبوا انقطعت أعمالهم، وممالكُ الغرب تقوم بالجماعات إذا هلك الفرد لا يكاد يُشعر به، ويأتي بعده من يتناول ما بدأ به فيتمه، ولا يخطر بالبال أنه هضم حق نفسه؛ لأنه سار على سنن مَنْ تقدَّمه، فالغرب أقرب إلى تسلسل الفكر، أو قُلْ، أقرب إلى القانون.

وإذا قيل إن مدنية الغرب مادية صرفة لا شأن فيها للمعنويات كثيرًا فمدنية الشرق كثيرة المعنويات، وشأن الماديات فيها قليل، أو هو فيها أمر ثانوي. والماديات هي السلم الموصل إلى بلوغ القوة. وأيُّ معنويات لمن تجرد من المادة؟ وهل من غَناء للضئيل في الجماعات كالقوي؟

دُهشت من كل ما وقع بصري عليه من أعمال الإنسان في أول رحلة رَحَلْتُها إلى الغرب، فأعلنت أني أُصبت بداء الاستحسان، لا تقع عيني على شيء إلا استحسنتُه، وظلت هذه الدهشة يَدْخلها التعديل الحين بعد الآخر كلما زادت المعرفة بالغرب، وتحدثت النفس بسر هذه العظمة التي يشاهدها المرء في كل جيل من أجيال الإفرنج، وفي كل صقع من أصقاعهم، ولقد لامني بعض أصحابي لأنني دوَّنت من مدنية الغربيين في كتابي «غرائب الغرب» كل جميل وسكتُّ عن غيره. قال: كان الأولى أن تذكر الحسنات والسيئات. وعذري إليه وإلى من قال بقوله: إني كنت أريد أن أُعرِّف قومي بالحسنات ينسجون على منوالها، وما كنت لأطمع في أن أشغل الأذهان بأمور لا يخلو منها بلد، انحط أو ارتقى. وعندنا مما يماثلها ما لا ينفع تدوينه ونحمرُّ خجلًا من ذكره. ومن

العدل أن يقال: إننا بقدر ما نرى في المدنية الحديثة من فضائل نرى فيها ما يقابلها من رذائل، والفضائل تربو على غيرها كثيرًا. فالأمثلُ بقومنا أن يقتبسوا الخير ويغضوا الطرف عن الشر.

أتت أوربا بهذه المدنية الساحرة فانتفعتْ بما أنشأته الإنسانية جمعاء، ويُغتفر النقص القليل فيها في جنب ذاك الكمال. ولا نقول الكمال المطلق؛ لأنه لا يُرجى أن يكون هذا في البشر ولا وقع في عصر من العصور التي انتهى إلينا خبرها.

اخترعت أوربا وأميركا أُمورًا خففت بها أمراض الإنسان، واخترعت ما يُعجل في إزهاق روح الإنسان، اخترعت أدوية قلَّلت من عدد الوفيات، كعلاج الجُدَري والحميات والأَوبئة والأمراض الزهرية والكُزاز والخناق والنِّقرس الحاد. وكثرت بالمدنية أمراض السرطان والسل وأوجاع القلب والكُلى والأمراض العصبية والعقلية. وكان معظم انتشار هذه الأمراض من ازدحام السكان في بقعة واحدة، ومن رغبة الفلاحين في مغادرة القرى إلى المدن واتخاذها سكنًا. فالمدن في الغرب يزيد كل سنة سكانها بمن يهاجر إليها من أهل القرى؛ لأنهم يذهبون إلى أن العيش في المدن أربح وأرفه، والشرق يسير على هذه السنة، تُضخَّم مدنه بإغرائها سكانَ القرى على ترك مزارعهم.

رأى القرن التاسع عشر البخار والكهرباء، ومنها نشأت أكثر أدوات هذه المدنية الحديثة، فكان من أَبْرَكِ العصور على الإنسانية، واخترع أشياء في الطب والجراحة خففت من ويلات الطواعين والأَوبئة والأَمراض الوافدة والأَوجاع المؤلمة، ولكن بدأ فيه استعمال المورفين ثم تبعه الكوكايين والهيرويين، وكثرت السمومُ من المشروبات الروحية، فأضرت بالعقول والأجسام. ورأى هذا القرن أنواعًا من الاختراعات، فعرف الراديوم والراديو، واختُرعت الطيارات والسيارات والغواصات، إلى غير ذلك.

يقول رجال الطب والصحة: إن هذه الحياة الشديدة، والنشاط المتواصل، والحرص الذي استولى على النفوس سيؤدي بالمدنية الحاضرة إلى البوار؛ ذلك لأن أَهْوِيَةَ المدن مشبَّعة بالغبار والغازات الضارة وقليلٌ أُوكسيجينُها. وفيها تكثر الأمراض، وتنتقل من السقيم إلى السليم بسرعة، وتكثر المسكرات والموبقات. ومعظم هذه العيوب خاصة بالممالك الصناعية، وللصناعة أدواءٌ كما للزراعة أدواءٌ. وكيف تجود الصحة مثلًا في مدن لم يكتف أهل الغرب أن يبنوا على سطحها وأخذوا يبنون بيوتهم في جَوِّها. وفي مدينة نيويورك بيوت ذات مائة طبقة، وقد قدروا عدد السكان في كل كيلو متر واحد من هذه العاصمة العظيمة بمائتي ألف ساكن. أما البنايات ذات الطبقات العشر في أوربا فهي من البناء العادي الذي لا يوجب دهشة ولا استغرابًا.

قللت الصناعة في الغرب من رغبة الناس في الزواج؛ لأن العاملة لا تستطيع أن تكون ربة بيت وهي تكد طول نهارها وجزءًا من ليلها في المعمل، وأَدَّت الرغبة عن تأليف البيوت والأُسر والتمازج بين النساء والرجال إلى انتشار العهر، فقلت المواليد في فرنسا أولًا ثم أصيبت بهذا النقص أيضًا بريطانيا العظمى وألمانيا وإيطاليا والولايات المتحدة، ثم أوستراليا وسويسرا.

وأصبح بعض أهل المدن لا يفكرون في الزواج، وإذا تزوجوا تحيلوا لإفساد طرق التناسل، مُؤْثِرين العقم على كثرة النسل. أعرف عشرات من الرجال المذكورين في الغرب وقد بلغ بعضهم سن اليأس، أي: بلغ الشيخوخة، ولم يتزوج، ونحو العشر أولد أولادًا وتسعة الأعشار الثانية عاش أربابها عقماء. وربما أدى نقص عدد الرجال، لكثرة ما أفنت الحرب في الغرب، إلى اضطراره أن يقضي بزواج اثنتين في المستقبل؛ لأن الحروب الأخيرة قضتْ بأن يزيد النساء على الرجال في أكثر الممالك بضعة ملايين.

لا جرم أن للإقليم تأثيرًا في أخلاق الشبان والشابات، فإن تأخُّر سن البلوغ في شمالي أوربا نشأت منه فوائد. ومن طبع سكان الأقاليم الباردة الصمت والانكماش وأهل الأصقاع الحارة أو المعتدلة يهيمون ويثرثرون، وسكان الشمال يتماسكون فيتغلبون على أعصابهم بعض الشيء ويغلب عليهم العبوس والتقطيب. سكان الجنوب يطربون ويهزلون ويضحكون، والشماليون يداوون جفاء الهواء برياضات جسمية عنيفة يقومون بها كل يوم، أما الجنوبيون فهم في غنية عن كل ذلك؛ لحرارة أرضهم؛ ولأن فصولهم معتدلة في الجملة.

والسرُّ الأعظم في غنى الغرب وفقرنا أن عامة الغربيين وخاصتهم، أغنياءهم وفقراءهم، رجالهم ونساءهم، يكدون للكسب فلا تكاد تجد مَنْ لا يعمل أو لا يفكر في فائدة تعود عليه وعلى أُمته بالخير. أما في الشرق فالعامل من يحتاج إلى رزقه ورزق عياله اليومي، وتجد في أهل اليسار من الشرقيين الشابَّ القوي العضلات والشابة الذكية الفؤاد، وكلاهما عالةٌ على أهله. وهذا لا تكاد تجده في الغرب.

تأملوا حال أُسرة مؤلفة من والدين وأربعة أولاد، الوالدُ يشتغل في حرفته، والوالدة تقوم على تربية أولادها وإدارة منزلها، فإذا فرغتْ شغلتْ أوقات فراغها في تطريز أو خياطة أو نسج، أو تصوير أو موسيقى، أو مطالعة، أو غير ذلك، والولد بعد المدرسة الابتدائية يشتغل في حقل أو دكان أو مصنع وأخته كذلك، تأملوا هذا وقدِّروا ما يدخل تلك الدار من المادة بصنع ربتها وأولادها، لا شك أنه ضعف ما يربح رب البيت وحده

عندنا على أقل تعديل، فكل إنسان هناك، مهما كانت منزلته، إذا بلغ سن الرشد أو قَرُبَ منه يعيش لنفسه بنفسه، رجلًا كان أو امرأة. أما الشرقي على الغالب فيعلق أموره على الأقدار، وهو كالحلمة الطفيلية لا تعيش إلا بامتصاص دم غيرها. ولو كان قانون المواريث عندنا كقانون الإنكليز لا يرث الثروة المخلفة إلا بكر الأولاد وغيره يحرم مال أبيه لمات رُبْعُنَا جوعًا. إذا عرفت هذا فلك أن تقول: إن جميع قوى الغرب من جماد وحيوان وإنسان مستثمَرةٌ منتفَع بها، وبعض قوى الشرق، بحيوانه وجماده وإنسانه، ضائعة مبعثرة.

في اليوم الذي نرى فيه المتعلمين في هذا الشرق القريب، في المعامل والمصارف والمخازن والحوانيت يسوغ أن نَدَّعي أن الشرقي ارتقى وأصبح أهلًا لأن يجاري الغربي في معظم مظاهر الحياة، في اليوم الذي يجدُّ فيه الإنسان عندنا من المهد إلى اللحد بدون انقطاع يصحُّ أن ندعي أَنَّا أُمة ناهضة ولا من ينازعنا هذا اللقب. في اليوم الذي نرى العالم والعامل فينا يشتغل ١٤ ساعة لا يبالي التعب، ويمتنع عن أكثر اللذائذ إذا كان في ذلك فائدة أُمته، يُرجى أن يتم لنا عمران وحضارة. في اليوم الذي لا ننسل أولادًا إلا بقدر ما نستطيع أن نربي منهم، ولا نتركهم للطبيعة يموت من يموت منهم، ويعيش من يعيش مهمَلين غيرَ مَعْنيٍّ بصحتهم وتنشئتهم، في اليوم الذي يصلح به حال المرأة، فتدرك أنها قسيمةُ الرجل في حياته وشريكتُه في بيته لا يفرق بينهما إلا الموت، ويعرف الرجل لها حقها الطبيعي لا يعتدي على شيء منه، في اليوم الذي يقوم كل منا بواجبه متكاتفًا مع أخيه تكاتُفَ الثقة، في ذاك اليوم نعد شيئًا مذكورًا في مجموعة أُمم العالم، ونستعيد بعض مجدنا السالف.

كتب إليَّ صديقي العلامة جويدي، شيخ علماء المشرقيات بإيطاليا في عصره، يقول: وإن كان شاعركم العربي قال:

وماذا يبتغي الشعراء مني وقد جاوزت حد الأربعين

فأنا قد ذرفت على الثمانين، ولا أزال أعمل في صحة ونشاط. ولما كتب ذلك كان في الرابعة والثمانين من عمره، وهو كأنه ابن أربعين في حركته. وسعدت بأن عرفت عشرات في الغرب من غرار هذا الرجل العظيم في الدُّءُوبِ وهم في سن عالية، وقلَّت لهم الأمثال بين العلماء في هذا الشرق العربي. والنابهون منهم في أرضنا ينتظرون عطف الحكومات،

وقلَّ من يعمل في كهولته وشيخوخته في العمل الذي استعد له في فتوته، لذلك تراهم لا ينتجون.

الغربي يحاذر أن يموت بدون عمل، ومَنْ لا يشتغل يُعد في حكم الأموات. والشرقي إذا أُكره على العمل يدأب في أوقات معينة من حياته، فإذا ما أحرز مظهرًا صغيرًا أو شدا شيئًا من أدب وعلم أو جمع قليلًا من المال اغتبط به، وعَدَّ نفسه بلغ أقصى الغايات، وربما بطر وأسرف وأتلف. ومن الشرقيين من يحبون أن يَشحذوا ولا يُتعبون أنفسهم في تحصيل رزقهم.

والعلة في الشرقي أنه لا يتعلم صناعة فيتقنها؛ بل يقف عند حد السهل منها، لا تحدِّثه نفسه بأن يخصي فيها إخصاء الغربي، وليس التلفيق كالتحقيق ولو طليته بطلاء ظاهر، وحلَّيْتَه بما تراه جميلًا من حلل، والشيء ما لم يأخذ من نفسك لا تبرز فيه، وما نجح إنسانٌ بغير الإتقان.

وعلى الجملة فإن حسنات الغرب في عملياته أدعى إلى الإعجاب من حسنات الشرق، فإنها هنا تجمد عند حد الأنظار أو النظريات. ولا يفوتنا القول، والحديث أمانة، والإنصاف بالعاقل أحجى، أن الشرق ينسج على منوال الغرب، إذا ضاعف جهوده، وبِيَدِهِ ذلك، لا يمضي جيلٌ أو جيلان حتى يتشابه الشرق والغرب في أساليب عمرانهما وطرق تعليمهما وموارد عيشهما، ولكن هل تكون ذهنية الشرقي كذهنية الغربي؟ هذا فيما يظهر يحتاج إلى زمن طويل، وربما يبقى في ناحية من نواحي الذهنيتين بعضُ فروق.

لقد تتشابه عقليات الغربيين على تخالُف درجات رقيِّهم في المدنية. والعقليات ابنة العلم والدرس وكلهم يدرسون، يأخذ كل امرئ من العلم بحسب طبقته وطاقته، وهذا من أهم أسرار حضارتهم، ويليه الغرام بالاختصاص في العلوم والصناعات، وعدِّهم كل حرفة شريفةً.

ومما أخَّر الشرقَ كونُ بعض أهله يدَّعون معرفة كل شيء فكانوا لا شيء. إن دعوى التفوق دعوى باطلة. فحري بالعاقل أن لا يحكم قبل أن يعلم وينظر بنفسه، وألا يحكم بما تخيل له وهو لم ير أكثر من بيته وبلده.

رأينا الغربيَّ يفكر، وهو صغير السن، في موضوع يقع من قلبه موقعًا لذيذًا، ويتصور منه فائدة له ولأُمته، وهو لا يزال على الأيام يتوسع فيه ويستكمله من جميع أطرافه. أما الشرقي الذي في سِنِّه فإنه إذا فكر في شيء من ذلك، لا يلبث أن يرجع عن فكرته الأولى، وقد يستعيض عنها غيرها أو لا يستعيض، ويدخل في عالم آخر. وكثرة الذكاء قد تضر بالشرقي، والذكاء المحدود المنظم نَفَعَ الغربي.

قلَّ أن رأينا في الشرقيين أناسًا يحبون العلم للعلم، ويبحثون في المطالب العقلية والأدبية حبًّا بها أو رجاء أن تأتيهم بجديد، وتعود عليهم وعلى أُمتهم بمنفعة، أما الغربي فيبحث ويدرس ويتعمق ويغامر للوصول إلى شيء من المجهولات يورثه الذكرى الحسنة في عاجل أيامه وآجلها. وليس عند الغربي وقت معين للتعلم، يتعلم ما حسنت به الحياة، ولا يمنعه مقامه ولا ماله من النظر فيما لا يعلم. يدقق فيما يهمه ويدوِّن ويسجل مخافة أن تضيع أتعابه سدًى أو يعرض لتحقيقاته ما ينسيه إياها، أو لا يَنتفع بها مَنْ بعده. ولا يخلو الغربي من مذكرة يكتب بها ما يهمه لحاضره ومستقبله، وما عرفه وما جهله، وما عمله وما يحاول أن يعمله. أما الشرقي، فهذه مسائل يعدها غير حرية بالعناية إذا احتاجها بحث عنها، وإذا لم يجدها فالخطب أهون مما يتصور الغربي. ووضع الجرازات والمفكرات والفهرستات من أَعْوَن الأمور على التذكر والتفكر، وهي عند الغربيين مألوفة كثيرة.

ولكم رأينا أناسًا من الغربيين درسوا لغات جديدة أو علومًا لا عهد لهم بها وهم في سن متأخرة؛ أي: بعد الستين وما منعتهم سنهم، ولا ضعف من أجلها نشاطهم، وظلوا مثابرين على ما بدءوا به حتى تمت لهم أُمنيتُهُم ووصلوا إلى مقصودهم، وقد يكون منهم الأثرياء والعظماء الذين شبعوا من كل مظهر في الحياة، وكلهم يدركون أن الغِنَى والجاه والسلطان لا تُغني صاحبَها، وغناه بما يعلم ويفيد منه.

ما دخلتُ في الغرب محلًّا عامًّا في أوقات الفراغ إلا رأيت الكتب والصحف والمجلات في الأيدي ينظر فيها أصحابها نظر تَدَبُّر، وقلَّ أنْ دخلت محلًّا في الشرق جمع أصنافًا من الناس إلا رأيتهم يحدق أحدهم بالآخر، ويصرف الوقت في العبث غالبًا، كأنه يريد أن يقطعه بأي حال كان، أما الغربي فيقطعه في الاستزادة من المعرفة ويأسف على ذهابه جزافًا.

زرتُ كثيرًا من قرى الاصطياف في الديار الشامية وكان زُبُنها من أهل البلاد والأقطار المجاورة، كمصر والعراق، ومنهم غربيون من أُمم مختلفة، فندر أن رأيت عربيًّا يحمل كتابًا ينظر فيه، وهو يتبرم بقضاء الوقت وينتظر بفارغ الصبر وقت اللعب أو الطعام أو الرياضة والتنقل، أما الغربيون في هذه المصايف فرأيت أكثرهم يحملون بأيديهم كتبهم ومجلاتهم وجرائدهم ويتبحرون فيها ساعات متلذذين مغتبطين لا يَمَلُّون ولا يَكِلُّون، أليس هذا دليلًا آخر على ما عندنا من نقص ظاهر وما عندهم من تطلُّع إلى الكمال؟ ولو تعلم واحدهم كل يوم مسألة لكان خليقًا بأن يبلغ به درسه بعد عشرين

أو ثلاثين سنة من حياته مبالغ العلماء، والفريق المرجوُّ منه الخير عندنا دائبٌ على التلهي بالمحال وصرف العمر في الثرثرة وإضاعة الوقت. ذكر بعض أرباب السياحات من المشارقة أن بعض بيوت الفقراء في إنكلترا كانوا يصورون على الجدران في غرف الاستقبال صور كتب مجلدة تجليدًا نفيسًا موضوعة في خزانة تنادي الداخل أن لصاحب الدار مشاركة في المعارف، فإن فاته الكتاب فعنده صورته ومثاله، وهو يفاخر بالكتب كما يفاخر أهل السعة باقتناء العاديات والأعلاق النفيسة أو كأن لسان حال صاحب البيت: إن كانت حالي لا تسمح لي أن أقتني أعيان الكتب وأجعلها في خزانة فأنا أصورها وأتمتع بمنظرها الجميل. أما في الشرق فقَلَّما رأينا بيتًا يقتني الأسفار ويصفُّها على رف أو يحفظها في خزانة، يفزع إليها هو وأولاده وأهله للاستفادة.

ووقع لي أنْ كنت أُزين لبعض من أعتقد فيهم استعدادًا للمطالعة أن يقتنوا الكتب في جملة ما يقتنون من الأواني والطنافس، وكنت من جملة ما أعمد إليه لبلوغ هذا الغرض تشجيعهم على ذلك بإهدائهم كتبًا وأحتال عليهم أن يطالعوها لأجيئهم بغيرها، ولطالما حببت لبعض أرباب السعة أن يجمعوا الكتب بالتدريج فما نجحت دعوتي كثيرًا؛ لأن الشرقي ابن الجمود، لا تحدثه نفسه أن يخرج عنه. ولقد شهدت أن كثيرًا من المعلمين والقضاة والإداريين والأطباء ليس في بيوتهم كتب، ثبت لي أن بعض هذه الفئات ودعوا كتبهم في المدرسة وما فكروا أن يقتنوا ما ينير أبصارهم ويساعدهم على إتقان صناعاتهم، وهذا من جملة الفروق بين العربيِّ والغربيِّ.

وحب الاستطلاع حدا الصحف الإفرنجية على أن تنشر كل يوم بسائط من العلوم والمعارف في قوالبَ مقبولة؛ لأن قراءها يطلبون منها هذا ليتعلموا منه. فالجرائدُ الكبرى عندهم مدارسُ يوميةٌ تلقي على قرائها ما يروقهم ويأخذون منها ما ينير أفكارهم. تحمل في صفحاتها جميعَ رغبات الناس؛ ولذلك كان مستوى عقول من تعلموا منهم التعليم الابتدائي أرقى ممن تعلموا هذا النوع من التعليم عندنا. ومن أجل هذا كانت جرائدُهُم غير جرائدنا في هذا الباب. وفي الصحف الإفرنجية التي تصدر في مصر نموذج من صحف الغرب الكبرى، يسقط القارئ فيها على ما لا يجد مثيلًا له في الصحف العربية من مقالات وفصول طريفة، تسلِّي وتعلم.

القول في خلافة الإسلام

لم يستخلف صاحب الرسالة — عليه الصلاة والسلام — ولم تبدُ منه إشارة إلى أنه يريد أن يعهد من بعده لأحد. ولما اشتد وجعه الذي مات منه قال، فيما روى أصحاب السِّيَر: «ائتوني بدواة وبيضاء فأكتب لكم كتابًا لا تضلون بعدي أبدًا.» فقال بعضُ من حضر: إن رسول الله قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله. وأكثروا اللغو واللغط فقال الرسول: «قوموا.»

وأدرك أهل الحل والعقد من امتزاج الرسول بأبي بكر الصديق، وبما أُشير إليه في القرآن من أنه صاحبه في الغار ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ ومن طول عشرته له، ووقوفه على مقاصده، أنه كان حقًّا وزيره وصاحبه المقدم، خصوصًا وقد أمره في مرض موته أن يصلي بالناس، فقال الناس: «إنه ارتضاه لديننا أفلا نرضاه لدنيانا؟»

وهناك عدة شهادات في أبي بكر بدرت على لسان الرسول في أوقات مختلفة تُشعر بمنزلته من قلبه، ومنها: لما قدم من حجة الوداع، وكان بَلَّغَ رسالته، وأَوصى بما أَوصى به، خطب وقال: «أيها الناس إن أبا بكر لم يسؤني قَطُّ فاعرفوا ذلك له، أيها الناس إني عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف، والمهاجرين الأولين راضٍ، فاعرفوا ذلك.» ولهذا انقاد المسلمون لإمامة أبي بكر وبايعوه بالإجماع حتى العباس وعلي. وقال أبو بكر للعباس: «إن الرسول خلى على الناس أمرهم ليختاروا لهم في مصلحتهم، متفقين لا مختلفين، فاختاروني عليهم واليًا ولأُمورهم راعيًا.»

رَبَّى الرسول رجالًا يعرفون ما يصلحهم وما يفسدهم، فكانوا أحرياء أن يولوا عليهم من يحسن الولاية، ويصدِّروا مَنْ هو أولى بالتصدر، وليس من المعقول أن يعين الشارع شخصًا بعينه لخلافته ودعوتُه دينيةٌ، وهو ما لجأ في حياته إلى القوة إلا لما

أعجزته الدعوة إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالقوة حَمَى دعوته على نحو ما كان في النصرانية أول ظهورها في الغرب، فإنها اضطُهدت اضطهادًا كاد يجتثُّ أصولها، فلما واتتها القوة نجا دُعاتُها من الظلم والقتل، فتهيأت الطرق لنشر دينهم.

وأوصى أبو بكر بالخلافة من بعده لعمر بن الخطاب، وجعلها هذا في جماعة من كبار الصحابة الذين كان الرسول راضيًا عنهم، فاختاروا من بينهم عثمان بن عفان، فلما قُتل بايع أكثرُ العرب عليَّ بن أبي طالب، إلا أهل الشام والجزيرة وبعض الأمصار. وبوقعة الجمل انتظم لعلي أمر العراق ومصر واليمن والبحرين وعُمَان واليمامة وفارس والجبل وخراسان، وبقي معاوية في الشام لم يبايع حتى وقع الاتفاق على التحكيم بين عليٍّ ومعاوية عقب وقعة صِفِّين، فخلع صاحب عليٍّ عليًّا، وأقر المحكِّم عن معاوية صاحبَه، وخرج علي من هذه الصفقة خاسرًا، وقد نشأ من الوقعتين المشئومتين «الجمل وصفين» مذهبُ الخوارج، خرجوا على علي وكَفَّرُوهُ بفعله واعتزلوه، ومذهبُ الشيعة، شايعوه وأقرُّوهُ على كل شيء.

ولما قُتل عليٌّ كانت كفة معاوية راجحة، فبايعه الصحابة خوف التفرقة، وتنازل له الحسنُ بن علي عن الخلافة، فأنشأ معاوية في الشام ملكًا مصبوغًا بصبغة دينية، كانت الخلافة من جملة مظاهره. وفي خلافة يزيدَ بنِ معاوية قُتل الحسين بن علي، وكان أهل العراق أَلَحُّوا عليه أن يوافيَهم من الحجاز ليطالبوا له بالخلافة، فخذلوه لما جَدَّ الجد، وقُتل مع الحسين معظم آله، فصَفَت الخلافة لبني أُمية، خصوصًا بعد أن قضى يزيدُ على عبد الله بن الزبير الذي كان استُخلف في الحجاز، وخُطِبَ له في اليمن ومصر والعراق وفارس عدة سنين.

كان الخليفة من بني أُمية يعهد، في الأكثر، إلى اثنين بولاية العهد، ولا يعهد إلا إلى الكفء الحصيف، فعَهِدَ معاوية إلى يزيد، وعهد هذا إلى ابنه معاوية فلم يتقلدها بالفعل، وما أراد عند موته أن يوصي بها لأحد، وما رضي أخوه خالد أن يتولاها، وأخذ مروان بن الحكم الخلافة بالسيف، وهو أول من فعل ذلك، ولولا هذا لَخرج المُلك عن بني أُمية إلى بني أسد بن عبد العُزَّى. وجُعل الأمر بعد مروان لخالد بن يزيد بن معاوية ولعمرو بن سعيد الأشدق. وأراد عبد الملك بن مروان أن يتوقف في تقلُّد الخلافة، فهدده بعض آله بالقتل فقبلها.

بقيت نفوس آل علي وآل العباس تَشْرَئِبُّ للخلافة، يعتقدون، لأصالتهم وشرفهم، أنهم أحق بها من سواهم، فيردهم عنها سلطان بني أُمية. ولم يبق أمام طلاب الخلافة، بعد أن أخفقوا مرات في طلبها، إلا أن يعمدوا إلى إنشاء جمعيات سرية، تتخذ الأسباب لتولي الخلافة، وكانوا بايعوا لإمامهم محمد بن الحنفية من أبناء عليٍّ بن أبي طالب. فولَّى هو في حياته ابنَه بعده، وأمره بطلب الخلافة إن وجد إلى ذلك سبيلًا. وعلم به خليفة الوقت سليمان بن عبد الملك الأُموي فسأله فأَنكر ما عُزِيَ إليه، وأتى الحُمَيْمَةَ في جنوبي الشام، وبها آل العباس فعهد بالخلافة بعده إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، فأقام خليفة سرًّا حتى مات، وعَهِدَ بالأمر بعده لإبراهيم بن محمد فقتله الخليفة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أُمية، وقيل إن إبراهيم بن محمد عهد بالخلافة بعده إلى أخيه عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العباس.

واختار الخليفة العباسي أن يجعل من خراسان مبعث دعوته؛ لبُعدها عن عاصمة الأُمويين، ولأن قلوب أكثر أهل خراسان منحرفة عن الأُمويين، وقلوب أهل الشام مجمعة على مناصرتهم، وتولى أبو مسلم الخراساني كبر هذا الأمر، وكان إبراهيم الإمام أوصى أبا مسلم أن يقتل من يشك فيه من مضر، ولا يدع بخراسان من يتكلم بالعربية، وأي غلام بلغ خمسة أشبار يتهمه فليقتله. فاشتد أبو مسلم في قتل أبناء المهاجرين والأنصار، واستمر الشنآن بين النزارية واليمانية، وتحزب الناس بالمثالب، فغلب أبو مسلم صاحب الدعوة على خراسان، ومن مرو الشاهجان ظهرت دولة بني العباس سنة ١٢٧هـ، وصُنع أول سواد لبسته المسودة، أي: بنو العباس. وكان البياض شعار الأُمويين، وأصبح الناس يُقتلون بالألوف بين المسودة والمبيضة، وما وَضَعَ أبو مسلم الخلافة في أيدي بني العباس بالكوفة حتى كان قَتَلَ ستمائة ألف إنسان!

وتسلط أبناء خراسان على الدولة، وصح تخوُّف عمر بن الخطاب من الفرس يوم قال: «اللهم لا تدركني أبناء الهمذانيات والإصطخريات، وعدَّد قرًى من قرى فارس، الذين معهم قلوب العجم وألسنة العرب.» وانقلبت الدولة الإسلامية فارسيةً، وكانت عربية في كل مناحيها في العصر الأُموي. وكان استيلاء أبناء خراسان على الأمر أول ظفر كُتب للفرس على العرب، بعد أن دكَّ العربُ سلطانهم في وقعة القادسية، وأخذت المجوسية تفنى في دين التوحيد، وتراجعت الحضارة الفارسية واصطبغت بصبغة عربية.

استولى العباسيون على المُلك، وأبعد آلُ العباس آلَ علي عن الخلافة «وكان آل العباس وآل أبي طالب شَرَعًا في المطالبة بالخلافة؛ ولذلك سُمُّوا شيعة آل محمد، ولم يكن إذ ذاك

بين بني علي وبني العباس افتراق في رأي ومذهب.» ونقم الطالبيون على العباسيين لما استأثر هؤلاء بالأمر فأصبحوا الحزب المعارض في الدولة، تثور شيعتهم كلما وجدوا بابًا للمطالبة بالملك، وكيف لهم به وأسباب القوة كلها في قبضة آل العباس، وكان المنصور خليفتهم الثاني يقتل على الشبهة، ويُعطي الأمان ثم ينقصه.

تولى السفاح الخلافة العباسية على صغر سنه؛ لأن أُمه عربية، وليس في بني العباس مَنْ أُمه من الحرائر غيره. وادعى السفاح وآله في أول خطبة خطبوها في الكافة أنهم ما خرجوا في طلب هذا الأمر ليستكثروا اللجين والعقيان، ولا ليحفروا الأنهار ويبنوا القصور، وأنهم أخرجتهم الأنفة بعد ابتزاز الأُمويين حقهم والغضب لبني عمهم، فما هي إلا أعوامٌ قليلة حتى احتجنوا الأموال وأسرفوا فيها، وأقاموا القصور والمصانع، ونعموا بكل ما في الحياة من مناعم، وقتلوا بني عمهم.

كانت طريقة توسيد الخلافة عند العباسيين أيضًا أن يَعهد الخليفة لاثنين بعده، وربما لا يكون الاختيار موفقًا كثيرًا، فيتغلب على الخليفة ما في طباع البشر من الأثرة وحب البنين، ومن النادر أن يأتي الكفاة إلى الخلافة، وأن ينجب النجيب نجيبًا. ومن تأمل سيرة العباسيين لا يجد فيهم أمثل من المنصور والرشيد والمأمون والمعتضد، وأكثر من عداهم كانوا إلى الضعف على حين كان في آلهم من هم أكفأُ منهم، وإنما ساقت الأقدار فلانًا للقبض على زمام الإمامة؛ لأنه بكر أولاد فلان، فيجيء الضعيف لتولي الخلافة بحكم قانون الإرث أو قانون المصادفات الغريبة، ولذلك رأينا القتل يكثر في خلفائهم، ورأينا خليفتهم يصبح في معظم العصور أَشبه بشيخ طريقة أو قيم رباط لا إمامًا يجمع بين مصالح الدين والدنيا، يأمُر فيأتِمر الناس بأمره، وينهى فلا يراجَع، يجيِّش الجيوش، ويقاتل أعداء الملك، ويفوض الأمور إلى الأكفياء يعاونونه في حمل أعباء الحكم، بعيدًا عن المصانعة والخوف إلا من خالقه.

كانت مسألة ولاية العهد من أعظم نكبات الخلافة، وإرادةُ الخليفة في توسيدها هي المُطاعة النافذة، وقد يأتي بما يخالف ما عقدوا وبيتوا. فالسفاح عهد بولاية العهد لأخيه ولابن أخيه من بعده، فانتزع الخليفة بعده ولاية العهد من ابن أخيه ليجعلها في ابنه، والرشيد فوض ولاية العهد لثلاثة من أولاده فما سلمت الحال من فتنة عظيمة بين المأمون والأمين؛ لأن هذا حاول أن يعهد لابنه الطفل بولاية العهد ويُقصي عنها أخاه المأمون المُجمَع على كفاءته.

ومنذ أصبحت الخلافة على العهد الأُموي ملكًا عضوضًا، تقوم على التغلُّب والعصبية، وتورث ويُتنازل عنها، كانت الأيدي التي تتعاور الخلافة تختلف ضعفًا وقوة. وإذا وُصفت خلافة الراشدين بأنها خلافة النبوة، فإن خلافة مَنْ بعدهم مِنْ بني أُمية وبني العباس جديرةٌ بأن يُطلق عليها خلافة الدنيا ثم الدين. ويوم كان أولياء العهد يربَّوْن تربية حربية، ويشتركون منذ الصغر في تولي الأحكام، كما كان من الرشيد وابنه المأمون، كان يتولى الخلافة خلفاء يعرفون خطورة منصبهم، فيعملون كل ما يعمله الرجل العظيم، ولما ضُيِّق خناق أولياء العهد وسُلبوا حريتهم، وأصبحوا يمنعون عنهم بعض الكتب، وما تهفو إليه نفوسُهم من ضروب العلم، وأُبعدوا عن اشتراكهم في إدارة الملك وسياسته، صار يجيء منهم البُلْهُ والفَسَقة، وخرجت الخلافة عن صورتها الأصلية، وكادت أن تكون اسمًا بلا مسمًّى.

أقام العباسيون، منذ أول أمرهم، دعاة لهم يهيئون النفوس لكل ما ينفعهم في سلطانهم، يحببون بني العباس إلى الناس حتى لَيُقربونهم من مراتب الربوبية أو نحوها، ويبذل العباسيون في ذلك أنواع البذل، ولقد أَفْرَطُوا في استغلال هذا الشرف. فوُضعت لهم الأحاديث المكذوبة؛ تأييدًا لهم، وقَتلوا كل من خالفهم ولو في سره، قتلوا كثيرًا من العلماء؛ لأنهم ذكروا أشياء تضر بخلافتهم، وكانوا كثيرًا ما يتهمونهم بما لم يفعلوا، ويصنِّعون عليهم التهم ليَستحلوا أمام العامة قَتْلهم، أراد المهدي أن يقتل القاضي شريكًا؛ لأنه حدَّث بحديث الأعمش عن سالم بن ثوبان أن النبي — عليه السلام — قال: «استقيموا لقريش ما استقاموا لكم، فإذا خالفوكم فضعوا سيوفكم على عواتقكم فأبيدوا خضراءهم، فإن لم تفعلوا فكونوا زراعين أشقياء.»

قضى هولاكو التتري على الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦، وأعاد المماليك لبني العباس خلافتهم في مصر زمنًا، وكانت الخلافة العباسية كسفت شمسها بعض الكسوف منذ القرن الثاني بقيام بني أُمية في الأندلس يتخذون لهم خليفة مستقلًّا عن الخلافة العباسية. وجاءت في القرون التالية ثلاث خلافات «العباسية والأموية والفاطمية» في آن واحد، وأتت أزمان، كما هو الحاصل الآن، وليس للمسلمين خليفة. وكان أكثر من تقلدوا هذا الاسم الشريف خلفاء بني العباس، دامت خلافتهم بالضعف والذل نحو سبعمائة سنة، وبالقوة والعز بحيث استحقت صفة الخلافة نحو مائة سنة فقط. وما قُضي على العباسيين القضاء الأخير إلا بفتح السلطان سليم العثماني الشام ومصر، وأَخْذه الخليفةَ العباسي من القاهرة إلى القسطنطينية، فكان آخر العهد بخلافته.

كانت الخلافة أيام الراشدين والأُمويين في الشرق والغرب وبعض عهد العباسيين الأول هي الكل في الكل، فأصبحت لا شيء أيام الدول الصغرى المنبعثة من الدولة الكبرى. كانت الخلافة كلها قوة، ولَمَّا تراجع أمرها أصبحت كلها ضعفًا. كانت جدًّا كلها فانقلبت إلى ما يشبه الهزل. وما خلافةٌ لا يؤيدها سيف ماضٍ، وما دولة ليس من ورائها جيش يحميها، ولا سلطان مستقلٌّ إليه، وَحْدَه، القبض والبسط والخفض والرفع. كانت الخلافة من أسباب تداعي الدولة الإسلامية بما شبَّت في سبيلها من فِتَن قُضِيَ فيها على صفوة من رجال الأُمة. وقدَّر الله أن تتدخل امرأة في السياسة، فكانت وقعة الجمل المشئومة، حاولتْ السيدة عائشة أن تُعاون معاوية على عليٍّ؛ لأن عليًّا بدرتْ منه في حقها، يوم رُميتْ بالإفك، وهي بريئة، كلماتٌ قالها للرسول أحفظت قلبها عليه. فلما قُتِلَ عثمان رأت أن تعاون على إخراج القَتَلة، وبمعنًى آخر أن تُظاهر معاوية على أخذ الخلافة، فكانت وقعة الجمل ثم وقعة صِفِّين، وبهما ضعُفت الأُمة وهي في دور أشد ما كانت فيه احتياجًا إلى الاستقرار، والعمل لما يؤيد الدعوة، والابتعاد بها عما يوهنها.

لا جرم أن قصة الخلافة الإسلامية في الصدر الأول مجموعةُ مآس تكتئب لها النفوسُ كلما ذُكرت، ولا بد من تذكُّرها؛ لأنها أهم مسألة في تاريخ الملة، وقد رأينا الأُمويين لم يغفلوا ساعة عن أعداء خلافتهم، قتلوهم شر قتلة، لم تأخذهم بهم هوادة، وكذلك فعل أبناء العباس بعداتهم الأُمويين يوم هبوا لأخذ الملك منهم، وزادوا وبالغوا في النقمة على وجه لم يصوِّر تاريخُ الخليقة أَبْشَعَ منه. وكان أبناء عليٍّ طعامًا للخلافة في العهدين الأُموي والعباسي، وكلما اشتدوا في الحرص عليها تقذقهم القواذفُ عنها، وإذا اتفق أن يؤسسوا لهم ملكًا ويرشمونه باسم الخلافة كما فعل الإسماعيليون من أبناء فاطمة في مصر، فإن خلافتهم ما كانت على الأمة أسعد من غيرها. ولا خلاف في أن بني عليٍّ سادة المسلمين من حيث تبليغ الرسالة، وأن شئون الدنيا ذهب بها غيرهم، فانصرفوا إلى تدبيرها أكثر منهم، ولو عرف الرسول غَناءهم فيها ما دفعهم عنها.

في الخلافة تشعبت الأُمة شيعًا ونشأت مذاهب إلى جنب تلك المتاعب، فأَصبح المسلم يبغض أخاه المسلم الذي لا يرى رأيه في الخلافة أكثر مما يتباغض أهل الأديان الأخرى، وكان من هذه البغضة الشديدة، وهذا الخلاف المزمن طريق للغريب تسلل منه، فعبث بكيان الإسلام وفض جامعة المسلمين.

ومن أجل الخلافة ضاعت فرص على الأمة كانت من أعظم ما يُغتنم لنشر كلمة الإسلام في الأرض. وذلك أن دولة العرب قامت في عصر كانت قد اضمحلت فيه دولة

الرومان وأصبحت دولة الروم البيزنطية في حالة هرم ظاهر، ودُكَّتْ دولة فارس الشرقية وأصبحت ولاية عربية. وليس في أوربا ولا في آسيا دولة يُرهب بأسها، وتُسمع كلمتها غير دولة العرب الجديدة. فلو لم تشتغل دولتهم بنفسها، ويدب الفساد في صفوفها، لتَقَدَّمَتْ جيوشها ففتحت القسطنطينية، وبفتحها ينتشر الإسلام في أوربا الشرقية، كما كان أَخَذَ ينتشر في الطرف الجنوبي الغربي عن طريق الأندلس.

كان الإسلام سلامًا كله، فاضطرت السياسة أعظم رجال بني أُمية أن يخرج شيئًا عن بعض قواعده، فحرَّك في العرب عرق التحزُّب للقبيلة، والإسلام قضى على الجنسية والعنصرية، وبَغَّضَ إلى أهله هذه المفارقات، ليجعل من المسلمين كتلة واحدة على اختلاف الجنس وتعدُّد القبائل، فحاد سيدُ أُمية قليلًا عن هذا القانون، وأحيا بعض عادات الجاهلية، انتفع بإرجاع نغمة العصبية بعض الشيء، وأضاع من جهة أخرى أشياء، عادت نغمة التعصُّب للقبيلة تتردد فتضرُّ أكثر مما تفيد.

استعمل معاويةُ دهاءه في دَفْع الحسن سبط الرسول عن الخلافة، وأرضاه بالمال وبامتيازات اعترف له بها، ثم حَمَلَ الصحابة والتابعين على مبايعة ابنه بولاية العهد، فتم له ما أراد، وبَنَى العقلاءُ بيعتهم له على إرادة اجتماع كلمة المسلمين؛ لأن بني أُمية يومئذ كانوا أصحاب العصبية القوية، ولولا ذلك لكان في الصحابة مَنْ هم أفضل من يزيد، ولكن يزيد كان صاحب العصبية، وصاحب السياسة والقوة، وما كان للَّائقين لتقلُّد الخلافة مثل ذلك. ولذا كانت الخيبة نصيب كل من تذرع بالقبض على زمام الخلافة زمن بني أبي سفيان وبني مروان، وكلاهما يمت بنسبة إلى أُمية، وكذلك يقال في عصبية العباسيين بعد أن استقامت لهم الخلافة، فكان من الجهل منازعتُهم حبلَ السلطة وهم في أرقى قمم مجدهم وسلطانهم.

إلى منتصف القرن الثالث كان يصدق على المسلمين أن لهم دولة وخلافة، فتشتتْ بعد ذلك كلمتهم، فكانوا خلافةً بلا دولة تارة، ودولة بلا خلافة تارة أخرى. وعلى الصورة الأولى تنطبق خلافةُ الدولة العباسية إلى ما بعد عهد المعتصم، ومثال الدولة بلا خلافة دولة بني عثمان، فقد كانت أول أمرها خلال حكم عشرة سلاطين دولة استوفت شروط القوة، والخلافة فيها ثانوية، ولذلك لم يذكر العثمانيون الخلافة، ولم يتشبثوا بها إلا لما جاء عهد الضعف أواخر أيامهم. وكان مستندهم على القوة والجيش ودعوى الخلافة لا تكاد تُسمع.

كان للخلافة الإسلامية روعة عجيبة في أول الإسلام، والدين غَضٌّ والقوة موفورة، وبقي لها جلالُها ما بقي لأصحاب السلطان قوة يحسب القريب والبعيد حسابها، فلما تراجع سلطان المسلمين بعد القرن الرابع لم تَعُدْ دعوى الخلافة تنفعهم، وإنما نفعهم وينفعهم اليوم أن يؤلفوا دولًا قوية تقيم العدل وتقضي على الظلم.

القول في الجامعة الإسلامية

انتشر الإسلام في العصور الغابرة في أقطار بعيدة عن مَبْعثه على أيدي جماعة من التجار. ونما عدد المهتدين على مر السنين، فأصبحت كل مجموعة منهم تعادل نفوس أمة من الأُمم الكبرى اليوم. ولم تستول الدول الإسلامية على الصين ولا على جاوة، ولا على أقاصي بلاد السودان في إفريقية، حتى يقال: إن الإسلام هناك شاع بفضلها، كما شاع في الهند منذ الفتح، وانتشر في البلقان أيام العثمانيين. وكان لطبيعة الدين ويُسْره أعظمُ الأثر في الوثنيين والمانويين والبوذيين، تَمَثَّلُوه ورسخ بينهم رُسُوخَه في أرض العرب. وهكذا انتشر الإسلام في إفريقية، وأمسى أهله فيها عشرات الملايين، والمسلمون يزيدون في جاوة على ستين مليونًا، وكذلك عددهم في الصين، وبلغوا في الهند تسعين مليونًا.

نأت ديار مئات الألوف من المسلمين عن جمهرة أبناء دينهم في جزيرة العرب وفارس والأفغان والترك والقوقاز، وكان منذ القديم يتعذر الاتصال بين عامة الشعوب الإسلامية، وما كان لهم اجتماع إلا بمكة في الموسم. ومن الصعب أيضًا أن يمتزجوا الامتزاج اللازم في أيام الحج القليلة. وفي الغالب يحج الشيوخ، وفي الشيوخ تضعف الحركة، والميل إلى الأخذ بالجديد.

كان الحج في الزمن الأخير من طبقات العامة، وقلَّ أن يحج المتعلمون. وقد حج في السنين الأخيرة نَفَرٌ من رجال تونس ومراكش المثقفين، وطائفة من أساتذة الجامعة المصرية وطلبتها، فكانوا حلية مَنْ حجوا، ومثلًا صالحًا لمن كان في طبقتهم ووَدَّ أربابُ البصيرة لو اقتدى بهم أمثالهم من الشعوب الإسلامية الأخرى، ليعود إلى اجتماع مكة بعض رُوائه، وتتحقق مقاصد الشارع من الحج.

إن في حج الآخذين بمذاهب التربية الحديثة أعظمَ الفوائد لشعوبهم، فهُمْ في الحج غير فريق العامة من المسلمين فيه، يستفيدون من حجهم معارف جديدة، ويهتدون

إلى منافع ومقاصد، ويبث بعضهم في روع الجاهلين أفكارًا تبعث فيهم روح النهوض، ويرجع المسلمون من حجهم يفكِّرون في حاضرهم ومستقبلهم.

لا رجاء الآن بتعارف المسلمين في غير الأرض المقدسة، واجتماعهم هنا، على ضعفه، لا يخلو من فوائد. وحبذا لو تيسر للفئات المستنيرة في العالم الإسلامي أن يُعِدُّوا كل عام رحلات إلى القاصية، يشترك فيها أهل الطبقات الراقية، فيتعارفوا إلى الشعوب النائية من إخوانهم، ولكن قومي إلى تخاذل، أقوياء فُرادى ضعفاء جماعات، ولطالما رجوت أن تفرض الجامعتان المصريتان على بعض طلبتهما أطروحات عن الممالك الإسلامية، فيقضي الطالب سنتين أو ثلاثًا في البلد الذي يُرام البحث فيه والإلمام بكل ما له علاقة به.

من أهم أركان الإسلام توالي الاجتماع، وما قامت اجتماعات أهله في الصلوات الخمس كل يوم، وفي صلاة الجمعة كل أسبوع، وفي الأعياد والمواسم كل عام إلا على غاية سامية، يقصد بها الشارع دوام أُلفتهم؛ ذلك لأن البُعد جفاء، والنفوس تتناكر إذا لم تتعارف.

وتقول: إن تواتر اجتماع المسلمين في الحج مما لا ترضى عنه بعض دول الإفرنج؛ لأنها تنظر إلى هذه الصلات بين أهل الإسلام غير نظرنا إليها، فتقيم العقبات في سبيل الحاج، كما وقع من إحداها في بعض السنين الغابرة أن حظرت الحج على أهل أقطار عظيمة، فماذا يكون منها لو رأت جماهير من أهل الأقطار التي وضعت أيديها عليها تجتمع في الحج؟ وخصوصًا إذا كانت من طوائف تفهم وتعلم، وتعرف كيف تعمل.

لا جرم أن المسلمين في حكم الدول الغربية إذا طلبوا بالطرق القانونية الإذن بالحج، لا يسع دولة تهتم لغضب رعاياها ورضاهم إلا إجابة طلبهم المعقول. والزمن اختلف، واختلفت السياسة والشدة ما أتت ولن تأتي بخير، وقد غدا لزامًا على الدول إذا جنحت إلى أن تعيش بسلام أن تصانع بعد اليوم في أمور كثيرة، وتعامل الناس بالحسنى أبدًا، وتخرج عن القوانين الجائرة إلى أنظمة عادلة.

ولقد قوي حب القومية في بعض الشعوب الإسلامية كالتُّرك والعجم، فمنعت حكومتاهم الحج على المسلمين من رعاياهم؛ خشية من تسرب أموال الدولتين إلى الخارج لإطعام فقراء الحرمين، ونَفْع شركات النقل في البواخر. وهذا عمل غريب لم تجرؤ أي حكومة على إتيان مثله في غابر العصور، وقد حدث أن انقطعت بعض الأقطار عن الموسم بضع سنين بداعٍ طبيعي من فتن وأوبئة ومجاعات.

إلى عهد قريب كان بعض المتحمسين يدعون إلى الجامعة الإسلامية بدون أن يُعِدُّوا لها عدتها، ويعلقون على تأليفها أعظم الآمال. ولقد كنت كلما سمعت هذه النغمة أستبعد

تحقيق الأمنية. ولذا لم أكتب في هذه الجامعة سطرًا واحدًا بالتعديل ولا بالتجريح. وكيف، لَعَمْري، تتحقق الجامعة الإسلامية، والمسلمون تحت سلطان دول متنوعة، مشتتون في ثلاث قارات، تتباعد أصقاعهم ألوفًا من الأميال، ولا يكادون يتفاهمون إذا اجتمعوا؛ لأنه ندر من يحسن العربية لغة المسلمين الرسمية من الأعاجم، وقد يعرف أحدنا عن الشعوب الأوربية ما لا يعرف بعضَه عن مسلمي جاوة والصين والهند، وهم أكثر من نصف المسلمين في الأرض. وأنى يتعارف الهندي المسلم إلى المراكشي، وبينهما من الاختلاف في المنازع واللغة والثقافة وجميع ما يجمع الأُمم، أكثر مما بين الأوروبي والآسياوي. نشأ هذا من الفردية التي خُصَّ بها المسلمون، ومن عُزْلَة كل شعب عن الآخر عزلة منقطعة. الفردية باعدتْ بين أبناء نحلة واحدة، كان من أكبر مصلحتهم أن يجتمعوا، ويتفاهموا ويتعاطفوا، وتباعُد الأقطار الإسلامية بعضها عن بعض زاد في التبايُن تباينًا جعل كل شعب من عالم آخر غير الذي نحن عائشون فيه. وساعد على هذا أن ملوك الدول الإسلامية في الأيام الأخيرة ما كانوا يفكرون إلا في دوام نعيمهم، والاحتفاظ بسلطانهم، وما كانت عقولُهُم تصل إلى أبعد من شهواتهم وأغراضهم، وما ظهرت لهم قوة إلا بالاعتداء على الضعاف من جيرانهم. وقَلَّ جدًّا الصالح فيهم المتقن صناعة الملك، وهي صناعة تتوقف على صفاتٍ خلا منها أكثرُ مَنْ ساسوا الشعوب في ديار الإسلام.

نعم فُقدت أكثر عناصر الجامعة الإسلامية؛ لأن بعض الحكومات تقاومها، ولو كانت تحكم أوفى عدد من أهل الإسلام لأُمور تتوهمها، ومنها: الخوف على سلطانها وانقطاع منافع النفعيين ومطامع الطامعين. ومَنْ يَستبعدون قيامَ هذه الجامعة، وصعب حملهم على الدعوة بما لا يؤمنون به إيمانًا راسخًا. أما رجال الدين، والرجاءُ معقودٌ فيهم في هذا الباب، فلا يرجى منهم أن يخلصوا القصد في تأليف جامعة الإسلام ما داموا يدهنون لكل صاحب سلطان. وقد كان الإمام المصلح السيد جمال الدين الأفغاني رأى التعويل في قيام هذه الجامعة على رجال الدين، فأحسن ظنه بهم، وتناسى أنهم منذ أجيال ما حققوا بعض ما كان يُرجى منهم، قصاراهم الترامي على أبواب الحكام والخنوع لأرباب القوة.

على المسلمين، في المشارق والمغارب، أن يتعارفوا ويتآلفوا، بهذا يأمرهم دينهم، وعلى هذا يتوقف دوامُ سلطانهم في دنياهم، وذلك من طريق الحج، ومن طريق الرحلات، ومن طريق التجارة، ومن طريق المصاهرة، وعليهم أن يقيموا في كل حاضرة من حواضرهم دار ضيافة تئوي الراحلين من أهل القاصية، وتوفِّر لهم أسباب راحتهم مدة، على نحو ما كان من مدارس المسلمين في العصور الوسطى أيام كانت تضيف العلماء الوافدين من الأقطار.

وإذا تعذر تَوالي رحلة ابن الشرق إلى الغرب وابن الغرب إلى الشرق فلا أقلَّ من أن تكون المراسلات بينهم دائمة، ووقوف النابهين من أهل كل قطر على ما عند إخوانهم في القاصية من أفكار ومنازع يتضمن من الفوائد المعنوية ما يكون الدعامة الأولى في هذه الجامعة؛ بل يحمل فوائدَ ماديةً يستفيد منها الساكن والراحل.

ومما يساعد على قيام هذه الجامعة إنشاءُ مجلة باللغة العربية في مصر تبحث حال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ولا ينشر فيها شيء تُشْتَمُّ منه ريحُ التعصب الديني، فينقل الصيني والجاوي والهندي والتركي بعض فصولها إلى جرائده الوطنية، وستكون هذه النشرة أداةً عظيمة من أدوات هذه الجامعة.

وعلى ذلك يتأتى أن يتعارف أهل الإسلام تعارفًا مقبولًا، وعندها تُعقد أواخي الجامعة بطبيعتها على غاية الإحكام. ويومئذ يفرح المسلم الآسياوي بلقاء أخيه الإفريقي، ويستفيد أحدُهما من الآخر استفادةً لا يستفيدها اليوم أبناء صقع واحد من هذه الأقطار الإسلامية الكبرى بعضهم من الآخر.

الجامعة الإسلامية لا تقوم بالجهل، وما سبق لأُمة أن اجتمع شملها بغير العلم.

القول في الوحدة العربية

فَقَدَ العرب استقلالهم منذ القرن الخامس من الهجرة، فدخلوا في حكم بعض العناصر الإسلامية، كالتُّرك والتتر والديلم والكرد والشركس والبربر، وأمسَوا في أرضهم تابعين، بعد أن كانوا متبوعين، تُملى عليهم إرادات غيرهم فيطيعيون، وفي أمسهم كانوا يملون إرادتهم على العالم فيُطاعون. وضعف فيهم، على الأيام، الشعورُ بالقومية، وسُلبت منهم بعض صفات الحكم وعزة الرياسة، ولولا أن كان من مصلحة مَنْ أتوهم من الفاتحين المحافظة على تراث الإسلام الذي لا يضرهم الاحتفاظ به، ولولا أن ماضي العرب كان وثيقًا جدًّا بالقرآن لانقرضوا وانقرض لسانهم من كل أرض قاموا فيها ورحلوا إليها.

بقيت للعرب إماراتٌ صغرى من ذاك الملك الضخم، مُمَتَّعَةً بشيء من الحكم في أرضها، كانت أشبه برقعة من ذاك الثوب الجميل، ربما كان منها بعض ضرر على المجموع المنحل، ولكن كان العرف جاريًا بأن هذه البقاع الباقية مستقلة، وإن كان من نوع الاستقلال الناقص يحمل في مطاويه خللًا وعللًا، تُحاك إدارته بالجهل، وتقوم سياسة أهله بالظلم والعَسف، وما كان لتلك الإمارات أن تتمثل في غيرها؛ لبعدها عن مراكز الدول القائمة في الأصقاع العامرة، ولا أن تمثل غيرها وشروط تفوقها ناقصة؛ ذلك لأنها ظلت قرونًا وراء حدودها، فجمدت عقول بنيها، كما حصل في مراكش والجزائر، وهما على مقربة من أوربا، والنور يسطع من أرجائها، فلا تحدث أهل الرأي أنفسُهم أن يقتبسوا قبسًا منه. وكذلك قل في الحجاز واليمن، أُصيبا بالانحلال، وكانا قبل قرون مهد الإسلام والعروبة، كأنهما تعبا لكثرة ما عانيا في قيام الدولة الإسلامية، فهادَنا وتراجعا.

ولسنا نتوخى هنا رسم صورة تامة لذاك الانحلال السياسي، وغاية ما نتوخاه الإشارة الخفيفة لما وقع، ويهمنا أن نشير إلى التفكُّك الذي حدث بحكم الطبيعة، وكيف

أخفقت كل محاولة في توسيع تلك الإمارات. فقد انكمش أئمةُ الزيدية في اليمن وراء جبالهم، وما استطاع أشراف مكة أن يؤلفوا إمارة قوية يُرهب بأسها، على كثرة إجلال المسلمين لبيتهم، وبقيت نجد بادية، وحضرموت ومسقط وعُمَان وما إليها يستولي عليها القويُّ وهي أشبه بالبوادي، والشام ومصر والعراق فارسية وتترية وتركية وشركسية وكردية، وطرابلس وبرقة وتونس والجزائر تتخبط في إمارات بربرية وتركية، ومراكش أشبه بالمعتلة واسمها مستقلة. وهكذا يقال في إمارات السودان وغيرها مما دخله الروح العربي في إفريقية وآسية.

وقد جرتْ ثلاث محاولات سياسية، قصد القائمون بها جمع شمل الأمة، وتأسيس دولة يحترمها العدو والولي، فقام في الشام الأمير فخر الدين المعني الثاني في القرن الحادي عشر، وكانت أدواته تامة في السياسة، فقتلته الدولة العثمانية، ثم قام ابن سعود الأول في نجد، فقبضت الدولة عليه وأهلكتْه، وقام بعد حين محمد علي في مصر، فحارب صاحبها وغلبه عليها، فحالت دول أُوربا دون تقدمه، وردَّتْه إلى وراء حدود مصر، والعامل الأول في ذلك بريطانيا العظمى.

وأدرك العرب بعد انتباههم الأخير أن الوقت ضاع، والحيلة نفدت؛ لأن الجزائر وتونس ومصر بُليت بالاحتلال الأجنبي، ثم تبعتها مراكش وطرابلس وبرقة وسائر الأصقاع الإفريقية والإمارات الآسياوية العربية، وظلت الشام والعراق والحجاز واليمن ونجد تحت حكم العثمانيين أربعة قرون، كان فيها الاستعمار التركي منهكًا للقوى مضعفًا لأهلها.

وكنت تسمع منذ نحو نصف قرن بين حين وآخر همسًا في الوحدة العربية صادرًا عن أهل البصيرة من العرب، ثم لا يلبث ذاك الصوت أن ينقطع، وذاك الرجاء أن يخيب، إما بمؤامرات بعض دول الاستعمار، أو بمساعي الدولة العثمانية. وكانت تفضل الخضوع للغريب، والنزول له عن بعض أملاكها، على أن تمنح العرب بعض حريتهم. وإذا كانت الدولة العثمانية والإسلام دينها — وتقوم بدعوى الخلافة، وضم شمل المسلمين في المشارق والمغارب — هذا حالها في معاداة العرب، فمن باب أولى أن تكون الدول المستعمرة بعيدة عن العطف على العرب، وأن ترى من مصلحتها أن تضع أمامهم العقبات التي تحول دون إرجاع سلطانهم، ودينها غير دين القوم، ولسانها غير لسانهم، ومدنيتها غير مدنيتهم.

كانت الوحدة العربية قريبة التحقيق في ثلاثة أدوار، فحلت إنكلترا عروتها. المرَّة الأولى على عهد ابن سعود في القرن الماضي، والثانية على عهد محمد علي الكبير لما حارب

الدولة ووصل إلى كوتاهية، والثالثة في الحرب العامة لما وعدت إنكلترا الشريف حُسينًا بتوليته زمام العرب إن هو سار معها لقتال العثمانيين، فلما وصلت إنكلترا إلى بغيتها، قسمت هي وفرنسا الديار الشامية سبع دول. مهزلة لم يحدث في القرن الأخير أغرب منها. ومن يستطيع أن يرفع عقيرته بالشكوى، ويدعو الدولتين إلى المنطق، وإلى تحقيق العهود المقطوعة للعرب، وقد رأى الناس ما حلَّ بالحسين بن علي ملك الحجاز لمطالبته بإنفاذ الوعد، ومع هذا اضطر أبناؤه إلى أن يصانعوا من اضطهد أباهم.

ولنا أن نقول بعد هذا: إن أعداء الوحدة العربية كانوا في القرون الثلاثة الأخيرة دولًا ذات مطامع ومنافع، حتى لقد كان أعظم أمير من أولئك الأمراء، وسمِّه إذا شئت ملكًا أو سلطانًا، يتمنى رضاهن، ويتقرب إليهن بكل حيلة؛ ليبقى له الحكم على أهل إمارته الصغيرة، وفي الإمارات العربية على شاطئ المحيط الهندي والخليج الفارسي مثال من هذا الاستخذاء.

إذا تحققت الوحدة العربية، تصبح قوة لا يُستهان بها في هذا الشرق القريب، ويكون لها من موقعها الممتاز بين الشرق والغرب، ومن غِنَي تربتها، وكثرة مناجمها، واعتدال أقاليمها، ما يجعل منها دولة شرقية. تنفع العالم ولا تؤذيه، وتعيد مجد أُمة كانت على حياة تامة قرونًا طويلة.

سيقولون: إن بعض ملوك العرب لا يرضون عن هذه الوحدة، لما تؤدي إليه من نزع سلطانهم، وعندي أن هؤلاء قد علمتهم التجارب أن في توحيد القوى العربية بقاء بلادهم حرَّة، وربما كانوا يحسون أنه أصبح من المتعذر في الأُمم أن تخضع للملوك، كما كانت في القرن الماضي مثلًا. ويعلمون أن ممالكهم إذا كانت مشتتة الأهواء، يتعادى أبناؤها ويتنازعون مع جيرانهم، يزدردها كل من آنس من نفسه قوة من الدول، والمصلحة تقضي على الملوك والأمراء أن يسيروا بعد اليوم بعقولهم لا بعواطفهم، وأن يعتبروا بعِبَر الحاضر والغابر، فإذا فعلوا — وما إخالهم إلا فاعلين — يحمدون عاقبة أمرهم، وينعمون بارتقاء شعوبهم، ويطمئنون على مقدساتهم، وإذا لم يوافقوا على ما يراد منهم، يضطرون إلى التنازل عن عظمتهم كرهًا، فرق بين ما يعمل بالرضا وما يعمل بالإكراه.

وسيقولون: إنه من الصعب أن يحكم ابن نجد كما يحكم ابن صعيد مصر، وإن ابن حضرموت ومسقط دون ابن الشام بمدنيته، فيتعذر التئامهما وتفاهمهما. وما عهدت حكومة كان فيها مثل هذا الاختلاف العظيم في درجات الحضارة. هذا صحيح لو أردنا أن نُجري على كل هذه الأقطار قانونًا واحدًا، أما ونحن عامدون إلى طريقة الحكم الذاتي؛

أي: أن نطبق عليهم قوانينهم المحلية الخاصة بادئ بدء، ولا يشتركون إلا في المسائل العامة التي لا مناص من توحيدها، فنحن إلى النجاح، بحول الله، وسيحققه لنا ما فطر عليه العربي من الذكاء، وبُعد النظر، وشدة التمثل.

ولا جدال في أن أُمم الغرب ستستفيد من هذه الوحدة فوائدَ رابحة لها ولمن تقوم باسمهم. تستفيد من استثمار المناجم والأرضين، وتخلق لصناعاتها مصارفَ جديدة، وتزيد المواد الأولية في الأرض العربية أضعاف ما هي عليه اليوم، وتُنزع من العقول دعوى أن بلاد العرب قاحلة لا تستحق العناء. وهي نغمة طالما رددها من لم يدرس طبيعتها وأثبتت الجزيرة بما اكتُشف فيها من النفط والمعادن أنها في الذروة بغنى تربتها.

في أرض العرب ما يشغل رجال الأعمال والأموال من أهل الغرب القرن والقرنين، يتوفرون على استثمار ما سيكشفه المستقبل فيها من كنوز لا يخطر الآن ببال غير العارفين العثور عليها. وستكون الدولة العربية نقطة اتصال حقيقي بين القارات تتبادل فيها المنافع، وتتمازج شعوب الشرق والغرب، أكثر مما تمازجت بقوة السلاح، والاحتيال على صوغ الضعيف بصياغة القوى صياغة تضره ولا تنفعه.

تقوم هذه الدولة الجديدة بالحب والإيثار، وتبني قواعدها بسلطان العقل، وتحقق لبنيها أمانيهم وسعادتهم. وسيرى أهل الغرب أنا لا نغرهم بهذا الكلام، ولا نحاول خديعة أحد، وستبدي لهم الأيام أن معاملة الشعوب بالحسنى من خير ما يُبقي على الغالب قوته، والقوي لا يضره الأخذ بيد الضعيف، بل قد يتضرر من اضطهاده، ومصالح هذا العالم متشابكة، لا يستغني غربي عن شرقي كما لا يستغني غني عن فقير.

وعلينا معاشر العرب أن ندعو إلى هذه الأمنية بالطرق العلنية، نورد لمن لا يعرفنا صفحات من ماضينا وحاضرنا، نصرح بذلك على رءوس الأشهاد، حتى لا ندع سبيلًا للمموهين، لتشويه وجه حقائقنا بخزعبلاتهم، وليكون لنا من شعوب أوربا وأمريكا نفسها أنصار يوافقوننا على إتمام رغائبنا التي هي رغائب البشرية، نقتدي في ذلك بما قامت به كل من ألمانيا وإيطاليا لَمَّا نَهَضَتا لتوحيد كلمتهما، وقيام دولتيهما. وما كانت العرب منذ خرجت من جزيرتها، إلا أدوات نافعة في العالم، لم تحمل إليه إلا ما فيه الخير والسعادة، وإذا ضعفنا بفعل الأيام والمحن، فما فقدنا صفات تأصلت في جهازنا الحيوي. نحن لم نفقد الوفاء ولا الكرم، ولا الذكاء والمضاء، بلى تنقصنا أشياء متممة إذا أحرزناها تجلت خصائصنا، وانبعثت قوانا، وانتفعت بنا الإنسانية جمعاء، والعالم لا تضره دولة جديدة ممدنة تقوم مع هذه العشرات من الدول التي تحكم الأرض.

لا جرم أن المنصفين من الغربيين يوافقوننا على أن العرب في مجموعهم لا يقلون رقيًّا عن أرقى الدول الصغرى في جنوبي أوربا، وقال المنصفون من الإنجليز: إننا تمثلنا المدنية الغربية وإننا كالغربيين بإدارتنا وحكمنا، ومنهم من يعترف أن مصر العربية الإسلامية أرقى من إسبانيا اللاتينية النصرانية، وأن الشاميين ليسوا دون اليونانيين ثقافة وحضارة حتى بعد أن أتى على اليونان أكثر من قرن وهم ممتعون بفضل عطف أوربا عليهم باستقلال تام ناجز. ولا يسعهم أن ينكروا أن شعوب البلقان وأصحاب دولة الإسبان وإن عُدُّوا في الأوربيين ودانوا دينهم، لا تزيد مكانتهم عند التحقيق عن الشعوب النازلة في شمالي إفريقية وغربي آسية وأهلها ممن يمثل ملة الإسلام. فقد أخذ من المدنية الحديثة كل مُسْتَعْدٍ لها ما لاءمه، ومن فاتته أشياء لن يتعذر عليه تلقُّفُها في أعوام معدودات، وإن كان من العنصر السامي ولونه ضارب إلى السمرة أو الدكنة أو الصفرة!

إنا نود أن يعرفنا الغرب بتاريخنا الحقيقي وديننا الصحيح، وحضارتنا العربية، نحب أن نؤكد لهم أننا شعوب متماثلةٌ يمكن ضمها في سلك واحد تريد أن تعيش وتطلب حقها في الحياة، وترغب في ضم ما انتثر من قوتها، نقول للعالم: إنا أبناء أبٍ واحد يحاولون أن يجتمعوا بعد فراق طويل، وأن يعودوا إلى الاستمتاع بالدار التي كانت قسمت بينهم على غير رضًا من أكثر الشركاء. وغاية أمانيهم الآن أن ينزلوها، ويستخدموا كل أطرافها؛ لاعتقادهم بأن في سكناها عزتهم والإبقاء على شرف أسرتهم ولا تستوي دار معطلة وقصر مشيد.

هذا بعض ما أذعته في مذياع القدس قبل اجتماع مؤتمر الوحدة العربية في مدينة الإسكندرية في اليوم الثامن من شوال سنة ١٣٦٣ (٢٥ أيلول ١٩٤٤) للتوحيد بين مصر وسورية ولبنان وشرق الأردن والعراق والمملكة اليمانية والمملكة السعودية (الحجاز ونجد)، وقد دعا المؤتمر هذه الوحدة بجامعة الدول العربية ثم اجتمع في الشتاء في القاهرة وقرر تأسيس مجلس حربي، وأن تتعاون الممالك الداخلة في الجامعة الجديدة في الشئون الاقتصادية والمالية والتجارية والاجتماعية والثقافية والصحية والجنسية، وأن تشترك في المواصلات والطرق والملاحة والسكك الحديدية والبريد والبرق.

دخل في جامعة الدول العربية أَزْيَدُ من أربعين مليونًا من العرب وبقي خارجًا عنها نحو ثلاثين مليونًا وهي مراكش والجزائر وتونس وطرابلس وبرقة وإمارات سواحل

البحر المحيط الهندي والخليج الفارسي. والرجاء أن تدخل هذه الممالك والإمارات في الجامعة العربية، فتقوم وحدة العرب كافة على ألفة شاملة ورأيٍ جميعٍ، وتتم نهضتهم موحدة الأجزاء في كل ما ينهض بالممالك، لا تمضي بضعة عقود من السنين حتى تزول الفوارق من بين أجيال العرب ويشعر كل فرد منهم أن في هذه الجامعة الحياة.

إن التفاوت في الحضارة الذي نلمسه بين سكان مصر وسكان بعض الأقطار الشقيقة مثلًا هو وليد قرون استقل فيه كل قطر وراء حدوده. وكان نصيب كل قطر عربي من المدنية على نسبة أخذ أهله من مدنية الغربيين وعلى مقدار قربه وبعده عن حركة حضارة الغرب الحديثة، فتعطلت، بطول الزمن، في بعض الأرجاء القوى التي تقوم بها الممالك، ورجع بعضها إلى الجاهلية الأولى. والمدنية جِسْمٌ حي إذا لم تُغَذِّهِ الغذاء الذي يتطلبه يضعف ويضمحل، وإذا لم تبعثه البعث المعقول يتراجع ويتقهقر.

ومن دواعي الغبطة أن أهل البصيرة، ممن كتب في طبائع العرب عن نية خالصة لا غرض فيها، ما برحوا يؤيدون فكر القائلين باستعداد العرب لقبول المدنية الحديثة. وآخر من كَتَبَ فيهم أحد رجال الإنكليز، ممن قضوا بينهم سنين، وعرفهم معرفة حقيقية، فأثبت أن البدو من العرب مستعدون للإدارة وعلى جانب من معرفة الصناعات الدقيقة، وأنه كان منهم من سَاوَوُا الغربيين في ممارسة الراديو واللاسلكي وغيرها من الصناعات. وقال: إن العرب ليسوا بإدارتهم دون الغربيين على ما أثبتوا ذلك بالفعل. وهو يريد أن يقول، ضمنًا، إذا ثبتت هذه الخصائص للبادية من العرب فأحر بأهل الحواضر، وقد عانَوُا الصناعات على وجه الدهر، أن يقتبسوا كل ما امتاز به الغربيون من أسباب الحضارة.

اتخذت جامعة الدول العربية من مصر مقرًّا لها، وأتت — وهي في طورها الأول من تأسيسها بثمرات طيبة — ولا يطول الزمن حتى تندمج فيها بعض الأقطار العربية التي لم يُكتب لها أن تندمج بها إلى الآن، وستفتح أمام الجامعة العربية طرق تؤدي، حتمًا، إلى سعادة الشعوب المتآلفة فتتألف منهم أُمة بالمعنى الذي يعرفه المعاصرون، ويقوى فيها الضعيف ويزيد القويُّ قوة، ويُثبت العرب للعالم أن أبناء هذا الجيل منهم ليسوا أقلَّ من أجدادهم ذكاء ومضاء.

قلت لصاحب لي من أرباب الأقلام البريطانيين قبل نشوب الحرب الأخيرة ببضعة أشهر: كأني بحكومتك هذه الأيام تميل إلى إنشاء الوحدة العربية، مخالفة بذلك سياستها القديمة. قال: صحيح ذلك، وأنا أرى ما ترى. فقلت له: إن كان الأمر كذلك فما الذي

يعوقكم عن إتمام ما لا يضر بمصلحتكم، وربما انتفعتم بهذه الوحدة في الحرب التي نحن مُقبلون عليها، وبذلك تصلحون خطأكم مع العرب لما عطفتم على الصهيونية بما يضر بمصلحة فلسطين والفلسطينيين.

وها قد تمت هذه الأُمنية بعد خمس سنين مضت على حوارنا في هذا الشأن، وربما لا يصدر هذا الكتاب حتى يكون ملوك العرب اجتمعوا في القاهرة للنظر في المشاكل العربية، كمشكلة فلسطين والصهيونيين، واستقلال ليبية، وغير ذلك مما يبحث فيه المتآمرون لخير العرب والدول العربية.

حقًّا إن الأمور مرهونة بأوقاتها، فقد مضى على أُمنية الوحدة عشراتٌ من السنين كان بعضهم يعدها حلمًا من الأحلام ووهمًا لن تحققه الليالي والأيام، وليس في السياسة المستحيل، الجامدُ فيها لا يحيا إذا ما منع الحياة عن غيره، وإنك لا تفيد مني إذا لم تُفسح لي طريق الاستفادة منك، وقوة جارين قوةٌ لهما جميعًا، واختلال حال أحدهما ملحِقٌ ضررًا بصاحبه من بعيد أو من قريب. ومحال أن يظل الضعيف على ضعفه إذا كان جسمه نقيًّا من الجراثيم المهلكة ما دام كل شيء في عالم الكون والفساد عرضة للتبدُّل. فقد رأينا كيف تتبدل المنازع القومية وتتحول المجاري الاقتصادية والسياسية، وتضمحل المذاهب الدينية.

القول في أخلاق العظماء

إذا أراد الله إسعاد أُمة قَيَّضَ لها من رجالها أُناسًا يجعلون من الأمانة دينهم، ومن العفة عن الدنايا ديدنهم. ينظرون قبل كل نظر إلى من كُتِبَ لهم أن يتأمروا عليهم، يبعدون أبدًا عن الأثرة، ويصطنعون الإيثار، ويَهْتَمُّونَ لأصغر صغير اهتمامَهم لأكبر كبير، ويتخذون من أنفسهم قدوةً لمن يليهم ويعمل تحت أيديهم. صفاتٌ أولية تُطلب من كل صاحب سلطان إذا قُدِّرَ قيامُهُ بدونها فبقاؤه قليل.

أنعموا النظر في سيرة العمرين أبي بكر وعمر — رضي الله عنهما — تجدوا لهما من الصفات ما يعجب به كل إنسان في كل زمان. فَتحت لهما الفتوح أبواب الغنى والرفاهية، فعزفت نفسهما عن حطام الدنيا، وزهدا في كل مظهر، وآثرا الخشونة والتقشف في طعامهما ولباسهما وفرشهما. عملًا بسيرة صاحبهما، لم يخرجا عنها قِيد شعرة.

كان العُمَرانِ قبل الإسلام موسرين مرفهين، فأنفقا في سبيل الله ما مَلَكَا، وعاشا ما عاشا في فاقة، يأكلان ما يأكله الفقير، ويلبسان المرقَّعات، ويحتذيان النعال الممزقة، وينامان على الأرض، ويقضيان حوائجهما بيديهما. وإذا تهيأ لهما الحصير من القش والبساط من وبر الجمل والماعز عَدَّا ذلك نعمة، ولم يأخذا من بيت المال شيئًا، وقنعا بما فرض لهما أصحابهما من راتب ضئيل، وودا لو يعملان في تجارتهما ليطعما عيالهما كما كانا من قبل لو كان في وقت الخليفة متسع لتعاطي الأسباب.

بهذا الزهد وهذا العزوف الذي قلَّدهما فيه أصحابهما وعمالهما قامت الدولة العربية على أَمْتَنِ دعامة تقوم عليها دولةٌ. وقد سار بعض من خلف العمرين بسيرة صاحب الرسالة، وهذا هو اللائق بالخلفاء الراشدين والأئمة الهادين المهديين.

وإذا نزلنا في التاريخ إلى من جاء بعد ذاك العهد العظيم، نرى بعض ملوك بني أُمية في الشرق والغرب مَشَوْا على قدم الراشدين. وفي سيرة عمر بن عبد العزيز، ما يضارع سيرة العمرين: ورث عن أبيه ثروةً طائلة، قالوا: إن دخلها كان بين الأربعين والخمسين ألف دينار فأرجعها كلها لأربابها، وكانت إقطاعات وأرضين، ولم يمت حتى لم يبق منها سوى مائتي دينار دخلًا سنويًّا ولو عاش سنة أخرى لَرَدَّها كلها. تولى الخلافة غنيًّا ومات فقيرًا مبتعدًا في خلافته عن كل ما يقال له رفاهية، وكان مغموسًا فيها أيام إمارته. استُخلف ولم يتناول دانقًا من بيت المال ولم يخلف عقارًا ولا مزرعة فعاش أبناؤه بعده في ستر ورفعة، وكذلك عاش أبناء الصديق وأبناء الفاروق.

انزلوا قليلًا في التاريخ إلى العصر العباسي، وتأملوا في سيرة أبي جعفر المنصور واضع بناء الدولة، تَرَوْهُ على سيرة حسنة، يحاسب على القطمير حتى دعي بأبي الدوانيق لإمساكه وتدنيقه في حساب نفسه، يسمح بعشرات الأُلوف في سبيل الدولة ولا يسمح لنفسه ولأولاده إلا بالضروري، وترك لدولته أموالًا تكفيها سنين إذا بطلت الجباية، أو صارت إلى ضيق.

وفي أخبار الملوك والأمراء ولا سيما على عهد تأسيس الدول مثالٌ حيٌّ من عزوف بعض العظماء عن الرفاهية والسرف. هكذا كان هَدْي أكثر الملوك والأمراء في الدولة الصغرى في الشرق والغرب. وإذا قَلَّ ظهور مثل هؤلاء الأفراد تميل الدولة إلى السقوط. فالترفُ كان من بعض العوامل في سقوط دولة بني أُمية في الغرب، والترف كان عاملًا كبيرًا في انهيار دولة بني العباس، ومثل هذا يقال في كل دولة قامت.

إنا لا نعرض هنا لسيرة العلماء فقد قام مئات منهم ما وجدت الدنيا إلى قلوبهم منفذًا، ولا عشقوا المظاهر، ولا حدثتهم أنفسهم أن يدخروا لبنيهم شيئًا من غير حله، فعاشوا وذراريهم كما يعيش الفقراء، وكانت سيرتهم مضرب الأمثال على توالي الأجيال. وقام من العلماء أيضًا من باعوا دينهم في إرضاء شهواتهم، والتقرب من الملوك وأصحاب السلطان، فباءُوا بسبة الدهر، ورجع أولئك بالصيت الحسن، لا يذكرهم أحد إلا ويعجب بهم ويترحم عليهم.

ويهمنا هنا أن نذكر من كانت الدنيا تحت أمرهم من العظماء وقادة الأُمم فجعلوها تحت أقدامهم، ما أخذوا منها شيئًا لحسابهم، وكانوا المأمونين حقًّا على ما ائتُمنوا عليه، ظاهرُهم كباطنهم، وسيرتُهم كسريرتهم، وماضيهم كحاضرهم، يرون عزة أمتهم عزتَهم،

وسعادتها سعادتهم، إذ شقيت يشقون بشقائها، وإذا أخصبت لا يخصبون، وإذا أجدبت كانوا شركاءها الأمناء.

قرأنا سيرة من عاصرنا ممن يعدون من الكبراء فرأيناهم لم يفكروا في غير رفاهيتهم، وما طمعوا إلا أن يغتنوا من أتعاب شعوبهم، ورأيناهم كيف صُرف بَعْدَهم كل ما رتبوه لأنفسهم، وما استفادوا هم ولا من جمعوها لهم، إلا كما يستفيد حارسٌ من مال وكلت إليه حراسته. خافوا الفقر فماتوا في الذي خافوه، وظنوا السعادة في الجمع فما انتفعوا وما نفعوا.

إن لم يكن العظيم على أخلاق العظماء تزول عظمته، ولا يبقى له إلا ما اجترح، إن لم يكن صاحب الشأن على أخلاق طاهرة حقًّا يَئُول أمره إلى أن يكون والباعة سواء، وربما كان مئات في أصحاب الأسواق أشرف منه نفسًا وطعمة.

جاء في هذا الشرق مئات من أصحاب الصولة في كل دولة، انبسط سلطانهم على شعوب وأُمم، وحكموا بالجَبرية، فخافهم مَنْ خافهم مدة كانت السيوف مُصْلَتَه بأيديهم على الرءوس، فلما زال السلطان زال كل شيء معهم، فما سُمع لهم بعدها صيت، ولا ذكرهم إنسان بخير.

جاء كثيرون على هذه الشاكلة فما حفظ التاريخ ذِكْرَهم، كما حفظ ذكرى نور الدين محمود بن زنكي وصلاح الدين يوسف بن أيوب. حفظ التاريخ اسم هذين السلطانين لا لأنهما فتحا الفتوح ودفعا صائل العدو عن الأرض المقدسة. فالفاتحون غير قلائل، وكذلك مَنْ كتب لهم النصر في وقائعَ كثيرة، ودوخوا ممالك وأخضعوا أُممًا، وكلهم ليسوا من عيار نور الدين وصلاح الدين في العفة عن الأموال، والبُعد عن الشهوات، والإخلاص في القصد.

كان نور الدين لا يأكل ولا يَلبس من مال الدولة، ويعيش من ريع عقار له اشتراه من سهمه من الغنيمة ويهب مئاتِ الأُلوف لرعيته. اشتكت زوجته الضائقة يومًا لأحد وزرائه فأجابه نور الدين: إذا كانت تعتقد أن ما بيدي من الأموال هو لي فقد ساء ظنها، إن ما عندي هو أموال المسلمين ومرصد لمصالحهم، ولا أقدر أن أتصرف منه بشيء، وأعطاها دكانين في حمص تأخذ ريعهما، واعتذر بأن هذا كل ما يملك.

وكان صلاح الدين يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، سامح الرعية بمئات الألوف من المكوس والضرائب، وأعطى مثلها لإنشاء المدارس والجوامع، وللعلماء والقراء، ومات ولم يخلف سوى قطعة واحدة من ذهب وقِطع من نقود النحاس، ولم يملك دارًا ولا

عقارًا ولا مزرعة، وهو فاتح مصر والشام، استولى على خزائن الفاطميين وصار إليه ما لا يقع عليه الحصر من الأموال والذخائر، ففرَّقَه كله في قُوَّاده وعماله، لم يأخذ منه فَلْسًا. واستولى على كثير من القلاع في الشام والجزيرة، كانت تحوي أموالًا عظيمة وكل ما ترغب فيه النفوس البشرية من الأعلاق والنفائس، فما جَوَّزَ لنفسه استصفاء شيء، ومنها ما رَدَّهُ على أصحابه، ومنها ما أفضل به على عفاته. مات هذا حاله، لكنه وصاحبه نور الدين ذَكَّرا بسيرتهما سيرةَ العمرين، ومضى الملوك والأمراء قبلهما وبعدهما ولا من يذكرهما بخير؛ ذلك لأن هؤلاء حسبوا حساب أنفسهم قبل أن يحسبوا حساب من وسد إليهم أمرهم.

بهذه الأخلاق أسس نور الدين وصلاح الدين مُلْكَهما، ولا عجب أن استفاضت على الأيام شهرتُهما، وعبق أريج سيرتهما الشريفة في الأرجاء، وأحبهما عدوُّهما وصديقهما، فكانا لأهل الأجيال بعدهما خير مثال في التقوى والزهد، عفت نفسهما عن كل مظهر، وعن كل ما يتنافس الخلائق في ادخاره من هذا الحطام الذي يملكه كل مَنْ سعى إليه بضربٍ من السعي.

لَمَّا كان سلاطين بني عثمان يفتحون الفتوح، ويدوخون العناصر والشعوب في أوربا وآسية وإفريقية كان بعضُ ملوكها الأولين على سيرة طيبة يحبون الخشونة والتقشف، ويبعدون عن البذخ والرفاهية، ويسيرون مع مناهي الشرع، فخَفَقَتْ أعلامُهم وما التوت، وتوجهت إليهم حتى نفوس رعاياهم الذين لم يكونوا على دينهم. فلما خَلَفَ من بعد السلاطين المتقدمين خلفٌ أخذوا بشهواتهم، وجمعوا لأنفسهم كُلَّ ما طالت إليه أيديهم من المغانم، وناموا عن أمور رعاياهم، وسكتوا عما يجنيه حَمَلَةُ عرشهم من الأمراء والقُوَّاد والعمال من ظلم العباد، سقطت دولتهم.

يحمل تاريخ الغرب من سيرة أعاظم الملوك والأُمراء والقواد ما هو موضع العجب والعبرة. وفضل الله لم ينحصر في الشرق ولا في الغرب ولا في المسلمين ولا في النصارى.

تأملوا في تاريخ مملكة بروسيا وعظماء ملوكها، وما آثروه من العيش الخشن، وكيف فطموا أنفسهم عن الشهوات، ليقتصدوا ما تيسر لهم به إنشاء دولة. يقول شارل سنيوبوس في تاريخ الحضارة: إن ملوك بروسيا كانوا يختلفون عن سائر الأمراء في طراز معيشتهم، وبذلك كان نجاحهم. كانوا لا يُسرفون في دخلهم ليصرف على البلاط، وتُقام به الحفلات والأفراح؛ بل ينفقونه برمته على ما ينهض بدولتهم وعلى الجيش خاصة.

كان لفريدريك الأول بلاطٌ واسع النطاق، على مثال بلاط لويز الرابع عشر في فرنسا. ولما قام خلفه فريدريك غليوم سرح جماعة البلاط، مقتصرًا على أربعة حجاب، وأربعة من النبلاء، وثمانية عشر وصيفًا، وستة خدام، وخمسة فراشين. وجعل لباسه الرسمي المعطف الأزرق والسراويلات البيضاء، يتقلد أبدًا سيفه والعصا بيده، وما عهد في قصره غير مقاعد وكراسي من خشب، وليس فيه أرائك ولا طنافس، ومائدته ساذجة لا إسراف فيها حتى إن أولاده ما كان يُشبعهم ما يتناولون على مائدة أبيهم من الطعام. وبهذا التقشف لُقِّب بالملك المباشر «الجاويش»، وكان ملوك بروسيا ينفقون المال الذي يقتصدونه من مخصصاتهم على جيشهم، ومقدار نفقتهم الخاصة كنفقة رجل متوسط من الأعيان، وبذلك كان لهم جيش تحت الطلب أبدًا وخلَّفوا أموالًا كثيرة في خزائنهم. وكان فريدريك الثاني يلبس الثياب المرقعة، وقد مزقت كلابه أثاث قصره، وبِيع بعد موته جميعُ ما حوت أصونته من الثياب بألف وخمسمائة فرنك. وغاية ما اقتنى من متاع مجموعةٌ تحتوي على مائة وثلاثين حقة من حقق السَّعوط!

وجوزيف الثاني ملك النمسا كان مثل فريدريك الثاني صاحب بروسيا، لا يشرب إلا الماء، ويلبس ثوبًا عسكريًّا أزرق، وحذاء بسيطًا وينام على فراش حُشِيَ بورق الذُّرة، ووسادة من الأديم أو من جلد الأَيِّل، وحصانه مسرج على الدوام، يمتطيه إلى المكان الذي يستدعي حضوره بالذات، ويكثر الطواف في بلاده، يسافر على كرسي مع البريد في طرق مشعثة، فإذا بلغ المدينة ينزل في الفندق، وينصب فيه منضدة يعمل إليها، وأَبْطَلَ ما رأى في قصره من البذخ ومصطلحات المدنية التي أَبْقَتْها الدول الملكية المطلقة من القرن الثامن عشر، فَسَرَّحَ الحجاب وأَبطل الحفلات، وقلب قوانين التشريفات.

نكتفي بهذا المثال الصغير، وفي رجال الغرب كثيرٌ من عظمائه لم يبطرهم المجد ولا استهواهم الظهور، وعزفت نفوسهم عن الإسراف فما بذخوا، وملكوا من عنان شهواتهم فما اقتنوا مالًا ولا عقارًا، وما فكروا حياتهم في غير مصلحة أُمتهم. كانوا خدامها يساوون الفقراء وينظرون إليهم نَظَرَ عطف ورحمة.

قرأت في مجلة لاروس نبذة في سيرة سالازار رئيس حكومة البرتقال الحالي، وما فُطر عليه من تقشف وبُعد عن المظاهر وعفة عن أموال الأمة، وما قام به من الإصلاحات لأُمته. قالت: إنه كُسرت رجله مرة وهو ينزل من سلم وزارة المالية، فأخذوه إلى المستشفى وبعد أن شفي جاء الجراح يطلب أُجرته، فلما لم يكن له مال أحب وزراؤه أن تؤدَّى الأجرة من خزانة الدولة؛ لأنه سقط في سبيل المصلحة العامة، فأبى وباع قطعة أرض له،

خلفها له أبوه في قريته ليوفي ما عليه، وراتبه الذي يتبلَّغ به ضئيل جدًّا ما أظنه يُطعمه وأهله غير طعام الفقراء، ولا يلبسهم إلا لباس الفقراء.

أشرت إلى هذا ليكون منه عبرة لمن يتولون في الشرق أُمور أهله، واقتصرت على من خطروا بالبال من أهل العصور السالفة قاصدًا العبرة. ولكل شيء ثمنٌ في هذه الأرض: للصلاح ثمنٌ وللطلاح ثمن، وللإخلاص ثمن وللخيانة ثمن، للشهرة ثمن وللخمول ثمن. للخلق الطاهر ثمن وللخلق القذر ثمن. والطبيعة، في العادة، لا تُعطي إلا مَنْ يستحق العطاء، ولا تمنع إلا من يستحق المنع.

القول في حقوق المرأة

هيأ الخديو إسماعيل أسباب النهضة النسائية بأن تقدم أُمراء الشرق العربي بإنشاء مدارس لتعليم البنات في مصر. وجاء، بعد زمنٍ، محرِّرُ المرأة قاسم أمين فسقط على كتلة معلَّمة من النساء المصريات، تفهم عنه ما يرمي إليه يوم دعا إلى ما دعا، وأسفر هذا الانتباه عن إنشاء جمعيات تُعنى بتعليم الأطفال ومؤاساة البائسين والمرضى، والنظر في مستقبل المرأة نظر من يحسن معرفة الداء ووصف الدواء. وحَذَت الشام حذو مصر في هذه السبيل فبدأت المرأة تتعلم، وسَبَقَ المسيحياتُ إلى هذه المقاصد النبيلة، ثم كثُر عدد المتعلمات من المسلمات، فجئن يسابقن من كان لهن فضل التقدم في هذا الباب، وما انقضى جيل حتى كان العاملات في الجيل التالي يحاولن التعرُّف بعضهن إلى بعض، فيعقدن المؤتمرات في مصر والشام ينظرن فيما يَرفع من شأنهن وينيلهن حقوقهن، وأهم مؤتمر لهن عقدنه بأَخَرَة في مدينة القاهرة اشترك فيه نساء الشام والعراق مع نساء مصر، وانفض عن قرارات منها النافع المسلَّم به لإصلاح شأن المرأة، ومنها ما يضر بها؛ لأنه يخرجها عن طورها، ويأتي على جميل خصائصها.

ومن القرارات الصادرة عن هذا المؤتمر أن يصبح النساء ناخبات منتخبات، يقعدن في مقاعد مجالس النواب، ويكون منهن الوزيرات والسفيرات والقاضيات، وكل ما يتولاه الرجال من سياسة الممالك وتدبير الجماهير، ويستلزم أعصابًا هادئة وشجاعة وقوة، لم تتصف بها المرأة على غابر الدهر. أردن أن يُعاملن على قدم المساواة مع الرجال حذو القُذَّة بالقذة، وطلبن مطالب يتعذر تحقيقها ولا تفيد إذا فرض تنفيذها.

وكانت الجمعية النسائية المصرية الأولى قبل تأليف الاتحاد النسائي في مصر طلبت من حكومتها الحدَّ من الطلاق، ومن تعدُّد الزوجات، وتعيين سن زواج الفتاة والفتى،

فصدر القانون على هذا، وسجلت به للنساء اللائي سعين لذلك مأثرة وقع الإجماع على استحسانها، وأثبت النساء أنهن أخذن يفكرن فيما لم يكن جَدَّاتهن يفكرون في شيء منه، وأنه اتسع أُفقهن للنظر في ما يرفع مستوى بنات جنسهن.

لم يوفَّق الغربيون في إخراج المرأة من حظيرة البيت إلى المعمل والحانوت لتكاثر الرجال، ونشأت من إخراج المرأة عن طبيعتها مفاسدُ إذا ذُكرت أمام أرباب المروءة والشرف من أهل الغرب تَصَبَّبَ عرقهم واحمروا خجلًا، وقام في العهد الأخير بعض المذاهب في أميركا وإنكلترا وألمانيا ينكر المغالاة في الاختلاط ويحرم الرقص والتبذل في اللباس؛ إبقاءً على عصمة المرأة وصونًا لها عن التدهور في مزالق الفتنة.

ولم تأت الدول التي منحت المرأة حق الانتخاب أكثر من إرضاء فريق من المُطالبات بهذا الحق الموهوم الذي ما زاد من مكانة المرأة، وظل الرجال أصحاب الموقف، ولم يوفق النساء إلا إلى منحهن ما ألحن بطلبه من الحقوق أعوامًا. ولم تقم المرأة التي ظفرت بحق الانتخاب بما يدفع أُمتها خطوة إلى الأمام وما دفع حنانها ما حلَّ بأهلها من البوائق، وما استطاعت إبطالَ الحروب وفض مشاكل الأُمم من دون الرجوع إلى السلاح، ولو كان للمرأة صوتٌ مسموع في سياسة الممالك التي أعطت نساءها حق الانتخاب لخَفَّفْنَ من ويلاتها، ومنها القضاء على المسكرات التي ضجت من أضرارها شعوبُ تلك الأقطار.

المرأة امرأة وإن ألبستَها ثياب الرجال، ووَسَّدت إليها أعمالَهم، ومهما جهدت لا تحليها بخلق ليس فيها، ولا تخلق فيها ميزات لم تتميز بها. المرأة كما قالوا ريحانة وليست بقهرمانة، لم تؤهلها طبيعتها لغير ولادة الأولاد والعناية بتربيتهم وخدمة زوجها والسهر على راحته، وتولى الخطير والحقير من شئون بيتها. فروضٌ جسيمة فُرضت عليها لو أحبت تجويدها لكفتها أن تشتغل معظم ساعات نهارها وزُلَفًا من ليلها. ومن كان عليها مثل هذه التبعة العظيمة كيف تَقْوَى على تولي المصالح العامة، فتقضي وتَسُوس وتشارك الرجال في شئونٍ اختصوا بها مذ كانت الدنيا. والمرأة اليوم إن أَحَسَّتْ من ضعفها قوة وقامت ببعض الأعمال الوطنية، وتعلمت قليلًا بالقياس إلى أُمها وجدتها، فليس معنى هذا أنها تصلح للشرطة والدرك والقضاء والإدارة، ولا أن تمارس ركوب الطائرات والغواصات، وتقود الكتائب وتُعَبِّي الصفوف.

وما سبيل النساء في الحرص على الحياة النيابية بدون تعليم سوادهن الأعظم على الأقل، إلا سبيل من يحاول بلوغ رأس السلم قبل تخطي درجاته الأولى، أو إنشاء بناء ضخم بدون وضع أساس الطابق السفلي.

قلت يومًا لأحد علماء الترك: أَمَا بلغك أن مدينتنا ستُنار بعد قليل بالكهرباء، وتسير فيها الحوافل الكهربائية كالعواصم الغربية؟ فضحك وقال: إن حالكم بهذه الزينة الجديدة، تُقام بأيدي الغرباء، أشبهُ بإمبراطور كوريا يلبس على رأسه تاجًا من ذهب، ولا سراويلات له تستر عورته، وكان الأولى يا صاح أن تنظِّم طرق البلدة أولًا ثم تسير فيها الحوافل الكهربائية. وأنا أقول: كان الأولى قبل أن تطلب المرأة حق التشريع في مجالس النواب أن تتلافى قصورها المخجل في ميدان العلم والتربية.

كان القائلون في الغرب بوضع المرأة حيث وضعتها الفطرة إلى المعقول أكثر من أصحاب الرأي الذين صانعوها وندبوا معها حقها المهضوم، ولو كان من وراء ما رأوا ثورة هوجاء لا تتجلى عن خير، فقد دلت التجارب على أن القوانين الوضعية مهما بلغ من إحكامها لا تقوى على القوانين الطبيعية.

يزعم الفريق المتطرف أن العالم سيَعُمُّه الهناء والسعادة يوم تتم أُمنيته في توجيه النساء وجهتهن الجديدة. ويورد الفريقُ المعتدل في رد رأي المغالين حقائق ما وسع خصومهم أن ينقضوها نقضًا جيدًا، ويقول: إن المرأة تمرض أيام شبابها وكهولتها كل شهر مرضًا تكثر به آلامها ويسوء خُلُقها، وتمرض أيضًا أيام الوحام والحمل والنفاس برهة تقطعها عن مباشرة كل عمل، ومن كانت هذه حالتها من الصحة أَنَّى لها أن تقوم بأعباء عظيمة ولها من نفسها ما يشغلها عن كل شيء.

ويقول المتعقلون إن تركيب جسم المرأة مخالفٌ لتركيب جسم الرجل، وإن المرأة لم تُثبت إلى الآن كفايةً تؤهلها لمباراة الرجل في صراع الحياة، فما قام من النساء عالمةٌ ممتازة ولا شاعرة كبيرة ولا كاتبة عظيمة ولا مخترعة ولا مكتشفة، ولم يتعد ما تم على يدها الأمورَ البدائية إذا قِيس بما أبدعه الرجال من بدائع العلم والأدب والفن والصناعة. فكما أنه لم يخرج من صفوفهن العبقريات في هذه الفنون، لم ينشأ منهن خياطة عظيمة ولا طاهية مبدعة، وما زلنا نشهد هاتين الصناعتين المهمتين حكرة في أيدي الرجال، بل إن الرجال يخترعون للنساء أزياءهن وأساليب زينتهن، وإذا ادعى مدع أن من النساء من أَلَّفن الكتب ومارسن الأدب فيقال له: إن معظم ما عُزي إلى المرأة من التآليف هو من صنع الرجال، ومنا نبغ في فرنسا، على اشتهارها بالأدب وانتشار التعليم فيها بين

الجنسين، غير «مدام دي سيفينيه» كتبت بقلمها رسائلها إلى ابنتها فعَدَّها العلماءُ من الأدب الممتع؛ لما تحمل من عواطف، وما عدا ذلك فكتابات متوسطة وشعر غث.

لم يبرَّز النساء حتى اليوم في غير تربية الأطفال، وقد أثبتن استعدادهن في طب الأمراض النسائية وفي الكيمياء العملية، وكن آية في تمريض المرضى وإدارة المستشفيات؛ لما في طبيعتهن من نعومة وصبر وأناة. والرجال لم يوفقوا إلى منافستهن في هذا الشأن — ولا يُرجى أن يوفقوا — لتوقُّف ذلك على صفاتٍ اختص بها النساء دون الرجال.

الأنثى في حاجة شديدة إلى التعليم الابتدائي حاجة الصبي إليه، على أن يكون تعليمها ملائمًا لبيئتها وطبيعتها. لا تُعفى من ذلك ابنة المدينة ولا ابنة القرية، ويقتصر التعليم الثانوي والعالي، كما هو إلى الآن، على فئة منهن لا يتجاوز عدد الآخذات به واحدة في البضعة آلاف، إذ ثبت أن معظم من تعلمن التعليم العالي والأوسط ضَعُفَ استعدادهن لإدارة المنزل وتربية البنين والبنات، فخرجن، طوعًا أو كرهًا، عن غرائزهن، وفقدن بمظهرهن الجديد دَعَة البيوت ومتعة الزوجية. وكان من إخفاق النساء في المحاماة والطب دليلٌ ظاهر على ضعفهن، وقلة استعدادهن لما خُصَّ به الرجال.

تحتاج المرأة إلى إتقان أشغال البيت وهي كثيرة، وإلى أن تقيد دخلها وخرجها وإلى أن تنشئ كتابًا بسيطًا إلى زوجها وابنها وابنتها وأُمها وحماتها، وإلى أن تتعلم كل ما يزيد بهجة البيوت كتربية الأزهار والورد والأشجار والبقول، وما يوفر لها جانبًا من المصروف إذا أحسنت مزاولته كصنع الجبن والقشدة واللبن والسمن والمربيات، وغير ذلك من الصناعات الزراعية. وهي إلى هذا تُدخل السرور على زوجها وأولادها إذا غنتهم آونات الفراغ بنغمتها، وأطربتهم بآلة موسيقية أتقنتها. وعليها أن تعرف ما لها وعليها من الحقوق، وأن تتأدب بأدب الدين وأدب الوطن، أما حاجتها من الأمور الكمالية فمحدودة وهي في غُنية عن أن تجهز بجهاز علمي واسع تتعلم أكثره بالعمل في مراحل حياتها، ومنه ما هو أَعْلَقُ بها من غيره، والواجب على كل حال أن تكون المرأة قريبة من ذهنية زوجها تُعينه على الكدح لها ولأولادها ولا يطيب عيش الزوجين إلا بتكافئهما في المنزلة والثقافة الأولى.

قلت: إن العارفين من الغربيين يؤكدون أنه لم ينبغ من النساء عندهم مَنْ كُنَّ من عيار من نبغ من الرجال في جميع مظاهر الحضارة، والحال كان كذلك في الشرق الإسلامي، أي: كان النابغات — إن صَحَّت تسميتهن بذلك — في فن الحديث وهذا يحتاج

لحافظة، وفي الشعر وهذا يحتاج إلى عاطفة، ومن هاتين الخاصتين رُزقت المرأة قسطًا عظيمًا. وقد شاركن في الموسيقا والغناء مشاركةً ما تفوقن فيها على الرجال إلا أنه لم ينشأ منهن فقيهة ولا متكلمة ولا مؤرخة ولا فيلسوفة ولا رياضية، وكن إذا تدخلن في أُمور الدولة تميل إلى الانحطاط، ولذلك كان عقلاء الملوك يحظرون على نسائهم الاشتراك في ما لا شأن لهن فيه من أُمور السياسة.

إن طمع النساء في إحراز الحقوق السياسية طمعٌ في غير مطمع؛ ذلك لأن طبيعتهن ما تبدلت ولن تتبدل، وليت شعري ماذا يُرجى من مجتمع أكثر من تسعين بالمائة من نسائه أُمِّيات لا يقرأن ولا يكتبن، وإذا كانت نسبة المتعلمين من الرجال أكثر من النساء، كيف يستفيد النساء من تشريع جديد يسنُّ لإرضائهن فقط؟ وإذا كانت فرنسا، وأَهْلُها أَهْلُها، في تلقُّف العلم والمعارف وفي الفناء في تحسين الظن بالنساء، لم تقرر مساواة المرأة مع الرجل كيف يُرجى الخير لهذا النوع من الحُكم عندنا، على حين لا يؤمل نزع الأُمية من ديارنا قبل مضيٍّ قرن. وعجيب كيف نُؤخذ بكلامٍ ظاهر البطلان ونُخدع بالتمويه، ونفرح بالجديد ولو كان بديهي الضرر، ولا نتعرف إلى ما بطن وظهر من مشاكلنا، ولا إلى الأثر الفَعَّال في نهضتنا؟

وبعد، فلماذا لم يقل لنا المُنادون بإعطاء المرأة حقوقها المدنية على مثال الرجال كيف تمسي حال البيوت بعد انقلابهم الذي يتوقعونه. لا جرم أن الشقاء سيخيم على كل أُسرة يشتغل رباتها خارج بيوتهن، اللهم إلا إذا كان في النية أن يعمدوا إلى دفع أولادهم إلى الحكومات تربيهم تربية مشتركة كأنهم بعض اللقطاء من أولاد النغول، لا يذوقون في هذه الملاجئ طعمًا لهناءة البيوت، ولا يرون أثرًا للروابط الروحية بين الأولاد والأبوين.

وإذا كانت هذه البراهين لا تُقنع المتحمسين والمتحمسات للدعوة إلى المساواة بين الجنسين فإنا نورد بعض ما قاله أناس من الغربيين عسى أن يكون منه مقنع.

قال: الدكتور روبرتوتش في كتابه رفعة المرأة Dr. Robert Teutsch Le Feminisme ما زالت مسألة إعطاء المرأة حقوقها منذ ثلاثين سنة من الموضوعات الطريفة، ولو كان الأمر يقف عند حد إعطائها جميع حقوقها ولا سيما السياسية التي لم تهيئها لها طبيعتها ولا خُلقها لهان الأمر، ولكنهن يقصدن من المطالبة بذلك التفلت من قيودهن وقيود البيت والأمومة خاصة. تريد المرأة إسقاط منزلة الرجل وتطمح إلى الاستيلاء على كل عمل لم تُخلق هي له. تحاول الابتعاد عن المنزل وإهمال شئونه والإقلال من الأولاد والقضاء على الأُسرة مما ينتهي بانقراض العنصر والجنس، وبتأثير

الاضطرابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية التي ظهرت في القرن التاسع عشر في معظم الممالك الممدنة راجت دعاية المفرطين، فكان من ذلك إخراج النساء عن طورهن وحملهن على أن يتناسين عملهن أو يستنكرنه، فصبغت المرأة بصبغة بشعة عند إرادتها محاكاة الرجل ليكون منها شريكة مبغضة له أحيانًا، ومنافسةً وخصيمة يخشى بأسها. وهناك نساء سطا عليهن الكبر والحقد، فاحتقرن الرجل والزوج والولد وهن قادرات على أن يكن طاهيات ووصيفات وساعورات (ممرضات) ودلاكات ومنظفات أيد Manucures ومنظفات أرجل Pedicures وحاسبات وخازنات وكاتبات ومدرسات وبائعات وسمسارات وقصصيات ومحاميات وطبيبات، ويتوهمن أنهن أسمى من الرجال أو مساويات لهم على الأقل، ويحاولن أن يقمن مقامه في معاناة سامي الأعمال وهن لسن له خليقات.

وما برح دُعاة تحرير المرأة ينادون أن المرأة مساويةٌ للرجل، وما كان تشريح الجنسين ونفسيتهما وطبيعتهما متشابهة قط، وإذا كان الحال كما يَدَّعون فلماذا نرى البقرة غير الثور، والنعجة غير الخروف، واللبوة غير الأسد، ولماذا يتناسى دعاة هذا التحرير العمل العظيم الذي يؤثِّر في طبيعة المرأة وعقليتها، وما كُتِبَ عليها من الحيض الذي يُخرجها إلى طور غريب وتؤثر أيامه في خُلُقها، وبعض الصحيحات منهن أو المريضات تعاودُهن العادةُ مرتين في الشهر فيتأثر المجموع العصبي فيهن من هذه الموجات الدموية.

وقد ظهر من أبحاث العلماء في جميع الأُمم أن الطبيعتين الأنوثة والذكورة متخالفتان، لا في ظواهرهما فقط بل في أعمق تراكيبهما. ويقول الأطباء: إن كلًّا من الفتى والفتاة ينشأ نشأة طبيعية متخالفة، يكثر الموت والضعف في الصبيان ويتجلى الذكاء والإحساس والحكمة في الطفلة قبل تجلِّيه في الطفل، ولا تزال الفروق بينهما تتزايد من الثانية عشرة إلى الرابعة عشرة. ويبدو في الصبيان الاستعداد لتعلُّم الحساب والعلوم، كما يبدو في الفتيات، بفضل خصوبة إحساسهن، جمالُ الإنشاء ورقته بالقياس إلى خشونة كتابة الصبيان. وبعد اجتياز هذه السن الصعبة يَطَّرِدُ ارتقاء الصبيان، أما الصبايا فيقفن فجأة مأخوذات بحالة جديدة، وكثيرات فيهن من يتركن عندئذ كل عمل.

وادعى بعضهم أن ذكاء النساء يضمحل في ذاك الدور ليقوم مقامه حِسٌّ ينصرف إلى الدَّل والغزل والموسيقى والقراءة وأعمال الإحسان، وكثيرًا ما يصادف أحسن التلميذات في سن الخامسة عشرة إلى السابعة عشرة ممن تأخر نموهن. وبينا يكون البلوغ في

الصبي داعيًا إلى توسُّع فكره وحاملًا له على الاضطلاع بالمسائل الكبرى فوق الطبيعة تشتغل المرأة بنفسها، وتمشي مع إحساسها ثم تُعاني مشاكل الحب والأُمومة.

وقد قرر العلماء أن تشريح الجنسين متخالفٌ كل التخالف، فالقامة وثقل الجسم أقل في النساء منهما في الرجال بنحو الثلث، وجماجم البنات أقل استعدادًا للنمو، وأدمغتهن أقل وزنًا حتى بالقياس إلى الوزن العادي. وقرر العلماء أن حاسة الشم والذوق في النساء أقل مما هي في الرجال؛ ولذلك قَلَّ أن استخدم أرباب المعامل النساء في الأعمال التي تتطلب التمييز بين الألوان والأذواق، مثل التفريق بين أجناس وأصناف الشاي ومراقبة الصوت وإصلاح «البِيان». قالت «مدام دي رموزا»: إن الحس أكثر ملازمة لنا معاشر النساء من الملاحظة، واستُنتج من هذا أن ذاكرة النساء أقل إحاطة بالمسائل من كل وجه من ذاكرة الرجال، واضطراب المرأة أعظمُ بكثير من اضطراب الرجل. وتزيد في بعض أدوار حياتها اضطرابًا حتى تكون في حالةِ مرضٍ وغضب، فتصبح مدة الحمل أحيانًا كأنها في جنون عارض.

وهكذا، انفرد الرجل بالذكاء والمرأةُ بالشعور، والرجل كل حين يفكر ويقدر، والمرأة تشعر وتحس، فالشعور فيها هو كل ما لها من آيات النبوغ. قالوا: إن المولى أبى أن يرزق النساء قرائحَ؛ لتتجمع كُلُّ شعلتهن في القلب، والطالبات ينقصن الاستقلال في الفكر والتعمق فيه فهن آخذات غير موجدات. وقارن المؤلف بين ثلاثة من الكُتَّاب «بوسويه» و«فلوبير» و«بول فاليري»، وبين ثلاث كاتبات «مدام دي سيفينيه» و«جورج صاند» و«مدام كوليت» فثبت له أن في إنشاء الرجال منطقًا سليمًا وفكرًا مستقيمًا كانت منه متانة جُمَلهم ورَنَّة أصواتهم الموسيقية وتساوق المجموع من أقوالهم، على خلاف كتابة أولئك الكاتبات العظيمات.

وذكر جان لارناك في كتابه تاريخ الأدب النسوي في فرنسا الدكتور روبرتوتش في كتابه رفعة المرأة Jean Larnac: Histoire de la litterature feminine en France. أنه لم تبق قلعة للذكور إلا وتخطاها النساء حتى مدرسة المعلمين العليا ومنابر الجامعات ولم يبق أمامهن عائق يعوقهن عن التعلم ونشر ما يستهوي قلوبهن ويرضي نفوسهن، وأصبحن في حلٍّ من أن يتعلمن كما يشاء لهن الهوى، وغدا منهن الأساتيذ والصحافيات ومديرات دور الطباعة وأخذن ينافسن الرجال في جوائز الأدب والمجامع الأدبية العامة والخاصة، فتَمَّت لهن كل أدوات الثقافة في بيوت العلم. ولكن القرائح تُخلق خارج المدارس، وللنساء أن يتوسعن ما شئن وليس في مقدورهن أن ينبعثن إلى الحد الذي

يطمحن إليه، ولا يسرح النساء ويمرحن إلا في ظل الحرية، فإذا أخذن من عنان قرائحهن يفقدن أجنحتهن، ولذا بَقِين إلى أول القرن العشرين يمشين على أثر الرجال ولم يتحررن التحرر المطلوب إلا في هذا القرن. حتى لقد قال ستندال: إن قلة استعداد المرأة لبلوغ مراتب الكمال في التأليف منبعث من كونها ما جسرت ذات يوم أن تتحلل من قيودها إلا نصف تحلل، ومتى حاول النساء الحرية المطلقة فكأنهن يخرجن بلا خمار، على أنهن بعد هذا خرجن بلا براقع وأحيانًا بدون دثار ولا شعار.

والواقع أن النساء بأسرهن عبيداتُ حواسِّهن وأعصابهن وقلوبهن، لا ينجع فيهن اعتراض إذا خالف قانون الطبيعة وأعني الحب. وكان الأديبات منهن إذا مجدن الحب بالمعنى الوجيز يجهلن حُبَّ الأُمومة على ما تجلى ذلك في مكتوباتهن، ومع هذا تراهن يتكلفن فيما يسطرن، ويتطلبن إلى حواسهن وقلوبهن أن تعطي أكثر مما لها، وما كتب لهن إلا أن يكن أدوات تحس وتهتز، وأن يجعلن من العالم مجموعة أحاسيس. وإذا فحصت الأدب النسوي المعاصر من حيث الإنشاء تسقط فيه على قرائحَ عظيمةٍ وعلى نبوغ أيضًا، وقلَّ أن تقع فيه على شيء اسمه فن. ويقال: إن النساء ما عدا اثنتين أو ثلاثًا منهن لا يُحْسِنَّ التفريق بين المواد التي تتطلبها الحياة، فمنهن من تجتهد اجتهادًا تُنتج به آثارًا طيبة، وكثيرات يرسلن أقلامهن على فيضها كما يشاء الهوى، لا يحفلن التنقيحَ ولا سلامةَ التراكيب، وفيهن من اتخذن الأدب وسيلة إلى السياسة، ومنهن من عانين فلسفة الأخلاق ومارسن فن التربية، وظللن فيها متوسطات لم يأتين بإبداع وجاء أدبهن خاليًا من التجدد.

لم يُكتب للنساء التفوُّق على الرجال؛ لأن التدقيق يصعب عليهن، حتى إن القصصيات منهن لم يتوخين إلا وصف الحب في كل مظاهره، جعلنه موضوع أقاصيصهن، ولم يعهد أن برَّزت امرأةٌ في قصة «الدرامة» وما جاء منهن مؤرخة، والمرأة تُحسن أن تَضحك من مثيلاتها، ولكنها لا تحسن الإضحاك. أما الرجل فيُحسن نقد نفسه كما يحسن نقد غيره. والمرأة تحاذر كثيرًا من المزاح الذي يأتي على الاعتبار والحرمة والحب وهي مجموعة عواطفَ. وكذلك كان النساء في التاريخ فقد نشأ منهن مدوِّنات مذكرات بكثرة، وقام منهن قصصيات ومنهن اليوم أُستاذات في التاريخ وأُستاذات في استخراج المكتوبات والمخطوطات، وما جاء منهن إلى اليوم مؤرِّخةٌ من عيار «تيري» ولا «ميشليه» لأن اللازم للتبريز في التاريخ معلوماتٌ كثيرة ليس في مكنة المرأة إحرازُها، والواجب أن يكون لها فكرٌ نقاد عارٍ عن كل هوًى للتمييز بين الحقائق والظنون، وعقل مجرب لإدراك أُلوف من

الروابط تجمع الحوادث بعضها إلى بعض، ورأي ثابت خالٍ من التفصيل في العواطف، وقدرة على النظر نظرة واحدة إلى كل عصر، ولهذا لم ينشأ من النساء عظيمةٌ في باب النقد الأدبي والفني، ولا كان منهن فيلسوفةٌ تلفت النظر.

ومن النساء من كانت لهن مقدرةٌ على الاستفادة من دروس أساتيذهن، وليس فيهن واحدة ابتدعت مذهبًا، وما قامت منهن واحدة استطاعت أن تخلف مثل «خطاب في التاريخ» ولا «الأفكار» لباسكال، فهن قاصراتٌ في جميع الفروع التي تستلزم من المؤلف التجرُّدَ المطلق من نفسيته، وما لمعت أعمالهن إلا في موضوعات لا فَنَّ فيها. وقليل منهن من كتب لهن التفوق في الإنشاء والكتابة دون إرشاد الرجال لهن، فإن «مدام لافاييت» أشرف عليها «سكري» و«لاروشفو كولد» و «مدام دي ستال» سارت بسيرة أصحابها العديدين، و«جورج صاند» قادها عشاقها، و«مدام كوليت» راقب أعمالها «فنيلي.»

لم تُتِحْ مواهب النساء الطموح لهن إلى منزلة في الأدب المجرد، وشهدنا آثارهن أحيانًا خالية من الصنعة، فصح أن يقال أن ليس لهن قدرة على التفكير الصحيح والتوسع اللازم لوضع الفكر المجرد والإنشاء الفني، ولم يُكتب للنساء درجة عالية حتى في فن الطهي ورأينا كبار الطهاة من الرجال لا من النساء، وتراهن في باب الأزياء، والأزياء من أخص خصائصهن، يَتَّكِلْنَ على غيرهن في باب التجمل فهن أيضًا مَقُودات بأيدي الرجال بل إن النساء الملكات — كما لاحظ باربيه دورفيلي — قد فقدن البداهة والعمل الذاتي وما ساعد إليزابث الإنكليزية إلا بورليخ، وإذا ذُكرت كاترين الروسية ذُكر معها بطرس الأكبر. قال: إن إعطاء الحقوق السياسية لم ينتج منه الإصلاحُ المنشود في شمالي أوربا وفي أميركا وأوستراليا، حيث أخذ النساء يتمتعن بحقوق الناخب والمنتخَب. ففي الدانيمرك لم يأت النساء بشيء أحسن مما كان لتلك الديار يوم كان نساؤها يسلمن للرجال بمقاود الأمور، ولم يقض على الغول (الكحول) في بلاد السويد والنرويج وفنلندا وأوستراليا والولايات المتحدة، أما الفحش فكثيرٌ جدًّا في هاتيك الممالك، مشوبًا برياء وتَصَنُّع.

خرج المتعلِّمات في الجامعات الأميركية من البيوت الفقيرة، وأَظْهَرَ الفتيات في فرنسا وغيرها اجتهادًا في طلب العلم وقد يتعلمن بِدَعَةٍ وسُرعة كل ما يتطلب إجهاد الذاكرة ويُبَرِّزْنَ في المسابقات، ولسن كذلك عندما يخرجن إلى الحياة، ويضطررن إلى القيام بأمر يحتاج إلى تفكيرٍ وشخصية وصحة حكم. وقَلَّ أن ينجحن في المحاماة والطب، وندر أن يُقبل أرباب المصالح على توكيلهن في القضايا أو استشارتهن في الأمراض. ومن تزوج منهن من رجال لهم مثل صنعتهن، كأن تتزوج الطبيبة من طبيب والمحامية من محامٍ،

لم يحمدن غبَّ زواجهنَّ؛ لأن التفاوت في قريحتَي الزوجين يؤدي إلى أن تحسد الزوجة زوجها على توفيقه في عمله فتبغضه وتشنأه. وثلث المتعلمات في أميركا لا يظفرن بأزواج. وكلما أحرزن شهادات تَخَوَّفَ الرجلُ الإقدامَ على التأهل بهن. وثبت أن من تزوجن في فرنسا لم يقدمن على الزواج إلا بعد سن الثلاثين وأحيانًا في الأربعين، وكان معدل العقم من هذا الزواج تسعة وثلاثين في المائة لا تنسل صاحبته ولا تلد.

أخذ بعض النساء بعد الحرب العامة يرجعن في فرنسا عن تعاطي المحاماة والطب وأثبت الموظفات منهن في الإدارات الحكومية والخصوصية أن المرأة عندما تجلس وراء كُوَّةٍ أو نافذة للقيام بعملها تصبح أشبه بالحيوانات المفترسة، وكانت خارج عملها من الساحرات الفاتنات بلطفها وظرفها. قالوا: إن النساء إذا شاركن في السياسة يدمثن الأخلاق ويبطلن الحروب ويشرعن تشريعًا إنسانيًّا أكثر من تشريع الرجل، والواقع خلاف ذلك؛ لأن من الموظفات من إذا رُضخ لهن بشيء من المال يبسمن ويغيرن معاملتهن، فما بالك بحالهن إذا عرضت على الواحدة منهن المئات؟ ومَنْ تَوَلَّين أعمالًا لا شأن لها كثيرًا لم ينجحن النجاح المطلوب، ومن نجحن كن بتراكيبهن الجسمية أشبه بتراكيب الرجال من حيث العضلات والقوى.

وما نجح النساء في تولِّي الحكومات لو لم يكن لهن مؤازرون عظماء من الرجال يعملون كل شيء وينسبون ما عملوا للملكات. وإذا رجعنا إلى تراجم الملكات والأميرات نجد كثيرات منهن على جانب من التهتُّك والخلاعة، وما تعففن عن غمس أيديهن بالدماء، ويكون ذلك أحيانًا لمآرب لهن، وللتخلص من رجال تمتعن بهم ثم أردن إلغاء ذكرهم. وإذا أردنا أن نذكر شهيرات النساء في الأدب لا نرى غير الرجال يعملون لهن من وراء ستار، على الأكثر، وما تُركت فيه المرأة وشأنها من الآثار الأدبية كان إلى التفاهة والفهاهة.

قال: ولقد رأينا محاميات انقلبن خادمات في البيوت، ولدينا براهينُ كثيرة على أنه خير للمرء أن يحسن صناعةً من أن يحمل شهادة حسنة، فقد نال كثير من النساء لقب دكتورات في الحقوق، فأصبحن كاتبات بسيطات على الآلة الكاتبة، يتعلم النساء علمًا كثيرًا ولا يعرفن احتياجهن إلى كسب قوتهن.

قال برودون: إن المرأة التي تبتعد عن جنسها تسقط إلى مستوى أنثى مهذارة وقحة كسلانة خائفة خالعة مسممة، وهي طاعون أسرتها والمجتمع. وقال لوكوفيه: إن المرأة الطبيبة يُتقزَّز منها، والمرأة التي تتولى كتابة الصكوك يُضحك منها، والمرأة المحامية يُفزع منها. وكان أوجست كونت يعرف النساء كثيرًا ويغرم بهن كثيرًا، ويخالف في

تحريرهن ويعرف أنهن — ما عدا القليلات منهن جدًّا — لم يُخلقن للعمل ولا للحرية ولا لتحمُّل التبعات. وكتب جوزف دي مستر في كتاب له إلى إحدى بناته: إن فولتير يدعي أن النساء قادرات على أن يعملن كل ما يعمله الرجال وما دعاه إلى قوله هذا غير التقرُّب من قلوب بعض الغواني الفاتنات، فالنساء لم يأتين بأثر يذكر في ضروب الآداب: فلم يؤلِّفن الإلياذة، ولا الإنياد، ولا القدس المنقذة، ولا فيدر، ولا أتالي، ولا رودكون، ولا الميزانتروب، ولا تارتوف، ولا زهرة دي دميديسيس، ولا أبولون دبلفيدر، ولا البرسة، ولا كتاب الأصول، ولا خطاب التاريخ العام، ولا تليماك. ولم يخترعن الجبر ولا المجاهر ولا المناظر ولا مضخة النار ولا صناعة الجوارب ... إلخ. وما قامت امرأة عالمة جديرة أن تُعد بين العلماء، فالمرأة ليست في حال تستطيع أن تَفُوق فيها الرجلَ إلا بأنوثتها، وليست سوى قردة إذا أرادت المساواة بالرجل.

قال المؤلف الذي نقلنا عنه هذا: أيتها المرأة إنك مهما فعلت مسوقة بنابل من الكبرياء وبعوامل أكرهتك على خوض غمار أزمة هذه الأيام، لتخرجي من حظيرة جنسك، وتقطعي صلتك بعملك الأبدي السامي، لن تكوني إلا صاحبة وزوجة وأُمًّا، وإذا أُنسيت رسالتك فإن الطبيعة ستتولى، عاجلا أو آجلا، تذكيرك أن الأقدار ما خرجت بك إلا لتكوني شريكة الرجل وأُم أولاده وجزءه المتمم ونصفه، وأحيانًا الموحية إليه والمنقذة له. أنت، أبدًا، مهدُ الآلام البشرية، وستظلين على ذلك إلى يوم البعث والنشور. ا.هـ.

وبعدُ، فقد كنت ولا أزال ظهيرًا للمرأة، محبًّا لإنصافها، آسفًا للاستعباد الذي حاق بها، محاولًا تعليمها كُلَّ ما يرفع من شأنها، داعيًا لإمتاعها بحجابها الشرعي، ذاهبًا إلى أنَّ تخلُّف المرأة المسلمة عن الأخذ بحظ من التهذيب قذف بالمسلمين من حالق المدنية إلى هاوية الانحطاط، وما طلبتُ إعطاء المرأة زيادة على حقها، وما جوزت لنفسي أن أخدعها وأَتَمَلَّقَها توقعًا لرضاها، وكنت وما برحت على مثل اليقين أن من يعاون المرأة على مساواة الرجل يخدعها ويضحك منها. وصديقك من صَدَقَك لا من صدَّقك.

القول في النساء المظلومات

درجتُ منذ عهد الصبا على البحث عن أسرار النساء، وكنت أعطف على من خانهن الطالع عطف مَنْ يشاركهن في آلامهن، ومنهن من كن يفتحن لي قلوبهن، ولا يخفين عني ماضيهن وحاضرهن، فكنت أسقط بذلك على المُفجع المُوجع، والمُدهش المُغرب.

كنت قبل الاطلاع على أحوال النساء أجد الرجال على حق في شكواهم منهن، فلما تجلى لي بعض أسرارهن، تحققت أن معظم الحق مع النساء، وتندر فيهن المبطلات، وأن الرجال يُظلمون قليلًا والنساء يُظلمن كثيرًا، وأن النساء للرجال أخلصُ من الرجال للنساء، وأنهن أَعَفُّ نفسًا وأوفرُ رصانة، يصبرن عن الرجال أعوامًا، وهؤلاء لا يصبرون عن النساء أيامًا، وطبيعة الجنسين واحدة.

وترجح عندي أنه إذا ساءت سيرةُ بعضهن، فالسبب الأعظم فيه الرجال، وقد لا تكون فيه يدُ النساء، وأنه تقلُّ الفاسدات بالفطرة منهن، وفي وسع الرجال استصلاحهن، لو عُنُوا بأمرهن العناية الواجبة.

يرتكب الرجل ما يرتكب من الشهوات فتُقام له الأعذارُ ويُسامح، ولا تُعذر المرأة مجردة كانت أم محصنة؛ لأن النساء مصدر الولد ومورده، وفي ابتذالهن إفسادٌ للبيوت، هذا حق لا يخلو من شيء من الباطل. أُنصف فيه الرجل خاصةً أو أُغضي عنه.

والأصل في تخفيف جرم الرجل، وتطبيق أقسى العقوبات على المرأة، أن الرجل صاحب القوة، وللقوي إملاء إرادته على ما يشاء، ويُضاعِف الجزاءَ للمرأة ضَعْفُها. والتكليف إنما وقع على الذكر والأنثى سواء.

ومع ما بَلَغْنا من صعودٍ في درجات المدنية لا نزال نرى أمورًا فيها الغبن الفاحش على النساء. ومن ذلك أن يَحرم بعضُ الآباء بناتهم إرثهن ليخصوا بمالهم أبناءهم.

وكانت هذه العادة الجاهلية متأصلة في بعض الأرجاء التي تغلب عليها البداوة، فسَرَتْ إلى المدن المفروض فيها أنها أخذت بنصيب من الحضارة.

يقولون الكفاءة الشرعية، وهذا باب من أبواب الفقه يُقرأُ ولا يكاد يعمل به كباب الجهاد وباب الرقيق، وإذا بطل الجهاد والرقيق من الأرض فالزواج ما بطل ولن يبطل. وليت شعري لِمَ لا تُنسخ العقود المعقودة على غير قاعدة الكفاءة، ولِمَ يُقِرُّها صاحب السلطان، وأقل ما يقال فيها أنها تحمل أحد الطرفين على النفرة من صاحبه، وعاقبة النفرة ارتكاب ما يحرم ويضر؟

قالوا: إن الكفاءة هي مساواة الرجل للمرأة في أمور مخصوصة، كالنسب والإسلام والحرفة والحرية والديانة والمال، وما أدري لِمَ لا يعدون في باب الكفاءةِ كفاءةَ الزوجين في السن، كأنْ يُشترط على الزوج ألا تتجاوز سِنُّه بضع سنين زيادة على سن امرأته. فقد حددت مصر والشام في العهد الأخير السن التي يستطيع كل من الزوجين أن يتزوج فيها، وبقي على المشرعين أن يحددوا السن التي يسوغ فيها لكلا الزوجين أن تُعقد بينهما هذه الشركة، حتى لا يتزوج الرجل من فتاة قد تكون في سن ابنته أو حفيدته.

وما زالت المحاكم الشرعية تعقد لفتاة على شيخ هِمٍّ. وحدث أن عقدت لابنة في الخامسة عشرة، غاية في الجمال، على شيخ في الخامسة والسبعين، فلما سمعت خبرها، وأهلها من معارفنا، ويدعي أبوها الفهم والتقوى، قلت لأهلي: قاتل الله هذا الأب الظلوم إنه بتزويجه ابنته من هذا العجوز قد قتلها، وبالفعل هلكت الفتاة بعد مرور سنة على زواجها، ولم يعرف إذا كانت ضَرَّتها سَمَّتْها، أم أنها ماتت قهرًا من زواجها. (في الصحيحين: لا تُنكح الأيم حتى تُستأمر ولا البكر حتى تُستأذن).

أليست مثل هذه الأحداث التي ما زالت تتكرر دليلًا قاطعًا على أَنَّا لا نزال ننظر إلى الفتاة نَظَرَنا إلى سلعة يقتنيها من يدفع ثمنها، وأن الحق لوليها مالكها الأول بالنزول عنها لمن يحلو له؟ كأن الفتاة المسكينة لا روح لها ولا مزاج ولا ذوق، وكأن كل أولئك من خصائص الرجال وحقهم الذي لا ينازعهم فيه منازع.

من الكفاءة الشرعية تكافؤ الزوجين في الثروة والمقام، فهل طُبِّقت هذه المادة تطبيقًا محكمًا أم تُركت للمصادفات؟ يطمع الفقير بالغنية يتزوجها مهما قلت المرغبات فيها، فلا يلبث أن يقع خصام بين زوجين متخالفين في الدرجة، وتعدو المصيبة في الآخر على ذاك البيت الذي لم يُحكم أساسه، لفقدان التشاكل في مواد بنائه.

وكم من غني طاعن في السن اقترن بفتاة غريرة فانقبضت منه روحها، فعَزَّاها أهلها بموته قريبًا، وأنها ستتزوج بعده بشاب يحبه قلبها، مزودةً بمال العجوز زوجها

الأول، فتطول حياته وهو عاجز عن معاشرتها المعاشرة المطلوبة، ومع هذا تأتيه بأولاد يربيهم. والقدرة على العشرة الزوجية شرطٌ في الكفاءة كالقدرة على المهر والنفقة بل هو أولى. نصت على ذلك كتب الحنفية.

وكم من زوج طاب له أن يجمع من النساء مثنى وثلاث ورباع، وقد يضم إليهن إذا كان غنيًّا وصيفات وخادمات، فتصبح داره كحظيرة الغنم ليس فيها إلا فحل واحد، والرجل إنما رُزق قوة واحدة. وحَدِّثْ ما شئت أن تحدث عن المفاسد التي تجري في مثل هذه الدور، يتولى الخدم من الحرم ما يعجز صاحب الدار عنه.

وكم من رجل اتخذ من زواجه تجارة فتزوج من قبيحة الصورة، وأزمع أن يرضي نفسه في غير بيتها، ويجعلها مورد رزقه الدائم. ولا تَسَلْ عما يكون من حال هذا الزواج متى سيطر العقل على أحد الطرفين المتعاقدين، وكثيرًا ما رأينا بعض عقود الزواج يقوم على فكرة تجارية بحتة، ومثل هذا الزواج لا يطيب ولا يُرجى له البقاء. وأَقْبِحْ بزوجة تتزوج ممن لا تحب، وهي تُبطن في قرارة نفسها أنها تخدعه متى انفسح أمامها المجال. وسوأةً لرجل يغض الطرف عن كثير من الاعتبارات في زوجته طمعًا في مالها، وإرادة أن يَنعم بالتقلُّب في أعطاف نعمتها.

وما القول في أحمق يعضل بناته، وعروق الحياة تنبض فيهن، يحاذر بهذا ألا ينقل جزءًا من ثروته بعد موته إلى صهر له في بيت آخر. وهذا ماذا نسميه، وماذا يقول بناته فيه؟ لا جرم أن القتل أَخَفُّ من ظلمه هذا، ففي القتل راحة، والفتاة التي حكم عليها بسلطان هذا الغشوم تُقتل كل يوم قتلة، وتسوء صحتها ويضعف نشاطها، وتَسْوَدُّ الدنيا في وجهها، وتُطفأ شعلة أملها.

عرفتُ أُسرتين على شيء من الوجاهة، بلغ عدد البنات العوانس في الأولى نحو ثلاثين بنتًا لم يزوِّجوا منهن واحدة مخافة أن يروح الصهر بجزء من ثروتها. وبلغ البنات في الأُسرة الثانية نحو سبعين بنتًا لا يتزوجن، في الغالب؛ لأن أهلهن يطلبن مهرًا كبيرًا يلائم مكانة بيتهن، فابتعد الشبان عن طلب فتاة من تلك العوانس المتبتلات، وكن إذا لاحظ أهلُ بعض تلك الفتيات خروجًا من إحداهن على الآداب يقتلونهن بدون رحمة، وليس أفراد هذه الأسرة، على الأكثر، في سعة ليخصوهن ببعض ما يجب أداؤه في السعادة للفتاة التي كان أهلها، بحسب الظاهر، على شيء من السراوة. وللقارئ أتركُ تقدير موقف هذه المائة فتاة في عصرٍ فسد فيه حتى النُّسَّاك.

وماذا نقول أيضًا في أُمٍّ مكارة، يشتهي ابنها البالغ الراشد الموسع عليه أن يتزوج؟ وهي في باطنها ترجئ زواجه حتى لا تنغصها الكَنَّةُ بزعمها. وكلما خطب ابنها فتاة وصمتها بكل ما تتخيله من عيوب، وهي أبدًا تطمعه بأنها تخطب له البارعة الجمال الكاملة الصفات، وتُشبعه من وعودها سنين حتى يبلغ الأربعين وأحيانًا الخمسين، ولو تأهل في السن التي استطاع فيها تأْليف أُسرة لأَنسل بضعة أولاد. ولبعض الحموات في معاملة الكَنَّةِ تَمَحُّكات وتَقَوُّلات لا تقل عن تَمَحُّكات بناتها وتَقَوُّلاتهن، قد تخرج الكنة عن اعتدالها. والابن إذا طالت عزوبته قد يتلوث بأمراض تقطع نسله ونسل من يتزوج بها. وقد عنيت بعض الحكومات في العهد الأخير بالكشف عن الزوجين كشفًا طبيًّا قبل عقد الزواج، ونِعْمَت القاعدة لو جرى تطبيقها بأمانة.

لو كُشف لنا عن قلوب الفتيات اللائي قضى عليهن أولياؤهن القساة بالتبتل، لقرأنا فيها صفحاتٍ مؤلمةً، ولكن الرجل متى أَهمته غير نفسه؟ ومتى سعى إلى غير إرضاء شهواته؟ ومتى بِرَئ من أثرته الممقوتة؟ أما رأيناه على اختلاف القرون والأقطار يعدل مع نفسه، ويجور أبدًا على غير أبناء جنسه؟

وما إخال الحيف الذي كان من أثره إبقاء الفتيات عوانس في بيوت أهلهن إلا محتاجًا إلى تشريع جديد، يُكره فيه الأبُ على تزويج ابنته، ومن يأبى الخضوع للقانون من الآباء والأولياء يعاقَب بالحبس والتغريم. فقد كان الصحابة الكرام أول الإسلام يعرضون بناتهم على الزوج الصالح لا يرون في ذلك حرجًا، ويعدون هذا عيبًا في عصرنا.

سهلت الشريعة الزواج وسهلت الفراق ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ وما برح مع هذا بعض أبناء هذا الزمان يُجَوِّزون ألا يُطَلِّقوا من اختلفوا معها أَوْ تبرئه من مؤخرها، وما تستحقه في ذمته من مالها. وربما طلب منها مقدارًا من المال لا تحتمل حالتها وحالة أهلها أداءَه حتى يجيبها إلى مُلْتَمَسها. فتطول بذلك مدة الانفصال أعوامًا، يُمسخ خلالها جمال المرأة، ويَنشأ من التسويف التعجيلُ بالقضاء على شبابها، لشدة ما يعروها من الاضطراب النفسي. ومن هؤلاء الأزواج من يغتبط ويفخر كلما أطال عذاب امرأته، ويعد تحامله عليها أدبًا لها، وكثيرًا ما تخرج بهذا إلى ما لا ترضى به الفضيلة.

شهدتُ غنيًّا أبى — على غناه — أن يَنزل عن مؤخَّر ابنته، فدامت فترة الانفصال أعوامًا، وكان من ذلك إرجاءُ تزويج ابنته ثانية، وحرمان ثنتين من بناته الزواج؛ لأن القوم رأوا شدة الأب فابتعدوا عن خطب بناته. وعلى هذا ارتكب الأب ثلاث جنايات في آن واحد بتفضيله المالَ على إحصان بناته.

وكان على القضاء في مثل هذه الأحوال أن يفصل بين الزوجين حالًا، خصوصًا وقد أخذ القضاة بأَخَرَة يسارعون، ما أمكن، إلى إصدار أحكامهم الزوجية حرصًا على مصلحة المتداعيين. ومن الخير أن يغلط القاضي في حكم واحد كل مدة، وألا يسدَّد في كل قضاياه مع تطويل يحمل عواقب سيئة على المرأة والرجل. لا يكون حب النساء أزواجَهن بالقسوة ولا بالإكراه، متى نفرن منهم أو نفروا منهن فالأولى الطلاق.

قرأتُ في كتاب فقه أن قبح المنظر في الزوج ليس بعيب. فإذا كانت المرأة جميلة وهو قبيح المنظر فليس لها ولا لوليها حق المطالبة بالفسخ! وفي هذا القول التعسف كله، لمنافاته الطبائع البشرية. وما جوزوا الفسخ إلا في الجنون والبِرْسام ... إلخ.

وقد جعل قانون الأحوال الشخصية الجديد للمرأة مخرجًا للخلاص من زوجها إذا ادعت فقط أنه لا يلائمها فتطلقها المحاكم منه، وبهذا تستطيع المرأة أن تُطلق زوجها اليوم إذا نزلت له عن مقدمها ومؤخرها أو عن بعضهما. الشريعة صالحة على شرط أن تطبق بحذافيرها.

ومما عمت به البلوى في القطر الشامي هجرة من يهاجرون في طلب المال إلى القاصية، وما ينشأُ من طول سفرهم من الألم والفِراق في هذه الأحوال لا يدوم أشهرًا بل أعوامًا. وكم من فتاة عُقد لها على فتًى، أو بَنَى بها أشهرًا ثم غادرها، وأخذت هي تتوقع أَوْبَتَهُ العشر والعشرين سنة، وهو في غربته يتمتع أنواع التمتع والمسكينة كل يوم تتحرق وتتمزق. والقضاة اليوم يفسخون مثل هذه العقود بعد سنة من عقدها. ولو كنت قاضيًا لفسختُ — وما خشيت — عقدًا مثل هذا بعد انقضاء أربعة أشهر فقط، لا أفسخه بحجة أن الزوج تغيَّب عنها ولم يربط لها نفقة، بل أَبني الفسخ على التغيب.

نعم ما أنصف الرجل المرأة الإنصاف الواجب، وليس معنى هذا أني أطلب إليه أن يكون بقربها ليل نهار، لا يسافر ولا يغامر، بل أُريده أن يعتقد أن للمرأة نفسًا كنفسه، وعليه أن يفكر في مصلحتها كما يفكر في مصلحته، ويعتقد أن سكوتها، إذا سكتت، لا يفسر بأنها راضية بفراق زوجها. أُريده أن يتقيد بقيود تعصمها من خديعته وتَقِيه شر خديعتها ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ أطلب إليه أن يعرف لها، أبدًا، قدرَها لا دِهان ولا مَلَق، وبذلك تحترمه حرمة حقيقية، وتحبه حبًّا خالصًا. وعلى الرجل أن يُوقن، ما دام يعيش مع زوجه، أن الغنم بالغرم، وأنه إذا تمتع بها شابة فعليه أن يحملها كهلة، لتنصرف إلى تربية أولادها، ولا تفكر في غير إدارة بيتها، وإسعاد زوجها

وبنيها، وليس أسقط مروءةً من رجل يطلق زوجه متى سَئِمَتْها نفسه، سواء كانت أُمًّا أو عاقرًا.

سمعتُ برجال يَفْجُرون على مرأًى ومسمع من نسائهم وبناتهم وأخواتهم، فهؤلاء فئةٌ ضالة تهتك بأيديها أعراضَها، وتُنَشِّئُ بيوتها على الفحش تنشئة، ويستحيل في بيوت لا يعرف أربابها الطهارة أن تطهر تربية بنيها وبناتها. وليت شعري هل حسبوا المرأة حيوانًا يستعملونه متى حدثتهم أنفسهم؟ أو ظنوها خُلقت من صخر أَصَمَّ لا يُدرك ولا يحس، وهم من صنف الملائكة الكروبيين خُلقوا من معدن حساس شفاف براق؟ وهل تُلام المرأة في شرع العقل إذا زاغت عن الجادة، وقد علَّمَها أولياؤها، بسوء سيرتهم، ما ساءت معه سيرتُها؟

ثم هل يَعرف معنى الأُسرة مَنْ يصرف معظم أوقاته خارج بيته يشرب ويلعب، ولا يأوي إلى فراشه إلا قبيل الفجر، وهو مخمور متعب؟ ألا يحق في هذه الحال للمرأة أن تتطلب زوجًا غيره؟ وأن تحرص جهدَها على الطلاق، وقد انعدمت العشرة الصحيحة في هذا الزواج؟

ربما يعد بعضهم هذا الكلام من الآراء المتطرفة، أَوَليست العلة مستحكمة مستعصية؟ وقديمًا قالوا: من كتم علته قَتَلَتْه، المرض يسري ويستشري فلا بد إذًا من تشخيصه ووصف علاج له، إن لم يكن حاسمًا، فلا أقل من أن يكون مسكِّنًا، والخطب أعظم مما يذهب إليه من لا يبالون العواقب.

رأينا نساءً راقيات قضى عليهن أولياؤهن أن يتزوجن ممن لا تميل قلوبهن إليه، فما حصل امتزاج بين الفريقين؛ إذ لم يكن فيه حظٌّ الروح كحظ الجسد. حدث أن أهل فتاة فرضوا، كما جرت العادة، على ابنتهم الزوج الذي اختاروه لها، فأسرت إلى أمها ليلة زفافها، أن قلبها لم يحبه، فهددتها إذا هي فتحت مسألة الفراق، بدعوى أن طلب ابنتهم ذلك مما يُسقط اعتبار أسرتها. ومن العار أن تقول: أُفضِّل هذا وأُحب ذاك. وهل تملك الابنة حق التفضيل؟ أو تستطيع أن تجاهر بالحب؟

هذا ما وقع لحسناء قَصَّتْه عليَّ، والصدق بادٍ على ما روتْ، وأضافت إليه قولها: إني صبرت على مضض، ووَطَّنْتُ النفس على الرضا بما حَلَّ بي، وتحققت بعد الزواج أن بعلي القريب من البَلَه، مولَعٌ بتجارته للغاية، وكان محل تجارته بعيدًا عن بلدنا، فكان يفارقني أشهرًا لا يسأل عني، وأخباره تكاد تنقطع أكثر أيام السنة، وإذا سَرَّنِي بقدومه

فلقضاء أيام قلائل معي، ينجز خلالها حساباته مع عملائه. وأنا ما كنت أرتاح بالعيش معه في تلك البلدة التي يسكنها، وإلى هذا كان يضن علي بالنفقة اللازمة لكسوتي، أُسوة مثيلاتي. والمرأة من عادتها أن تصبر على الجوع ولا تصبر على ما تطمح إليه نفسها من الثياب، لتظهر بمظهر خَلَّاب. ورب امرأة زين لها الولوع بالتزين أن تتساهل بأَعَزِّ ما عندها، وهو شرفها، لتكتسى ما به ترفع رأْسها أمام رفيقاتها!

نعم أُصيبت تلك البائسة من زوجها ببلاء عظيم، يتجافى أشهرًا عن مضجعها، ويشحُّ عليها بالنفقة اللازمة، وهي من الطراز الذي يرغب الرجالُ في مثله. فما هي إلا سَنَة أو سنتان حتى خرجت الحَصَان عن إحصانها، وما رعت حقوق زوج ما أَحبه قلبها، منذ اليوم الذي وقعت عينها عليه، وزاد اشمئزازها منه ما كان عليه من دَمامة وجه، وكَزازة يد، وخلوِّ ذهن من كل ما يرضيها.

ومثل هذا الضرب من التَّعِسَات قد لا يقفن عند حد، ولا يكتفين بخليل واحد. فقد أنشأت البغيُّ تسترسل في فجورها، وزوجها لا يفكر في حالها. وباغتها ذات يوم، وهي مع أحد عشاقها، فقتلها فحُكم عليه بالسجن مدة قصيرة، ولو كان في الأرض عدل لحكمت المحكمة أيضًا على أبويها اللذين زوَّجاها بمن لا تحب، وأنذرتْهما فما سمعتْ غير التهديد، ولَخَصَّتْ بالعقوبة الشديدة أُمَّها التي لم ترض أن تسمع من ابنتها كلمة الفراق، ثم أقرتها بعد حين على استهتارها.

ونحمد الله على أن حجاب المسلمات قد رَقَّ في أكثر المدن، فلم يعد يرى الوالدان في الحواضر من العيب أن يرى الخاطبُ خطيبته قبل العقد، على ما يسمح بذلك الشرع. وأخذت هذه المسائل تجري في مجراها المعقول في الجملة، وارتفعت المضارُّ التي كانت تَنشأُ من زواج الرجل ممن لا يعرف. وكان الزوجان يتزوجان بعيون الخاطبات لا بعيونهما، وبعواطف السماسرة والسمسارات لا بعواطف الزوجين.

قد يطلب بعض الفساق من المحصنين إلى نسائهم أن يخدمنهم وهم مع غيرهن في حالة منكرة، فإذا اعترضن على هذا الأذى هُدِّدْنَ بالطلاق، أو ضربوهن وأَدْمَوهن، فهل ترى المرأة يا ترى، وهي المشهورة بغيرتها، المحافظة على قيود الزواج، مع رجل شهدت قبح فعلته، وشفعها بسوء معاملته؟

من الرجال من يَسُوقون نساءَهم إلى الخنا سوقًا، وهن العفيفات في فطرتهن. عرفتُ سيدة جميلة الخَلْق والخُلُق، كان أهلها على حالة حسنة من العيش، فخطب ابنتهم

رجل صاحب مشاهرة، فزوجوه حالًا، وكان عمر الفتاة تسع سنين وعمر الزوج ثلاثين، زوجوه؛ لأن البضاعة عَرَضَ لها من دفع ثمنها فالحزم بَيْعُها! ويا ليت ذاك القرين كان على صفات تُحَبِّبُه إلى الفتاة. كان بشع المنظر جدًّا، فظيع المخبر جدًّا، كان هِجِّيرَاه السكر والعُهر، وكان يبالغ في فجوره كلما بلغت زوجه أشدها، وما كان يرى من جُناح عليه أن يدعو إلى بيتها الفاجرات، يَرْهَجن ويرقصن في الغرفة الملاصقة لغرفتها، أو في فِناء الدار، أمام بعض أصحابه، وزوجته تنظر لما يجري في هذا الماخور، ويضطرها أن تخدم ضيوفه في ساعات مجونه، تُعِدُّ لهم الطعام والمدام، وهو إلى هذا لا يقرب فراشها، إلا إذا عَزَّ عليه الظفر بغيرها.

وقُطع عن هذا الزوج راتبُهُ وضاقت به الأسباب، فكان لقلة مروءته يحمل قرينته على أن تفتش هي له عن عمل، ونسي، أو تناسى، أن حليلته سليمة الذوق، مرهفة الحس، وأنها إذا صارت إلى الاحتكاك بالرجال يُفتنون بها، وهي أيضًا لا تأمن الفتنة، وغاب عنه أنها طالما قالت له، في أوقات غضبها، إنه سيندم على ما قَدَّمت يداه معها.

فمن الملوم في هذا الزواج الذي لم يتم فيه شرط واحد من شروط الكفاءة، اللهم إلا شرط الإسلام؟ زواجٌ كان من أوله إلى وسطه إلى خاتمته نكبة مطردة على تلك العقيلة. ألا يلام أهل الفتاة كل اللوم، لإلقائهم بفتاتهم إلى وحش ضارٍ ما كان بحال أهلًا للزواج بها؟ وهم ما كانوا أيضًا بحاجة إلى التخلص من ابنتهم قبل أن تصلح للرجال، وتختار هي القرين الذي يروقها.

كان هذا الزوج عاريًا من أنواع الكفاءات، وفي قرينته عامة المؤهلات لتغدو زوجةً صالحةً، تعرف كيف تسعد قرينها وتُغنيه. وقد صبرت عليه زمان فتوته وكهولته، قاهرة طباعها، راضية به على علاته، مغضية على ما كان يطالعها به كل ليلة من موبقاته، وكانت إلى منتصف العقد الثالث من عمرها تأمل له الإنابة، والإقلاع عن استهتاره، وتربأ بنفسها عن ركوب الفاحشة، وهي ميسورة لها، ومعروضة عليها. فلما قاست من زوجها ما قاست، وتأخرت أحوال أبيها كأحوال زوجها، ونظرت فيما آلت إليه حالها، اتخذت لها خليلًا. تخلت عن زوجها وظلت على البعد عنه تبره وتحسن إليه، متناسية عَبَثَهُ بعِزَّةِ نفسها، ولا تفتأ تضرع إلى خالقها أن يغفر لها زلتها.

ولكَمْ سمعت من مآسٍ مثل هذه أو أفظعُ وأغربُ، كان فيها الرجل مثال الجور الفادح، وكنت أقول، كلما نُقلت إلي فاجعة من مثل هذه الفواجع: هذا ما وصل إلى علمي، وكم في البيوت يا تُرى من أسرار لم تبلغنا، حُجبت بحجاب من الكتمان الشديد وكم من

مصائبَ كانت النساء فدية عظيمة فيها، عُذِّبْنَ فيها أنواعَ العذاب، وما شعر أحد بما حَلَّ بهن؟

جعلوا قتل المستهترات سنة يستن بها الغُيُر على الشرف، فهلا سأل أهلوهن، قبل أن يقضوا على حياة من استهانت بالعرض وما بالت، عن السبب الذي حملها على اقتراف ما اقترفت، ولعلهم كانوا يُعطونها بعض الحق في خطيئتها، لو حكَّموا العقل فيما لهم وعليهم.

قد يجرأ بعض النساء على إدخال السم على أزواجهن، ليفرغن لأنفسهن، فيفتشن على الزوج الذي يحقق رغائبهن، أو يرتكبن هذه الجناية الفظيعة ليخلو لهن الجَوُّ فينطلقن على هواهن مع من خاللن وعاشرن. وكَمْ جرى تحت طَيِّ الخفاء أمثالُ هذا القتل، وما عُرف سر موت الزوج. وكم من فتاة انتحرت ولم تحتمل أعصابُها شططَ زوجها خصوصًا إذا تزوج من غيرها.

هذه أحداثٌ تحدث في المدن والقرى، وبين الطبقات الغنية والفقيرة على السواء، والعاملُ الأكبر فيها حيف الرجالِ، والنساءُ في معظم هذه الأحوال لا يجدن الحانيَ على ضعفهن، ولا الرائي لبلواهن وشكواهن. فهل يحمل المستقبل يا تُرى فَرَجًا لهن مما هن فيه، ويعدل الرجل فيرتفع أكثر الفساد الذي نرى؟

ربما يبدو لبعضهم أني تشيعت كثيرًا للنساء وألقيت على عاتق الرجال كُلَّ شقاء يصيبهن، وأني حاولت، بهذا، أن أُبرئهن من كل لائمة. وأنا لا أُعفي النساء من تحمُّل التبعات، وأعرف أن منهن الفاسدات بالفطرة ومنهن من ينغمسن في الفساد على غير داعٍ إلا إرادة العهر، وإذا فحصن فحصًا دقيقًا تبين أن فسادهن ناشئٌ عن مرض في عقولهن. والفساد أيضًا مرض، ومرض قتال.

عرفتُ امرأة متزوجة في أُسرة كبيرة لم تمنع نفسها — وهي متزوجة من أحد كبار ذاك البيت — عن جميع شبان أُسرته فجمعت بين الأخ وأخيه وابن العم وابن عمه في وقت واحد وعلى فراش واحد، فهل هذه الفاجرة إلا مريضة؟ ولا كلام لنا مع المريضات. والأمثلةُ أكثر من أن تُحصى في هذا الباب.

وأعرف غير واحدة يدَّعين دعاوى غير صحيحة لتبرير فحشهن، وليس لديهن أدنى حجة على إيغالهن في تيه الشهوات، ولو كان في رجال هؤلاء الفواجر أقل غيرة ما جسرن على ما لا بد أنهم عارفون به من استهتار الزوجات الشريرات. ولا يفسر إغماض العين

عن مساوئ زوجاتهم إلا بأنهم راضون عن مشاركة غيرهم لهم في أمر لا يقبل الشركة إلا عند من نُزعت من نفسه آثارُ الشرف والمروءة.

كانت مثل هذه الحالات تقع على الندرة، فكَثُرَت في هذا الجيل، وتجرد الفاجرات من كل حياء، لا يحسبن حسابًا إلا لما فيه الحصولُ على أقصى حد ممكن من شهواتهن.

القول في تآليفنا

بدأ التدوين عند العرب أول الإسلام، ثم أعقبه التأليف والتصنيف، ثم النقل والاحتذاء. والتدوين الجمعُ، والتأليف وَصْلُكَ الشيءَ بعضه ببعض، والتصنيفُ جَعْلُكَ الشيءَ أصنافًا وتمييز الأشياء بعضها عن بعض، والنقل التعريبُ أو الترجمة، والاحتذاء النسجُ على منوال الغير. وقد كان التأليف بالعربية لأول أمره ساذجًا لا تعقيد فيه ولا فلسفة، مدارُهُ على جودة الرواية وتصحيح السند. وأكثر ما دُون في الصدر الأول كان في الأحكام والسنة والشعر واللغة والتاريخ. وكَثُر المؤلفون والرواة والناقلون في القرنين الثاني والثالث بقيام المذاهب والأَخْذ عن الأُمم السالفة وبتشعُّب الأغراض والمطالب. فخرج التأليف بالضرورة عن الإيجاز إلى التبسُّط، ورُوعيت فيه مدارك الخاصة ومن بعد طبقتهم من العامة، وانضم إلى علوم القرآن والسنة بعضُ ما له مساس بالدين. وكثرت بين العرب علومُ الدنيا أو المعروف من أنواعها يومئذ. وأجمل ما وقع التأليف فيه من الموضوعات ما كتبه مؤلِّفُوه بين القرنين الثاني والسادس.

بعد المائة السادسة أخذ الضعف يسري إلى التأليف، وكانت سرايتُهُ خفيفة بادئ بدء. والإجادة هي القاعدة العامة في العصور الأولى، وغدا التجويد في العصور التالية من النادر. وكأن التأليف في الإسلام كان قرين السياسة، لما تراجعت هذه ضعف التأليف ونامت الأفكار. ذلك لأن التأليف عاش في ظل الخلفاء والأمراء والأغنياء، ونشط بعطفهم وسخائهم. وكان العظيم يرى من الغضاضة عليه وعلى سلطانه ألا يقرب العلماء والأدباء، وألا يصرف معهم ساعات يحاورهم ويساجلهم ويعتقد أن من واجبه أن يأخذ بأيديهم وينعشهم. ومن العظماء من كانوا صادقين في برهم العلماء، ومنهم من كانوا يحاولون أن يتخذوا منهم آلاتٍ يستخدمونها في أغراضهم. وما خلا باب كبير من الكبراء من فقهاء ورواة وحكماء متحققين بعلوم القدماء، ومن ندماء ومؤدبين ومن أدباء وشعراء.

وكان يزيد عدد المؤلفين كلما كثرت الممالك المستقلة عن الخلافة استقلالًا ذاتيًّا، وتعددت الحواضر، واشتدت حاجتها إلى من يزينها من الرجال، ويقوم على سياستها وحكمها من العالمين.

واستولى التتر والترك على بلاد العرب، وضرب هولاكو بغداد وكان جنكيز، من قبل، قضى على عواصم في آسيا وخرَّب بلاد ما وراء النهر وخوارزم وخراسان وقندهار وملتان، ونعق الغراب في بخارى وسمرقند وبلخ وهرات ونيسابور وشيراز والري وأصفهان وطوس وقزوين ومراغة ومَرْو، وكانت كل هذه القواعد مراكز العلم الإسلامي، ومنها كانت تصدر التآليف الممتعة، كما كانت تنتشر من الأندلس وإفريقية ومصر والشام واليمن والعراق. وبعد تلك النكبات أخذ كل جيل ينحطُّ عن سابقه، وكان القرن الماضي آخر تلك الأدوار المظلمة، وعم الجهل الأقطار العربية، وخلت من الطبيب والمهندس والفيلسوف، فتراجعت الفنون والصناعات وضعُفت مادة التفكير السليم، وتحققت رغبات الترك بما حاولوه من القضاء على العرب.

وبعد سُبات طالت لياليه السُّودُ. تعلق القدر أن ينبعث عز العرب من مصر، وكانت بغداد مصدر كل جديد لهم، ومصر لم ينبغ في عصورها الإسلامية عظماء في الفقه والحديث والكلام والأدب والشعر والطب والحكمة على مثل ما نبغ في بغداد، ومع ذلك ما خلت في كل عصر من المتوسطين، بمعنى: أن العلم ما انقطع منها ولو على شيء من الضعف. وكان الممتازون فيها، الذين اشتهروا شهرة خالدة قلائلُ جدًّا، وللسلطان كما للبلدان دَخْلٌ غير قليل في شهرة العلماء، وعظمة علماء مصر وأدبائها على نسبة قوة دولتها.

نعم لم يظهر في مصر في الزمن الغابر أمثالُ: الجاحظ والرازي والبيروني والكندي وابن سينا وابن رشد وابن زهر في العلم والحكمة، وأمثال: مالك وأبي حنيفة ومسلم والبخاري والطبري وابن حزم وابن تيمية في الفقه والحديث. ولا مثل: ابن المقفع وسهل بن هارون وعمر بن أبي ربيعة وأبي تمام والبحتري والمتنبي في الكتابة والشعر. وما خلت في كل عصر من نفر ممتاز لم يجد من السلطان عضدًا قويًّا، وباعد نظام الطبقات بين الأغنياء والفقراء — وينشأُ العلماء والأدباء من بيوت الفقراء غالبًا — وفي العادة ألا يهتم أرباب الثروة لغير مظاهرهم وشهواتهم، وشهرة الأديب والعالم تستفيض بحسب بُعْدِهِ وقربه من أصحاب الدولة.

وكيف السبيل إلى إنعاش التأليف العربي، ومصر خارجة من حكم استبدادي مميت رزحت تحته دهرًا، والأداة التي يؤلف بها وهي العربية ضعفت واختلت؟ وجامعُها

الأزهرُ كان في حقيقته شبحًا بلا روح. وأتى القرن الماضي وليس فيه، من بين مئات من مدرِّسيه وألوف من دارسيه، سوى أفرادٌ قلائلُ يُحسنون كتابة أسطر صحيحة من حيث الإعراب، سقيمة من حيث التركيب، ضعيفة من حيث الفكر، والبارع منهم من يحشر نفسه في زمرة المؤلفين وهو لا يحسن إلا إيراد الإشكالات، ومناقشة خصومه ومماحكتهم. والماهر الباقعة من يدعي أنه يؤلف في المبحث الفلاني، وبالطبع يكون موضوعه مما أكل الدهر عليه وشرب، فلا يلبث أن تنهال عليه التقاريظ من زملائه ومُصانِعِيه، وهناك، كفيتم البلاء، صَوْب عقولهم، ومعرض سخفهم. وقد يكتفي ذاك المؤلفُ الدجال بما ورد عليه من التقاريظ، ويبقي نشر كتابه إلى يوم الحشر والنشر. وفي تلك المقاريظ يتجلى الهجوم على الحق، والمبالغة السمجة التي ما عُهدت للعرب ولا للعجم.

وما برحت الحال على هذا الشكل المؤلم حتى قام الإمام محمد عبده، وعالج التأليف بعلاجين اثنين، كان لهما أبلغ الأثر في حياة اللغة، فأتى على أبشع مظهر من مظاهر الكلام، وأخرج الكتابة من الركاكة والتكلف إلى السهولة والطبع، وخلَّص اللغة من السجع البشع والمحسِّنات البديعية، وبعمله خَفَّ اللفظ الدخيل الثقيل، وحَيِيَتْ فصح وشوارد كانت من قبل منسية.

وكان العلاج الثاني عنايته بإصلاح الأزهر إصلاحًا أخرجه عن بعض جموده، توفر على إبدال منهاج بالٍ ركيك، بمنهاج جديد أنيق. وقد رأى الزمنَ يتطلب من رجال الدين عقولًا عامرة بالعلم، ناضجة بالفكر والتدبر. وأن العصر يتقاضاهم أن يفكروا تفكيرًا صحيحًا، ويثبتوا ما يفكرون فيه على الورق بعبارة سليمة مفهومة. فكان، وهو أزهري مثلهم يعرف ما يصلحهم، واضعَ الحجر الأساسي في بناء الإصلاح في الأزهر، وكان لدار العلوم أعظم الأثر في نهضة اللغة العربية فاقت فيه الأزهر وما أنشئ فيه بعدُ من كليات التخصص.

دخل التأليف في طور جميل، وبدأ التبويب والترتيب في الكتب، وشرعوا في تقطيع الجمل، ووَضْع إشارات الترقيم، وعنوا بالترجمة لكل باب، والإشارة لكل فصل، وصم شتات كل مبحث إلى شكله. وكانت المؤلفات في عصور الانحطاط محشوة بالنقول كيفما اتفق، مملوءة بالاستطرادات والمسائل التافهة يكتبها كتابها من أولها إلى آخرها جملةً واحدة لا فصل فيها ولا تفريق، ولا أثر فيها لفكر ولا رأي، لا تلمح في تضاعيفها من نور البصيرة بصيصًا. والمؤلف الحديث يدرس موضوعه ويتمثَّله ويمحصه، ويشير إلى المصادر التي أخذ منها، ويجهد أن تأتي عبارات المتن مضمومة في سلك واحد لا يشعر

القارئ أنها مأخوذة من مراجع عديدة. وهذه طريقة جاءتنا من الإفرنج فاقتبسناها في جملة ما اقتبسناه عنهم، ومنها وضع الفهارس المنوَّعة في آخر الكتاب ليسهل على الباحث الكشف عما فيه من الفوائد. وجرينا على طرق الإفرنج في تصوير كتبنا العلمية والأدبية، وكنا عشنا زمنًا تحت سلطان من كانوا يخوِّفوننا من التصوير ويحرِّمونه علينا. وكان أجدادنا أيام الارتقاء يصورون الكتب وغيرها دون حرج.

وبقدر ما كان أرباب الأقلام يدفعون عن لغة التأليف ما أضناها، كانت اللغة تقرب من الرشاقة والفصاحة، وتستوي لغةً مَرِنة تقبل ضروب الأفكار. ومِنْ أَهَمِّ ما أعان على إجادة التأليف ما وقع إحياؤه من أمهات كتب القدماء من العرب، فأخذ الأساتذة والتلامذة من أساليب بلاغتها ما طاب لهم وتمثلوه واستعملوه في كتاباتهم ومن هذه الدراسات نشأت طريقة عصرية جديدة في الشعر، وطريقة جديدة في النثر، وسلمت اللغة من ركاكتها، وأظهرها المؤلفون والصحافيون في مظهرٍ زادت به قوتها في التصوير والتعبير، ونشروا بين العامة ألفاظًا ومصطلحات أَلِفُوها بكثرة التكرار. فكانت الصحافة مدرسة الخواص والعوام ومدخل المستعدين من المؤلفين إلى تجديد مؤلفاتهم، وبرزخًا للجمهور انتقل منه إلى مطالعة الكتب.

وصفحة تقرءُونها من مؤلفي القرن الماضي والقرون الثلاثة التي قبله تعارَض بأخرى لمؤلف ثقة من أهل هذا القرن، أو لكاتب في جريدة أو في ديوان تتبينون بها مقدار الدرجات التي قطعها الأدب وقطعها تأليف الكتب والرسائل والمقالات. ونظرة عجلى في تآليف القرون الأخيرة وتآليف هذا القرن تنبئكم بما حدث من رُقِيٍّ في الأفكار بتجديد طريقة عرضها على المُطالعين. وكانت كتب عصور الانحطاط نقولًا من كتب، منها ما هو غير معتمد عند الثقات، أو احتذاء خفيف من أسفار لاكت الألسن ما فيها كثيرًا، وتبرمت بها النفوس لِمَا شُفِعَت به من حواشٍ وهوامشَ تربك الذهن وتعقد العلم.

أنتم الآن إذا تلوتم كتابًا في الزراعة أو الطبيعة أو الجغرافيا من منقولات أوائل النهضة، وقارنتموه بما نُقل من نوعه مؤخرًا، ظهر لكم أن ذاك الدور في التأليف كان دور الاستعداد للدخول في هذا الدور السعيد. وأن من ترضيكم اليوم مكتوباتهم من حيث سلامة اللغة وسلامة الفكر هم ممن درسوا في مدارس مَعنيَّة باللغة العربية، وبهم ارتقت لغة القضاء والسياسة والطب والزراعة والاقتصاد، وسائر ما لقفه المصريون من العلوم العقلية.

ونظرة أُولى إلى ما تصدره المدارس المصرية العالية من كتب ومجلات، وما تنشره النظارات والجمعيات من مختلف النشرات، تقفكم على ما بلغتْه لغة التأليف من جمال

ورشاقة. ونظرة ثانية إلى الصحف المصرية اليوم ومعارضتها بأحسن الجرائد التي كانت تصدر من سبعين سنة تناديكم بما تم في العربية من انقلاب في الأسلوب والنقل. ونظرة ثالثة إلى لغة الدواوين ومقابلتها بما كان يُكتب من نوعها في القرن الماضي وما يكتب فيها اليوم تَهديكم إلى أَنَّ العربية عاد إليها عِزُّها الأول، أو كاد. ونظرة رابعة في خطب خطباء السياسة وخطباء القضاء وخطباء الجوامع والمعابد، تؤذنكم بارتقاء لغة التخاطب أيضًا، وأن ملكة البلاغة استحكمت في الدارسين، وكانت من سنين ألفاظُهُم عامية، وتراكيبهم عامية، وتصوراتهم عامية.

يتذوق أكثر المتعلمين اليوم البلاغة، ولذلك لا يرضيهم من المؤلف أن يكتب موضوعه كيفما اتفق، بل يرغبون إليه أن يصوغه في قالب مقبول، ويعرض عليهم زبدة مما محص وحقق، مثال ذلك كتب الشيخ محمد بخيت وكتب الشيخ أحمد إبراهيم في الفقه، فإن الأول، على جلالة قدره في هذا الفن، لم يُكتب لمصنَّفاته القبول كما كُتب لمصنفات الشيخ الثاني؛ ذلك لأن الشيخ بخيتًا لم يُرزق من نعمة البيان ما يؤهل كتبه للاستحسان عند العارفين، ونالت مصنفات الآخر موقعًا من النفوس لِمَا كتبت به من طراز جميل. وخصلة أخرى وهي أن الشيخ أحمد لم يَجْمَدْ على مذهب معين، ونظر في الشريعة إلى أبعد من نظر الفقيه الحنفي. والشيخ بخيت، وهو من قدماء الأزهريين، وقف عند أقوال أهل مذهبه ولم يأخذ بنصيب من علوم القدماء، ولا من علوم المحدثين، واتسع أُفُق الشيخ أحمد بما لقفه من بعض فروع العلوم الحديثة، وبينا كان الشيخ بخيت يحرِّم وبعضُ أقرانه الأزهريين تدريسَ هذه العلوم، ويثورون على الشيخ محمد عبده لرغبته الصادقة في إصلاح الأزهر، كان أحمد إبراهيم يقرأ مبادئ هذه المعارف في دار العلوم والشيوخ يحرمونها، وقد أسقطوا رسالة التوحيد لمحمد عبده بدعوى أن فيها كفرًا وهي اليوم داخلة في برنامج دروس الأزهر، ولما يمض ربع قرن بين التحريم والتحليل! وما يقال في كتب الشيخ أحمد إبراهيم يقال في مصنفات الشيخ عبد الوهاب النجار فإنها أخذت من تاريخ الملة بأصح الأقوال. فما راق صنيعه بعض الأزهريين، وأثاروا عليه حربًا وهو لا عيب له إلا أنه تحرر من تخريفات الأزهريين.

بقي أن نقول: إن مَنْ يؤلِّفون في مصر، على الأغلب، هم من المضطرين إلى التأليف بحكم أعمالهم، أي: أنهم من عمال الحكومة، ومن الموظفين في جامعتِها ومدارسها. ويندر أن نرى تصنيفًا لرجل صرف جهودًا في ناحية من نواحي العلم الكثيرة مستقلًا فانقلب ينشر تجاربه وأبحاثه ويعرض على قومه ما أداه إليه اجتهادُه في مخبره ومكتبه.

ولو أقدم بعض العارفين على نفع الناس بمحصول تجاربهم لغنيت العربية بأسفارها الممتعة. ولو كان كل مؤلف يكتب بعد التفكير كتيبًا أو رسالة لرجحت كفة تآليفنا في الميزان، ولَوقع المثقفون في خزائننا العربية على ما هو مَتَّاع للنفس، ووَفَّاء بحاجة الرجل المتحضر المستفيد.

في الوقت الذي أخذت مصر تسير في طريقها إلى إحياء اللغة العربية، وتحيى بإحيائها صناعة التأليف، كانت الشام، وهي أَعْلَقُ بمصر من جميع الأقطار، تفنى في دولة الترك، وليست بالعربية ولا بالتركية — في تلك الحقبة قام في الشام أحمد فارس، مؤلف الكتب اللغوية والأدبية. وأصدر في الأستانة جريدة الجوائب، ونشر عشرات من كتب الأدب القديم، وسعى إلى تعرية اللغة من السجع والسخافات البديعية ما أمكن، ومزج الجد في الهزل في بعض ما كتب، وأحدث تأثيرًا في مَلَكات المتأدبين في الولايات العربية. وبعمله وعمل مدارس المبشرين الكبرى وبعض مدارس لبنان، سَرَتْ الحركةُ الأدبية إلى الأقطار المجاورة وكان يقدر سيرها في كل قطر بقدر ما سبق له أن أنشأ من مدارس، وما رَسَخَ في ربوعه من تعاليمَ قامت على شيء من علم وأدب.

ولنا أن نقول إن الشاميين والتونسيين، وإن تأثروا بنهضة مصر، فقد كان لهم قديمٌ يرجعون إليه ويسيرون على أثره؛ لأن العلم الديني، وما كانوا يسمونه علم الآلات، أي: النحو والصرف والبيان، كان مُتَأَصِّلًا في تونس بعض تَأَصُّل بفضل جامع الزيتونة، وفي الشام بفضل بقايا المدارس القديمة، وكان بعضُ العلماء يدرسون في الجوامع والمدارس وفي بيوتهم حبًّا بالعلم، أو تفاديًا من أن يزول عنهم الطابع الذي كان لهم، وبه كانوا ينعمون، وبه كانت مظاهرهم، ومنه كانت إدراراتهم وأوقافهم ووظائفهم الدينية.

أما التآليف التي صدرت في تلك الفترة فكانت في قاعدة الشام الداخلية محصورةً ببعض الكتب المدرسية وبعض كتب القدماء، لم يُحسن ناشروها تصحيحَها، ومِنْ أَجَلِّها كتبٌ مدرسية منوعة وضعها أستاذنا الشيخ طاهر الجزائري، وفي الساحل كانت التآليف أشكالًا، ومنها ما كان ينم عن علم كبعض تآليف المبشرين الأمريكان المستعربين، ومنها ما كان فيه نقل عن اللغات الغربية أو كتب منتحلة بروح البلد الذي تصدر فيه، وترضى الطائفة التي يريد دُعاتها تصريف كتبهم على أبنائها. واستفادت اللغة على كل حال من المنافسة بين الطوائف، وكان المسلمون آخر من انتبهوا الانتباهَ المطلوب؛ ولذلك قَلَّ فيهم المؤلفون يومئذ وقَلَّ فيهم الصحافيون.

وما برحت العربيةُ ضعيفة المنة في الشام والعراق واليمن والحجاز وما إلى ذلك من الأقطار، حتى وضعت الحرب العالمية أوزارها، وأخذ كل قطر يفكر فيما يصلحه فدبت النهضة وبدأت العراق تُخرج مصنفاتٍ مصبوغة، في الجملة، بالصبغة العربية رافلة في حلل جديدة من التنسيق، وتحيي إلى ذلك شيئًا من تراث الأقدمين. وكانت مصنَّفات العراقيين من قبل كناية عن شعر سخيف، ومناقشات مذهبية لا تزيد العقول إلا ظلمة. كأن العراق ما كان مقيل العلم والأدب أكثر من خمسمائة سنة. وكأنه لم يُخرج للأُمة أعظم المؤلفين في كل فن ومطلب، وكأن مصنفاتهم ما برحت مداخلنا إلى ساحات العلم. ومصابيح نستضيء بها في هدايتنا، وخزانتنا الثمينة التي نفزع إليها يوم افتقارنا إلى مَنْ نتعلم منه. وهي موضع إعجابنا وإعجاب الأُمم على الدهر.

والفضل في ذلك للمدارس التي قضت على الطُرُق القديمة في التعليم، وأصبحت تعلم العلوم الابتدائية والوُسْطى والعليا باللغة العربية، فأخرجتْ أقلامُ المتخرجين فيها كتبًا جيدة، وضعُف التعليم الديني في الشام وقوي التعليم المدني، فصار النابهون يؤلفون في العلوم والآداب، ولا تكاد تجد مؤلفًا يؤلف في موضوع ديني إلا إذا كان في شيء من الردود والمناقشات. ولولا الدرس الحديث ما قام في الشام والعراق أولئك المؤلفون الذين كتبوا على الطرق الحديثة. ومثل هذا يُقال في تونس، بَيْدَ أن العربية بقيت ملكًا لأفراد من الشيوخ في طرابلس وبرقة وتونس والجزائر ومراكش، وبها تصدر بعض الكتب على الطريقة القديمة. والعربية ضئيلة في المدارس النظامية، ولولا جامع الزيتونة وجامع القرويين لماتت العربية جملة من شمالي إفريقية، ومات بموتها التأليفُ العربي والتفكير العربي. ومؤلفات مصر تداوي النقص في تلك الأقطار فيقبل الناس على قراءتها شأنهم في كل قطر عربي.

يكاد يكون البلد الذي منه ظهر الخير للأمة العربية — ونعني به الحجاز — مقفرًا من كل شيء اسمه تأليف بالعربية، ولم نر لبنيه شيئًا يُذكر في باب التأليف، والشعرُ منحط والنثر منحط، ولا صحف ولا مدارس، وكذلك يُقال عن اليمن وضعف التأليف فيها، وكانت اليمنُ أيضًا مباءة علم ومثابة آداب في الإسلام، وكان من بنيها خيرة العلماء كما نبغ منها أفضل القواد والجنود. وما وصلنا من كتب اليمانيين والحجازين والنجديين صورة من صور القرن الثاني عشر والثالث عشر. لا جرم أن الانتفاع بالمؤلف يزيد على قدر أخذه من المدنية الغربية وتأثره بأساليبها سواء كان بلغاتها أو بما تُرجم منها إلى لغتنا، وعلى قدر إحكام المؤلف مَلَكَةَ البيان تحوز كتبه القبول، وجماع المؤلفين في هذا

العصر هم ممن درس مبادئ في المدارس النظامية، وكان لهم ملكة في لغتهم وأنسة بآدابها. وكم من كتاب فقد أحد الشرطين في جماله: لغة المؤلف، وإتقان الموضوع، فجاء مسخًا عاريًا من كل ما يحببه إلى العين والفكر.

كثر عدد من درسوا العلوم العصرية عندنا، ولدى مصر والشام نموذجات من المدارس العليا، على نحو ما عند أُمم الإفرنج منها، ولكن كم كان عدد من زينوا علمهم بعملهم؟ إن هذا البطء الذي يسير فيه التأليف بالعربية لا يرضاه لها أنصارُها. قد يجيد التأليف أناس هم في غير حاجة إلى أن يعيشوا منه أكثر ممن تقضي عليهم مناصبهم أن يصنفوا، أو يحملهم حب الظهور أن يدسوا أنفسهم في غمار المؤلفين. والبلد في غير حاجة إلى تأليفهم، وأكثر ما يؤلف على هذه الصورة قد يموت في سنته. وقد يعيش المرء خمسين سنة، مؤلفًا، ولا ينتج إلا قليلًا، والإبداع نقرؤه في هذا الشيء القليل. وليست مكانة التآليف بعدد مجلداتها بل بالزبدة التي حوتْها، والفائدة التي ضمتْها، ورُب كتاب لا تصل إلى آخر سطوره حتى تلقس نفسك منه. ورب سِفْر تعاود قراءته مرات، وكلما طرحته من يدك وددت لو يتاح لك تصفحه مرة أخرى.

ليست الأقطار العربية في التأليف على مستوًى واحد. فالشام تجيء بعد مصر، والعراق وتونس بعد الشام، ثم إن بلاد العرب ومنها الإمارات العربية الواقعة على المحيط الهندي والخليج الفارسي تغلب البداوة عليها، ولا علم ولا تأليف مع بداوة وليس في تلك الأرجاء علماء وأدباء بالمعنى الذي نفهمه من العلم والأدب، وهي ضعيفة في مظاهر حياتها على ما في بنيها من ذكاء نادر، وكيف يتأتى الانتفاع بهذا الذكاء وليس هناك أسباب حافزة لانبعاثه؟ لا أمراء تعطف عليه ولا أغنياء تجود له، ولا جامعات ترسم له خطط سيره. والعلم ما أزهر ونضج في كل العصور إلا في ظل دولة قائمة أو جماعة من أهل الخير يَقِظَة، كانت العرب، في القرون الوسطى وقبلها، سادة هذا الشأن، ولم تخرج أُمة من العلماء بقدر ما أخرجوا، ولم تُنتج أُمة في مدة قصيرة مثلما أنتجوا، وهي اليوم بالقياس إلى الأُمم التي تماثلها بعددها دون الوسط بعلمها وعملها وتأليفها وحركتها.

تتطلب حاجة الشعوب العربية إلى من يؤلف لها في كل فن ومطلب، فيتناول من الموضوعات القريبة من الأذهان ما يستفيد منه تاليها وسامعها فائدة عملية، تسلِّيهم وتعلِّمهم وتُنير طريقهم وتزيد في ثقافتهم، نريد مؤلفين هضموا وتمثَّلوا ما تعلموا ودرسوا، وأبرزوا ما لديهم في قوالب جميلة ممتعة. نريد مؤلفين يُتحفوننا سنةً فسنةً

بأجمل محصول من قرائحهم وأبحاثهم. لا مؤلفين يكتبون رسالة أو كُتيبًا يقدمونه أطروحة لنيل شهادة العالمية ثم يسكتون طول العمر، على حين نجد المؤلف الغربي لا يفتأ منذ عهد المدرسة الوسطى إلى أن يدفن في التراب يبحث ويدرس وينشر ما اهتدى إليه. نريد مؤلفين لا تكون تآليفهم كبيضة العقر لا يرجى لها خلف. نريدها أن تبرز بشيء جديد يستهوي عقول الكبار والصغار، وتصنع بحسب مدارك الفلاحين والبلديين والتجار والصناع، لتقربهم من الخواص فيزول ما بين الطبقات من فوارق طالما كانت العائقَ الأكبر عن التقدم. حاجتنا إلى مؤلفين يُحبِّبون المطالعة إلى قومهم.

الكتب مقصورٌ تأليفها عندنا على فئة صغيرة جدًّا، ويقوم رواجها على أُناس مخصوصين، والمؤلفُ لا يعيش من تأليفه ولا يرتفق بقلمه، وجمهورُ الأمة بمعزل عما يُكتب. وليس لنا مؤلفون أَلَّفُوا أحرارًا وكتبوا أحرارًا. نريد مفنِّنِين يعيشون من فنهم وريشتهم، وأربابَ عقول ينعمون بفضل عقولهم.

نريد كتبًا حية تصبر على حرارة النقد، ومؤلفين أجلادًا، لا يوقفهم شيء عن نقد الكتب نقدًا صحيحًا ينفع العلم والمتعلمين من الفئة التي لا تصانع الطابعين، ولا تخاف صغار المؤلفين، ونريد صحفًا تجهر بالحقائق تقررها، والمحاسن تنشرها، والمقابح لا تسترها.

نريد مجلات لا تخلع على صعاليك الكتاب والمؤلفين خلعًا من الثناء لا يستحقونها فيُضلونهم بالتمليق ويُضلون من يعتقد الصدقَ في تلك الأماديح من القراء؛ لأن من المجلات ما ألبست حلة بيوت تجارة الربح غايتها وضالتها وعلى الناقدين أن يعرفوا واجبهم في النقد، وأن يوقن المنتقَدُ عليهم أن الناقدين أحسنوا إليهم بما نقدوه من كلامهم، وأن خير الكتب ما انتُقد، وأَخَسَّها ما أُغفل نقده وأن بعض أسفارنا القديمة التي طُبعت مؤخرًا هي من تأليف عصور الانحطاط حشاها مؤلفوها بتخريفات وتحريفات لا تُطاق، ولو طبعت الأُمهات فقط التي أُلفت أيام جودة التأليف لتَوَفَّر على بنينا عناءٌ كبير.

دثرت كتب القدماء وبقيت كتب المتأخرين؛ لاستيلاء الفناء على الكتب القديمة بتقادُم العهد، وجريان حُكم الزمان عليها بالمحو والإفساد، كما قال العلامة ريتر، ومن ذلك ضياعها وتلفها عند استيلاء الأعداء على البلاد، وجنايتهم على الكتب بالإحراق والإغراق، ومنها اعتداء بعض أهل المذاهب على كتب مخالفيهم، ومنها أنه كان جُلُّ هَمِّ المعلمين والمدرسين أن يضبطوا قواعد كل علم بأقصر لفظ، فعمدوا إلى تهذيب مؤلفات من سبقهم، وتنسيق المباحث وترتيبها، ووَصْلِ كل بحث بما يُجانسه، وضم كل فرع إلى

أصله، واختصروها؛ إيثارًا للإيضاح والتقريب وتسهيلًا للتعليم والتعلُّم، فآثر المحصلون كتبهم على الكتب القديمة من أجل ذلك، فصارت المؤلَّفات السابقة كأنها منسوخة باللاحقة فتُركت وأُهملت، ونُسيت حتى تصرَّف الدهرُ بنسخها تصرُّفه.

وعَلَّل ابن الجوزي دثور أكثر تصانيف القدماء بضعف هِمَم الطلاب، فصاروا يطلبون المختصرات ولا ينشطون للمطولات، ثم اقتصروا على ما يدرسون به من بعضها فدثرت الكتب ولم تنسخ.

نريد كتبًا تكون فتنة لقارئها، لا يتركها إلا وقد استوفاها من الدفة إلى الدفة، ثم يكررها ويُعيد النظر فيها. كتبًا للحياة الحاضرة تحفزنا للعمل فيها من علم الحال لا من علم الخيال. كتبًا تخلِّقنا بأجمل أخلاق العصر لا كتبا تذكرنا بالماضي فقط. من الطراز الذي نفتحه باحترام، ونتصفحه باحترام، ونُطبِّقه باحترام، ونحفظه في خزائننا باحترام، نريد كتبًا نُرَبِّي بها بناتنا وبنينا، ونتطلب شيئًا نقدسه يستحق التقديس، وهل أجدر بالتقديس من زبدة عصارات العقول موضوعة على ورق؟ نبني بها عزتنا القومية على أساس متين من الآداب، وتُوصِل أهل جيلنا بالجيل الذي يليه لاستغلال هذا الذكاء المبدَّد في أرضنا، والتلذُّذ بثمراته الغضة اليانعة. نتطلب كتبًا تضم دَفَّاتُها أَثْمَنَ الدرياقات الناجعة في مداواة جهلنا.

التأليف في أمة مشعل نورها، ومقياس تفكيرها، ومعيار نهوضها، ورمز جهادها، وعنوان حضارتها، وآية مجدها، فعلينا أن نفكر بما يورثنا هذا المجد، ويعيد إلينا هذه السعادة.

القول في مطبوعاتنا

بدأت الأستانة بطبع الحرف سنة ١١٣٩هـ بعد أن طبعت الكتب العربية في الغرب بزمن طويل، والطبع بالحروف لم يُعهد في مصر إلا في سنة ١٢١٢هـ/١٧٩٧م) وكان الطبع على ضعف حتى سنة ١٨٢٢م وهي السنة التي أُسست فيها مطبعة بولاق الأميرية وشرعت تطبع الأمهات القديمة وكتب العلوم الحديثة.

وأُنشئت في بيروت مطبعة المرسلين الأميركان البرتستانت سنة ١٨٣٤م ثم مطبعة المرسلين اليسوعيين الكاثوليك في سنة ١٨٤٨م، وفي نحو ذلك الزمن دخلت الطباعة بالحروف إلى تونس، وأنشأت الحكومات مطابع لها في بعض أنحاء الشرق. وما بدأ الأفراد بتأسيس المطابع إلا بعد مرور زمن على المطابع الحكومية، وكانت عنايتهم بما يطبعون قليلة، وإن معظم من عانوا الطباعة لا شأن لهم في العلم والأدب، فأساء بعضهم الطبع بالطبع، وأخذت الشناعة ببعض ما طبعوا: لا دقة في التصحيح، ولا ذوق في وضع الصفحات والحواشي، وقد يخلطون في الكتاب كتابًا آخر لا علاقة له بالكتاب الأصلي، فتستغرق الصفحات بالأُصول والزوائد، ويختارون للطبع أَسْقَمَ الحروف ويتخيرون أدنى الورق، ويتطلبون الرُّخص في كل شيء، وبذلك خلت مطبوعاتهم من كل بهجة وروعة.

ولم يهتم الطابعون بغير كتب الخرافات والغراميات، على الأَغلب؛ لأنها أَروج من كتب العلم، وما تَعَفَّفَ بعض الوراقين عن طبع كتب المنامات والتخريفات وأشياء سموا كتبها الروحانيات، وأشياء هي من الإسرائيليات، وكتب أسرار الحرف والجفر، وكتب الكيمياء وعمل الذهب، وكتب السخف والمجون، وطبعوا وأكثروا من طبع كتب أبي معشر والديربي وأضرابهما.

وما قَوِيَت العزيمة على الاستكثار من طبع كتب العلم إلا لما عج العارفون بالشكوى من الكتب المضرَّة، وزاد عدد المتعلمين على الطرق الحديثة، فأدركوا قصورهم عن إحياء آثار السلف، فطبعوا في مصر أسفار مالك والشافعي وابن حنبل وأبي حنيفة، والغزالي وابن حزم وابن تيمية وابن القيم وابن الجوزي وابن قتيبة، والجاحظ وثابت بن قرة وحنين بن إسحاق، والآمدي والشاطبي والقرافي وابن رشد، والباقلاني وابن عبد البر والسرخسي، وإخوان الصفا وابن جني وابن منظور وابن سيده، إلى عشرات أمثالهم، من علماء الأمة وحكمائها وأدبائها ومؤرِّخيها ولغوييها.

واختصت الهند بطبع كتب الحديث ورجاله، وما شاكل ذلك من علم الكلام واللغة والسير، كما تفردت إيران بطبع كتب الإمامية بالعربية وغيرها، وزنجبار بطبع كتب الخوارج والإباضية، ودمشق وبيروت بطبع الكتب المنوعة، وخُصَّت أوربا بطبع كتب العلوم كالطب والكيمياء والأقرباذين وجر الأثقال والزيجات، والأرصاد والفلك والرياضيات والطبيعيات والنبات، والتاريخ والجغرافيا والرحلات، واللغة والأدب والشرع، وغير ذلك من العلوم التي نقلتْها العرب عن أهل الحضارات القديمة وزادت فيها، أو كانت وقفًا عليهم كعلوم القرآن والسنة واللغة والشعر.

شرعت أوربا من نحو أربعة قرون بطبع ما عثرت عليه من كتب الرازي والبيروني والبتاني والكندي (الفيلسوف والمؤرخ) وحنين بن إسحق والخوارزمي، ونصير الدين الطوسي وعبد الرحمن الصوفي وابن النديم، والفارابي وابن سينا ويوحنا ابن ماسويه، والطبري واليعقوبي والدِّينَوَري والمسعودي، وابن خَلِّكان وابن الأثير وأبي الفدا والقزويني، وحمزة الأصفهاني والشريف الإدريسي والمقدسي والإصطخري، وابن حوقل وابن خرداذبة والهمداني والبلاذري والبكري وابن عَذَاري، وابن سعد وابن سعيد ومِسكوَيه وابن جُبير، وابن هشام والبيضاوي، وعشرات من أضرابهم، وكلها كتب مختارة بذلوا الوسع في معارضتها على نسخ متعددة ووشحوها باختلاف الروايات وحلِّ عويص مشكلاتها، وزينوها بالفهارس، وقربوا منال الانتفاع بها على المطالعين، عملوا كل ذلك بأمانة وتدقيق وتحقيق، والغاية من طبعها وإحيائها خدمة العلم.

طلع القرن الرابع عشر من الهجرة وأَهَمُّ مواطن طبع الكتب العربية في الشرق القاهرةُ وبيروت ودمشق وتونس والأستانة وحيدر آباد الدكن وطهران وفاس، وقَلَّ من الكتب ما تولى تصحيحه العارفون، ومنها ما نَشَرَتْه الحكومة المصرية وبعض الجمعيات العلمية والدينية. وكان المؤلفون في بلاء من أكثر الوراقين يتحكمون فيهم، ويستثمرون

جهودهم، وإذا أرادوهم على عمل فهارس للكتب تسهِّل على المطالعين تجهموا لهم، وإذا اقترحوا عليهم أن يختاروا الجيد من أصناف الورق والحروف هزءوا بهم.

وهذا ما دعا إلى تأليف عدة جمعيات من الغُيُر على العلم، فلم يوفقوا في عملهم لما كان ينقصهم من المشاكلة في الثقافة، والتجرد عن التعصب في اختيار ما يطبعون، ومن هذه الجمعيات ما طبع بضعة كتب وانهزم من الميدان، ومنها ما قصد طبع كتاب بعينه فلما أتمه لم يحاول طبع غيره. وقد انحلَّت هذه الجمعيات؛ لأنها لم تَسِرْ على نظام ثابت يضمن لها البقاء.

وأنشأ بعضُ النابهين من المتعلمين على الأسلوب الحديث لجنة في القاهرة في سنة ١٩١٢ سموها «لجنة التأليف والترجمة والنشر» وما زالت تزيد رقيًّا سنة عن أخرى، تطبع الكتب الجديدة والقديمة، وتُعنى بألا تخرج مطبوعاتها قبل عرضها على جماعة من الاختصاصيين من أعضاء هذه اللجنة أو من غيرهم، وقد طبعوا إلى الآن أكثر من مائتي كتاب في الطبيعة والرياضة، والفلسفة والتاريخ، والأدب والاجتماع، وغيرها، ومن كتبهم ما نقلوه عن اللغات الأجنبية ومنها ما أَلَّفَه الأعضاء أو غيرهم.

يتنافس الناس اليوم في اقتناء المطبوعات الجيدة، وكان المأمول أن يُكتب لها الرواجُ أكثر مما قُدِّرَ لكتب المجون، ومن هذه ما يُطبع عشرات الألوف، كالقصص والروايات، ومنها ما لا يشبع الجمهور منه لأول نشره بأقل من عشرة آلاف نسخة، وما يُقال في الكتب يُقال في المجلات — والمجلاتُ أيضًا كُتُبٌ دورية — فإن أرقى المجلات العلمية الأدبية باللغة العربية تطبع بضعة أُلوف، ومجلات العامة تطبع العشرين والثلاثين ألفًا، ومنها ما يطبع سبعين ألفًا، وما يروق الخاصة لا يروق العامة. وكان لارتقاء فن الطباعة في الغرب دخلٌ كبير في رُقِيِّ المجلات العربية، وما صارت إليه من التفنُّن في الطبع والتصوير. والكتب تُخلد وتورَّث وتتناقلها الأيدي، والمجلات والصحف ما خرجت عن كونها ابنة يومها.

تقسم الكتب في مصر إلى قسمين صفراء وبيضاء، فالكتب الصفراء هي ما طبع على ورق أصفر من الجنس الرديء، وهذه يسمونها الكتب الأزهرية، والبيضاء هي التي تطبع على ورق أبيض، وهي كتب الجمهور على أنواعها وكتب المدارس النظامية. والكتب الصفراء رديئة الطبع رديئة الوضع، تُشَوِّش القارئ وتُبَغِّض إليه المطالعة، بما تحمل من هوامش وهنات ينبو عنها النظر، والعكس في الكتب البيضاء المشرقة، فإنه تستجاد لها الحروف

والورق، وهي خالية من الهوامش إلا ما كان منها داخلًا في الموضوع، وقد تُبذل العناية بتصحيحها أكثر من الكتب الصفراء.

دَبَّ الكسادُ في الكتب الصفراء قليلًا، وكُتب الرواج مع الزمن للكتب البيضاء، وما برح مع هذا بعض الطابعين بمصر يجوِّزون لأنفسهم الطبع الأصفر كما يطبعون كتب التضليل والتدجيل، يصدرونها إلى بلاد الزنوج والمالايو، يطبعون منها مقادير برسم التصدير إلى الخارج غالبًا، وتباع على أنها كتب دين، والدين لا يعرفها.

لا جرم أن من يبيع من الجهلاء كتبًا تزيدهم جهلًا كمن يحمل المخدِّرات إلى السذَّج ويُزيِّن لهم استعمالها، أو كساقٍ يسقي السم الزُّعاف لمن يُطلب إليه أن يسقيه ماءً قراحًا، وليست كتبُ الجهالات في تخريب العقول بأقلَّ من تخريب المخدرات والمسكرات في الأجسام. الحكومات تخاف من كتب فيها ما لا ترضاه سياساتها، ولا ترى واجبًا عليها أيضًا أن تحظر على الطابعين طبع المُضرِّ من الكتب، لئلا يحملو إلى القراء كتبًا غير محررة.

ربما يقول بعضهم إن هذا مما يفتح للحكومة باب التدخل في حرية النشر، وسلب حق الرعية في الحرية. ونحن نرى الخير أن يُرجع في النشر إلى قاعدة من أن تطغى هذه الفوضى على ما يطبع.

إن ما يطبع في مصر من الجيد تروِّجه شهرتها في الأقطار، وتزيد الكتب رواجًا بين مختلف الطبقات بقدر ما يتقن الطابعون طبع ما يطبعون من الكتب، ويبذلون العناية بالتصحيح والتهذيب. وقد رأينا بأَخَرَة بعض الطابعين تنصرف هممهم إلى الخروج عن الطريق القديمة بعض الشيء، يقلِّدون الطابعين في ديار الغرب بعنايتهم وإتقانهم، ويجعلون فهارس للكتب، ويَتَوَقَّون الأغلاط المطبعية في الجملة، فزادت بذلك كتبهم حرمةً وقبولًا.

جمال الكتاب وطبعه مما يزيد الرغبة فيه ويزينه في الأعين، وفي العادة أن كل بضاعة تبرز في قالب مقبول، صنعًا ووضعًا، تحتل من النفوس أحسن موقع، فما الحال بالكتب التي هي أكثر البضائع اعتبارًا وخلودًا. الكتب العربية تحتاج إلى أن تأخذ حظًّا من الإتقان اللازم، وتُهيأُ لها من طرق الدعاية والنشر مثلُ ما يهيئه الطابعون والوراقون في البلاد المتمدنة لنشر مطبوعاتهم.

في يوم واحد ينشر الورَّاق الإنكليزي الكتاب الجديد في كل بلد تُقرأ فيه اللغة الإنكليزية من أصقاع الغرب والشرق، وفي يوم واحد تكتب الصحف والمجلات نقد الكتاب وتقريظه وتلفت الأنظار إليه، وفي يوم واحد يَقرأ هذا الكتاب ابن بريطانيا العظمى وابن اليابان، وابن كندا وابن أستراليا، وابن زيلاندة الجديدة وابن الولايات المتحدة، وابن الهند ونزيل جنوبي إفريقية ومصر والسودان. والوراق الإنكليزي لا يضن لترويج كتبه بين القراء بكل ما في وسعه، ينشرها بكل حيلة، وكذلك سائر الوراقين من جميع الأُمم المدنة، فعلينا أن ندرس طرائقهم، وعلى الوراقين عندنا ألا يضنوا بخمسة أو عشرة في المائة، يضمونها على نفقات الطبع للإعلان عن مطبوعاتهم، فيخدمون بذلك أنفسهم ويخدمون المؤلف ويخدمون المدنية والمعارف.

وربما طبع الكتاب الجيد عندنا وما عَرَفَ به من يهمهم اقتناءُه إلا عرضًا وبعد سنين، فهل يحق، بعد هذا، لوراق أن يشكو من قلة الرواج؟ وهو لو بذل القليل لربح الكثير. ولو صرفت العناية بالإعلان عن الكتب وترغيب الناس فيها وعرضها في المدن والقرى وتحبيب اقتنائها لزاد عدد المطبوع والمبيع. بِيَدِ الطابع وبيد المؤلف نشرُ حضارة أمة، فليتدبر الوراقون أمرهم.

نحن في أشد الحاجة إلى التجدد في مطبوعاتنا، وأن نجدد في مظاهر الطبع من حروف وأشكال وصور، وقطع ووضع وورق وتجليد، ونجدد في المبالغة بتصحيح الكتب والتعليق القليل بما يبين غامضها، فليس كل الناس يفهمون ما يقرءون، فعلينا أن نسهل عليهم فهمها، كأن نشكل دائمًا محالَّ الإشكال من الألفاظ ولا نترك غامضًا ولا مبهمًا، حتى لا نغش المطالع ونستميله إلى الإكثار من المطالعة. وإذا صُنًّا كتبنا عن تلقين المبتدئين أغلاطًا تتأصل في عقولهم فتؤذيها نصون الدين والآداب والمدنية.

نحتاج إلى التجديد في طرق النشر، ولا يتم ذلك إلا بإنشاء نقابة أو نقابات تفكر في أقرب السبل إلى الإتقان، وتُصدر مجلة توزعها على دور العلم ورجاله وطلابه، تفيض في الكلام على ما صدر ويصدر من الكتب، وعلى ما في القديم منها من الحسنات، وغيرها فتكون خير مرشد لمن أراد أن يقتني الأطايبَ من الأسفار، ولا يُنفق فيها أكثر مما تُمَكِّنُه حالته من إنفاقه، ويُعان على أن يكون له منها مع الزمن خزانة خاصة يستفيد منها هو وأولاده وأحفاده.

العصر عصر الشركات، وقد رأينا الطابعين أو الورَّاقين الذين ضعفت رُءُوس أموالهم لا يأتون شيئًا يعتدُّ به في هذه التجارة، ورأينا المطابع الكبرى أو الشركات المولة

المنظمة في عملها تربح كثيرًا وتفيد أكثر من غيرها. فإذا اجتمع الوراقون في مصر، مثلًا، وألفوا شركةً أو شركات تَخِفُّ شكوى المتجرين بالكتب من قلة الرواج، وشكوى المؤلفين والمترجمين والمصححين، وشكوى القراء من سخافة المطبوع والمنشور، وشكوى الكتب من الكساد، وتدخل في طور إتقان وعناية على النحو الذي نراها عليه عند أصغر أُمم الحضارة لعهدنا.

يتوهم بعض الوراقين عندنا أن الاشتطاط في الربح يوصل إلى الغرض من هذه التجارة، ونسوا أن الربح القليل من شيء كثير أَعْوَدُ عليهم من ربح كثير من شيء قليل، ولو أدركوا ذلك ما توقفوا عن تغيير أساليبهم في الطبع والنشر وتقدير الربح، ولَأَيْقَنُوا أن من مصلحتهم المهاودة في الأسعار والعناية بتجويد بضاعتهم. ولَكتاب يطبعه طابعه ويبيعه في مدة قصيرة بربح قليل أَنْفَعُ له من كتاب يبيعه في المدد الطويلة ليربح منه ما يقدره لنفسه من الأرباح، وهذا من أيسر قواعد التجارة التي يعرفها الأطفال في الغرب، فعلى الرجال أن يتعلموها عندنا.

من جملة طرق الرواج في الكتب جودةُ طبعها وحسن خدمتها، ونقصد بخدمتها المبالغة بتصحيح أصولها وتجاربها، وحل المشكلات من متونها وشروحها، فقد كان الطابعون فيما مضى يتوهمون أن كل مخطوط صحيح صالح للطبع لا يحتاج إلى أكثر من أن يدفع إلى المنضد لتنضيد حروفه وترتيب صفحاته، ويجعل على الآلة الطابعة تخرجه ملازم ملازم. والكتب التي تطبع لأول مرة والتي يتكرر طبعها تُدفع إلى رجل أزهري إذا كان على شيء من العلم، فيكون من الطبقة التي تعرف الإعراب فقط، وليس النحو والصرف كل شيء في عالم العلم.

رأينا كتبًا طبعها أعاجم من علماء الغربيين فخرجت صحيحة سالمة من الشوائب على ضعف ناشريها أحيانًا في القواعد، ورأينا أسفارًا طبعت في أَتْقَنِ المطابع بعناية أقدر المصححين تفيض بالأغلاط، مثال ذلك تاريخ ابن خلدون المطبوع في المطبعة الأميرية، لو تصفحته لتعوذت بالله مما فيه من تحريف الأعلام، وسقطاته كثيرة، قد تكون كلمة أو أَسْطُرًا أو صفحات، ولا تخلو صفحةٌ منه من بضع غلطات شائنة تحرف النص وتُحيل المعنى. وإلى اليوم تقع لأعظم المطابع خطرًا أغلاطٌ من هذا القبيل.

تصحيح الكتب المطبوعة مسألةُ المسائل في فن الكتب، وكم من كتاب قديم طبع على نسخة واحدة وزاده جهل الطابع والمصحح أغلاطًا إلى أغلاطه؛ ذلك لأنه قلَّ أنه

يُعنى أرباب المطابع باختيار مصححيهم، يختارون أكثرهم من الصنف الذي يصحح الملزمة ببضعة قروش، ولو أعطى الطابع المئات لمصحح يكون على شيء من العلم لما كان مغبونًا، ولَهان على من يتناولون الكتاب أن يقتنوا ما أُتقن طبعه وعُني بتصحيحه بإضافة مبلغ زهيد على كل كتاب.

كان تحريف جَهَلَة الناسخين للكتب وتحريفها بصُنْع جهلة الطابعين مما أضاع على طلاب العلم أوقاتهم ليتوفروا على إصلاح ما كان واجبًا على غيرهم أن يصححه. أَيُّ كتاب لأَجدادنا طبعته مطبعةٌ من مطابعنا، التي نعدها راقية، قبل هذا العهد الجديد ولم تُحص عليه الأَغلاط الكثيرة، حتى الأمهات من كتب الشرع واللسان؟

ولو كانت حكوماتنا تفكر لَمَا سمحت لرجل أن يطبع كتابًا وينشره إلا إذا كان حاملًا شهادة من المدارس الوسطى على الأقل، فضرر الكتبي الجاهل لا يقل عن الضرر الذي يأتي على يد الصيدلي الجاهل.

حبذا يومٌ نرى فيه كلَّ مطبعة كبيرة تعهد إلى لجنة من الخبراء والعلماء النظرَ في كل ما تَطبع، وتراقب الكتاب من وَضْعه وتأليفه إلى صَفِّ حروفه، إلى وضع صفحاته إلى تصحيح ملازمه، إلى طبعها إلى طَيِّهَا إلى جمعها وضمها كتابًا برأسه.

وطبع الكتب يحتاج إلى مراقبة شديدة، أهونُها ألا يُطبع شيء قبل أن تَنظر فيه جماعة تقر نفعه؛ فإن المكررات من الكتب التي لدينا من نوعها الأمهات المعتبرة، وكتب التخريف والتافهات، وكتب المجون والغراميات وغير ذلك، لا ينجينا من آفاتها إلا المراقبة الشديدة.

لو عرض طابِعَا كتاب «حلية الأولياء» للحافظ أبي نعيم الأصفهاني المتوفى سنة ٤٣٠ على عالم بالكتب والمؤلفين قبل أن يَتَكَلَّفَا طبع كتاب عظيم مثل هذا يقع في عشرة مجلدات وتبلغ صفحاته أربعة آلاف صفحة؛ لَقالَ لهما إن هذا الأصل الذي طبعتما عنه وقع في الغالب إلى يد أحد الجهلة، فأضاف إلى كل ترجمة من عنده سخافات ما أنزل الله بها من سلطان، وما كانت من كلام المؤلف، وكتابه قد شهد له الثقات بالجودة، وهاكم مثالًا من مئات الأمثلة من هذه الزيادات التي شوَّهت الأصل، وجعلت الكتاب، على ما فيه من الفوائد، جَعْبَةَ رقاعات. من ذلك: «وهم (أي: المتصوفة) المصونون عن مرامقة حقارة الدنيا بعين الاغترار، المبصرون صنع محبوبهم بالفكر والاعتبار.» «بدأْنا بذكر من اشتهر من الصحابة بحال من الأحوال، وحفظ عنه حميد الأفعال،

وعصم من الفتور والإكسال، وفضل الله له العهود والحبال، ولم يقطعه سآمة ولا ملال.» «وقد قيل إن التصوف السكون إلى اللهيب في الحنين إلى الحبيب.» «إن التصوف استنفاذ الطوق، في معاناة الشوق، وتزجية الأمور، على تصفية الصدور.» «وما عُهد منه (سيدنا عمر) في ملازمته للتفريد، ومحاماته على معارضة التوحيد، وأن لا ينهنهه عن مصاولتهم العدة والعديد». وكان (عمر) عن فناء الملاذ منتهيًا، ولباقي المعاد منتفيًا، يلازم المشقات ويفارق الشهوات، وقد قيل إن التصوف حمل النفس على الشدائد الذي هو أشرف الموارد.» «التصوف مرامقة المودود ومصارمة المحدود.» «التصوف إسلام الغيوب إلى مقلب القلوب.» «التصوف الارتقاء في الأسباب إلى المقدرات من الأبواب.» «التصوف البروز من الحجاب إلى رفع الحجاب.» «التصوف النزوح بالأحوال والتخفف من الأثقال.» «التصوف الوفاء والثبات والتسامح بالمال والجدات.» «ورغب عن التتريف والتسويف، وغلب عليه الحنين والتخويف، وقد قيل إن التصوف طلب التأنيس في رياض التقديس.» «التصوف المفرق البينونة إلى مقر الكينونة.» «التصوف إقامة الدنف المعذب على حفاظ الكلف.» «التصوف الوطء على جمر الغضا إلى منازل الأنس والرضا.» «التصوف استنشاق النسيم والاشتياق إلى التسنيم.» «التصوف مشاهدة المشهود ومراعاة العهود ومحاماة الصدود.» «تصحيح المعاملة لتصحيح المنازلة.» «التصوف تسوُّر السور إلى التحلل بالخور!» «التصوف قطع العلائق، والأخذ بالوثائق.» «التصوف التألُّه والتدله من غلبات التولُّه.»

وفي الكتاب من هذه السخافات مئات، دَسَّهَا الداسون في سفر حاول مؤلفه أن يترجم لنُسَّاك الأمة فاختلط سمينه بغَثِّ ذاك العابث. وهو كلام لا يصدر من قلم مؤلف عربي مشهور، وربما تساءل القارئ: وكيف لم يهتد الطابعان إلى ما شَانَ الكتاب؟ فالجواب: هذا من عمل العلماء لا من عمل الطابعين، ولو وقع الأصل لِعَارفٍ ما تَلَكَّأَ لحظة عن القول بما قلناه في هذه النقول، وأنت لو فتحت أَيَّ ترجمة لَمَا رأيتها، على الأغلب، تخلو في مقدمتها من مثل هذا الهذيان. وبالله بعد أن عرفت درجة الحافظ أبي نعيم في العلم هل تُجَوِّزُ عليه أن يقول: ومنهم الذاكر الفكري، خليد بن عبد الله العصري، كان لمحبوبه ذاكرًا، وإلى مشاهدته ساهرًا. وأن تقول إن هذا تصوف. ووالله لا يقول هذا إلا من اختل ذهنه. ولَعَمري ألا يستحق أن يجعل في مستشفى المجاذيب مَنْ يقول: «التصوف عويل حتى الرحيل وحويل إلا المقيل.» «التصوف التمتع بالحضور والتبتع للخطور» «التصوف الصفو للزيق والرتو للفيق؟»

وهناك كتاب آخرُ ارتُكبت في طبعه مثلُ هذه السخافات، عنيتُ به «البداية والنهاية» لابن كثير. فقد طبع منه ستة عشر مجلدًا بالقطع الكبير، ووقع، على ما يظهر، في أيدي مصحح لا يعرف التاريخ ولا يعرف الأدب، حتى لَيُخيَّل إلينا أن مصححه منضد حروف أو فرَّاش في المطبعة. هناك أسماء الأعلام محرفة تحريفًا مخجلًا، وإنك لتقرأ اسم العَلَم على صورة في صفحة من الصفحات، فإذا قطعت صفحتين أو ثلاثًا تقرؤه على شكل آخر وهُوَ هُوَ، وكذلك الأبيات الشعرية، أجارك الله من تحريفها فإنك إذا تَلَوْتَهَا تعاف الشعر وتنكر الأدب، فإن كثيرًا منها لا يُفهم، وبعضها لا وزن له. ألا يجدر بمثل هذا الكتاب الذي يكلف طبعه المئات من الجنيهات أن يُصرف على تصحيحه عشراتٌ من الدنانير، ويُعهد بتصحيحه إلى أناس يُحسنون فن الأدب وفن التاريخ، طَبْعُ هذا الكتاب على هذا النحو يُعَدُّ جناية على الأدب وتَجَنِّيًا على العلم والمعارف.

ولقد رأينا بعض النفوس تزهد في الكتب وتستغني، بعض الاستغناء، عن القراءة، ومن ارتقى عقله يستحيل عليك أن تضطره إلى قراءة مثل «حلية الأولياء» بهذه الزيادات عليه، والبداية والنهاية بهذا التصحيح السخيف.

القول في الجمع بين ثقافتين

لَمَّا خرج العرب في الإسلام من جزيرتهم، ورأوا بلادًا غير بلادهم، وشعوبًا غير شعوبهم، ومطالب محدثة لا عهد لهم بها، وقيودًا لا مناص من مراعاتها؛ أدركوا أنهم مقصرون في مضمار الحضارة، وأن عيش البداوة لا تقوم به دولة. فانهالوا يتلقفون كل ما لا يعرفون من أنواع العلوم والصناعات، ويقلِّدون الدول السالفة فيما خَلَتْ منه أرضهم.

وما انقضى القرن الأول من الهجرة حتى قام بنيان المدنية العربية الجديدة، واتجهت وجهة بعض الأذكياء إلى التناغي بعلوم القدماء؛ فكان من العلماء من يدرسون منذ عهد بني أُمية، في جملة ما يدرسون، الحسابَ والنجوم والكيمياء وحكمة القدماء، وغيرها. ويعدون من النقص ألا يلم العالم والكاتب بشيء من هذه العلوم تضاف إلى الحديث والفقه والأدب.

واشتدت حاجة المتكلمين — أي: علماء التوحيد أو رجال الدين في القرن الثاني — إلى إتقان علوم الأوائل والتعرُّف إلى ما أصاب الأديان الأخرى من أساليب الجدل ليقاتلوا أعداء الإسلام بالسلاح الذي كانوا يقاتلونهم به. وكان المعتزلة من أول من انتبه من أحبار الأمة إلى الاستعانة بعلوم القدماء للدفاع عن العقيدة فبَرَّزوا أكثر ممن قَصَروا علمهم على علوم النقل فقط.

شعرت العرب بعد أن استتب أمر دولة بني أُمية في الشام، ونظمت شئون المملكة الإسلامية وامتدت الفتوح في الشرق والغرب؛ بمسيس الحاجة إلى النقل عن القدماء، فبدأ النقل على يد خالد بن يزيد وعمر بن عبد العزيز. ولما جاء المنصور والرشيد والمأمون انبعثت الهمم انبعاثًا جديدًا، لترجمة كل ما خلت منه اللغة العربية من المعارف، وكان النقل من اليونانية والسريانية والفارسية والهندية، وما قصرت دولة الأندلس وإمارة

صقلية في سلوك هذا المضمار: نَقَلَتا منذ القرن الثالث كتبًا كثيرة في العلوم، وأضافتا إلى تراث العباسيين ثروة جديدة من المعارف.

وبهذه العلوم الطارئة على الملة تطورت ذهنية العرب، واتسع أُفق نظرهم، فقام الأساس الذي بنوا عليه مدنيتهم بعلوم جديدة ما كانت مما يعرفون، وتمثلوا ما اقتبسوا عمن سبقهم من أصحاب المدنيات، ولا سيما فارس والروم والهند، وزادوا فيما نقلوا، وصححوا ما اقتبسوا، وتوسعوا ما ساعدهم الزمن في معرفة أسرار الكائنات، وكشف غوامض ما كان لأَجدادهم معرفةٌ بها، يوم كانوا على عُزلتهم في جزيرتهم.

ومن يقرأ سِيَرَ رجال الإسلام، في قرون ازدهار العلم يُلاحظ أن من أَثروا أثرًا نافعًا في العرب، كانوا من الذين عُرفت لهم مشاركة حسنة في هذه العلوم التي نسميها اليوم بالعصرية، وما هي إلا علوم القدماء؛ لأنها نتيجة عصور طويلة، انتقلت من أُمة إلى أُمة، ومن قطر إلى قطر حتى وصلت إلى العرب، وكانوا آخر من ورثها قبل العصور الوسطى. ثم أخذت أكثر أُمم الغرب عن العرب فكانت هذه المدنية الحديثة الغربية.

ومن تدبر فقط كتاب طبقات الحكماء للقِفْطي، وطبقات الأطباء لابن أبي أُصيبعة، وطبقات الأُمم لصاعد، والفهرس لابن النديم، وتاريخ حكماء الإسلام للبيهقي؛ يقف على عناية الخلفاء والملوك والأمراء من العرب بهذه العلوم، ويدرك أن عطفهم على من عاناها معاناة كبيرة من أبناء ذمتهم، من النساطرة واليعاقبة والصابئة والمجوس واليهود، لا يقل عن عطفهم على علماء الدين واللغة والأدب، وكم من وزير أو كبير كان ينفق على استخراج علوم الحكمة ونقلها إلى العربية، ما لا يقلُّ مقدارُهُ اليوم عن موازنة المعارف في إحدى الدول الصغرى، هذا ما كان يُعطيه أفرادٌ من أموالهم الخاصة أمثال بني موسى بن شاكر ومحمد بن عبد الملك الزيات، فما قولك بما يعطيه المنصور والرشيد والمأمون في المشرق، وعبد الرحمن الثالث والحكم الأموي في المغرب؟ لا جرم أن مجموعه يوازي ما تنفقه دولة من دول الحضارة لعهدنا على معاهد العلم والصناعات.

وإذا شئتم أن تمثِّلوا لأذهانكم ما كان يبذله العرب أيام عزهم على العلم والعلماء، ألقوا نظرة على دولة من الدول الراقية اليوم، وعلى ما تُعنى به من بث المعارف في أُمتها؛ تستخرجوا صورة من صور العناية بالعلوم في الدولة الإسلامية السالفة. وأَيقنوا مع هذا أن العواصم القديمة كدمشق وبغداد والبصرة، والري وأصفهان ونيسابور، وغزنة وسمرقند والفُسطاط، وإفريقية وصِقِلِّيَّة وقرطبة؛ ما كانت أقل عناية في هذا الشأن من باريز وأكسفورد وكمبريدج، وليبسيك وبولون ورومية، وصلمنقة وقَلَمُرية من مدن العلم

في العهد الحديث. وما كان مقام الكندي وحنين بن إسحق وأولاد بُختيشوع وابن سينا والفارابي والرازي وابن رشد دون منزلة أئمة الدين ورجال السنة والفقه والأَدب.

ولفَرْط غرام العرب بالعلوم كان علماؤهم يَقرءونها في حلق المساجد والجوامع منذ القرن الثاني إلى القرن الخامس، ثم أُنشئت المدارس في المشرق والمغرب، فكانت علومُ الأوائل تدرس مع علوم الدين واللغة في كثير من تلك المعاهد، وكانت دُور الحكمة في بغداد والقاهرة وإفريقية وغيرها أَشْبَهَ بجامعاتٍ تُلقى فيها محاضرات في ضروب المعارف البشرية وتضم كتب العلم والأدب. وعند القوم أن كل علم نافعٌ، ومن احتقر شيئًا من فنونه استضعفوا عقله وبهرجوا علمه.

كان تعلُّم اللغات غير العربية خاصًّا بفئة من الباحثين والحكماء، والأطباء والمهندسين، والمنجمين والسياسيين، وذلك في العصور التي كان اللسان العربي لسانَ العلم والسياسة في العالم. فلما زاد اختلاط الشعوب الإسلامية بالأُمم المجاورة لها كثر العارفون من العرب بلغات أخرى، ولا سيما في فارس في الشرق والأندلس في الغرب. ومن علماء المسلمين من أَلَّفوا معاجم لغوية في هذه اللغات الغريبة مترجمة إلى العربية، ومن علماء الأندلس أيضًا من كانوا يقرءون العلوم بلسان الطلاب النصارى الذين يحضرون دروسهم، ليأْخذوا عنهم ما يجهلون من أصناف العلم. ومن علماء الإسلام من كانوا يدرِّسون التوراة والإنجيل لأبناء ذمتهم ويفسرونها لهم، ومنهم من كانوا يحفظون مع القرآنِ التوراةَ والإنجيل والزبور؛ إتمامًا لثقافتهم الدينية، وللمقابلة بين الأديان السماوية. ومنهم من كان يبحث في الأديان والنِّحَل بحثًا علميًّا مجردًا عن كل عاطفة مذهبية وقومية كالبيروني، أعظَم رياضي في الإسلام.

وما برحت العرب تحسُّ الحاجة إلى الأخذ عن غيرها، حتى قام كثيرٌ من أبناء الأُمة يتقنون لغات الشرق، ولا سيما الفارسية والتركية والهندية، أو لغات الغرب الإفرنجية وما تفرع عنها من اللغات كالفرنسية والإيطالية، والإسبانية والبرتقالية.

ومما ساعد دولة البرتقال في مطلع العصور الحديثة على تلقُّف العلوم التي أصبحت بفضلها أول دولة بحرية في العالم، وفتحت طريق الهند، واستأثرت بالتجارة العالمية زمنًا طويلًا؛ كَوْنُ من هاجروا إليها من علماء الأندلس، ومن كان في أرضها من العرب الذين لم ينزحوا عند استرجاع البرتقاليين لها يحسنون لغة تلك الديار ويتفاهمون ومن أرادوا تعليمهم من أبنائها بلغتهم لا باللغة العربية فقط، على نحو ما كانت جامعات الغرب أيام تدريسها قانون ابن سينا وتصانيف الرازي وابن زهر وغيرهم باللاتينية أولًا

ثم تشرح باللغة المحلية. وكان الأستاذ عندهم يعرف العربية ليُحسن شَرْحَ العلم الذي يدرسه.

والحاصل أن العلم الذي كان منذ عرف التاريخ مشاعًا بين الأُمم، كان الراغبون فيه لا يستنكفون عن الأخذ عن غيرهم، ولا يَحُولُ بينهم وبين رغائبهم دِينٌ ولا جنس ولا لسان. ويعرف المدركون من الخاصة أن ثقافتهم لا تنفع النفع المطلوب إن لم يَمُدُّوا أبصارهم إلى أقصى حدود النظر، ويعرفوا ما عند غيرهم كما يعرفون ما عندهم. كانت في ذلك نشأتهم ولذتهم وعزتهم، وبقيت نغمة أخذ المتأَخِّر عن المتقدم تُردَّد في جميع الأعصار.

نعم، ما كان العلماء يهملون درس علوم الحكمة ولا سيما الفلك والرياضيات، وكثير منهم كان يحسن الطب والكيمياء والحيوان والنبات، كالجاحظ؛ فإنه جمع في صدره علوم الأولين والآخرين، أو علوم الدين وما عرف لعهده من علوم الدنيا. وهذا من نوادر الرجال بل يكاد يكون منقطع النظير في معناه. وكذلك كان أبو حيان التوحيدي الذي نسج في عصره على منوال الجاحظ، كان يعرف معظم العلوم وبرَّز في الفلسفة كما برز في علم الكلام والفقه والأدب والتاريخ.

وما خلا عصر من جماعة جمعوا بين الفضيلتين فضيلة القديم وفضيلة الحديث، وندر بين من اشتهروا من لا يحسن الرياضيات والنجوم والأزياج، وعمل الاصطرلاب والتاريخ والأنساب. وما استطاع الغزالي أن يجادل مِثْلَ ابن رشد إلا لأنه كان متمكنًا من الفلسفة وعلوم الطبيعة والرياضة. وابن حزم الأندلسي ما أَلقم خصومه حجرًا إلا لأنه كان إمامًا في الحكمة والتاريخ وعلوم القدماء، يحسنها كما يحسن علوم الشريعة. وكذلك قُلْ في ابن تيمية وجَمْعِه بين ثقافة الإسلام وثقافة القدماء، يتجلى ذلك من رده على الفلاسفة. وعمر الخيام ما كانت شهرته في الشرق بشعره فقط؛ بل بما كان يُحسن من علوم الدين والأدب وحكمة القدماء والبحث في العلم بَحْثَ عالم مجرد عن الهوى. واشتهر ابن سينا بإبداعه في فلسفته، ولكنه كان عالمًا دينيًّا وأَديبًا لغويًّا قبل أن يخوض عباب أبحاثه العجيبة، فهو من أجمل الأمثلة في الجمع بين ثقافة العرب وثقافة القدماء. وكان ابن حيَّان البُسْتي رياضيًّا وطبيبًا وفيلسوفًا قبل أن يمتاز في علوم الدين حين لُزَّ في قَرَن واحد مع كبار الأئمة. وكذلك أبو زيد البَلْخي وأبو حنيفة الدِّينَوَري والفخر الرازي وكمال الدين بن يونس، وغيرهم كثيرون.

وما كان الرجل يُعَدُّ عالمًا حقًّا إلا إذا أَلَمَّ إلمامًا كافيًا بالعلوم التي نسميها العلوم الإنسيكلوبيذية، أي: المعارف البشرية العامة، ثم يختص بما يغلب عليه من فروع علوم

الشريعة أو غيرها. والقاعدة عندهم أنه لا تخصيص قبل التعميم. فكما أنه لا يكون المحدِّث محدثًا، حقيقة، إلا إذا أَتْقَنَ علوم اللغة والتاريخ والأنساب كذلك قَلَّما كان يُنتفع بعلم العالم الديني حق النفع إلا إذا ذاق شيئًا من العلوم التي تقوِّي ملكة العقل وتطرد منه الفضول والحشو.

نُسِيَتْ كل هذه الاعتبارات في عهود الجمود والانحطاط، وأصبح يعد شيئًا مذكورًا مَنْ يحسن تلاوة أحاديثَ نبويةً، يستظهرها ليُلْقِيَها على العامة، أو مسائل قليلة من الفقه ينقلها عن غيره بدون نظر. ولما نهض العرب نهضتهم الأخيرة كان من جمعوا إلى علوم الشرع شيئًا من العلوم المادية في مقدمة من حملوا عَلَم التمدن إلى أُمتهم وأخرجوها، بدروسهم وتآليفهم، من جهلها. ولا نمثل لذلك إلا بأشخاص اشتهروا أمثال الإمام محمد عبده فإنه لم يُرزق هذه الخطوة من أُمته إلا لأنه لم يقف عند حد ما قرأه في الأزهر من العلوم؛ ولو لم يلقِّنه شيخه السيد جمال الأفغاني علم الحكمة، ويفتح للعلوم قلبَه لكان مثل مئات غيره من شيوخ الأزهر لم يسمع بهم غيرُ طلبتهم في حياتهم، وما عملوا إلا أنهم كرروا ما لاكَهُ غيرُهم قرونًا.

وصقل الشيخ محمد عبده علمه بتعلُّمه لغة أجنبية في سن الكهولة، فأصبح ممن يسهل عليهم الاستقاء من المصادر العلمية الأصلية، وهكذا جرى شيخه السيد جمال الدين، فتعلَّم الفرنسية في الكهولة وأَتْقَنَها. وكذلك يقال في مصلح الشام الشيخ طاهر الجزائري، فإن تأثيره كان بما لقفه من علوم القدماء وثقفه من لغاتٍ شرقية وغربية مضافًا إلى إتقان علوم الإسلام وآداب العرب. ومثل ذلك يُقال في العلامة الشيخ محمد بن أبي شنب الجزائري، فقد أتقن علوم الدين والأدب وعدة لغات حية فنشر بها عِلْمَ الإسلام في أوربا، وكان برهانًا قاطعًا على أنه ليس في العلم ما يُرغب عنه. وما كان العالِمان الكبيران أحمد تيمور باشا وأحمد زكي باشا من أفذاذ الرجال في البحث العلمي لو لم يَجْمَعَا بين الثقافتين العربية والغربية.

وبعد، فإن من أفلحوا كثيرًا من العلماء، وكان فلاحهم بتأثيراتهم العظيمة في الأمة العربية في حياتهم وبعد موتهم؛ هم الذين جمعوا بين ثقافتهم، وأتقنوا مع العربية لغة أو لغتين، أي: مَنْ وَسَّعُوا دائرة النظر ولم يجمدوا. ولقد غيرت اللغات الأجنبية التي تلقفها أبناؤنا منذ فجر النهضة الحديثة وجه العلم في ديارنا، وكذلك تلك الثقافة الشاملة التي اشترك في الأخذ منها جميع من درسوا الدروس النظامية، ثم سَرَتْ إلى المعاهد الدينية. وبعد أن كنت تتقزز من خريج الأزهر أصبحتَ بعد مشاركته طلاب العلم المدني في

علومهم تشتهي أن تناقشه ويناقشك؛ لأنه تأَدَّب بأدب العصر وأَلَمَّ بعلومه ومعارفه. ومتى تثقَّف جميع طلبة العلوم الدينية على هذا النمط من التعليم تنتظم لهم دعوتهم الدينية انتظامًا باهرًا، ومتى أخذ طلبة العلوم المدنية بقسط من علوم الإسلام يعرفون أنه لا يستغني عِلْمٌ عن علم، ولا يليق بالإنسان أن يكون بعيدًا عما يُنير قلبه وعقله.

خاتمة

أطلنا الكلام فيما حاولنا الخوض فيه من مشاكلنا، وها نحن أُولاء نختم كتابنا بقولٍ في الرجال وفي حُسْنِ استعمالهم والانتفاع بمواهبهم. وفي الحكومات الصالحة يسود الصالحون من الرجال. والدولة سوق يُحمل إليها ما يروج فيها.

وبعد، فإن الناس مفطورون على تقليد كبرائهم، ومن اعتقدوا فيهم فضل التقدم عليهم، يتشبه مغلوبُهم بغالبهم وصغيرهم بكبيرهم، فإن كان الزمن مما يغلب فيه التقوى والصلاح كعهد الظاهر جتمق في مصر تكثر الجوامع والمساجد، ويظهر القوم بمظهر أهل التُّقى، وقدوتهم سلطانهم، وإذا كان الدور دور لهو ولعب كعهد الظاهر الفاطمي راجت الملاهي وانتشر الإسراف، حتى لَيُمقت كل من دعا إلى الفضائل، ويُسخر منه ولا يُؤْبه له.

اشتهر في دولة المماليك الملك الناصر، كالوليد بن عبد الملك الأُموي، بحب التعمير فصار كل واحد في زمانه يحذو حذوه، ويتقرب إلى خاطره بهذا الشأن وصار للمصريين غرامٌ بالبناء، وكان مليكهم إذا سمع بأحد قد أنشأ عمارة بمكان شكره في الملأ، وأَمَدَّهُ في الباطن بالمال والآلات وغيرها، فعمرت مصر في أيامه وصارت أضعاف ما كانت.

نعم ما برح الصغير يقتدي بالكبير، وكلام العظيم قانونٌ، وفعله يُحتذى، وحديثه يُتناقل ويُتَأَوَّل ويستظهر، ولن يتم إصلاح في جماعة إلا على أيدٍ طاهرة يَعمل أربابها أحرارًا لا وازع لهم إلا ضمائرهم، وتُطلق لهم حريتهم في اختيار من يؤازرهم، يُصَرِّفون الأمور على ما تقتضيه المصلحةُ والعقل قبل التقيُّد بالقوانين، وتُراقَب أعمالُهم مراقبةً سرية وجهرية، ويُعلن للملأ إحسان المحسن وإساءة المسيء، ليعتبر من ينزع إلى إماتة الحق وإحياء الباطل. أما من ثبت إجرامهم فيعاقبون بحبس طويل، وإهانة علنية

متكررة، ثم تُحذف أسماؤهم من سجل الاستخدام كما يُطرد من الخدمة كلُّ من ثبت أنه فسيق يقامر ويتاجر. وصلاح العالم بالترهيب والترغيب.

من البلاء كثرةُ القوانين وقلة تنفيذها، وقانون لا ينفذ حسرة على من وُضع لهم. ومصلحة الأمة في أن لا يضيع الحق بين أظهُرها، تبتاعه بالثمن الذي تقدر على أدائه، تعطي من يخدمونها ما يعيشون به ويفضل عنهم، ولا تتطلب منهم إلا بذل الجهد في مرضاتها، وتجويد أعمالهم على ما تقضي به الذمة الطاهرة، أما إذا ضَنَّت عليهم بما يقيمهم كما هو الحال الآن في رجال الأمن مثلًا يتناولون أجرًا زهيدًا، ويستبيحون لأنفسهم مد الأيدي لتناول الحلاوين والرشوات، فإذا لم يصلوا إليها بالتهديد عادوا يَسْتَجْدُون أرباب المصالح بعرض بؤسهم عليهم، يستدرُّون رحمتهم ليرضخوا لهم بشيء من المال، فهذا نقص عظيم يجب تلافيه.

ومسألةٌ أُخرى وهي أن يجري انتخاب العمال من دون نظر إلى أحزابهم، ويُمنع كل موظف من العمل في الأحزاب والجمعيات السرية، لا يشتركون في ذلك اشتراكًا فعليًّا ولا اسميًّا. والجمع بين الوظيفة وعمل آخر لا يخلو من تناقض كالجمع بين السياسة والإدارة، أو الجمع بين الضب والنون، وقد ثبت ضرر اشتراك العمال في الجمعيات والأحزاب؛ لأن أهلها يتوخون إرضاء الإخوان والأنصار قبل كل شيء، وهم، على الأغلب، لا يتحرجون من مخالفة القوانين إذا كان فيها إرضاء من أنالوهم مغانم ليس لهم في إحرازها شيء من الكفاية وحموهم ممن يهيمنون عليهم، وقُصارى هذه الطبقة خدمةُ صاحب القوة لا يهمهم إغضابُ الحق بقدر ما يهتمون لإرضاء الباطل.

ربما ذهب بعضهم إلى أن تحقيق مثل هذا الإصلاح سهلٌ في القول صعبٌ في العمل، وهي مزاعمُ طالما رَدَّدَتْها ألسن المثبطين الكسالى، ولو سار المصلحون على مثل هذا السخف ما قام في الأرض إصلاحٌ ولا خَطَتْ المدنيةُ خطوة تذكر، ولقد رأينا الفرد برأسه يعمل كل عظيم إذا كان رائده العقل، وهِجِّيراه العمل، فكيف بالدول وهي لا تخطئها قوة إذا أرادت إنفاذ أَمر في رعيتها، ويكفي بضع سنين حتى يبدو صلاح ثمرة غُرست فَسِيلتُها بحذق ومهارة.

وُفِّقَتْ بعض الأقطار إلى إتمام الشيء الكثير من إصلاح الإدارة، وينقصها الآن أن تصلح عامة من يُديرون دفتها وتجتزئ بالقدر اللازم منهم وتوسع عليهم وتحميهم. ومن أهم ما تجب مراعاته ألا يغتر بشهادات طلاب التوظف، وينظر أولًا في سيرتهم وفي ماضي بيوتهم، فقد رأينا بعض من يحملون أعظم الشهادات أَسْوَأَ مَثَلٍ في قُبح السيرة، أخذوا الفساد عن أهلهم، وكان لهم من العلم أداة شر استخدموه في أهوائهم.

إذا عرفنا هذا فالأَوْلى أن يرجح في التوظف أبناء الفقراء على من نشئوا في بيوت معروفة بالفساد على أنواعه. وليس من شك بأن توظيف الصالحين يقلل في كل بلد من عدد المزورين والمحتالين، ومن دأبوا على التقرب من كل حكومة لتغضي عن سوء أحوالهم. ومتى قَلَّ المبطلون تستغني الحكوماتُ عن هذه الجيوش من العمال، وعن إنفاق هذه النفقات تجمعها بالقروش وتفرقها بالألوف على ترفيه طبقة خاصة.

هذا رأي في اختيار العمال وطريقة يُرجى منها أن تؤدي إلى إنشاء خير رُعاة يرعون أسعد رعية. أما الخلق فما زالوا يشكون زمانهم، يبالغون بالإعجاب بالغابر ويغلون في نقد الحاضر، وأهلُ كل عصر يقولون بصلاح الزمن السالف وفساد الزمن الخالف.

والدهر آخره شبه بأوله   ناس كناس وأيام كأيام

في القرن الرابع أرقى عصور الإسلام في العلم سامر الحكيم العظيم أبو حيان التوحيدي في مدينة السلام الوزير ابن العارض، وكان من علماء الوزراء، فأورد على مسامعه في أربعين ليلة ما أدهش السامعين من أمور الدنيا والدين، ومما ذكر له قول أحد العقلاء قبل عصره في وصف طبقات الناس وما آلوا إليه من انحلال الأخلاق: «والله لئن لم يعمنا الله برحمته إنها لَلْفضيحة.» فقال الوزير: «إن الأمر كما قال، فإذا كان هذا قوله في عصره وشجرةُ الدين على نضارةِ أغصانها وخضرة أوراقها، ويَنْع ثمارها، فما قوله تُرى فينا لو لحقنا وأدرك زماننا؟» ولما روى أبو حيان للوزير ما قاله أحد البلغاء في وصف أخلاق التجار وما هم عليه من الاحتيال والتلاعب قال الوزير: «إن كان هذا الواصف عَنَى العامة بهذا القول فقد دخل في وصفه الخاصة أيضًا، فوالله ما أسمع ولا أرى هذه الأخلاق إلا شائعة في أصناف الناس من الجُنْد والكتاب والتُّنَّاء والصالحين وأهل العلم، لقد حال الزمان إلى أمر لا يأتي عليه النعت ولا تستوعبه الأخبار، وما عجبي إلا من الزيادة على مر الساعات.»

وفي القرن السادس دهش ابن الجوزي لما اطَّلَعَ على سِيَرِ الخلق من الملوك والوزراء والعلماء والأدباء والفقهاء والمحدِّثين والزُّهَّاد وغيرهم، فرأى الدنيا قد تلاعبت بالأكثرين تلاعُبًا أَذْهَبَ أديانهم، قال وهذا لأن الدنيا فخ والناس كعصافير والعصفور يريد الحبة وينسى الخنق. وقد نسي أكثر الخلق مآلهم ميلًا إلى عاجل لَذَّاتهم، فأقبلوا يسامرون الهوى، ولا يلتفتون إلى مشاورة العقل.

نعم هكذا كان الناس، وهكذا هم اليوم، وسيكونون على ذلك غدًا، وليس غير السلطان العادل يروِّض قُلوبَهم على الحق، يُطَأْمن من جماحهم بالقانون النافذ الحكم على الكبير والصغير. وقد قال أناتول فرانس ما معناه: لا يتأتى أن يكون البشر على غير هذه الصورة من الغش والطمع والحسد والشر ما دام تركيبهم على ما نرى، ولا سبيل إلى إصلاحهم إلا إذا تعلقت إرادته تعالى فخلقهم خلقًا جديدًا على مثال آخر. وقال ابن المقفع: وقد علمنا، علمًا لا يخالطه شك، أن عَامَّةً قَطُّ لم تَصلح من قِبَلِ نفسها، ولم يأتها الصلاح إلا من قبل خاصتها، وأن خاصة قط لم تصلح من قبل نفسها، وأنها لم يأتها الصلاح إلا من قبل إمامها، وحاجةُ الخواص إلى الإمام الذي يُصلحهم الله به كحاجة العامة إلى خواصهم، وأعظم من ذلك.


هنداوي